إلياس يسينبيرلين

ثلاثية الرُّحل

الذمين



الجزء الأول
السيف المسحور

Ілияс Есенберлин

«Көшпенділер» трилогиясының араб тіліндегі басылымы

БІРІНШІ КІТАП
«Алмас қылыш»

Қазақ жазушысы Ілияс Есенберлиннің «Көшпенділер» трилогиясының араб тіліне аудармасы мен басылымы Қазақстан Республикасының Мысыр Араб Республикасындағы Төтенше және Өкілетті Елшісі Берік Арынның бастамасымен және Қазақстан Сыртқы істер министрлігінің көмегімен жүзеге асырылды.

تم ترجمة و إصدار ثلاثية الأديب الكازاخى الشهير « الرحل » بمبادرة من سعادة سفير جمهورية كازاخستان فى جمهورية مصر العربية «بيريك آرين » و بدعم من وزارة الخارجية بجمهورية كازاخستان .

رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير
دار النشر
د. حسين الشافعي

المراسلات
القاهرة - مدينة العبور
44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي
ص. ب. 72
Tel. & Fax: + (202) 24698170 & 8071
E-mail: secertary_ert@yahoo.com

ترجمة
د . محمد رياض

الإخراج الفني
مـى مجدى

التصحيح والمراجعة
نورا عبده
حامد أحمد محمد

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: (+2) 0100 6 44 00 11

الطبعة الأولى 2015

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب
إلكترونياً أو ضوئياً
دونما إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع
2015 /21356

ثلاثية الرحل

الجزء الأول

السيف المسحور

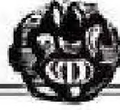
إلياس يسينبيرلين



مقدمه

ولد مؤلف ثلاثية الرحل والتى نقدم ترجمة جزئها الأول :السيف المسحور الكاتب الكازاخى الشهير إلياس يسينبيرلين عام 1915م فى مدينة أتباسار بمحافظة اكمولينسكايا، وتزامنت طفولته وصباه مع أحداث مؤسفة للغاية عانى منها الشعب بأكمله من صدمات اجتماعية ومجاعات و فقر مدقع ، و التى جرت فى العشرينات والثلاثينات من القرن الفائت ، و قد تضاعف شعور إلياس بهذه الأزمات بعد أن غدا يتيماً وهو فى الخامسة من عمره، فتم إيداعه فى دار للأطفال، وبعد أن أنهى مدرسته الأبتدائية سافرإلى كيزيل ـ أوردا وأكمل تعليمه بها. وفيما بعد التحق بوظيفة فى مدينة كارساكباى،وتقدم بطلب للالتحاق بالدورات الخاصة للإعداد لمعهد التعدين والمعادن فى آلماتا وصار طالباً فى معهد التعدين.

فى عام 1940 م أنهى إلياس دراسته فى معهد التعدين والمعادن الكازاخى وأرسل للعمل فى جيزكازغان ، الا أنه تم إستدعاؤه فى الجيش الأحمر فى الخريف من نفس العام وقد أكمل دراسته فى مدرسة ريجا العسكرية السياسية وخرج إلى الجبهة ، وفى عام 1942 م أصيب بجروح خطيرة فى ساقه وقضى عاماً فى المستشفى العسكرى، وفى عام 1943م عجز عن العمل وعاد إلى كازاخستان، وتم منحه ميداليتان – الأولى « للخدمات القتالية » والثانية « للدفاع عن لينين‌جراد»، عمل إلياس كمعلم فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى كازاخستان ، وفى نهاية الحرب تزوج إلياس من إبنة مفوض الشعب الحقوقى حمزة جوسوبيكوف الذى كان قد حكم بالاعدام رميا بالرصاص عام 1937م. قبض على إلياس عام 1949 م ، و حكم عليه بالسجن لمدة 10 سنوات، وأمضى نصف مدة عقوبته كمهندس تعدين وعندما فُك أسره عمل فى وزارة الجيولوجيا بكازاخستان ـ و بعد ذلك عمل كمدير إدارة فى مناجم بيرسوجير. قبل إلقاء القبض عليه كان إلياس قد كتب مجموعة من الأشعار من ضمنها قصيدة « عائشة » و«سلطان» عام 1945



ومجموعة «أغانى الشرف» عام 1949 وإنتقل فيما بعد لكتابة النثر، ومن ضمن أعماله « رواية عن الإنسان » عام 1957 ، « على ضفة النهر » عام 1960 . منذ عام 1958 م عمل كمحرر فى هيئة التحرير وكاتب سيناريو للاستديو السينمائى «كازاخفيلم» ، ومنذ عام 1962 م - محرراً بدار نشر كازاخستان الحكومية الأدبية ثم عمل كسكرتير إتحاد الكتاب بكازاخستان (1971 ـ 1975) ، ومنذ عام 1975م تفرغ للعمل الابداعى والذى كان ثمرته 15 رواية خلال 16 عام .

مسيرة الأبداع فى حياة يسينبرلين :

بدأ يسينبيرلين فى عام 1945 م نشر مجموعات من القصائد والأشعار ، وإختبر نفسه فى الدراما وكتب مسرحية « الصراع فى الجبال » ، وتم تقديم هذه المسرحية على مسرح الدولة للشباب . ولاقت إقبالاً مبهراً، وصارت منذ ذلك الحين مكوناً هاماً للموروث الثقافى الكازاخى .

كما كتب إلياس عدد من الروايات الاجتماعية الواقعية ومن ضمنها « المعركة » عام 1966 م - عن المهندسين الكازاخين (وحصل على جائزة الدولة بجمهورية كازاخستان السوفيتية الاشتراكية عن هذه الرواية عام 1968 م) ، « العبور المحفوف بالمخاطر» عام 1967م - عن إقامة السلطة السوفيتية فى كازاخستان ، و« العشاق » عام 1968 م.

إتجه الكاتب فيما بعد إلى المواضيع التاريخية مثل : الثلاثية الملحمية الرُحَل: «خان كينى » عام 1969م ، « السيف المسحور» عام 1971 م و « اليأس » عام 1973 م، وقد كونت هذه الروايات الثلاثية الشهيرة « الرُحَل» والتى تتضمن الأحداث فى البرية الكازاخية منذ القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر و تتناول تكوين الشعب الكازاخى والعلاقات المتبادلة المتشابكة مع جونغاريا والصين وخوارزم وبخارى والإمبراطورية الروسية.

إلى جانب ذلك ... كانت هناك روايات أخرى فيما بعد من بينها : " الدروع" عام 1947، " الجياد الذهبية تغفو" عام 1976 م ، " جبهة ما نجيستاو" و " الوصية " وصدر كلاهما عام " 1978" و "الجزر النائية" عام 1983 ، و "عيد الحب" و " غبطة الإوز الأبيض" وصدر كلاهما عام 1984 م . وكتاب يتكون من ثلاث روايات تحت مسمى " الزورق العابر للمحيط"، والتى يحكى فيها عن أخلاق المفكرين الكازاخين ولم يتم نشر هذا الكتاب لمدة طويلة إلا انه تم نشره ومجموعة أخرى من الأعمال بعد وفاة الكاتب .



منذ عام 1979 حتى عام 1983 م كتب الكاتب ثلاثية : " القبيلة الذهبية": والتى تتكون من روايات " رأس أيداخار السادس" ، " ست عقول لأيداخار" ، "أيداخار والتنين الكازاخى" و " هلاك أيداخار" والتى يحكى فيها عن أصول الشعب الكازاخى .

ترجمت أعمال الكاتب إلى لغات عديدة، وتم إصدار الملايين من النسخ منها (ما يزيد عن 8 ملايين نسخة)، وتعد الروايات التاريخية لإلياس من الأعمال العظيمة فى ثقافة كازاخستان .

ثلاثية « الرُحل »

لا يوجد فعلياً فى الآدب الكازاخى قبل إلياس يسينبيرلين من كتب عن تاريخ الشعب الكازاخى مثلما كتب هو، وقد وصفت ثنائية مختار أوازوف « طريق أباى » حياة المجتمع الكازاخى فى القرن التاسع عشر ، أما ثلاثية الرُحل فقد وصفت البرية العظمى قبل العصر المنغولى و عصر جنكيزخان و القبيلة الذهبية ،وسردت تاريخ تكوين الخانية الكازاخية فى القرن الخامس والسادس عشر ونضالها لعدة سنوات مع جونغاريا وعن فترة ضم البرارى الكازخية إلى روسيا.

يحكى لنا إلياس يسينبرلين فى ثلاثيته قصة الدولة الكازاخية وقبيلتها الذهبية فى سرد روائى أدبى فريد، وهو تاريخ نظام الدولة فى كازاخستان الذى يعود إلى نحو ثلاثة الآف سنة . أما الدولة بمفهومها الحديث فقد جُسدت بإنشاء أول مملكة كازاخية منذ 550 عام. كان السلطان كيرى والسلطان جانيبك أول حاكمين للكازاخ قاما برسم معالم الدولة الكازاخية فى منتصف القرن الخامس عشر ، وذلك بعد أن إنفصلا عن الخان أبو الخير الحاكم لأقوى دولة فى العصور الوسطى هى القبيلة الذهبية. كان الشعب الكازاخى دوماً جزءاً هاماً من هذه القبيلة الذهبية .

الشعب الكازاخى بطبعه شعب محب للحرية ، رسم له معالم هذه الحرية شخصيات بارزة على إمتداد تاريخه منها : خان خان حكنزار، وخان تاوكى وخان أبيلاى، وخان أبو الخير ، وغيرهم . وساهمت هذه الشخصيات فى بللورة معالم الدولة، وتكوين ثقافة وتقاليد الشعب الكازاخى . شهدت الخانية الكازاخية مداً وجزراً على مر العصور، وتفككت إلى خانات صغيرة نتيجة صراعات داخلية وهجمات عدوانية فظيعة لعل أكثرها دموية كانت ما تعرضت له فى ثلاثينات القرن الثامن عشر .

وهكذا... كانت نهاية الخانية الكازاخية كدولة مستقلة موحدة فى منتصف القرن الثامن عشر ، حيث بدأت علاقات إندماج لتاريخ كازاخستان مع الامبراطورية الروسية .



يذكر الكاتب – فى حوار له حول هذه الثلاثية ـ قائلاً « فكرت طويلاً فى ثلاثية الرُحَل » فى عام 1945 م، وفى عام 1960م إتجهت للعمل على ثلاث روايات هى ثلاثيتنا التى نحن بصددها. ويرجع السبب فى طول فترة الاعداد لهذه الثلاثية ببساطة إلى أن المادة التاريخية تتطلب المثابرة والدقة المتناهية من المؤلف.

فى عام 1969 م تم إصدار الرواية الأولى « قاهر » (« خان كينى » مترجمة إلى الروسية) عن الخان الكازاخى الأخير خان كينيسار ، وبعد عامين صدرت « الماس كيليش » و« السيف المسحور » ، وبعد عامين آخرين – الرواية الثالثة « سكرة الموت » ، « اليأس » . وقد كونت هذه الروايات الثلاث سوياً الثلاثية التاريخية الشهيرة « الرُحَل » التى تصدر طبعتها العربية – لأول مرة ـ بجهد دؤوب عمل الدكتور محمد رياض على إنجاز الجزء الأول من هذه الملحمة بترجمته للغة العربية ، وراجعتها ودققتها الأستاذه نورا عبده فلهما الشكر الجزيل والتقدير العميق لجهديهما.

تقدمت الثلاثية لنيل جائزة الدولة باتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية عام 1980 م ، إلا أن مجموعة من إتحاد كتاب كازاخستان قاموا بكتابة خطاب تنبيه عن الكاتب للجنة وتم تنحيه الكتاب جانباً.

تم إصدار رواية « الرُحَل » فى البداية كثلاثية عام 1976 م وتم إصدارها فيما بعد باللغة الروسية 12 مرة بإجمالى عدد نسخ وصل إلى أكثر من ثلاثة ملايين نسخة ، وصدرت مترجمة بـ 30 لغة من لغات العالم لـ 50 مرة بإجمالى عدد نسخ وصل حوالى خمسة ملايين نسخة (طبقا لاحصائيات عام 2010 م).

هذا وقد قال رئيس دولة كازاخستان نور سلطان نازارباييف معقباً على الرواية «إحتلت ثلاثية «الرُحَل» الشهيرة مكانة خاصة فى إبداع إلياس يسينبيرلين ، وهى تتميز بالأبعاد الملحمية وديناميكية الأحداث، والنماذج الحية والفريدة للشخصيات البارزة فى تاريخ كازاخستان، وأيضا بلغتها الدقيقة والمعبرة » .

فى عام 2005 م تم إنتاج الفيلم التاريخى « الرُحَل».

الجزء الأول من الثلاثية : «السيف المسحور» بين أيديكم يحكى قصة وتاريخ شعب عظيم ...متفرد... يستدعى إلى الذاكرة العراقة ... والأصول ... والموروثات الثقافية لهذا الشعب فهيا إليه...

د. حسين الشافعى

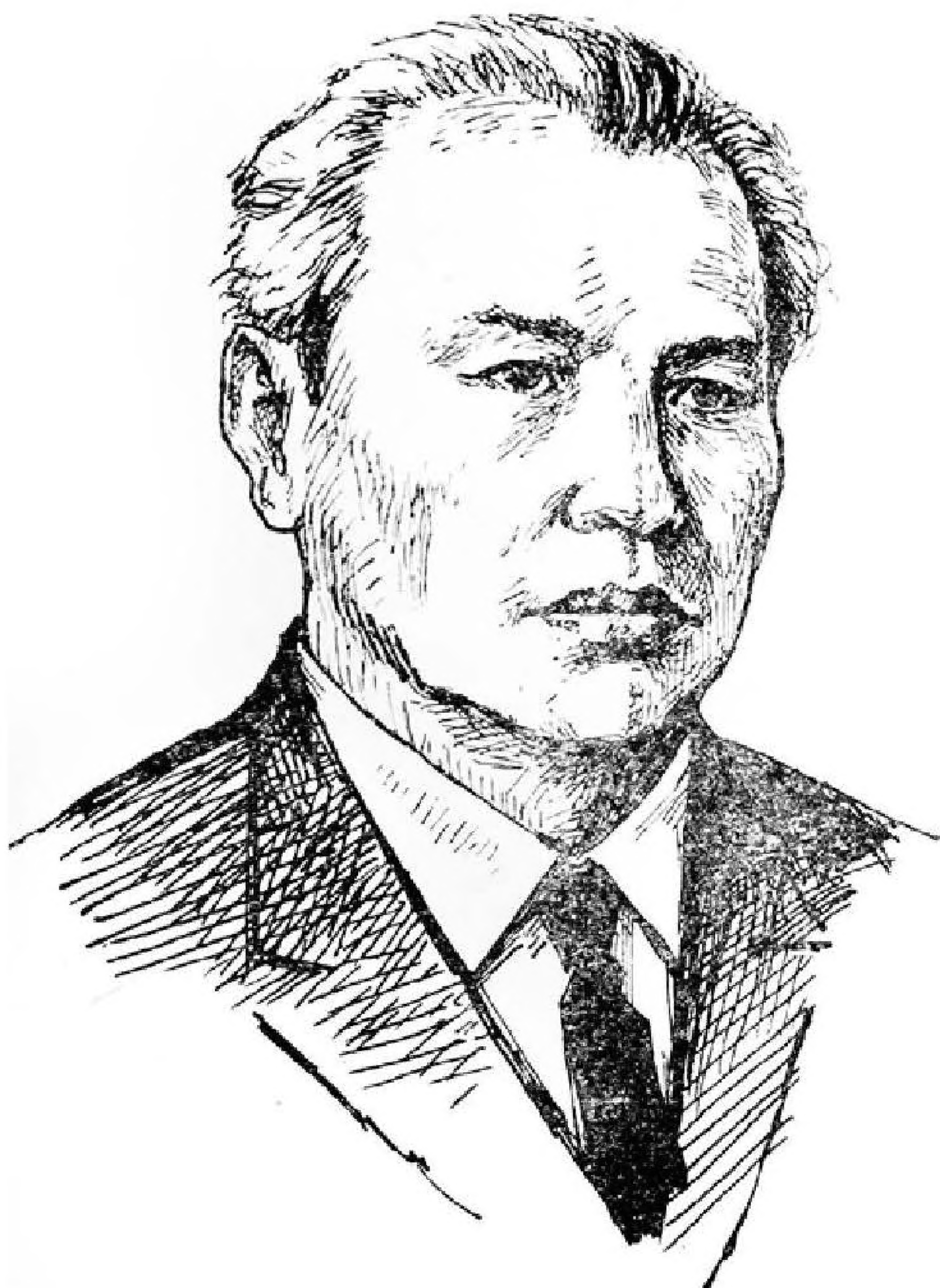
ثلاثية الرحل

الجزء الأول

السيف المسحور

ترجمة د . محمد رياض

مراجعة وتقديم د . حسين الشافعى





الجزء الأول

I

أليس الموت هو السلاح المضمون في يديك ؟

أليس جدك جنكيزخان قد أخرج السيف من غمده لإخضاع العالم ؟ و قد أوصاك بهذا السلاح المضمون عبر القرون .

و الشفقة ؟ ... لقد سمح لها أحد أحفاد جنكيز خان أن تتسرب في وقت من الأوقات إلى قلبه . إن رعاع السهوب يبتعدون عنك بازدراء إذا أشفقت عليهم فهم ما وجدوا إلا ليمضوا إلى الموت

كان أبوالخير يرقد على جلد نمر كبير واضعاً مرفقه فوق رأس الوحش بفمه المزمجر ، ثم انتقل إلى جانبه الأخر و استغرق فى التفكير...

نعم ، نعم ... الموت فى المقام الأول سلاح و لم يستخدمه جدنا العظيم من أجل المزاح ، و لكن من أجل فرض الاضباط الحديدي بين قواته، و قد علمنا بذلك من الأساطير و من كتب الأجانب .

فقد زارأحد الرومان معسكر جنكيز خان و كتب كل شىء عن قانون الياسا

الشهير ثم قام الفرس بعد ذلك بترجمة ذلك الكتاب إلى لغتهم . و قد جاء فيه « إن من يجرؤ أن يطلق على نفسه خانا دون أن يكون قد انتخب من القوريلتاى { مجلس الحكم - المترجم } يكون مصيره الموت و الموت أيضا لأولئك الذين تثبت إدانتهم بارتكاب جريمة الخداع عن قصد ، و أولئك الذين يتعرضون للإفلاس فى المعاملات التجارية ثلاث مرات ، والذين يساعدون الأسير رغما عن إرادة من قام بأسره ، و الذين لا يعيدون العبد الآبق الذى يترك الخدمة من تلقاء نفسه ، و الذى يدان بالخيانة و السرقة و شهادة الزور أو عدم احترام الكبار ... الموت ... الموت ... الموت»



بدأت شفتى أبوالخير تتحرك فكل ما قرأه فى وقت من الأوقات كان يتذكره عن ظهر قلب . و فيما يتعلق بالقوات المغولية فطبقا للقرار السامى لجنكيز خان كان كل عشرة محاربين تحت إمرة {أوناباس } قائد عشرة و كل عشرة أوناباس تحت إمرة {جوزاباس} قائد مائة ، و يقود عشرة جوزاباس{ميناباس } قائد ألف ، وعلى رأس عشرة {ميناباستومين } قائد عشرة آلاف . و يقود جميع هذه القوات إثنين أو ثلاثة { نيون } أمراء. وكلهم يأتمرون بإمرة القائد العام» ...

لم يكن تنظيم الجيش بهذا الشكل من قبيل المصادفة فبهذا الشكل كان من السهل إبقاء الناس فى خوف دائم لأنهم كانوا جميعا متشابكون فى المسئولية الجماعية،ولم يكن إلا الموت وحده الذى يمكن أن يفكها.

«فعندما تكون القوات في حالة حرب و يهرب من العشرة شخص واحد أو اثنين أو ثلاثة أو أكثر فإنهم يقتلون جميعا و إذا هرب العشرة كلهم ، و لم يهرب المائة الآخرون فإنهم يقتلون جميعا و باختصارإذا هم رجعوا أدراجهم معا فإن جميع الهاربين يقتلون ، و بالمثل لو أن واحدا أو إثنين أو أكثر يقاتلون ببسالة و لم يتبعهم العشرة الآخرون فليقوموا بقتلهم أيضا و إذا وقع في الأسر واحد أو أكثر ولم يقم رفقاؤهم بإطلاق سراحهم فإنهم يقتلون أيضا»...

لقد ترك أسلافنا آثاراً دامية علىو الأرض، و إننا نسيرعليها دون أن نتنحى جانباً. وهذا يعنى أنه لا يجب أن تكون هناك شفقة نحو الأهل أو الغرباء و هل أشفق أتباع جنكيزخان على أى أحدٍ فى سبيل تحقيق أهدافهم ؟

كان لدى جنكيزخان أربعة أبناء وهم «جوجي» و «جغتاى» و «أوقطاى» و «تولوى» و قد وزع عليهم فى حياته البلاد التى غزاها و استقل كل واحدٍ منهم بدولته . كان الجزء الأوسط من الإمبراطورية أى منغوليا و شمال الصين من نصيب جنيكيز خان أما دولة «أوقطاى» فكانت تحدها من الغرب و تشمل الأراضى الواقعة شرق وغرب جبال ألتاى ومركز دولته منطقة تشوجوتشاك ، و كان الجزء الثالث تحت حكم «جغتاى» و يشمل المناطق الشرقية من آسيا الوسطى من نهر آموداريا و كان عاصمة هذه الدولة مدينة ألماليك . و دخلت إيران و العراق و القوقاز نطاق دولة تولوى و ابنه هولاكو وكانت عاصمتها مدينة «تبريز» ، أما الجزء الخامس والأخيرمن الإمبراطورية فيملكه الابن البكر «جوجى»و ضمت دولته جميع الأراضى التي وصلت إليها حوافر الخيول المغولية من سهوب قبجاق إلى أودية الدانوب ، و كانت عاصمة هذه الدولة حتى وفاة جوجى ضواحى جبل أوليتاى ، و بعد ذلك مدينة سراى على روافد إديل الفولجا .



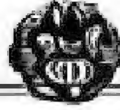
بعد وفاة جنكيز خان نشب الصراع بين أبنائه من أجل العرش العظيم في مدينة « قره قورم» و تحولت السهوب كلها آنذاك إلى مقبرة . و استمرت هذه الحرب الأهلية بين الأحفاد و أحفاد الأحفاد و لم تخمد برهة واحدة. و قد شكل أحفاد جوجى و تولوى معسكراً واحداً و تصدى لهم أحفاد جغتاى و أوقطاى. و قد اعتلى «أوقطاى» العرش فى قره قورم و بعد وفاته أصبح ابنه جيوك الخان الأعظم و خلفه خان مونكى أحد أبناء تولوى . وعندما تم إختياره ليصبح الخان الأعظم لم يذهب أبناء أوقطاى و جغتاى إلى القوريلتاى لأنهم من نفس سلالة مونكى و يعلمون ما ينتظرهم هناك . لكن بعد عام فقط ذهب لتهنئتهم أكثرهم سذاجة و تم استقبالهم بترحاب كبير و قُطِعوا إربا فى ذات اليوم ...

تجولت أفكار أبوالخير في القرون و لم يجد مثالاً واحداً على أن السذاجة أو البراءة قد ساعدت أحداً أن يبقى حياً أو ينتصرعلى الأعداء .... و لأن الأحداث التى تم وصفها فى الثلاثية تغطى 500 عام من أحداث التاريخ ، و تشارك فيها شعوباً مختلفة فإن أسماء الشخصيات التاريخية فضلا عن بعض الأسماء الجغرافية ستكتب بهجاء مختلف . على سبيل المثال أستراخان فيما بعد أستراخان الخ . و قد تصدى أبناء تولوى «قوبلاى خان» و«هولاكو» لأبناء أوقطاى و جغتاى و لكن كيف انتهت هذه الصداقة بين أبناء قوبلاى خان و هولاكو؟ بسبب نفس المذابح التى لا تنقطع و المؤامرات و الحروب ، من غير الممكن أن تطهو فى وعاء واحد رأسى إثنين من الخراف . و هل قابل أحدُ إثنين من الذئاب لم يتعاركا من أجل حملٍ ؟ و هل يجب أن نلوم أسلافنا على تعطشهم لسفك الدماء ؟

لم يكن أقارب جينكيزخان يحبون بعضهم البعض، وعندما انتخب «جيوك» كخان أعظم فى 1246 ارتوت السهوب مرة أخرى بدماء كثيرة . لم ينصاع « باتى» للخان الأعظم معتمداً على قوة القبيلة الذهبية ، وهذا الأمر دائما ما يكون مآله الحرب . و أخذ «جيوك» و «باتى» يتشمم كل منهما الآ خر كذئبين شرسين. و فى السنة الثالثة من حكمه هبط جيوك خان من جبال « تارباجاتى « إلى السهوب الكازاخية و تحرك على رأس جيش كبير إلى الغرب و تحركت نحوه جحافل القبيلة الذهبية . و قال « باتى» أن هذا التحرك بسبب رغبته فى رؤية ممتلكاته في «سارى عرقة» . كان الخانان يشبهان ثورين غاضبين يحفران الأرض بحوافرهما، و كثورين ينتظران من سيحرك قرنه أولا ...

لم يكن مقدراً لهما أن يتلاقيا . كان أبناء جنكيزخان الآخرون يتعجبون و يحبسون أنفاسهم منتظرين انفراج تلك الغمة . فى الطريق مرض «جيوك خان» فجأةَ ثم وافته المنية.

التوت شفتى أبوالخير ببطء عند تذكر ذلك الأمر فكثيرا مايموت الجنكيزيون منذ



ذلك الحين من هذا المرض و دائما فى اللحظات الحاسمة . لا لم يتأفف أبداً أحفاد جنكيزخان من جميع أنواع القتل . و هل يكون هذا بالنسبة له إستثناء ؟ تختلف الأوقات و الأزمان و ليس من السهل الآن الإقدام على مثل هذا الأمر حتى بالنسبة للشخص النبيل إلى حد ما و ينبغى عليه كأبي الخيرالجنكيزى الشرعى أن يتفكر فى كل أنواع القتل . أصاب رأسه الألم بسبب ذلك الفكر و ربما أصابه الكبر و أصبحت كل خطوة حاسمة تجعله يستغرق فى التفكير، و تجعله غير قادر على النوم ليال بأكملها ، أم تراه يجبن و يخاف؟...

بدا جلد النمر لأبي الخير خشناً كسجادة مثقوبة و انتقل إلى جانبه الآخر...

عاش « باتى» بعد وفاة «جيوك خان» ثمانية أعوام . و فى اليوم التالى لوفاته نشبت معارك دموية بين الجنكيزيون .

طبقاً لوصية جنيكيزخان يجب أن يعتلى عرش الأب ابنه البكر . و كان لدى «باتى» أربعة أبناء . أصبح أحدهم و يدعى «سارتاك» حاكماً للقبيلة الذهبية . و على الرغم من أن سارتاك هذا قد اعتنق ديانة الكفار ، إلا أن الجنكيزيين لم يكونوا أتقياء لكى يولوا هذا الأمر أهمية كبيرة . و على الرغم من حداثة سنه ، فقد ظهر كقائد جرىء ونشيط . علاوة على ذلك فقد شمله الخان الأعظم « مونكى» برعايته . و لكن « بركه خان» ابن جوجى لم يكن يرغب فى أن يتنازل عن عرش القبيلة الذهبية لسارتاك....

أنذاك تكررت معجزة أنقذت « باتى» ، فقد اعتنق «بركه خان» الإسلام على يد الخليفة و تلقى منه القرآن كهدية و كذلك ثوبا من كتفه المقدس . و بمجرد أن ذهب إلى « قره قورم» لم يأكل «خان بركه» و لم يشرب مدة يومين و لكنه كان يصلى فقط . و قد ابتهل إلى الله لكى لا يصل سارتاك إلى قرة قورم ، فاستجاب الله لصلاته و أزاح الكافر سارتاك من طريق « بركه خان » . و كان سلاح الله كما قيل فى هذا الحين مرض أصاب المعدة...

أصبح بركة خانا ... وبعد مرور بعض الوقت عاد عرش القبيلة الذهبية لنسل «باتى»، و قد ذبح أحدهم وهو «جانيبيك» الطيب الهادىء على يد بنه « بيرديبيك» ولكى لاتؤلمه رأسه فى التفكيربالمستقبل فقد ذبح فى مرة واحدة جميع إخوته الكبار والصغار الذين يمكن أن يطالبوا بالعرش . كل هذا لم ينقذ « بيرديبيك خان» من مصيره المحتوم . فلم يمض عامان حتى قتل «بيرديبيك خان» على يد أقاربه القساة . وعاش المثل بين الناس : فى نفس المكان الذى قطعوا فيه عنق الجمل قتل بيرديبيك خان .



بوفاة «بيرديبيك» غادرت سلالة «باتى» عرش القبيلة الذهبية للأبد ، و لكن كم بقى من سلالة جوجى ؟ . لقد كان لديه أربعون ابنا و سبعة عشر بنتا و انحدرت منهم قبائل لا حصر لها و لكن هل حل السلام بينهم فى وقت ما ؟ إن خان أبو الخير واحد منهم .

في عام 1342 توفي «أوزبك» خان القبيلة الذهبية الذي بني في شبه جزيرة القرم مسجدا و مدرسة ، و أصبحت منطقة دشت و قبجاق تسمى باسم أوزبك أو القبيلة الزرقاء.

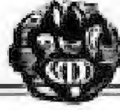
فى عام 1428 أصبح «أبوالخير» من فرع «شيبانى» الإبن الخامس لجوجى خانا للسهوب الشرقية دشت و قبجاق . كان يفكر كل يوم فى أقاربه الجنكيزيين الذين ينظرون من مكمنهم إلى عرش القبيلة الذهبية . كان أشدهم خطرا إثنين من النمور «جانيبيك» و«كيرى» اللذين ينحدران من نسل «توكاى تمير» الابن الثالث عشر لجوجى . و قد أعطى هذا النسب فى الجيل الخامس لخان أوروس الذى فصل القبيلة الكازاخية البيضاء عن القبيلة الذهبية و اتخذ من «سيجناك» عاصمة له . و كانت قوات «خان أوروس» تماثل قوات تيمورلنك الأعرج و يعنى هذا أن خلفاؤه كانوا مقاتلين ذوى بأس .

فى سن السابعة عشر رُفع «أبو الخير» على سجادة بيضاء إيذاناً بتنصيبه خاناً، و هبط طائر السعادة فوق رأسه و قاموا بهذه المناسبة بنحر جمل أبيض . و بقدر ما يرتقى الإنسان سلم المجد بقدر ما يتزايد أعداؤه ، فقد كانوا ينظرون بنهم إلى عرشه من جميع أنحاء السهوب .

لم يكن يخش أحدا إلا «جانيبيك» و «كيرى» ، فكلاهما لديه أبناء شجعان متعطشين للسلطة و هم مثل الأشبال قد كشروا عن أنيابهم نحوه . و كان من أشدهم خطرا «قاسم» ابن «جانيبيك» و «بوروندوك» ابن كيرى فأى معجزة ينبغى أن تحدث لكى يتخلص على الأقل من أقرب الأقربين هؤلاء ؟

كان ينبغى على أبوالخير تقدير قوته قبل أن يبدأ فى التصرف . كانت عشيرة القبجاق تمثل دعامة القبيلة الزرقاء ، و يد أبوالخير اليمنى . و كان «جانيبيك» و«كيرى» يعتمدان على قبيلة «أرجين» السهبية . و سارت فى ركابهم عشائر كونراد و نيمان وكيرى و يواك و تاراكتى . و قد كان من الصعب مواجهة هذه القوات الهائلة .....

حدث أيضا صدع عميق فى سهوب دشت و قبجاق منذ عدة قرون عندما بدأت القبائل التركية القديمة التى كانت تعيش في الروافد الوسطى لنهر جيحون و سيحون بالعربية (أموداريا و سرداريا) الاختلاط بالقبائل البدوية الإيرانية المحلية و بشعب سوغديانا المستقر على أرضه بعد ذلك . أما القبائل الأخرى التى ارتحلت إلى شمال نهر سيحون



حتى جايك وإديل (الأورال والفولجا) باللغة الكازاخية فقد انفصلوا عنهم بالتدريج . وقد شكلوا مع القبائل التى تمت لهم بصله القرابة و الذين عاشوا عبر القرون فى الأنهار السبعة اتحادا واحدا و أطلقوا على أنفسهم الكازاخ . اتخذ خان أبوالخير من السهوب الكازاخية مقراً له ، و لكنه أولى اهتمامه الرئيسى بطريقة أو بأخرى لمنطقة ما وراء النهر غير الخاضعة له ، وهى المنطقة الواقعة بين أموداريا و سيرداريا و خراسان ، و إختار زوجاته و مستشاريه من هناك ، و اقتبس منهم أيضا العادات و الأعياد السائدة هناك . و قد تزيد فى فرض الرسوم على القبائل البدوية الخاضعة له و أنفق جميع الأموال على جيشه الضخم و بناء المدن التى تم تدميرها على هذه الأرض . و قد عاش أغلب الوقت فى المدن مما أغضب قبائل القبجاق الرحل الأصليين . فقد كانوا يتعاملون تجاه نمط الحياة المستقرة بإزدراء مفضلين حياة السهوب القديمة الحرة ، ذلك لأن من سار خلف الخان إلى المدن يضطر إلى تغيير أسلوبه فى الحياة و التقاليد و الأخلاق و العادات ، و يصبح ذيلا فى اقتصاد ما وراء النهرالمنظم منذ الزمن القديم .

لم يرق هذا لخان أبوالخير إذ يتعين على «إيمبرام» - الحشد من البكم - أن يطيعوا أوامر الخان دون قيد أو شرط حتى لو كان يأمرهم أن يذهبوا إلى الموت المحقق . كانت هذه وصية « قاهر العالم» لأبنائه و دائما ما كان يفكر الجنيكزيون بهذه الطريقة.

كان أبوالخير يعتقد أن السخط البادى فى السهوب بفعل مكائد «جانيبيك». و بدا له أن هذا السخط سينتهى من تلقاء نفسه بموت السلطان الثائر .

لذلك لم يفكر أبوالخير فى الرعاع و لكن فى من يقودها . كان هناك العديد من السلاطين الذين كان لهم تأثير على الرعاع و المحاربين مثل « كبتاجاى» و « بوريباى» وكاراخودشا و غيرهم . كانوا يتواجدون فى كل السهوب وتحولت أسماؤهم إلى صيحات فى الحروب . و من خلالهم هم والسلاطين و المحاربين ينبغى قيادة الرعاع لأنه إذا لم يسيطر أحد على تلك الحشود فستتحول إلى قوة رهيبة مثل النهرالمجنون أثناء الفيضان فتجرف السلطة الشرعية .

كان من الصعب أن يجد لغة مشتركة مع سلاطين السهوب العنيدين و بصفة خاصة مع المحاربين الذين ليس لديهم أية ممتلكات و لا يقرون بأى سلطة عليهم . ولكى يكسر خان أبوالخير شوكة الجامحين منهم كان عليه أن يتصرف. و كان هذا هوالسبب فى أنه توجه لطلب النصح والمشورة عند الأسلاف .

تذكر وصايا جنكيزخان لأبنائه . فعندما قسم جنكيزخان دولته فيما بينهم إلى



أربعة (أولوسات) دول المترجم أراد أبنائه أن يستمعوا منه إلى نصيحة حسنة حول كيفية حكم الناس . كان أول من توجه إليه بالسؤال من أبنائه ابنه البكر جوجى فقال:

حدثنى يا مالك المجد العظيم و ياقاهر العالم ماينبغى أن يكون عليه الخان الحقيقى؟ قال جينكيزخان ينبغى على الخان أن يكون ذكيا ليرضى الناس و قويا ليرضى الناس عنه.

سأل الابن الثانى جغطاى أبيه :

و ماذا تفعل لكى يحترمك الناس ؟ قال جينكيزخان ألا تفقد العرش.

سأل الابن الثالث أوقطاى أبيه :

و كيف تحافظ على العرش؟

قال جينكيزخان ألا تدع من هو أذكى منك أن يدخل إلى حاشيتك.

سأل الابن الرابع تولوى أبيه :

و بما يضحى الخان من أجل مجده؟ قال جينكيزخان : بولده.

***

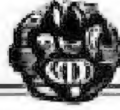
على ما يبدو أن الأبناء تذكروا نصيحة والدهم و انقضت أيامهم نسبيا بسلام .

ألا تكفى هذا الحجة لكى يسترشد بهذه النصائح.

أحاط أبوالخير نفسه منذ بداية حكمه بالشيبانيين و أحفاد «جوجى» الآخرين . و قد وجد ذرارى الجنكزيين الآخرين مكانا لهم فى معسكره و لم يكن أحد منهم أذكى من الخان . هكذا بدا لأبوالخير لأنهم جميعا كانوا يحنون رؤوسهم أمامه و كانوا يصمتون عندما يبدأ فى الحديث .

لكن السلطان « جانيبيك» عاد للظهور مجددا . و قد فكر مع ابن عمه « كيرى» أن يفصلا عن القبيلة الزرقاء الجزء الأكبر منها و هو السهوب و يحكماه منفردين . بغض النظر عن ما قالوا فلقد فسر أبوالخير تطلعاتهم بأنها حب السلطة فقط و ليس أعلم منه بمدى قوة جذب السلطة....

لا يمكن السماح لهما القيام بذلك لأن دشت و قبجاق أساس كل شيء . فضلا عن ذلك فإن الدولة تبنى كالهرم إذا انترع منه حجر واحد تنهار الأحجار الأخرى . على العكس من



ذلك يجب التفكير فى زيادة مساحة الخانة الأن ذلك مما أوصى به الأسلاف . يجب أن نوجه القوات المتمركزة فى السهول إلى الهندوستان والمغولستان و إيران و العراق و من يقف فى الطريق لابد من أن يمحى من على وجه الأرض.

ومثلما يأكل السل صدر المريض كانت الرغبة فى الغزو تأكل أرواح الجنكيزيين فقد سيطرت عليهم و قادت جميع أفعالهم و أفكارهم و سادت أثناء حل المسائل العائلية .هؤلاء الناس المصابين بهذا المريض الرهيب العنيد لايرون العالم فى ضوئه الحقيقى إنهم يصبحون عميانا و يؤمنون فقط بمصيرهم العظيم و يبدو لهم أنهم سيتحكمون فى التاريخ.

و مع ذلك فهم أناس عاديون جدا و غالبا ما يكونون من عامة الناس . السلطة غير المحدودة تأكل عقولهم و تمنعهم من تقدير الموقف بطريقة صحيحة و النفاذ إلى جوهر الأحداث الجارية . و الشىء الأسهل آنذاك تنفيذ الوصية الخاصة بألا يوجد بجوارالحاكم أشخاص أذكياء . و فى يوم رائع يبقى من كل ذلك قشرة ذهبية فقط و يصيرالحاكم فى حفرة تحت أقدام الشعب كله ...

بالفعل يعانى الشعب الذى يحكمه مثل هؤلاء الحكام و يدفع الثمن عن كل شىء . و لكن ماذا تمثل الحياة البشرية للخان عندما يلوح أمامه شبح السيطرة على العالم ؟ و يبدو له أن الشعب خلق فقط لتنفيذ أوامره حتى الحكام ذوى العقل الراجح لم يتمكنوا من تفادى وهج السلطة . و عاجلا أم آجلا سيطالهم ذلك الوهج . و قد حدث هذا مع خان أبوالخير نفسه منذ أمد طويل . و هل لم يفهم أن الأمر لايتعلق بجانيبيك أو كيرى و إنما فى الحركة الخفية التى رغما عن هؤلاء الحكام قد تزايدت في السهوب . لقد تباعدت أكثر و أكثر مصالح الذين استقروا فى الأرض و الفصائل التى اختلطت بالسكان المحليين و أولئك الذين بقوا للعيش فى البرية يربون الماشية على غرار الآباء ويتمتعون بحرية نسبية بعيدا عن مقر الخان . كان السلطانان «جانيبيك» و «كيرى» أقرب إلى البدو و استطاعا أن يقودا تلك الحركة المنطقية للانفصال عن القبيلة الزرقاء وإنشاء دولة السهوب المستقلة...

يحاول أبوالخير و السلطانان الثائرين أن يقنص أحدهما الآخر فمنذ فترة طويلة. وكان القتل السافرعلى أقل تقديرهو الملائم لكليهما طبقا للتقديرات المتبادلة . و كان شائعا بين الجنكيزيين تدمير العدو بطريقة لا تترك أية شواهد مطلقا .

كانا يدوران حول بعضهم البعض مثل الذئب الرمادى و الكلاب الذئبية التى لا ترحم



في انتظار تلك اللحظة عندما يتم الإطباق على الحلق والدحرجة على الأرض في معركة مميتة .

***

فى وقت مبكر وقعت ابنة أبوالخير من زوجته ما نجيتكا «جايف جمال» ذات السابعة عشرة ربيعا فى الحب . هذا ماحدث فى عائلة الخان و لم يكن هذا يمثل أية مشكلة لو أنها لم تحب السلطان «جانيبيك» الشاب القوى. و كما جرت العادة فقد أرسلت له في إحدى زياراتها إمرأة عجوزماهرة و قد اقترحت الحسناء أن تقضى معها الوقت المتبقى قبل الزفاف الذى سيتم فى القريب العاجل .

كان السلطان جانيبيك يبغض خان أبوالخير بقدر ما كان أبوالخير يكرهه .

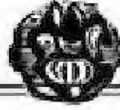
وعلى الرغم من أنه لم يكن مولعا بابنه الخان و كانت الأخريات فى مقرالخان يحببنه لكن كيف يفرط فى إغضاب عدوه . حزم السلطان أمره و وافق على اقتراحها و قال : «طالما لم تصل بعد إلى جلد الثورالعجوز فعلى الأقل مزق البقرة الصغيرة ».

لكن حدث أن « جانيبيك » نفسه وقع فى الشبكة فقد غزت المداعبات الحارة للحسناء الشابة قلبه . و قرر فى نهاية المطاف الزواج بها و قد دعى ابن عمه «كيرى» العدو الآخر للخان ليكون بمثابة الخاطب أو الوسيط بينهما .

في مثل هذه الحالات يقوم الجنكيزيون بأريحية عظيمة بالتقريب فيما بينهم فالعلاقات العائلية الوثيقة تعزز وضعهم فى السهوب . حتى الأعداء القدامى تصالحوا وزوجوا بناتهم و لكن هذه المرة لم يحدث ذلك الأمر فقد أدرك أبوالخير خان أن هذا الزواج سوف يؤدي الى تفاقم الوضع . و إزدادت العدواة ضراوة و كان هناك مخرج واحد فقط ...

لم يرفض الخان السلطان « جانيبيك» رفضا مباشرا و لكن كما جرت العادة أعطاه جوابا مراوغا . قال لكيرى « فى الخريف عندما تعود القرى إلى أكواخها الشتوية نبت فى هذا الأمر . قال « كيرى » للخان و هو فى حالة من الجنون إن ابنته لم تعد بريئة من الحصافة أن نتعجل فى هذا الأمر . ابتسم أبوالخير فقط ابتسامة عريضة و لكن أحس أن النمور تمزق قلبه بمخالبها . على الرغم من ذلك تظاهر أبوالخير أنه لم يلحظ وقاحه كيرى و كرر نصيحته بصوت هادىء.

بعد رحيل السلطان كيرى استدعى أبوالخير الجلاد الشهير كوريباى . وقف أمام الخان رجل نحيل و شاحب . لم ينبس ببنت شفة كرجل ميت فى انتظار الأوامر .



سأله الخان أتذكر ما نوع الموت الذى يطبق على الجنكيزيين عندما يشاء الله ؟ أجاب كوريباى بهدوء إننى أذكر جميع أنواع الموت .

ابنتى المحبوبة « جايف جمال » أصابها المرض فى الأيام الأخيرة ...

أومأ الجلاد بصمت .

بعد ثلاثة أيام علم الناس أن « جايف جمال » ابنة الخان عثرعليها ميتة فى السهوب بسهم نافذ فى الصدر . كان الجميع يعرفون من فعل هذا و لكنهم كانوا يهزون رؤوسهم باستغراب . لم يجرؤ أحد على فتح فمه و لكن الخبرتطايرمن قرية إلى قرية فى السهوب. دفنت «جايف جمال » فى إحتفال مهيب كما ينبغى و أقيمت لها المآدب الجنائزية عدة أسابيع ثم استدعى الخان « كوريباى » مرة أخرى .

سأله الخان هل تعلم أن سلطان جانيبيك حضر الوليمة الجنائزية لابنتى المحبوبة ؟ أعلم

غدا أذهب معه للصيد غير أنه يبدو لى أن حالة السلطان المجيد الصحية ليست على مايرام كأن شيئا ما قد حدث له .

أجاب كوريباى أى شيء يمكن أن يحدث.

و تذكرأن السلطان ليس مثل الفتاة . إنه يستطيع أن ينزع شجرة بيد واحدة لذلك يجب أن يكون معك أشخاص أشداء...

خاف « كوريباى » من هذا الأمرالصادر له لأن أبوالخير نفسه يمكن أن يتخلص منه بعد ذلك كشاهد غير مرغوب به . مثل تلك الحوادث قد حدثت بالفعل لخادمى الخانات . قال الجلاد جميع السلاطين يعرفون ما يعنيه خروجى مع الخان للصيد . أليس من الأفضل يا سيدى أن يذهب هذه المرة أخى الأصغر « ساريباى » ؟ فيده قوية و فى قلبه شوق لعمل حقيقى...

ضحك أبوالخير فى سره من مكرعبده الفطرى و القاسى فهو يريد أن ينفذ بجلده ويعرض أخوه الشقيق للقتل مثله فى ذلك مثل أى جينكيزى أصيل .

قال أبوالخير فليكن ما تريد و لكن تول أنت الأمر و تحدث مع أخيك فى هذا الشأن...

من الغريب أن السلطان « جانيبيك » وحده لم يخمن السبب الحقيقى وراء وفاة «جايف جمال»

لم يخطربباله بسبب حداثة السن وعدم الخبرة أنها قتلت بناء على أوامر والدها خاصة



وأن خان أبوالخير قد أحاطه أثناء إقامته فى مقر الخان بالرعاية و أظهرهذه المرة بالغ الإهتمام. و لم يستمع إلى تحذير « كيرى....»

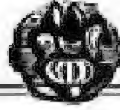
لكن اقتراح الخان غير المتوقع بأن يذهب معه للصيد جعل السلطان الشاب يأخذ حذره فلم يحل بعد البرد الخريفى حين يكون الصيد ممتعا إلى جانب بعض الشائعات قد وصلت مسامع جانيبيك . و تعجب من أن الخان لا يتعجل فى البحث عن قاتل ابنته.

فى اللحظة الأخيرة علم « جانيبيك » أيضا شيئا أخر ، فقد كان هناك تقليد قديم أنه قبل الذهاب للصيد كان الخان يرسل رسل خاصة لجميع السلاطين و الأقارب لدعوتهم للمشاركة في ذلك . و لكن هذه المرة تم إرسال الدعوة فقط لجانيبيك و كيرى و لم يشارك أحد أخر من سلاطين السهوب و لكن تم دعوة الكثيرمن أولئك الذين يدينون بالولاء للخان قلبا وقالبا و يعيشون بشكل دائم في مقره.

كان الصيد فى السهوب منذ قديم الأزل يعد العيد الأكبر . فقد كان البكوات والسلاطين يتسابقون فى إظهارغناهم فى تلك الاحتفالات و يصطحبون معهم السلاح والخيول الرائعة و أطقمها الغالية . و كان الصيد فى الوقت نفسه مثل العرض العسكرى الذى يظهر فيه كل واحد الشجاعة و الاقدام و الحيلة و الدقة في الرماية . و كان العديد من المتفاخرين يفقدون صوابهم من الخوف عندما يقفز من بين أقدامهم أرنب مذعور . و هذا شيء لايذكر حين كانوا يسمعون هديرالنمر فى الأحراش القريبة أو فهد شرس فيهرب بعضهم و قد تملكه الخوف و يترك السلاح و أحيانا لا تستطيع السهام الشهيرة التى تقطع محفظة النقود المعلقة على فرع الشجرة أثناء المسابقات من مائة خطوة أن تصيب الوحش الضخم على بعد ثلاثه خطوات .

و هناك أيضا فى الصيد تظهر و تتأكد شجاعة الفارس الشاب الذى يظهر لأول مرة بين الرجال . فعندما لا تكون هناك حروب ففى أى مكان أخر باستثناء الصيد يمكنك أن تظهر نفسك ؟ و إن الذى يطلق السهم الثلاثى الحواف بعمق أربعة أصابع فى جبهة- خنزير ضخم بأنيابه التى تبلغ نصف متر والذى يجرى فى إتجاه الصياد دون أن يهتز يستطيع أن يفعل نفس الشىء مع العدو المقنع بالحديد فى معركه مفتوحة . و ليس من قبيل المصادفة أنهم يطلقون فى السهوب على الصيد معرض الشجاعة .

بعد أن تشاور السلطان « جانيبيك » مع « كيرى » قرر أن يقبل دعوة الخان خاصة وأنه لا توجد أسباب واضحة للرفض . و فكر فليكن ما يكون فلا عجب أنهم يقولون أنه لايمكن الاختباء من الموت المقدر عليك حتى فى صندوق ذهبى . و إذا كان مقدرا لك أن



تبقى حيا فلن يصيبك أى سهم من آلاف الأسهم المصوبة نحوك . وافق « كيرى » و قال نعم يجب أن نذهب إلى الصيد و نتظاهر بأننا لا نرتاب فى أى شىء و لكن يجب أن نأخذ معنا أقوى الفرسان الذين لن يفارقونا قيد أنمله . و إذا لم نذهب الآن فسيفهم الذئب أبوالخير أننا قد عرفنا خططه و نواياه و سيجد على كل حال وسيلة للقضاء علينا . فكما يقولون من خلع ملابسه

الذهبية و الصقور و السنقر و كلاب الصيد من فصيلة الهرارأو كيستريل. و من غير الجائز أن تعيش كل هذه الطيور الجارحة صائدة الطيورفى غرفة واحدة .

و خلافا للتقاليد لم يكن السلطان يصطاد أفراخ الطيورالجارحة بل الطيورالقوية المحاربة . و على الرغم من صعوبة ترويض مثل هذا الطائر لكن الفائدة منه عظيمة جدا فالنسر الذى ترعرع حرا فى السهوب أقوى و أشد فتكا من ذلك الذى يتعهده البشر بالغذاء و الرعاية.

و لم يكن السلطان « جانيبيك » يعهد بنسوره لأى أحد كائنا من كان . و عادة لم تكن تستجيب للتدريب سنة كاملة و لكنه كان يكرر الشىء من بدايته باصرار و صبر. و كانوا يضعون على رأس الطائر الفخور قبعة جلدية توماجو و يجلسونه على الأرجوحة كى يتعود على ركوب الخيل. ثم يبدأون تدريجيا إطعامه لحما خاليا من الدم موضوعا فى الماء . كان الجوع يجبرالنسرعلى الخضوع و يتعود تدريجيا على تناول الطعام فقط من أيدى مالكه . و على الرغم من قبعة التوماجو فإنه يتعرف علي سيده من مسافة بعيدة .

فقط بعد مضى فترة طويلة ينزعون العصابة عن عينيه و يبدأ المالك فى إطعامه لحما أحمر . و عندما يرى النسراللحم الأحمر يصيح لنفاذ صبره و لكن يتناوله فقط من يد سيده . ثم ينتقل إلى السهوب . يفرج جانيبيك عن النسر و يستدعيه بالرجوع إليه سريعا وفى كل مرة يقوم باطعامه . و هكذا يتم ترويض الطائر و يصبح طائرا قناصا .

و مهما روضت النسر و لكن لدى رؤيته ثعلب أحمر يجرى فإنه يسقط كالحجرعلى فريسته و ينشب مخالبه فيها ثم يطير . فى هذه اللحظة يدوى نداء سيده فيلبى النسر النداء و يحصل على جائزة مضاعفة أو بمقدار ثلاثة أضعاف . و متذكرا ذلك الأمر فإنه دائما ما ينتظر حتى يتلقى الأوامر بالقنص .

كان لدى « جانيبيك» العديد من تلك النسور . و خلال فصل الصيف لم يكن لديهم شىء يفعلونه و من ثم كانوا يخلدون إلى الراحة. أخذ السلطان فى رحلة الصيد هذه صقره



المشهور الذى أثنى عليه الشعراء والذى يسمى سومبالاك . و إرتدى جانيبيك تحت معطف الصيد درع رقيق مكون من رقائق حديدية قوية و شحذ سيفه جيدا و وضع نصلا جديدا فى السهام .

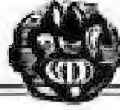
و قامت مجموعة من الموسيقيين بالذهاب إلى التل و دوى الهدير النحاسى فى السهوب لاستدعاء الصيادين . أخذ السلاطين و البكوات و الأمراء متزينين بالريش و بالدروع المتلالئة الغالية فى القدوم من جميع الأنحاء .

و فجأة انبعث غبار وصل عنان السماء من الطريق الذى يبدأ من مقر الخان فقد هرعت مجموعة كبيرة من الفرسان إلى التل و أمامهم كان الخان نفسه يمتطى صهوة حصان بالغ الجمال له نجمة بيضاء على جبهته و مجدول العرف و الذيل . و كان الفرسان المرافقين له يمتطون خيولا مجدوله أعرافها و ذيولها . و بسبب المزاح والمداعبة الزائدة كانوا يقضمون اللجام الصلب و يرقصون بسبب الشوق وعدم القدرة على الانتظار . و كانت الحاشية ترتد بدروع صيد خفيفة وخوذاتهم الفضية المزخرفة تتلألأ على رؤوسهم . و من الخلف كان الحرس المكون من المحاربين الأوفياء و التابعين الأمناء لايتخلفون عن الخان و خاصته قيد أنملة...

شوهدت ثلاثة أو أربعة نساء في هذا الحشد الرائع . جذبت إحداهن كل العيون إليها فقد كانت ترتدى ملابس أفضل من الجميع و تجلس على طقم ذهبى لحصان أكحل تيكي الذى تعرفه السهوب برمتها و يطلق عليه اسم أورتيكا أى يعنى «الجولة الراقصة». و قد أعمى جمالها جميع الرجال حولها و أراد كل واحد منهم أن يقع تحت ناظريها .

تلك كانت الزوجة الرابعة لأبوالخير ابنة العالم الكبيرالسلطان أولوغبيك حفيدة تيمورلنك . و كانت تدعى « ربيعة سلطان بيغيم « و يقال أنه لايوجد على وجه الأرض إمراءة أجمل منها كان تلبس الذهب من رأسها حتى أخمص قدمها و كذلك صنع السرج والفرو تحت السرج و اللجام و الركاب (إطار أو حلقة صغيرة يضع الفارس قدمه بداخلها ويتم وصلها بـالسَمزج عن طريق سَمير جلدي يُطلَق عليه اسم «سَمير الركاب» – المترجم) من الذهب الخالص . كانت قبعة «ربيعة سلطان بيغيم» الجملون المصنوعة من فرو ثعلب الماء تتأرجح بفعل الريح المعاكسة و تحت أشعة الشمس تلألأت قلادتها باهظة الثمن التى تومض بجميع الألوان ، و لكن الشىء الأكثر روعة وجهها المشرق النضر ذى الحواجب الرقيقة كالهلال و شلال أسود من ضفائر الشعر المجدولة التى لا تعد و لا تحصى...

عندما اقترب الخان مع حاشيته الرائعة من التل انطلقت أيضا من جهة السهوب المفتوحة



مجموعة من الفرسان يتقدمهما السلطان «جانيبيك» و السلطان «كيرى» ممتطين صهوة جياد رمادية داكنة وعلى كتف كل واحد منهما يجلس واحد من الصقور .

كان كل من «جانيبيك» و«كيرى» يرتديان قفطان الصيد الخفيف مع السمور بحاشية مسدلة و قبعات كازاخية . و كان يوجد أيضا خلف هؤلاء الراكضين بعض النساء . كانت أجملهن هى زوجة «جانيبيك» الثانية «جاخان» أم السلطان الشاب قاسم . و هى ابنة أحد الفرسان من قبيلة كيرى بشكل ملكى صهوة جواد أبيض مثل الحليب يدعى كييكايك أى «أقدام الغزلان» . و كانت تمتطى و كان سرجها و الفرو تحت السرج و الأشياء الأخرى خلافا للجميلة " ربيعة سلطان بيغيم" مرصعين بالفضة المطروقة و كانت الفضة تحديدا تناسب جمالها و مكانتها السهبية .

كان الجميلة «جاخان» تختلف عن زوجة خان أبوالخير فى شىء أخر . كانت يدها اليمنى تقبض بقوة على حربة دقيقة مدببة الحافة. و كان الجسم الفخورالرشيق للفارسة يتنفس الشجاعة و قد قابلها الناس المحتشدون بالأسفل بهمهمات الإعجاب . و لم يتوان أبوالخير فى النظر ناحيتها تماما كما لوأن جمال «جاخان» قد أحرقه . فكر الخان وحفز جواده «لاضير إن شاء الله ستكون ملكى يمينى غدا» . لم تكن هذه المرة هى المرة الأولى التى يراها فيها بل إنه قد قرر منذ فترة طويلة أنها جديرة بخيمته...

لكن السلطان «جانيبيك» كان في حالة تأهب و تابع الخان عن كثب . و لم يخفى عنه تغير الشعورعلى وجه أبوالخير. و الآن لم يعد يشك فى أنه يضمرله شرا. تفحص «جانيبيك» الحشد الرائع ذى الألوان المتعددة محاولا تحديد من عهد إليه بقتله . و فجأة لاحظ ثلاثة من الفرسان يرتدون ملابس عادية و قد وقفوا بعيدا . و شعر السلطان بنظرة ذلك الشخص الذى كان متقدما للأمام قليلا . و فكر أن « هؤلاء الناس الرماديين لم يتواجدوا فى رحلات الصيد السابقة و إنهم أيضا لا يشبهون حاشية الخان لذلك ينبغى الحذر منهم»....

تحرك الخان و حاشيته الكبيرة مع قافلة ضخمة محملة بقرب مملوءة بحليب الفرس وجميع أنواع اللوازم الأخرى صوب جبال ألتاى . و بعد أن أمضوا الليل فى الطريق نصبوا خياما خفيفة فى التلال السفحية فى أسفل جبل أرجيناتا فى واحدة من أجمل الأماكن فى سارى عرقة . و لا تزال هناك حتى الأن أنقاض القصور التى توجد حولها قطع من السيراميك و الطلاء الزجاجى. و تحديدا عن تلك الجبال الرائعة تغنوا في الملحمة القديمة الشهيرة .

كأغلى شيء في الوجود أعطيت لنا إرثا



و تمتع جدنا الأكبر أرجين بجمالك

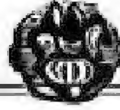
وبمروجك الزمردية والخيوط الفضية للجداول المائية ومن قرن لقرن يستمتع بك الأرجين يا جبل أرجيناتا .

لم يكن هناك الكثير من البحيرات العذبة و الأنهار الكبيرة القادرة على إرواء ظمأ آلاف القطعان . و فى ذلك الوقت الدافىء من السنة كان يتواجد عدد قليل من الناس . والشىء المهم أن هذه الأماكن تملكها عائلة السلطان جانيبيك منذ فترة طويلة لكنها أصبحت خاوية منذ أن انتقل والده باراك من هنا إلى قبيلة بازار مقر الخان . غير أنه كان هناك الكثير من جميع الطرائد الكبيرة مثل الغزلان و ظبى السا يجا و الكباش و السنوكوك و الاوز البري . و على مدى ثلاثة أيام قام بعض الصيادين النبلاء بإبادتهم بكل الوسائل .

و قرعوا الطبول لإخافة الحجل و سنوكوك و أطلقوا عليهم الصقور . و كانوا يقطعون بسعادة لا توصف رقبة الطائر الذى تم اصطياده متفاخرين أمام بعضهم البعض بنجاحاتهم. و كانوا يطاردون الكباش و الغزلان مطلقين عليها السهام من سروجهم . و قام الثلاثة غير المعروفين بقياده «ساراباى» أخو جلاد الخان بإطلاق سهامهم و لكنهم فشلوا تماما فى إصابة الهدف . و لم يترك السلطان جانيبيك وحيدا مطلقا و لم يجرؤون على مهاجمته . أما ماذا كان ينتظرهم في حالة الفشل فإنهم يعملون ذلك جيدا...

لكن في اليوم الأخير عندما أعلن الخان أن الجميع سيعودون فى الغد إلى المقر الرئيسي ابتسمت لهم السعادة أخيرا . فقد اندفع السلطان جانيبيك المفتون بمطاردة ظبى السا يجا السريع بعيدا فى الغابة و هرع خلفه فرسانه الأوفياء و لكن خيولهم أنهكت جدا بسبب الصيد على مدى ثلاثة أيام و لم تستطع أن تلحق بحصان السلطان الشهير . و عندما كان جانيبيك يعبر غابة صغيرة رأى على مسافة غير بعيدة الخان مع بعض رجاله الأوفياء . ومن الجانب اقترب الثلاثة الذى رآهم من قبل . كان الخان قد استبدل للتو حصانه المتعب بينما كان حصان ساريباى مفعم بالقوة لأنه لم يشارك فى الصيد الحقيقى . و قد طاردا مع جانيبيك ظبى السا يجا و لم يستطع السلطان أن يتنحى لكى لا يظهرنفسه جبانا أمام العدو .

و سريعا ما ظهرفى الأمام ثلاثة فقط وهم السلطان جانيبيك وخان أبوالخير و ساريباى شقيق جلاد الخان أما الأخرون فقد ظلوا بعيدا فى الخلف حتى أصواتهم لم تكن مسموعة. و قد انطلقوا قليلا للأمام و لحقوا أخيرا ظبى السا يجا الذى خارت قواه تماما . نسى «جانيبيك» للحظة فى نشوة الصيد العمياء الخطر الداهم و قفز من على السرج وألقى العصا جانبا و أخرج سكينا لذبح ظبى السا يجا.



صاح ساريباى بغضب لا تلمسه إن هذا الظبى لى .

قفز السلطان إليه على فرسه و ألقاه عن السرج و وقع مع عدوه الثقيل على عشب كثيف و لكن أثناء السقوط استطاع أن يجثم فوقه . و أصبحت عيونه المشتعلة بالغضب ملاصقة لوجهه و فجأة تبدى لديهما أمل بهيج .

صاح فى أحد الأشخاص اضرب ....اضربوه فى قفاه .

و نظر السلطان إلى الجانب و هو مازال ممسكا بساريباى و رأى الخان أبوالخير واقفا فوق رأسه .

***

لم يفهم أبوالخير لماذا لم يضرب السلطان جانيبيك فى قفاه . شىء ما أوقف يده لبرهه ثم خرج أناس من بين الشجيرات و كان الوقت قد فات لفعل أى شىء . كان أول من اندفع إلى مكان الحدث هو كيرى و حينذاك ترك «جانيبيك» ساريباى .

قال له السلطان سأعفو عنك هذه المرة لأنك لست المذنب الرئيسى . قال ذلك و هو يجز على أسنانه و نظر إلى أبوالخير بطريقة جعلت الأخير يحس أنه ليس على مايرام .

كان ظبى السا يجا مازال حيا و ملقى على الأرض . نظر إليه جانيبيك و لوح بيده .

قال لكيرى بعد أن وضع الهراوة فى حزامه ، و امتطى صهوة حصانه حيث أننى قد عفوت عن الشخص الذى حاول قتلى فلما لا أعفو عن الحيوان البرىء وذهبا معا إلى ذويهم ونظر أبوالخير فى إثرهم بصمت...

قام ساريباى من الأرض و وضع قدمه فى ركاب الحصان و حول الخان وجهه .

همس شقيق جلاد الخان من خلفه و قال لماذا لم تضربونه من الخلف بالهراوة ياسيدى الخان . فلوكان سقط لكنت كسرت فقرات عنقه . فهذا ما يحدث دائما عندما يسقط الشخص من على ظهر حصانه و لن يستطيع أحد أن يخمن ماذا حدث...

لم يكمل حديثه فقد انزلقت رأسه من فوق كتفيه . مسح أبوالخير باشمئزاز النصل فى ملابس ساريباى وأمر بنفخ النفير للإجتماع . وكان أول من حضر «جانيبيك» و«كيرى».

وقد شاهدا رأس ساريباى ملقاه على العشب وعيناه جاحظتين من الذعر .



قال أبوالخيرمثل هذا الموت ينتظر كل من يتعدى على حياة سلاطينى الأوفياء.

و لكن هيهات أن يصدقه «جانيبيك» و«كيرى» . و رافقه «جانبيك» و«كيرى» إلى مقره و هم صامتون و رحلا سريعا إلى حصونهما . و منذ ذلك الحين فقد الخان الراحة وكان يجلس أياما كاملة على جلد النمر و يتدبر الوضع القائم.

لم يكن هناك خط للرجعة و كانت خيبة الأمل المريرة من جراء أنه لم يقتل «جانيبيك» تأكل روحه . و مثل هذه الفرصة لن تأتى قريبا....

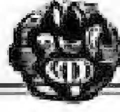
أخذ أبوالخير يتذكر و التوت شفتاه من الفخر « لقد ذبحت فى سن السادسة عشرة ابن إيد يجى عريض الجبهة كازابك . و فى سن السابعة عشرة حدثت مبارزتى الشهيرة مع «خان جومانديك» حاكم سهوب دشت و قبجاق . و قد أحبنى كابنه و ربانى منذ نعومة أظافرى كأنه أبى . فهل ارتعشت يدى و أنا أذبحه بعد أن ألقيته من فوق السرج ؟ و قد تقبل الموت بكل سهولة مدركا أن هذا هو قانون الحياة و سأفعل نفس الشىء مع جميع أعدائى. و قد ترك عرشه فى يد أمينة . و الآن هذه الأيدى لم ترتفع على العدو الأكثر شراسة «جانيبيك».

يجب أن يكون عند من يحكم الناس و يتحمل المسئولية عنهم أمام الله قلب أسد .

لماذا وهن هذا القلب فى هذه المرة ؟

ضربة واحدة على رأس هذا السلطان المكروه و بعدها لن تكون هناك أى مشكلة. كان العبد المقتول على حق فلم يكن أحد يجرؤ أن يبدى شكوكه أن « جانيبيك» وقع من فوقه حصانه أثناء الصيد و حينها سيعلم الناس أنه إذا وقع « جانيبيك» فإن أى واحد منهم يمكن أن يقع بنفس الطريقة . فالخوف هو القفل المضمون للأفواه التى لاتعرف الصمت .

يقال إن جدى جنكيز خان قال « إذا رفعت يدك على العدو فاضربه ضربة مميتة لأنه ليس هناك أخطر من العدو الذى حاولت قتله و لم تقدر على ذلك و العفو عن العدو جريمة ستضطر أن تدفع ثمنها طوال حياتك . و سيعتبر العدو كرمك ضعفا و يكثف جهوده ضدك».



II

أنجبت «بورتى فوجين» من قبيلة «كونورات» «جوجى» و تزوج هو أيضا فتاة من قبيلة كونورات . و أنجبت «أوكيخاتون» زوجته الثانية ولده باتى .

استوعب جوجى بدرجة كبيرة حكمة السهوب التى تقول « فلتسقط أيدى من لايهتم بأقاربه» و أصبحت القبائل الكازاخية دعامته الأساسية في سياسته المستقبلية و أحاطبة السلاطين الكازاخ والمحاربين و حتى في أغانى و قصص الشعب حيث كانت تتأكد دائما قسوة وغدر الجنكيزين الآخرين كان الحديث يدور عن جوجى بلهجة مختلفة .

إنه قاس و لكنه عادل و دائما على استعداد للاستماع إلى المشورة الحكيمة . و من خصائصه أيضا أنه قادرعلى كبح جماح غضبه وهذا ليس بالشيء القليل بن جنكيز خان .

و كان هناك شيء أخر و هو أنه لم يسع إلى التدمير الشامل للقبائل الكازاخية مما جعله في عيونهم الحامى و القريب الطيب . و هناك أمثلة أخرى مازالت حية في الذاكرة .

و ليس من قبيل المصادفة بقاء الملحمة الخالدة عبر القرون « أكساك كولان- جوجى خان» و التي ما زالت تغنى في السهوب حتى الآن . بطبيعة الحال بعد تتابع القرون تنمحى من الذاكرة الشعبية الأفعال السيئة لهذا أو ذاك الحاكم و لكن أبدا لم تنمحى منها الصورة الرهيبة لجنكيز خان الذى يخوفون بها الأطفال في السهوب...

كان الغزاة المغول الذين استولوا على الأراضي الكازاخية قليلى العدد فقد كانوا يمثلون واحدا مقابل مائة من السكان الأصليين لسهوب دشت و قبجاق و قد ذابوا بسرعة فى الشعب مثل حفنة من الملح ألقيت في النهر. و فى أقل من قرن من الزمان لم يعد السلاطين المغول يختلفون فى شيء عن الكازاخ و لكن بقى لديهم فقط لقب « تورى» الذى يعطيهم الحق فى الألقاب السلطانية والخانية . و لم تخل منهم عائلة أو قبيلة كازاخية و دائما ما تحدث بينهم المعارك الطاحنة من أجل السلطة والنفوذ.

كان «باتى» أول خان للقبيلة الذهبية و عاش كل حياته تقريبا فى سهوب دشت



و قبجاق. و كانت زوجته المحبوبة «جولديز» من قبيلة قبجاق و تسمى أبناؤه بنفس الأسماء التى يتسمى بها قاطنى سهوب دشت و قبجاق مثل سارتاك و توكوخان و أيوخان و أولاكتشى . و قد ارتحلت القبائل الكازاخية إلى الطريق الرئيسي المؤدي إلى مقرالخان العظيم و ألحقت بالغزاة فى أول الأمرخسائرفادحة مما اضطرهم طوعا أو كرها أن يتصالحوا معها . و لاعتبارات سياسية تصاهر خانات القبيلة الذهبية مع قاطنى السهوب.

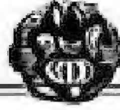
ولد فى عشيرة ما نجيت «نوجاى» الشهير الذى أطلق عليه إينال أى المهجن نتيجة زواج الجنكيزيين بالجيكيت . لم يعتبرونه جنكيزيا فدم الأم المغولية لم يؤخذ في الاعتبار و بالتالى لم يكن له الحق فى أن يعتلى عرش الخان و لكنه على مدى أربعين عاما كان يملى إرادته على خانات القبيلة الذهبية.

بعد وفاة «باتى» استمر « نوجاى» فى قيادة جيوش القبيلة الذهبية و كان يختار بدهاء خانات القبيلة الذهبية و يجلسهم على العرش. ولكن فقط عندما أصبح «توختاكول» الابن الخامس لمونكى خانا انتهت سلطة « نوجاى» . فقد قام الخان الشاب « توختاكول» مستغلا النزاعات بين العشائر فى سهوب دشت و قبجاق التى اعتمد عليها «نوجاى» بكسر شوكة قواته و هرب القائد العجوز مع سبعة عشر من محاربيه الأوفياء إلى الأراضى البشكيرية.

بسبب الصراعات في القبيلة الذهبية كان على المنحدرين من نسل «نوجاى» والعشائر التى تمت لهم بصلة قرابة أن يرحلوا إلى الحدود الشرقية لخانة كازان . كانت هذه الأرض مملوكة فى وقت ما لبلغار الفولجا الذين هاجمهم « باتى» و خلفائه مرارا و تكرارا. وفى نهاية المطاف ذهب إلى هناك جيش الغزاة القبجاق و أسسوا خانة جديدة . و بدأ أحفاد «ناجوى» المتشابهون معهم فى اللغة و العادات فى الارتحال فى إثرهم إلى هناك و سرعان ما اختلطوا بالسكان المحليين .

و لكن بعد أن استقروا فى «كازان» كانوا يعتدون باستمرارعلى ممتلكاتهم السابقة و أخذوا فى إرسال أتباعهم إلى القبائل الكازاخية مذكرين إياهم بروابط الدم التى تربط بينهم و عرضوا عليهم الانفصال عن أبوالخير و قد وصل الأمر لدرجة أن بعض الفرسان جمعوا الخيل و ساقوا ماشية الخان.

بعد واحدة من تلك الغارات أرسل خان أبوالخير إليهم حملة تأديبية مكونة من ثلاثين ألف محارب بقيادة الفارس «قوبلاندى» الذى دمر قرى المذنبين و قرى جيرانهم كى لا يقوموا بمثل تلك الأعمال فى المستقبل.



كان مجرد ظهور الفارس» قوبلاندى « يثير الرعب في قلوب الناس . كان رجلا طويل القامة بشكل غير مسبوق و رأس ضخم و أيدى أشبه بالمطارق الحديدية الثقيلة . و قد ورد فى الأغانى العديدة أن عظامه أكبر من عظام الجمل و أصابعه أصلب من قرون الكبش الجبلى . و على ضفاف نهر تورجاى عاش أجداد الفارس « قوبلاندى» الذى ولد فى المكان الذى يتلاقى فيه نهرى أريس و بادام عند سفح جبل كاراسبان.

عاد الفارس «قوبلاندى» منذ فترة قصيرة بعد أن أصبحت قرى أحفاد «ناجوى» رمادا تزروه الرياح و سلب جميع ماشيتهم وأسر فى نفس الوقت كثير من النساء و الفتيات الجميلات و لم يلق أى مقاومة تذكر لأن الغارة كانت جريئة و غير متوقعة.

بمناسبة هذا الانتصار أقيمت الولائم ثلاثة أيام في مقر الخان كأنها قرى غير آمنة أوعلى الأقل ستقوم مدينة اسطنبول بمهاجمة الفارس الرهيب. كان هذا هو المتبع في السهوب . فى نهاية الاحتفال سأل خان أبوالخيرعن أولئك الذين تميزوا في هذه الحملة كى يوزع عليهم الغنائم بعدالة و خاصة النساء.

بدأ الفارس « قوبلاندى» فى سرد أسماء المحاربين و الفرسان المتميزين فى الحملة لكنه صمت فجأة . و بدأ يبرم بعنف نهايات شاربه الأسود الذى يصل لأذنيه و أخذت عيناه التى توازى راحة اليد بعروقها الحمراء المجدولة تحدق فى الخان . قال الفارس «قوبلاندى» إننى أقترح أن يعطى جميع المحاربين حصتهم كاملة ، و إننى سعيد سعادة مضاعفة بالفارس الشاب الجرىء سايان فلقد قاد مائة شخص من قواتى و يستحق المكافاة و سأطلب له الموت أيها الخان الموقر..

تجمد الجميع فى أماكنهم فقد كان «أكجول بيك» الشهير خال سايان. كان هذا المغنى طويل القامة و خارق القوة و ذهبى الفم ابن الشاعر كوتان. كان يجلس بجوار الخان من جهة اليمين وسلط الناس أعينهم نحوه و ما إن سمع كلمات الفارس حتى أصابه الشحوب و لكنه لم يفقد رباطة جأشه.

سأل «أكجول بيك» ببرود : من أجل ماذا ؟

ثم تفحص الفارس «قوبلاندى» بنظرة واحدة من قدمه حتى رأسه .

قال «قوبلاندى» لقد خالف قانون جنكيزخان العظيم فقد تجادل مع الفارس « كارا» الشهير من أجل أسيرة.

كان خلفاء جنكيز خان ينقادون فى كل شىء (لياساته) قوانينه . و قد قضى



فيها بعقوبة الإعدام للمحارب الذى يتجادل مع رفيقه من أجل الغنائم . كان هذا واحدا من أكثر الإتهامات الخطيرة و لم يكن هناك شىء يمكن أن ينقذ الفارس الشاب.

و كيف تثبت ذلك؟ سأل «أكجول بيك» بهدوء

هل حكى لك الفارس « كارا » عن ذلك أم كان أحد الغرباء شاهدا على شجارهما ؟ فى الواقع لم يكن الفارس « قوبلاندى » حاضرا ذلك الشجار فقد أبلغه بهذا الأمر أحد أتباع الخان غير أنه كان يريد بشدة أن يصدق هذا الكذب فى حق الفارس . و فى الواقع فإنه فى مثل هذه الحالات كان الوجهاء يقدمون مصالح القبيلة....

فى هذا الشجار قتل الفارس سايان بسيفه الفارس « كارا » كما قتل أيضا الشخص الذى رأى هذه المعركة..

قال « أكجول بيك » متفكرا : ربما يقر « سايان » نفسه بذنبه ؟

قال الفارس « قوبلاندى » بصرامة : لكى يعترف بذنبه أمام الجميع يجب أن يكون فارسا حقيقا.

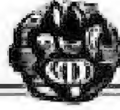
أنت أيها الفارس النبيل تريد أن تقول أن سيان إبن الأخ المجيد لأرجين تحول إلى إمرأة ؟ إن المرأه فقط هى التى يمكن أن تتشاجر مع رفيقتها من أجل أسيرة تافهة .

نظر كلا القائدين إلى بعضهما البعض و أصبحا على استعداد أن يقبضا على رقاب بعضهما البعض و يتدحرجا على الأرض فى معركة مميتة غير أنهما قد تحليا برباطة جأش الفرسان الشجعان و كانا قادرين على الحفاظ على اللياقة فى حضور الخان نفسه .

التزاما الصمت و تحولا ناحية الخان وأحنيا رأسيهما قليلا .

كان خان أبوالخير يفهم جيدا ماهى الأحاسيس التى كانت تتملك الفارس «قوبلاندى». فعندما يرغب شخص بكل ما أوتى من قوة أن يشوه سمعة الآخر فإن جميع الوسائل تكون حسنة . إن الغضب و التعطش للإنتقام يجعل الانسان يفعل ما لا يفعله فى وقت أخر . وهنا لا يمثل له أية أهميه هل الفارس الشاب مذنب أم لا....

نظرالخان نظرة فاحصة إلى مجلسه ثم تنهد . لقد تغير مجلسه كثيرا فعندما رفعوا أبو الخيرعلى البساط الأبيض فوق سهوب دشت و قبجاق كان يحيط به أناس أخرون تماما. فى هذا المكان حيث يجلس الأن البكوات المحترمون من أرجين كان يجلس وجهاء من قبيلة نيمان وعلى اليسار حيث يجلس الأن وجهاء قبجاق كان يجلس قبل ذلك فرسان من قبيلة الوسون .



فى تلك الأوقات الرائعة كان صغيرا و مقداما و لم يكن ينظر حوله بحذر كما يفعل الآن . كان صباه يشبه الفيضان و لا يعترف بأية شطآن . و بعد عامين من اعتلائه عرش الخانة قابل على الضفة الحادة لتوبول المنافس الآخر محمود خوجة. و قد أرعدت السهوب عندما تقابل الجيشان و قام بيده بنزع رأس عدوه من على كتفيه. و قد اتخذ من زوجة محمود خوجه «أجاناك بيكي» رائعة الجمال زوجة له. و لم يتنازل لأى أحد من سلاطينه أو فرسانه عن هذا القمر ليلة الرابعة عشر (اكتمال القمر يحدث في اليوم الرابع عشر من الشهر) .. كانت عيناها مثل بحيرة بلا قاع فى الطقس الهادىء و كان وجهها الجميل يضىء أشد بياضا من الثلج...

لم يكن مقدرا له أن يتمتع بمداعباتها فقد كانت تبدو له كل الوقت كحية باردة ترقد في فراشه على وشك اللدغ . كان من الواضح أن ذلك بسبب أنه أمر بذبح ابنها ذى الثلاثة أعوام مع زوجها . وهل كان يمكن أن يفعل خلاف ذلك ؟ فلو قام بتربية المنافس الشرعي فإنه سيقوم بالانتقام لوالده . فعرش الخان هو ذلك الشيء الذي يجعل الابن بالنسب يتنحى عن الطريق القويم فهل يمكنك أن تضع ثقتك بالغريب ؟ سيكون هو شفرة آلة الحلاقة المسلطة على الرقبة طول الحياة.

و قد لاقت «أجاناك بيكي» الجميلة حتفها فى هم وغم دون أن تظهر له و لو مرة واحدة أى عاطفة نحوه ثم علم بعد ذلك أن موتها كان بسبب عشبة سهبية خاصة كانت تشربها باستمرار خشية أن تحمل منه . و هل أشفق على أعدائه فى وقت من الأوقات فلقد استولى على خوارزم و سمرقند و بخارى وعشرات المدن الأخرى و فى كل واحدة منها روى الأرض بغزارة من الدم البشرى . و قد سحق أيضا القبائل الكازاخية المتمردة . و أينما ذهب كانت تسفك الدماء حتى فى السهوب التى ولد فيه . و هو الآن مضطر للنظر حوله فى خوف يده اليمنى فى الجيش هو من يدعونه باجلال «أكجول بيك» و يتبعه محاربى أرجين كثير

و العدد والعدة أما يده اليسرى فهو الفارس « قوبلاندى » الذى يناصره أيضا القبجاقيون الشجعان كثيرو العدد.

و إذا حكم بالموت على هذا الفارس التافه «سايان» فسيفرح القبجاقيون و لكن سيشعر الأرجينيون أنهم قد أهينوا بقسوة فمن منهما يتوجب إعطاؤه الأفضلية ؟ و إذا تم العفوعن الفارس «سايان» ألن يعد الناس فعل الخان هذا علامة ضعف ؟

كانت قبيلة أبو الخير كلها تنتظر كلمة الخان. وكان «جانيبيك» و«كيرى» ينتظران أيضا وسيبدأن التصرف طبقا لكيفية حل هذة المسألة الحساسة...



اضطر أبوالخيرعدة مرات أن يمسح العرق من على جبينه لأنه كان يشعر بالحر من مثل هذه الأفكار . فى مثل هذه الحالات لم يعرق أبدا الجد العظيم فقد كان يرسل بحركة واحدة من حاجبيه آلاف الناس للموت و لم يفكر فيهم بعد ذلك . فهل تغيرت الأزمنة إلى هذه الدرجة حتى أن حياة واحدة تستحق كل هذا ؟

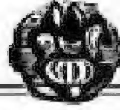
***

كلما حام ظل جنكيز خان فوق أبنائه و أحفاده فإنهم يشعرون بالسلطة حقا في أيديهم . فمونكى مثلا لم يرحم أقربائه القريبين و البعيدين من أجل التحقق الذاتى. كان دائم الصمت و بإيماءة واحدة من عينيه كانوا يعدمون المغضوب عليهم و لم يكن يتعين عليه أن يصدر أوامر بهذا الخصوص ....

تذكر خان أبوالخير الأسطورة التعليمية عن دفن «مونكى خان» ..... يمتلك طقس الدفن عند المغول بالمقارنة مع الشعوب الأخرى إثنين من السمات الخاصة. السمة الأولى تتمثل فى أنه ينزل مع السيد إلى قبره العميق عبده المحبوب و الأكثر إخلاصا ثم يضعون العبد تحت جسد سيده و يهيلون التراب عليه حيا و بعد نصف يوم يحفرون ثم يخرجون العبد و يجعلونه يتنفس و يتناول الطعام ثم يدفنونه مجددا و يتكررهذا الأمر ثلاث مرات و إذا لم يمت العبد فهذا يعنى أنه كان بالفعل أقرب شخص للمتوفى و من ثم يعتقونه من العبودية للأبد و يعطونه كل مايطلبه لأنه حسب إعتقاد المغول يعد الوارث لجميع خطايا سيده أما سيده الذى تم تجريده من كامل المسؤولية عن أفعاله على الأرض يذهب إلى العالم الآخر....

ثم يدفن جسد السيد أخيرا بشكل نهائى و ينزلون معه إلى القبر مرجل ملىء باللحم و إناء كبيرملىء بالحليب و يضعون معه أيضا عددا كبيرا من المشغولات الذهبية والفضية. و كلما كان الشخص أكثر وجاهة و أكثر ثراء كانت كمية المجوهرات فى القبر أكثر. وعندما يحيا فى الحياة الآخرى فإن الأرواح الشريرة التى تنتظر تلك اللحظة ستتلهى بوهج الأشياء الثمينة و لن تلمس الجسد و الروح...

و السمة الثانية للطقس الجنائزى المغولي تتمثل في أنه لا ينبغى لأحد أن يعلم مكان دفن الرجل النبيل و من ثم يقتلون بعد انتهاء مراسم الدفن جميع من شهد الجنازة و بعد ذلك يسوقون قطعان الخيول فى السهوب لتدوس و تمحى كل الأثار و يفعلون ذلك للحماية من قطاع الطرق و لصوص المقابر و من الأقارب المعادين بصفه خاصة فأولئك الذين لا يجرؤون على الانتقام في الحياة يسعون للانتقام بعد الموت. و مثل هذه الحالات كانت منتشرة بين شعوب كثيرة و ليس بين المغول فقط. و حدث أكثر من مرة أن قام الحكام الجدد



بتدنيس قبور أسلافهم و إخراجهم من التوابيت و حرق جثثهم . و كان أكثر ما يخشاه المغول تدنيس المقدسات و الاستهزاء بهم...

عندما توفي «مونكى خان» في عام 1259 قتل عشرة آلاف شخص شاركوا في الجنازة بناء على أوامر أشقاءه «أريك بوجي» و«قوبلاي خان» و«هولاكو» غير عابئين بالقرابة و الخدمات العظيمة التى قدموها . كان الكثير من الناس يريدون مرافقة المتوفى على أمل أن يبقى على قيد الحياة أحد يعرف قبره . بالإضافة إلى ذلك وفقا للمعتقدات المغولية كلما زاد عدد الضحايا أثناء الدفن شعر المتوفى بالسعادة لا سيما شخص مثل الخان العظيم «مونكى».

جرت مراسم دفن الخان «مونكى» أكثر مهابة حتى من مراسم دفن جنكيز خان نفسه. و كان السبب وراء قتلهم عشرة آلاف شخص أن الجنكيزيين لم يريدوا أن يخيفوا أقاربهم فحسب و لكن أرادوا أن يخيفوا البشرية جمعاء . إنهم أرادوا أن يظهروا أنه لا شيء يمنعهم عن إنهاء الحياة على الأرض حيث أنها بأكملها فى قبضتهم...

و الآن أعظم سليل لهؤلاء الرجال العظام يرتعش مثل عصفور بائس فى حياة بائسة. بصق أبوالخير من الضيق . هل انسحق جيله لهذه الدرجة ؟ لا يعني العالم كله و لكن بعض سلاطين السهوب الكازاخية يجبرون الخان الشرعي أن يتلفت حواليه و يفرضون إرادتهم عليه .

نظر خان أبو الخير رغما عنه نحو أحفاد «أوروس خان» و شعر بالإعياء . فقد كان يجلس أمام أتباعه من أرجين بلا حراك «جانيبيك» الوسيم ذى الشارب الأسود و «كيرى» المربع مثل صخرة الجرانيت و كانت وجوههم مثل الخناجر الباردة المشحوذة...

نعم هذان هما الأكثر خطورة من بين كل الآخرين . إنهما لن يسمحا له أبدا بغزو عش قبيلتهما «سيجناك» عاصمة القبيلة البيضاء . و لقد تكدرا عندما تزوج أبو الخير حفيدة تيمور لنك الأعرج و ابنه العالم أولوغبيك فقد كانا يران ذلك خيانة للسهوب . وإذا ترك لهم الخيار فسيرحلون على الفورعن مقره و ينشئون خانيات مستقلة . إنهم ينامون وتترائى لهم تلك اللحظة فى المنام و يعتبرون البكوات من بخارى و سمرقند ألد أعدائهما إلا انه لن يسمح لهما بتنفيذ تلك الرغبة فليس لديهما أى دعم من أي شخص باستثناء الأقارب و لا يحظيان بدعم القاعدة العريضة الصامتة من سكان السهوب لأن سلطة الخان لازالت قوية و تفرض سطوتها عليهم لذا يجب إجبارهم على إلتزام مقر الخان و مشاهدة نظراتهما العاجزة ناحيته...



و لكن ماهو السبيل لإرضاء تلك القاعدة العريضة السهبية عديمة الملامح ؟ و من يحظى الآن بتعاطفها أرجين أم قبجاق ؟ و ما هي عدد المرات التي يتوجب فيها إعادة الحسابات من البداية حول عدد القوات و نفوذ السلاطين و التناقضات التي لا تعد و لا تحصى. حاول أن تضرب عرض الحائط بكلام «أكجول بيك» فسيثور ضدك عن طيب خاطر أرجين ونايمان وكونراد بكل فروعها وهذا ماينتظره بفارغ الصبر «جانيبيك» و«كيرى» . لقد حصلا منذ أمد بعيد على تعاطف تلك العشائر لأنهما يعدان المدافعين عن مصالحهم . وإذا ما أخطأت فسيدفعون إلى السهوب مئات القرى التي تشبه رعاة قطيع من الأبقار الهائجة المصابة بداء النبر و سيسوقون عشائرعديدة و من يعرف كيف سيتصرف الأخرون في تلك الحالة.

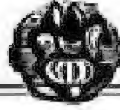
و كيف السبيل إلى رفض طلب الفارس القبجاقي خاصة و أنه يستشهد بقانون الأجداد الغير قابل للتغيير؟ فالقبجاق الآن هم الدعامة للخانة و يدعمهم الكثيرون في السهوب. وفي أي لحظة يمكن الاستعانة بهم ضد «جانيبيك» و« كيرى». يجب فقط اختيار اللحظة المناسبة ....

نعم إن مثال « ناجوى « بالنسبة لخان أبوالخيرمثال تعليمي فعندما يجمع قائد السهوب في يديه الكثير من السلطة يتحول الخان سريعا إلى لعبة في يديه . ينبغي عليه أن يخشى هؤلاء الناس كخشيته من النار و ينبغي عليه أن يحذر سلاطينه من أرجين من ناحية و من قبجاق من ناحية أخرى . و من منهما الأولى بنصرته ؟ بالطبع من الممكن الاستمرار في اللعب على الخلافات بينهم و لكن لا يمكن الاستمرارفي هذا للأبد . و قد قطع العداء بينهما شوطا كبيرا .

من المعلوم أنه ليس هناك شيء أصعب في هذا العالم من مهمة حل نزاعات العشائر الكازاخية بل على العكس ينبغي تعميقها ففي هذا الخلاص و المخرج من هذا الوضع.

من الضروري التوجه نحو الأحداث وعدم الانتظارحتى تأخذك على غرة . أليس بسبب هذه السياسة يحافظ الجنكيزيون على السلطة و النفوذ في السهوب ؟ ماذا سيحدث لو أنه في يوم رائع وجد إنسان يوحد كل هذه القبائل الكازاخية المتباينة و يوجههم إلى هدف واحد ؟ و ما هو ذلك الشيء الذي يستطيع أن يتصدى لهذا السيف ؟

هذا السيف ذو حدين و يجب التعامل معه بحذر بالغ لكي لا يجرح من يمسكه . من الأفضل أن يظل حاليا في غمده . و سيقوم أبوالخير لاحقا بمواصلة تحريض العشائر والقبائل السهبية ضد بعضها البعض غير أنه يجب فعل هذا بحماسة كبيرة و براعة .



وإن لديه من التجربة ما فيه الكفاية و الحريق مشتعل منذ مدة طويلة و يبقى فقط أن يغذيه بالفروع الجافة .

***

كان السلطان « جانيبيك » الذى يحلم منذ مدة طويلة بفصل قبائل دشت و قبجاق السهبية عن قبيلة أبوالخير يفكر بطريقة مغايرة . كان يعلم جيدا الوضع المأساوي الذى كان يوجد فيه خان أبوالخير .أخذ يفكر ليس لقبيلة أبوالخير مجد تليد و قد قويت شوكة خراسان مجددا فى الجنوب الغربى و تزايدت مقاومة شعب ما وراء النهر ضد غاراته و سيطالب التيموريون بمطالبهم بإصرار و لكن مازال الأمر فى طى الكتمان .... و ليس الوضع أفضل من ذلك فى شمال غرب البلاد . و ستنفصل أكثر و أكثر قبيلة « ناجوى» الثائرة و تتزايد يوما بعد يوم قوة الخانة الكازاخية و خانة القرم حيث يكرهون أبوالخير منذ أمد بعيد . و يوجه سلاطين أستراخان أبصارهم نحوهم أكثر وأكثر ....

و لكن ماذا يحدث داخل القبيلة نفسها ؟ تسببت الضرائب المرتفعة بشكل لايصدق و جميع أنواع الواجبات المفروضة على الشعب فى مزيد من السخط بين العشائر السهبية.

و الجميع فى السهوب مستعدون للإنفصال عن قبيلة أبوالخير . و الآن هو الوقت المناسب لوضع هذة البداية المتأخرة جدا على الطريق المنشود .

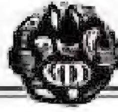
كان « جانيبيك » سياسيا ذكيا و يعلم أنه عندما تتلاقى رغبة الشعب مع رغبة الزعيم الطموح يتحقق له ما يصبو إليه بسهوله . و فى الأونة الأخيرة كانت تظهر أكثر و أكثر على مرأى و مسمع من « جانيبيك » نفس هذه الصورة التى تبدت له منذ فترة ليست بعيدة .

كان «جانيبيك» عائدا من رحلة صيد و فجأة سمع إمرأة تبكي مثل عواء ذئب أصيب بجروح قاتلة فامتطى حصانه مع بعض أصدقائه و صعد إلى التل و رأى أمامه قرية فى الوادى . لم تكن بها حرب دائرة ، و لكن كان يبدو أن العدو كان هنا منذ فترة ليست بعيدة فقد كانت قوائم الخيام محطمة ، و تناثرت هنا و هناك ممتلكات البدو البسيطة.

ووقف الناجون بين القتلى و الجرحى و قد سمع بكائهم و نحيبهم .

عندما غادر «جانيبيك» قابل عجوزا أحدبا ذى لحية بيضاء .

سأله السلطان و قد نسى حتى أن يلقى عليه التحية ماذا حدث يا «كاريا» ؟



قال العجوز بحدة محدقا فى عينى السلطان : متى ينتهي كل هذا ؟ إننا قد انتقلنا إلى هنا مؤخرا من إديل . هناك لم يتركنا بكوات نوجاى و سلاطين أستراخان و القبائل البشكيرية و التتارية ننعم بالهدوء . كان ذلك مفهوما. و هنا على حين غرة هاجمتنا ذئاب أبوالخير ... ذلك لأننا لم نرغب أن نقدم له محاربينا من أجل الانضمام لجيشه و لم نقدرعلى دفع الضرائب الباهظة فى وقتها فأرسل إلينا الخان فرسانه فدمروا قريتنا و سلبونا متاعنا و قتلونا مثلما يفعلون مع الغرباء. إنقذنا يا إبن « بركة خان » . كيف أنقذكم؟

قال العجوز بحزم نريدك أن تقيم خانتك . لماذا يفرض علينا نحن البدو الخدمة العسكرية و الضرائب ؟ و كل هذا من أجل الإنفاق و الحفاظ على قبيلة أبوالخير و أنت ترى كيف يتعاملون معنا...

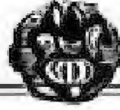
نعم يحدث هذا في كل مكان على الحدود الصينية و الجونغقارية . لقد أدرك الناس ضرورة إنشاء خانيتهم الكازاخية . لقد بدأت التفاحة تنضج و أصبح السلطان «جانيبيك» جاهزا لفعل ذلك . و وفقا للمثل الكازاخى القديم : « اهدم الخيمة القديمة لتبنى الخيمة الجديدة».

كان « أبو الخير» فى حاجة إلى إذكاء الصراعات القبلية لكى يبقى القبائل البدوية صعبة المراس فى إطار قبيلته لأنه كان يتصرف وفق مبدأ فرق تسد . و كان « جانيبيك» فى حاجة إلى مثل هذه الصراعات لتدمير قبيلة أبوالخير .

***

أحدث الباب صريرا فى السكون التام و دخل اليورت الخاص بالخان صبى جميل يبلغ من العمرسبع سنوات . إنه حفيد أبوالخير و ابن « شاه بوداخ» الذى قضى نحبه مؤخرا . مضى إلى العرش مباشرة مرفوع الرأس و لم ينظر حتى إلى رجال الحاشية الكثيرين من البكوات و السلاطين و الأمراء المرتدين ثيابا مطرزة بالذهب . دفن رأسه الحليق إلا من خصلة شعر واحدة فى ركبتى الخان و قال متفاخرا بكلامه بشكل واضح يبدو أن « تارلانكوك» حصان غيرمطيع فهو دائما يريد أن يلقى بى على الأرض و لكنه لم ينجح فى ذلك أبدا ولكن بعد مضى وقت قصير سينصاع لى فى كل شىء...

مسح أبوالخيرعلى رأس حفيده و قال حسنا يا بنى العزيز إننا الآن مشغولون بأمور هامة لذلك اذهب و العب فعندما تكبر ستحترق شئت أم أبيت فى نيران هذا الجحيم. اذهب طالما مازلت غير مضطر للتفكير فى شىء .



نظر الصبى حواليه بدهشة و قال عن أى نار تتحدث ياجدى ؟ عندما أكبر و أصبح خانا سأصدر أوامرى ببناء جنة على الأرض .

ابتسم أبوالخير بحنان و لكنه عبس عندما لاحظ نظرة «بوروندوك» ذى السابعة عشر ربيعا نجل كيرى المصوبة لحفيده . فكم من الكراهية الباردة كانت في تلك النظرة حتى أن صقيعها يكاد يمزق الجلد . كان السبب فى ذلك أنه بعد الابن الثاني للخان «شاه حيدر» يكون الوريث الشرعي هذا الصغير «محمد شيبانى» الذي قال هذه الكلمات الطفولية الغبية حول الجنة المستقبلية على الأرض .

لم يكن هناك شك في أنه بعد وفاة أبوالخيرستتوجه السهام المعادية تحديدا إلى «شاه حيدر» و « محمد شيبانى.... »

احتضن الخان بحنان بالغ حفيده المحبوب فجأة كما لو كان يحميه من النظرات العدائية . فهل من الممكن أن ترفع هذه الذئاب يديها على هذا الطفل البرىء ؟ لابد له أن يكسربسرعة الشارناك و يرمى للأبد التونلوك (الشارناك أساس قبه المنزل و التونلوك سجادة الشعر التى تغطى فتحة المدخنة) الذين يغذيان هذا الشر نحوه . و هنا تذكر أبوالخير رغما عنه كيف تعامل هو نفسه فى وقت ما مع ابن مسعود خوجه الصغير . كان الطفل يبلغ آنذاك ثلاث سنوات و لم يكن فى وسعه أيضا أن يفعل شىء لأبوالخير العظيم المفعم بالقوة ...

شخص واحد فقط من جلسائه خمن لماذا احتضن خان أبوالخير حفيده الصغير فجأة وبحماس . لقد كان السلطان « جانيبيك » العدو الأول للخان . أخذ « جانيبيك» يفكر «مخاوفك صحيحة فهذا الطفل هو وارثك الأخير و بموته ينتهى نسلك و سيكون كآخر حزمة جافة لإكليلية المروج فى موقدك الخابى .... بالنسبة لطفل فى السابعة من عمره فانه ذكى جدا و يعد بأن يكون خانا حقيقيا لكن كل شيء في يد الله و ما نحن إلا منفذين لأقداره »...

لم يستطع السلطان « جانيبيك » بذكائه الفطرى و فطنته أن يعرف أنه بفضل ذلك الصبى تحديدا ستشتعل النار لفترة طويلة فى موقد عائلة أبوالخير .

كرر أبوالخير بحنان هيا اذهب يا بنى فإذا هرب منك « تارلانكوك » العنيد أليس عندك الكثير من الخيول فى قطعانك . إختر لنفسك حصانا أخر...

اتخذ أبوالخيرقرار وليد اللحظة . لا يجب بأي حال من الأحوال أن يجعل الأمر ينتهى إلى



صراع سافر فى الوقت الراهن فالسلام السىء أفضل من الشجار الجيد . و إذا حدث هذا فلابد للخان أن يلعب دور الوسيط فقط . فليدع أرجين و قبجاق يحكمون على بعضهم البعض بالموت و سيلعب هو دور الجلاد و كلما قام بقطع مزيد من رؤوسهم من جراء المسؤولية المتبادلة كلما كان ذلك أفضل..

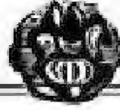
سأل الخان و قد رمق مجلسه بنظرة قاسية ألا يوجد منذ عهد « مايهيبيك » العظيم من قبيلة وسون حق الشعب فى تقريرمسألة حياة أو موت الفرسان الأحرار ؟ حتى جنكيز خان لم يخرق هذا العرف و كيف لى و أنا سليله أن أتجرأ على التدخل في هذا الحق المقدس لشعبي ؟ فليجتمع الوجهاء و النبلاء من أرجين و قبجاق و ليصدورا حكمهم على الفارس «سايان» و سيكون قراركم أمرا بالنسبة لى .

أومأ الجميع برؤوسهم علامة الموافقة ، حيث لا يمكن مخالفة إرادة الخان .

فليكن ما أردت أيها الخان العزيزسنجتمع مرة اخرى .

لمدة ثلاثة أيام أخذ البكوات و شيوخ أرجين و قبجاق يتجادلون و قد تحدث البلغاء من كلا الجانبين بحكمة و فطنة و انسكبت الحكمة السهبية الشهيرة و دوت فى الآفاق معارف الحكماء و العرافين و لم يتفقوا على شىء و بعد ذلك كما هو متوقع بدأوا فى إظهار السكاكين الحادة لبعضهم البعض سرا فى البداية ثم علانية بعد ذلك و قد ألزمهم ضبط النفس فقط حقيقة أن قوات كلا المعسكرين في مقرالخان كانت متماثلة و قد نصحهم كبارالسن بألا يبدأوا المذبحة السافرة . انتهى الأمر بأن قرروا الذهاب مجددا إلى الخان الذي لم يتدخل في أي شيء و تصرف كما لو أن القضية لا تعنيه فى شىء. اجتمع مجلس الخان مرة أخرى و لم يجد مخرجا من هذا المأزق . كان الجميع يدرك جيدا أنه إذا تقاتل اثنان من الكلاب الذئبية فإن السيد لابد و أن يرمى الرمح في أحدهما لحل النزاع وإلا فإنه يخاطر بفقدانهما معا . و لكن فى أى منهما سينغرس الرمح الذى سيرمى عشوائيا؟ في مثل هذا القتال يمكن أن تحدد أن ترمى أحدهما بالرمح و لكنه يصيب الأخر...

كانت عيون أبوالخيرالباردة تنظر إلى مكان بعيد . لن يستطيع الآن بأي حال من الأحوال أن يرمي الرمح في القبجاق . كان يتعين على الخان الحاكم أن يصدرحكما على سايان الكازاخى البسيط . و لكن أليس هذا الانسان البسيط من فرع « بارلاس» من عشيرة ما نجيت السهبية التى تنتمى إلى تيمورلنك الشهيرالذى قام مؤخرا بزلزلة العالم وجعل عاليه أسفله . و عند تذكراسمه سرت رعدة فى جسد أبوالخير....



مزقت التناقضات القبيلة الذهبية و قام رجالها بحفر حفرة فى خانيتهم ألا أنه فى عام 1380 حول « ديمترى دونسكوى » هذه الثغرة فى ميدان كوليكوفو إلى هاوية متثائبة لكن القبيلة الذهبية لم تسقط فيها و واصلت هجماتها على جيرانها . و لقد تمتم تيمورلنك الأعرج بصلاة تأبينية على القبيلة الذهبية .

و أيد تيمورلنك تحديدا عشيرة المحاربين ضد الجنكزيين الآخرين أحفاد جوجى.

و فى عام 1392 م دمرأساس القبيلة الذهبية و جاءت إليها جحافل تيمورلنك فى عام 1395 م من جهة القوقاز و دخلت سراى العاصمة الرائعة التي أسسها « باتى خان» في الروافد الدنيا لنهر إديل . و قد هام « توختاميش خان» على وجهه و بهذا انتهت قوة القبيلة الذهبية...

وقد وجد تيمورلنك المنحدر من قبيلة « بارلاس » مفتاح التاريخ . ربما حدث ذلك لأنه كان من أهل السهوب الشجعان وعرف يعرف كيف يحكمهم . كان أهل السهوب

دائما لغزا محيرا للحكام . و قد وثب « تيمورلنك » الأعرج إلى المجد بعد أن كبح جماحهم كما يكبح جماح حصان برى وأصبحت العديد من البلدان تحت قدميه . لذلك فإن الأمر ليس في حياة واحدة يقرر مصيرها أبوالخير فالحديث يدورعن شيء أكثر أهمية من ذلك بكثير . ينبغى غزو قلوب هؤلاء الناس و بعد ذلك من يدرى ألا يمكن أن يكرر خان أبوالخير مسار تيمورلنك ..؟

كانت سياسة خان أبوالخير تشبه رياح الربيع المتغيرة و تتغير وفقا للظروف . و اشتعلت النيران الدافئة في عيون الخان . و قد فكر أبوالخير «و إذا قمت بحل هذه المشكلة بطريقة إنسانية فلا شك أن هذا سيعجب البسطاء . قل ماشئت و لكن كل حاكم يحاول أن يحظى بثقتهم . فى النهاية يعتمد مصير الخانة عليهم »....

حكم خان أبوالخير بلدا ضخما مدة ثلاثين عاما و جاءت إليه الآن فقط هذه الحقيقة البسيطة . لقد قرر أولا و قبل كل شيء استجواب الجاني نفسه ثم يكون رأيا خاصا عن ذنبه . لوح بيده ببطء و حل المجلس...

التقط الخان جرسا فضيا و هزهه قليلا فدوى صوت لحنى هادىء و ظهرعلى الفور العجوز النحيف شاحب الوجه «أوسبان خوجه » أحد المقربين من الخان . وضع يده على صدره بصمت و أحنى رأسه بإحترام فى انتظار الأوامر .

دعهم يحضرون لي السجين.

أى سجين سيدى الخان؟



تبدت الحيرة من عينيى « أوسبان خوجه » . ابتسم خان أبوالخير خلسه و بخبث « ففى واقع الأمر من منهم ؟ » فكثير من الناس خلال الثلاثين عاما قد أودعوا السجن . لقد نسى الكثيرين و حتى أنه لايعرف هل بقى منهم أحد على قيد الحياة هناك تحت الأرض أم لا ؟ و كان بعضهم كميت فى القبر أفضل منه حيا . كانت الزنزانة مثل القبر رطبة و باردة وعلاوة على ذلك كانت السلاسل الثقيلة الصدئة تلتف حول أيديهم وحلوقهم .

إنه مازال يتذكر اسم هذا الفارس الذى يدور حوله الجدال . إنه يدعى « سايان » وربما تكون حياته و حريته أغلى شىء بالنسبة له أما بالنسبة للخان فحياة هذا الفارس لا تساوى عنده حياة بعوضة مثل تلك التى تطن الآن فوق أذنه . سايان ... أين سمع آخرمرة هذا الاسم الرنان ؟... نعم نعم لقد تذكرت . لقد تحدثت عنه « ربيعة سلطان بيغيم » . لقد طلبت أن تعين هذا الشاب تحديدا مربيا و معلما لابنها الثانى «سويونشك». لماذا توسلت فى طلب ذلك؟

***

لم ينفذ طلب « ربيعة سلطان بيغيم» آنذاك و قال إنه مادام حيا فليس هناك ما يدعو لطلب معلمين غرباء لأبنائه . و لكن لماذا لم يواجه المرأة ؟ ربما كانت هذه بعض الوشايات مثل تلك التى كانت ترتع فى قصورالخانات عبر القرون ؟ وعلى الرغم من أنه يثق بالنقاء الكريستالى لزوجته الحبيبة فقد ترك القيل والقال بعض الأثر في نفسه .

لكن من سايان هذا ؟

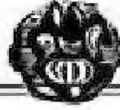
فى إحدى الحملات ألقى عليه نظرة خاطفة و لكن من مسافة بعيدة و لم يتبين معالم وجهه بسبب الخوذة الحديدية التى كان يضعها الفارس على رأسه . لم تكرر الزوجة طلبها و من جانبه فقد نسى أمرهذا الشخص تماما . مرت سبع سنوات منذ ذلك الحين ...

التفت خان أبوالخير إلى خادمه و قال بلهجه آمره:

دعهم يحضرون ذلك الفارس الذى تسبب فى النزاع بين أرجين و قبجاق و لسبب ما لم يذكراسم الفارس «سايان» . سمعا و طاعة يا سيدى الخان.

أتكون الشيخوخة هى السبب فى أنه يعود كل الوقت بأفكاره إلى الماضي؟ هنا والآن حالما يقومون بسحب هذا الفارس ذى الاسم الذى لاينسى من الحفرة و إحضاره إليه مرت أمامه مجددا حياته الرائعة و الصعبة ... لم يكونوا قد أطلقوا بعد على هذا المكان الذى شغله منذ أن كان عمره سبعة عشر عاما عرش ساين و عرش جوجى و عرش باتى.

كان مقر الخانة آنذاك عند مصب نهر إرتيش في مدينة «تور تشينغ تيومين» حيث



يتجمد البصاق في فصل الشتاء قبل أن يصل إلى الأرض. من هناك بدأ غزواته الواحدة تلو الأخرى قاهرا الخانيات الكازاخية المتناثرة . و قد استولى على بيرى إيشيمى و شواطىء توبول و نورا و قد وصل دون أن يعترضه أحد إلى جبل أوليتاى والذى كانت ترفرف على قمته فى حين ما راية جوجى .

و قد نقل مقره لاحقا إلى مدينة « أوردا بازار » التى كانت فى حينما النقطة السابقة لتجمع قوات « باتى» قبل التحرك إلى الغرب . و قد دانت له سهوب دشت و قبجاق ، و كان يحده من الشرق ما وراء إرتيش وفى الشمال ما وراء يسيل وفى الغرب ما وراء جايك و أديل و فى الجنوب ماوراء نهر سير داريا . كان الأقرب و الأغنى من كل هذه البلاد بلاد ما بين النهرين . لم يتمكن خلفاء تيمورلنك بأى حال من الأحوال أن يتقاسموا فيما بينهم الإرث الذى تركه لهم و قد قرر أن يساعدهم فى تلك المسألة الصعبة . كان تيمورلنك الأعرج قد أخضع مساحة واسعة جدا من الأرض فانتزع الخان منهم سيجناك و سوزاك و أركوك و أكورجان و مدن أخرى و قلص همومهم بدرجة كبيرة . و هكذا بدت آسيا الوسطى مقسمة بين أحفاد جوجدى شيباني و أحفاد تيمورلنك و على كل حال فلم يحصل على الجزء الأسوء...

ولكن ما الذى يجب فعله فى الوقت المتبقى الذى سيسمح لنا به القدر . مغولستان.

تستغرق الرحلة فى طول هذا البلد الغنى وعرضه ستة أشهر . من جو نجاروف فى الشرق إلى طشقند و تركستان في الغرب و من البحر الأزرق لبلكاش فى الشمال إلى وديان كاشغر الخضراء في الجنوب. كاشغر و السبعة أنهار و توربان الرائعة فهل توجد على الأرض أرض أغنى منها . و يحكمها خانات من قبيلة جاغتاى و معظم رعاياهم هى القبائل الكازاخية.

ليس من نافلة القول أن نذكر أنه بالنسبه إلى البكوات الأرجينين والسلاطين من معسكره وكذلك لجانيبيك و كيرى تعد مغولستان الدعامة و العمق . فإذا قرر حفيدا أوروس خان جانيبيك و كيرى إنشاء خانية كازاخية مستقلة و فكرا فى ترك معسكره فإنهما حتما سيذهبان إلى مغولستان . و لكن ماذا سيفعلان عندما ستدخل مغولستان فى دولته العظيمة ؟ نعم فهذا سيكون كمامة جديدة و قوية للذئاب الناظرة فى الغابة.

بالكاد سمع صرير الباب و دخل «أوسبان خوجه» ذو الوجه الشاحب و خلفه إثنان من الحراس شاهرين السيوف يقودان الفارس المقبوض عليه.

يا سيدي الخان لقد نفذنا أوامركم.



كان الخان لايزال ينظر بعيدا ثم إلتفت ببطء و فجأة شحب وجهه كأنه ميت ...

كان ابنه «سويونشيك» يشبه الشخص الواقف أمامه تماما كما تتشابه قطرتى الماء. نفس الحاجبين السميكين السوداوين و الأنف المعكوف و العيون لوزية الشكل. وكذلك الليونة الطبيعية للحركات مثل النمر غير أن ابنه ليس له شارب حتى الآن و إلا فإنه يمكن أن نعتبرهما شقيقين .

إذاً لهذا السبب كانت زوجته الجميلة «ربيعه سلطان بيغيم» تطلب بإصرار أن يكون هذا الرجل مربيا لسويونشيك الصغير ... تملكه غضب عارم و استيقظت على الفور كل شكوكه و تحولت إلى يقين . فقط الأعمى هو الذى لايمكن أن يفهم ما يجري هنا . يجب أن يموت هذا الفارس على الفور. اليوم . الآن . و هنا أمامه...

و قد امتدت يد أبوالخير إلى مقبض خنجره الخراسانى الطويل المعلق على حزامه.

و بصمت و بدون أى جهد أخرج الخنجر من غمده .

وفقا لتعبيرات وجه الخان المتغيرة خمن سايان مصيره . و لم تفارق نظرته يد الخان التى أخرجت الخنجر من غمده . و بعد أن عض شفته نظر الفارس مباشرة في عينى أبوالخير .

نظرالخان إليه بعبوس و تذكر القانون القديم الذى يقضى بأنه «لديك الحق في قطع الرأس و لكن لا بد من الاستماع قبل هذا إلى ما سيقوله لسان الشخص المدان» هكذا أوصى الأجداد . و ممن نتعلم الحكمة إذا لم نتعلمها منهم ؟ هل تقر بالتهم الموجهة اليك ؟

لم يعرف خان أبوالخيرصوته . كان صوته ضعيفا و مرتجفا و كأن الكلمات كانت تخرج منعصرة من حلقه . صمت الفارس كما لو لم يكن حديث الخان موجها إليه . و مرة أخرى ضرب الغضب رأس أبوالخير وقال : هيا تكلم.

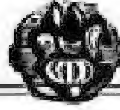
***

صاح الخان و أصبحت عيناه حمراء بسبب الدم المتدفق .

أحنى الفارس رأسه قليلا و قال :

ربما أنا مذنب فى شيء أخر و لكن ليس في ما يتحدث عنه الفارس «قوبلاندى» . إننى أتذكرالتعليمات العسكرية و لم أفعل ماقال به...

تحدث الفارس بهدوء و لكن بعزة . جعل صوته أبوالخير يصبح فى حالة اللاوعى .



« ربما أنا مذنب فى شيء أخر». حسنا لقد فهم خان أبوالخير السم المتضمن في هذه الكلمات . لقد أهان رجولته. و إذا كوى لسان هذا الوقح بقضيب حديد ساخن فإنه يستطيع أن يقول الكثير....

هل تعتقد أن الفارس « قوبلاندى» يلوث نفسه بالكذب ؟ نظر الفارس فى عينيه مرة أخرى وقال :

إنك ياسيدى الخان تعلم أكثرمنى لماذا يتصرف الفارس قوبلاندى على هذا النحو ...

« ماذا يعني ذلك؟ ..» نظرأبوالخير بثبات إلى الفارس المقيد فى الأصفاد .

إنه ليس ساذجا فهو يعرف تحديدا لماذا يكذب عليه الأعداء و بالطبع فإن السهوب كلها تعلم منذ فترة طويلة أنه يوجد في مقر الخان فارس يشبهه ابن الخان سويونيتشك أكثر بكثير مما يشبه والده الخان .

إن الفارس «قوبلاندى» يعرف كيف توترت علاقتي مع سلاطين عشيرة أرجين و يتهم هذا الفارس كفتيل لإشعال الحطب الجاهز و ليس من قبيل الصدفة أن عشيرة أرجين ستدافع عن هذا الشاب بإصرار. وسيبتسم «جانيبيك» و«كيرى» بشكل متعجرف..

كلا البتة إن الغضب مثل النهر المجنون يجرف كل شيء في طريقه و كلما كان اجتياحه قويا كان تدفقه ضعيفا فيما بعد فالقرارالمتسرع و خاصة تحت تأثير الغضب العدو الأول للحاكم

نزع أبوالخير يده ببطء عن الخنجر و قال :

من أى العشائر أنت ؟ ما نجيت من قبيلة بارلاس.

حملق الخان مرة أخرى بغضب في وجه هذا الفارس الشاب . كانت فى عينيه بعض النيران الغامضة بالنسبة للغرباء ... و فى النهاية هذا لم يكن إستثناء . لكن «ربيعه سلطان بيغيم» قالت له ذات مرة إن الصغير سيونوتشيك يشبه أقاربها من ناحيه الأم . وجميعهم من المانجيت . وعادة لدى كل الفرسان من قبيلة بارلاس حواجب كثة سميكة. فهل هذا الفارس مذنب أنه ولد بحاجبين كحاجبى ابنه ؟ ألا يشبه وجه خان أبوالخير نفسه وجوه الأوزبك أقاربائه من جهة الأم ؟

و لماذا لم يتحقق من هذه الشائعات عندما سمع بها لأول مرة ؟ و ماذا قال له فى حينه الوزير العجوز الحكيم «ساريجيل شيمان» من قبيلة مانجيت ؟ « إن زوجة الحاكم خان أبو الخيرمثل بحر المرح و شمس الفضيلة ، حفيدة العظيم الذى لاينسى تيمورلنك



و كذلك ابنة العالم أولوغبيك و إنها يجب أن تكون بعيدة عن أية شكوك» ثم صمت الرجل العجوز و أضاف بلهجته المعتادة : «هذا ضروري لكلا الجانبين و خاصة الآن عندما يتعين عليك أن تضع ابنك حيدر شاه يا خاني العزيزعلى عرش سمرقند»...

ماذا سيكسب الآن باستئناف هذه الشائعات ؟ هل تحسنت منذ ذلك الحين علاقته مع أحفاد تيمورلنك الأعرج ؟ و ماذا سيقولون في السهوب إذا أمرت بإعدام هذا الفارس؟ سيقولون أنه قد شك فى زوجته فأعدم رجلا بريئا . و العامة لن تغفر ذلك .القيل والقال يسود أسوأ من السخام . حتى لو كانوا يخشون قول ذلك أمامى فإنهم بلا شك سيفكرون فيه و سيشتهر ذلك عبر القرون و يجعلونه أضحوكة . و هل يمكن أن يكون الخان رجلا هزليا ؟

لكن كيف يعفو عن ذلك الفارس خاصة أن الفارس قوبلاندى ينتظر الترضية ؟ ألا يتوجب الصمت كأنه لم يفهم شيئا ؟ في هذه الحالة سوف تصبح أحمقا في أعين الناس أوعلى أفضل حال سيعدونه جبانا يسمح لواحد من الرعاع أن يتسلل إلى فراش الزوجية..

كلا هذا الفارس سيموت و لكن ليحدث ذلك بدون أن يقع اللوم على الخان و يكون شرفه مصانا .عندها سيخافون أكثر و ليتحدثوا في كل منزل عن ذلك همسا .هذا الهمس سيكون شيئا مختلفا تماما فسيكون خجولا وجلا بدون ظل من السخرية . هذا الهمس لايضر الحاكم أبدا .

و كيف لم يخطر بباله هذا الحل البسيط جدا ؟ وهل يحظى للمرة الأولى بمثل هذه الوسيلة ؟ أشرق وجه خان أبوالخير و صار ينظر إلى الفارس نظره أبوية دافئة.

قال أبوالخير حسنا سنقرر مصيرك حين ننتهى من وليمة ذكرى السلطان شاه بوداخ .

فلماذا نسود أيام الحداد هذه ببطل أخر ؟ . راقبوه وهناك سنرى ما سوف نفعله معه...

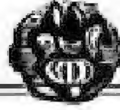
لم ينبس الفارس ببنت شفة ثم التفت إلى الباب و اقتاده الحراس و لكن قبل أن يخرجوا الخان بصوت عال و واضح.

احرصوا على ألا يقع له مكروه و أنتم المسئولون أمامى عن سلامته...

أحنى الخادم رأسه و قال سمعا و طاعة يا سيدي الخان

***

حدد أبوالخير موعد وليمة ذكرى ابنه البكر « شاه بوداخ » بعد ثلاثة أيام . و بحسب العرف القديم للسهوب فإن وليمة الذكرى تختلف تماما عن الدفن . فهى تتميز باحتفالية



كبيرة كما لو أن الميت يتواجد فيها كشخص حى و ليس من المفترض أن يحزن أحد خلالها و تقام خلالها ألعاب الخيل و سباقات الخيول و مسابقات المصارعة و المسابقات بين الشعراء المغنين.

فى هذه المرة تم دعوة جميع الناس الأكثرشهرة . و كانت الأحاديث تدور فقط عن المسابقة القادمة للرواة المطربين المعروفين في جميع أنحاء السهوب وهما الشاعر «كازتوجان» القبجاقى والأرجينى المرتَجل الشاعر «كوتان». كان لسان الشاعر «كازتوجان» مثل القماش الأحمر الناري و أسنانه أكثرحدة من السيف و لكن كانت قامته كما يقول الكازاخ أقل من الغراب . أما الشاعر «كوتان» فقد تجاوزالتسعين من عمره و لكن صوته كان يدوى مثل ما كان عليه من خمسين عاما مضت . و قد دعى «أسان كا يجى» العظيم الحكيم ذو المائة عام و العراف الذى ظلت شهرته قرونا عديدة ليكون حكما لهذه المباراة و هو سليل الجيل السادس لـ « مايهيى بيك» المشرع العظيم وكانوا فى السهوب يوقرونه كقديس خلال حياته...

وبينما كان أبوالخير يفكرفى وليمة الذكرى القادمة استدعى «أوسبان خوجه»مجددا و أصدر إليه بعض الأوامر المهمة ثم قال فى النهاية كفكرة عرضت له :

سننظرفى أمرهذا الفارس فى يوم أخر بعد وليمة الذكرى إذا...

...إذا لم يقتل هذا الفارس نفسه فكثيرا ما يحدث أن ينهى المدانون حياتهم بأيديهم خوفا من المحاكمة القادمة . و لكن هذا الفارس لديه نظرة شامخة و أشك أنه يريد أن يعرض نفسه للعار ...

تحركت بالكاد شفتى « أوسبان خوجه» وقال :

نعم ، يمكن أن يحدث هذا يا سيدى الخان...



III

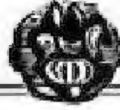
جرى العرف على أن وليمة الذكرى تقام فى السهوب و فى الهواء الطلق حيث تنعم روح قاطن السهوب بالحرية و الفرح . فضلا عن ذلك تتطلب سباقات الخيل والفروسية مكانا فسيحا . لهذا السبب قرر خان أبوالخير دعوة الضيوف إلى شاطىء بحيرة « أكول » التى تقع غرب جبل أوليتاى . و قد تم دعوة جميع أمراء و سلاطين دشت و قبجاق بدون استثناء وكذلك بلاد ما وراء النهر للمشاركة فى هذه الوليمة التذكارية .

هنا تتهادى الموجات الزمردية والفضية حتى الأفق بسبب رياح العشب و ينغمس الفارس حتى صدره فى البحر الحار و الحى . و من بعيد تعلوها الظلال الزرقاء و الرمادية لجبال أوليتاى و كيتشيتاو حيث ترقد جثامين الفارس إيد يجى الشهير و خان توخاتاميش. وتحت الأقدام مع كل خطوة تومض عناقيد التوت البرى الحمراء النارية و العوسج وتختفى فى الأوراق قلائد الكشمش الأسود الناضج . و تفوح مع سطوع الشمس رائحة أزهارالفاوانيا العملاقة وزنبق الماء و الأجراس و زنابق البحيرة و الورود و التوليب من كل الألوان و الظلال. وفي منتصف هذه السجادة الفريدة غير المحدودة المسكوبة من كوب فضى تجمدت بحيرة أكول....

لم يكن هناك أحد حول البحيرة أوعلى أطرافها غير الوحوش الهائمة و الطيور المهاجرة. و ليلا و نهارا لا يهدأ الصوت الفرح و القلق لكل أنواع النباتات البرية. و في منتصف سطح البحيرة السحرية يسبح قطيع من طيور البجع بشكل مهيب مع الأفراخ الصغيرة ، ومن وقت لآخر يسمع صوت لطيف من جراء مناداتهم على بعضهم البعض والذى يشبه صوت الناي...

فى الطرف الغربى يتحول التل إلى اللون الأزرق و على قمته يوجد شاهد قبرعلى شكل تمثال متجمد. هذا التمثال الحجرى مخلوق غريب يشبه الإنسان بشوارب مدلاة و يحمل كأسا في يده اليمنى . و فى تلك الكئوس كانوا يشربون حليب الفرس فى السهوب عبر القرون ....

تروى الأساطير المختلفة حكايات تلك التماثيل . تروى واحدة من تلك الأساطير أنه



كان لدى القبجاق فى وقت ما عادة تتمثل فى أنه بعد اليوم السابع واليوم الأربعين من وفاة الرجل ذو الشأن يقومون بصنع دمية من الخشب تشبه الميت و يلبسونها ملابس إحتفالية كان يحبها أثناء حياته و يضعونها فى دائرة الولائم . و يعلم القبجاق أن الروح خالدة و أنها دائما ما توجد على مقربة من أقارب الفقيد وستسعد بالطبع أن ترى أن الأحياء لم ينسونها وعندما تحل فى صورة المتوفى فإنها تحتفل مع الجميع أما الأقارب فيلتزمون بتقديم جميع مظاهر التكريم الضرورية لها و يقدمون للدمية كأسا مليئا بحليب الفرس و يضعون أمامها كل أنواع الأطعمة .

كانوا يجلبون الذبائح بما يتناسب مع عمر و مكانة المتوفى بدءً من واحد إلى ثلاثة من رؤوس الحيوانات المختلفة مضروبة فى تسع أى عدد سبعة وعشرين رأسا من الأغنام أو الخيول .

وقد نحتت تلك التماثيل و الأعمدة الحجرية و اقيمت كذكرى لهذه الجنازات والولائم الجنائزية . و يمثل التمثال الذى يحمل كأسا فى يديه المتوفى نفسه ، أما التماثيل المجاورة الواقفة بجانبه و الأقل حجما فهم المقربين والأقارب...

في صباح أحد الأيام على الشاطئ الشمالي من البحيرة كما في الحكاية الخرافية أقيمت ثلاثمائة من اليورتات البيضاء الضخمة . و كان لها اثنتا عشرة جناحا. و كان كل شيء بداخلها معدا لاستقبال الضيوف فقد وضعت السجاجيد الحريرية فوق سجاجيد من صوف الجمال والأغنام و كذلك وسائد الريش اللينة و الستائرالحريرية المبطنة على طول الحوائط إذ جاءت إلى هنا منذ مدة قصيرة تسعة قوافل كبيرة من سمرقند و بخارى محملة بجميع انواع اللوازم .

فى المكان الأكثر جمالا فى الضفة الغربية تحت تل التماثيل القديمة يقع مقر الخان و كثير من اليورتات البيضاء من مختلف الأحجام كأنهم يسبحون في المياة الزرقاء .

أما يورتات وزراء الخان و السلاطين الجنكيزين فتقع فى الجنوب و من بينها يبرز يورتجانيبيك و كيرى الذى يماثل مقر الخان فى حجمه و تعلوه راية بيضاء مع نفس ذيل حصان أبيض في نهايتها .

على الشاطئ الشرقي امتدت سلسلة من اليورتات السوداء للطهاة الكثيرين و الخدم الذين تم استقدامهم خصيصا من بلاد ما وراء النهر و كذلك للطيورالجارحة. وأقيم خلفها عشرون رواقا متينا نسجت من شعر الخيل ليربطون بها الخيول الصغيرة . و قد جلبوا إلى هنا ثلاثة آلاف من الأفراس الحلوب كى يكفى حليبها الضيوف الكثيرين . كانوا يذبحون



يوميا قطعان كاملة من الأغنام السمينة و الخيول البراقة والتى كانت لا تستطيع الحركة بسبب سمنتها المفرطة .

***

انقضى أسبوع وليمة الذكرى . فى اليوم الأول أطلقوا ثلثمائة من الخيول المختارة من بحيرة « شويندى كول» التى تقع فى أقصى جبل أرجيناتى . و قد فاز بالجائزة الأولى الحصان الشهير « تارلانكوك» المملوك لخان أبوالخير و الذى كان يركبه حفيد الخان ذو السبعة أعوام «محمد شيبانى» . و قد وعد الخان الذى أطربه هذا النصر أن يقيم إحتفالا خاصا بمناسبة هذا النصر المؤزر. ثم جرت مباريات المصارعة و فاز فيها على جميع المصارعين الأشداء الفارس « كاراجال» الذى كانت يديه أكبر سمكا من أرجل الجمل العجوز.

و قد حصل ثلاث مرات على تسع هدايا كما كان متوقعا ، وأهم هدية حصل عليها من بين هدايا الخان جمل أحمر طويل الأرجل مغطى من الرأس حتى الذيل بسجادة خراسانية غالية

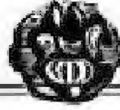
لكن فى سباقات الفروسية لم يستطع أحد أن يتصدى لحصان الفارس « قوبلاندى». ولكن لفترة قصيرة جدا تصدى له القائد الحربى الأرجينى الشهير «أكجول بيك» ولكنه لم يصمد لاندفاع فرسه و وقع على ركبتيه و اعتبرالحكام ذلك هزيمة .

و جرت كذلك مسابقات الجمال و المصارعة النسائية ومنافسات الصبية ثم حانت بعد كل ذلك اللحظة المثيرة والاحتفالية و هى مسابقات الشعراء المرتجلين . و كانت تحفل بالكثير من المخاطرالتى تهدد مجد الزعماء و الأقوياء لأنه منذ القدم سمح للشعراء المرتجلين أن يسخروا من ضعف و عيوب جميع الناس بغض النظرعن أصولهم و ثروتهم وكان الشعراء الحقيقيون يتمتعون بذلك الحق على أكمل وجه . و فى هذه المرة وعدوا بأن تكون المنافسات حادة جدا خاصة و أن الحكم فيها « أسان كا يجى».

وصل لتوه «أسان كا يجى» الذى يبلغ من العمرمائة عام من رحلة إلى ضفاف البحر الأزرق الذى يسميه الكازاخ منذ القدم بلكاش و سرعان ما نزل عن جمله السريع أملس الصوف و ذهب إلى منزل الخان .

بعد التحيات الواجبة سأله خان أبوالخير حدثنا « ياأسان أتا» هل يمكن أن ننقل قبيلتنا إلى شاطىء البحر الأزرق ؟ هذا هو مانفكر فيه فى الوقت الحالى ....

أجاب العجوزعلى وجه السرعة و بطريقته التى لا تتغير :



و من يجرؤ أن يعارض الخان الحكيم إذا اختار بدلا من المراعي الخصبة أرضا مالحة جرداء ؟ أما بالنسبة لي فيمكنني أن أغني لك عن ضفاف البحر الأزرق :

الجمل وحده فقط

هو الذي يسكن هذه الصحراء في حالة ما إذا كانت النتوءات في ركبتيه بسمك أربعة أصابع و عن الأرض التي تسأل

يمكنك فقط إرسال شيخ عقيم ليعيش هناك باقي أيامه .

قبل بدء مهامه كقاضي في هذه المنافسات الهامة توجه المغني إلى الخان و قال:

منذ زمن جدنا «مايهي بيك» كان يحصل على الجائزة الأولى دائما من يعظم قبيلة الخان أفضل من الآخرين و لكنى الآن بلغت المائة عام و أنا عازم على كسر عادات الأجداد . على كل حال فإنه قد آن الأوان من حيث السن أن أصبح واحدا منهم لذلك فحكمي سيكون غير قابل للجدال و أنا أوافق أن أحكم المسابقات بهذا الشرط ...

حتى الخان لا يمكن أن يرفض حكم رجل تبجله كل السهوب.

قال أبوالخير لقد تحققت أمنيتك « يا أسان آتا».

و قدم « أسان » شروطه فقال سيتم منح الجائزة الأولى إلى الشخص الذي سيكون الأكثر صدقا في أغانيه و يستطيع أن يمدح بكل ما أوتى من قوة شجاعة ، و قوة بسالة ، وذكاء ، وكرم ، و فرح و حزن قبيلته . و الجائزة الثانية يحصل عليها الشاعر المرتجل الذى سيكون صادقا فما يتعلق بالخان الحاكم والسلاطين الذين يحملون أعباء السلطة عن الناس و سيحصل على الجائزة الثالثة من سيتنبأ بمستقبل بلاد دشت و قبجاق....

لكن الجديد ليس فى هذا و لكن فى تقسيم الشعراء المتسابقين إلى أزواج . و إذا قام أحدهم بالغناء عن شجاعة و مآثر قبيلته أو عشيرته فإنه ينبغى على الشاعر الآخر أن يحكى عن الجوانب السلبية لهذه الأعمال بالنسبة للقبائل والعشائرالأخرى . و هذه الشروط يلتزم بها المتنافسون على الجائزة الثانية و الثالثة . و التأكيدات التى يسوقها أحد المغنيين الشعراء لابد أن يفندها الأخر و سيفوز من ستؤيده الغالبية العظمى من المستمعين.

ربما كان القبجاق أكثر عشائرالسهوب الذين عانوا من الغزو المغولى بل و عانوا أكثر من الصراع المستمرعلى السلطة فى القبيلة الذهبية . في النهاية تفككت القبيلة الموحدة. و قد رحل جزء من القبيلة إلى الغرب قاصدين الروافد الدنيا لنهر إديل في



حين انتقل الجزء الآخر إلى الشرق . و عند الفراق قيلت مرثيات عظيمة و اشتهر الشاعر «كازتوجان» بين الشعب بأغنية فراق القبجاق لنهر إديل و التى غناها مباشرة من على صهوة حصانه الأشعث : عند الأنهار الثلاثة المشرقة التى تشبه التعليقات في المجوهرات النسائية كان يوجد قصرى المهيب.

عند تلك الأنهار كان الجمل لنحيل عديم الصوف سرعان ما يصبح جملا قويا

وإذا تاهت في المروج الساحلية النعجة الصغيرة فسيجدون هناك في العام المقبل ألف قطيع .

و قد آن الآوان كى يتغنى المغنى بشجاعة و ثروة قبيلة القبجاق و سيقوم بمعارضة الشاعر العجوز المبجل « كوتان» من أرجين و هذا ما أعطى المنافسة طابعا خاصا . و كان «كوتان» من عائلة عريقة من المغنيين و العرافين و كذلك والده الشاعر « سيبار» الذى رثى شعبه عندما حلت به كارثة غير مسبوقة :

كيف يمكن للحية أن تعيش بدون ذراعين و بدون ساقين

كيف يمكن للحمار الوحشى أن يعيش بدون ذيل و بدون عرف ؟

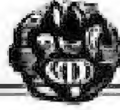
و إذا أراد واحد منهم بطريقة أو بأخرى أن يعطى مزية لقبيلته فقد كان الحكيم «أسان كا يجى» يفوق جميع هؤلاء المغنيين المشهورين. كانت أغانيه العميقة والحزينة مثل نهر جبار يستقبل تيارات لا تعد و لا تحصى ، و تستوعب آمال و تطلعات جميع القبائل، و العشائر الكازاخية . جلس الآلاف من الناس حول قبيلة الخان . من كان قريبا جلس على السجاد و سجاد آخر مصنوع من صوف الغنم و صوف الإبل المطرز و جلس من يلونهم على الحصير العادى و من كان بعيدا جدا جلس العشب الأخضر . نظر إليهم «أسان كا يجى»العجوز نظرة طويلة و ثاقبة ، و تفحص بعينيه السهوب مسقط رأسه ببطء حتى الأفق و شرع فى الغناء :

الثروة الحقيقية و المجوهرات يوجدان فى قاع البحار العميقة النبل الحقيقى والحكمة

يوجدان فى أعماق النفس البشرية...

و اللؤلؤ الذى يخفيه البحر فى جوفه يرميه الإعصار على الشاطىء و تظهر الحكمة أثناء المصيبة عندما يتعب القلب من الجروح...

كانت هذه أغنيته الشهيرة عن مصير الوطن التى حفظها الشعب إلى الأبد في ذاكرته النبيلة . و بعد أن غناها كافتتاحية للمسابقة مسح بالمنديل العرق عن وجهه المسفوع والمدبوغ من الشمس و السنين و التفت إلى الشعراء .



ساد صمت تام و سمع فقط صوت الكروان فى السماء و أومأ «أسان كا يجى» برأسه و قال:

ابدأ أيها الشاعر الشهير كازتوجان.

بدأ الشاعرالصغير فى الغناء عن القبجاق الأحرار و كيف قابل القبجاق « بتشينجى» الأجداد البعيدين لـ «كاراكالباكي» وأقاربهم الأتراك الذين عبروا نهر إديل فى القرن العاشر . و قد اضطهدوا بلا رحمة أقاربهم الضعفاء و تحركوا إلى الروافد الدنيا لنهر الدون و الدنيبر . وهنا وقفت المدن الروسية فى طريقهم و بدأت حرب مستمرة طويلة الأمد تخللتها غارات مفاجئة و مصالحات و تقارب و غارات جديدة. و بفضل الصلابة ، و القدرة منذ الطفولة على الجلوس فى السرج على صهوة الحصان ، و كذلك التنقل المصاحب للبدو فإن القبجاق على الرغم من قلتهم العددية النسبية شكلوا تهديدا خطيرا للحصون الحدودية و أحيانا لمدينة كييف نفسها . و تذكر الشاعر «كازتوجان» الأغانى القديمة عن هذه الغارات و جمعها فى قصيدة عسكرية واحدة عن الأزمنة الغابرة...

***

يجلس الصبى من القبجاق على الحصان و هوغير قادر بعد على المشي و يمسك بعرف الحصان باستماتة و عندما تتعود رجليه على ركوب الخيل فإنها تمسك بجانبى الحصان و تبدأ يديه المتحررة فى سحب القوس أو يرمى الحبل على كل مايقابله فى طريقه .

ويصيب من السرج مباشرة دون أى استهداف الطائر الذى يرى بالكاد فى السماء ويصطاد الغزال الشارد بالحبل فى لحظة خاطفة من مائة خطوة فقط . و بمجرد أن يكبر يسلمونه سيف جده المعكوف و يصبح محاربا . و تستطيع عيونه الحادة التى ليست أقل حدة من عيون النسر أن تميز الفريسة فى ميدان مفتوح و يسمع الخطر من بعيد. و قليل جدا من نجح فى الاقتراب من معسكر القبجاق دون أن يلاحظه أحد .

و تعود الاستراتيجية العسكرية و التكتيك للقبجاق إلى العصور القديمة. و عن طريق الاندفاع الرهيب للحصان كالإنهيار الثلجى كانوا يهجمون دائما على العدو ويمطرونه بالسهام . و إذا صمد العدو لهجومهم فإنهم يغيرون وجهة الخيول المطيعة فورا و يختفون فى ضباب السهوب . و لكنهم أحيانا لايتحملون النجاح الذى يحرزه الأعداء ويهرعون فى مطاردتهم و فجأة يسقط عليهم إعصار كامل من السهام من جميع الوديان والقرى السهبية و يحقق الفرسان العائدون النصر لأنه ليس هناك شيء أسوأ للعدو الهارب من السيوف المنحنية الثقيله القبجاقية الشهيرة من الفولاذ الدمشقى الأزرق...



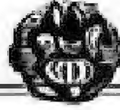
وتوجد لديهم طريقة أخرى فعندما تصطف القوى الأساسية أمام بعضها البعض يشكل القبجاق مثلثهم السهبي الشهير. و كانت القوات القبجاقية تصطف في عدة صفوف و تكون الزاوية للأمام . و يقف على الجوانب الحادة للمثلث أكثر الفرسان قوة وخبرة. و بين الصفوف توضع العربات السهبية الضخمة بشكل متلاصق واحدة وراء الأخرى و التي لها القدرة على التصدي للهجوم المضاد للعدو . و خلف هذه الخطوط تختفي القوات الاحتياطية الجاهزة في أي لحظة للانطلاق و الاشتباك مع العدو .....

و كان القبجاق واسعي الحيلة أيضا في عملية الدفاع فعندما كان العدو

يتفوق عليهم عدديا فإنهم يجعلون من تلك العربات دفاعا دائريا في عدة صفوف تاركين ممرات ضيقة متعرجة للقيام بهجوم مضاد . وعندما يتحطم الخط الأول للمهاجمين تحت عجلات العربات و يندفع الجميع في قتال متلاحم يندفع المحاربون من الممرات بالسيوف الثقيلة الناركيسكينية و تسمى كذلك لأنه بضربة واحدة منها يقطعون رأس الجمل الضخم. و يبتعد العدو الذي يصيبه الذهول عن ذلك الحصن ثم يمر الخيالة من جديد عبر الممرات و تنزلق الخيول المدربة بصفة خاصة بفضل العربات مثل أسماك الكراكي من نبات الديس في بحيرة سهبية لم يمسسها من قبل بشر. و قد كانوا يحسون وهم بين العربات كأنهم في ميدان مفتوح و في نفس الوقت كانوا يكسرون أرجل الخيول التي تقدم اليهم و يقتلونها مع فرسانها . و كان الجميع مسلحا بالسهام القبجاقية ذات الرؤس الثقيلة القادرة على اختراق جسد العدو و درعه أو تنتزع أي فارس من سرجه .

كان المكان الذي يتم اختياره للدفاع يمثل أهمية كبيرة وإذا لم يرض القادة العسكريون القبجاق عن هذا المكان فإنه باشارة قصيرة يقوم الفرسان المدربون بالتعلق بسروج العربات و ينقلون في لمح البصر هذا « الحصن» إلى تل أكثر ملائمة . و يفعلون ذلك في فترة الهدوء أو الغسق و حالما يمسح العدو عينيه يكون كل شيء جاهزا لملاقاته. ينبغي أن يقال أن العدو المخضرم الذي يعلم من هم القبجاق عادة لا يحاول أن يعترض هذه التحصينات المتنقلة فما إن يرى العربات التي تتحرك في اتجاه دائري ومغطاة بجلود الثيران و الجمال فإنه عادة ما يبتعد منتظرا فرصة أكثر ملائمة .....

و يقوم القبجاق بشن غارات سنويا على جيرانهم و خاصة على روسيا مستغلين ترحالهم و مناعتهم النسبية . و قد ساعد الاقتتال الداخلي بين الأمراء الروسيين العديدين القبجاق في شن غاراتهم عليهم . و كانت السهوب تشهد أيضا صراعات و فتن ليست بأقل مما في روسيا و التي استغلها الأمراء الروس أيضا . و في فترات التآلف وجه الأمراء الروس ضربات



موجعة للبدو خاصة أثناء حكم « فلاديمير مونوماخ» الذى كان يعاقب بلا رحمة خانات القبجاق الذين ينتهكون الحدود المعترف بها .

توفي « مونوماخ» و بقدر أكبر اندلعت الحرب المتواصلة بين البدو الرحل دائما و روسيا. و سرعان ما دوى فى السهوب هدير قوى من حوافر الخيول المنغولية الشعثاء الصغيرة

و وقف الأعداء السابقين معا في طريقهم...

***

و قد رأى «أسان كا يجى» الذى بلغ المائة عام من عمرة كثير من الدماء فى قرنه . فقد كان يعلم بدرجة ليست أقل من المغنى «كازتوجان» الصغير بحجم الغراب عن الغارات القبجاقية الجسورة التى يتغنى بها الآن و يتلوى فوق جلد الحصان . و كان قبله يتألم لأن وطنه لم يكن فى حاجة إلى هذا .....

وهل يمكن للمغنى الآخر الشاعر « كوتان « أن يواجه هذه الظاهرة الطبيعية العاتية؟ هل يمكن أن يجد نقطة ضعف فى الاحترام البالغ للشجاعة و الجرأة التى تزدهر فى السهوب عبر القرون ؟ و هل سيفهم الشعب حجحة فى هذا الزمن اللعين عندما كان الناس يفقدون رشدهم بسبب الدم و الخصام و نامت الحكمة فى نفوسهم متخلية عن مكانها للأهواء ؟

نعم كان الشاعر « كازتوجان» يغنى للدم و للغارات و يرى فيها معنى الحياة . وبعد أن يضع على رأسه آلة الدومبرا الموسيقية المصنوعة من الصنوبر القديم يدعو بصوت قوى جميل إلى معارك جديدة و إلى الحرب من أجل الحرب . بهذه الطريقة فقط حسب رأيه يتحقق الإنسان و قد حلق «كازتوجان» كما لو كان على ظهر الخيل إلى الأمام في نشوة حربية و يقفز و يتغزل و يعود مجددا إلى نقطة الانطلاق. « هؤلاء كانوا أسودا تحتقر الموت ... هؤلاء كانوا أناسا لا يعرفون الشفقة ... فأى شعب يقارن بالقبجاق الأعزاء؟ و أين يمكنك أن تجد على وجه الأرض مثل هؤلاء الفرسان ؟»

كاد الجالسون أن يرقصوا مع مغنيهم وعلى مايبدو أنك لوأعطيتهم الآن سيوفا فى أيديهم فإنهم سيبدأون بدون شفقة بتقطيع جيرانهم إربا يمنة و يسرة . و قد كان العملاق الرهيب الفارس «قوبلاندى» يجلس فى السماء السابعة من الفرح و كان أنفه ينتفخ لدى كل دعوة من الشاعر «كازتوجان» إلى الحرب . و كان الفرسان القبجاق الآخرون ينظرون يمنة و يسرة بالأنفة و العزة . و قد صاح الجميع استحسانا عندما أنهى المغنى المقدمة .



التفت «أسان كا يجى» للمغنى الآخر و قال :

حان دورك يا أيها الشاعر كوتان .

رفع العجوز الذى كان غارقا فى أفكاره رأسه كما لو كان حصانا محاربا ما إن سمع إشارة الهجوم وعلى الفور تدفق من بين أصابعه التى لامست أوتارا بسيطة لحن حزين لا يمكن وصفه . كان باللحن وقار كبير و تعاطف معه الناس. و لم يتماسك أسان كا يجى فأومأ برأسه كما لو كان يؤكد أنه كان ينتظر هذا تحديدا .

غنى الحكيم العجوز «كوتان» بصوته الخفيض الأجش قليلا الذى لم يسمعه الناس منذ فترة طويلة . لم يكن الصوت كما كان سابقا و لكن الكلمات كانت كما هى فى السابق . و قد غنى « السعادة ليست فى الغارات الأبدية و ليس البطل هو من يجلب من الحملات خيرا كثيرا و نساء . ففى مكان ما تبكي أمهات على أولادها و فى حين ما يعود من الغزو ليجد أن بيته هو قد تعرض للنهب . و حينها ستبكى أمه ... البطل الحقيقى فقط هو من يضحى بحياته من أجل ألا يدع اللص أو المغتصب ينفذ إلى منزله . و على الفور تجهم الفرسان القبجاق الذين عادوا مؤخرا من الحملة و تلاشى مجدهم من عيونهم . و قد وجد الشاعر « كوتان » نقطة ضعف فى أعمالهم . و على الرغم من أن النوجيلتسى كانوا مدانين أمام خان أبوالخير لكن كم كان الانتقام قاسيا من الأقرباء الذين رحلوا إلى أرض غريبة . و قد بدى تافها جدا فى ضوء ذلك صنيع الفارس الشاب « سيان» الذى أخذ أسيرة واحدة ....

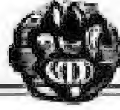
وافق الشاعر «كوتان» على أن المحاربين القبجاق شجعان و لأكثر من مرة كانوا ينتصرون وهم قليلى العدد على عدو يفوقهم فى العدد و العدة و لكن كل شىء يحدث فى الحرب و حدث أنهم هربوا من أمام عدو كانوا يفوقونه عددا .

سأل الفرسان القبجاق ما إن سمعوا هذا أين ؟ و متى ؟ و قطب الفارس « قوبلاندى» حاجبيه بشكل مخيف .

رفع الشاعر « كوتان» يديه طالبا الهدوء و شرع فى الغناء من جديد عن النصر الكبير الذى حققه القبجاق على الأمراء الروس أثناء حكم «إزياسلاف» ابن «يارسلاف» الحكيم.

و لكن سرعان ما هدأ النزاع بين أبناء ياروسلاف و الأمير البولوتسكى فسيسلاف .

و لكن قام أبناء ياروسلاف بإيداع فسيسلاف و أبنائه السجن و فى تلك اللحظة سارت القوات القبجاقية الضخمة إلى روسيا. و عند نهر «ألما» ألحق القائد القبجاقى شيروخان



بالقوات الروسية هزيمة قاسية و قام الشعب الثائر بتحرير فسيسلاف من السجن و أنقذ مدينة كييف من الهزيمة الساحقة....

لكن بعد عشر سنوات عندما قدم الفرسان القبجاق من جديد إلى روسيا حدث ما لم يكن فى الحسبان . قام عشرون ألف من قوات الخيالة بحصار مدينة « تشرنيجوف» وتصدى لهم ثلاثة آلاف فقط من القوات الروسية فقام القبجاق عند نهر «سينياف» بالفرار غير قادرين على الصمود أمام هجمات المحاربين الروس . و قد سقطوا مع أحصنتهم على الجليد و تجمدوا وهم فى طريق العودة و لم يتمكن الكثيرون منهم من العودة إلى ديارهم . و قد احتفظ القبجاق فى ذاكرتهم بهذه الأغنية الرثائية عن تلك الهزيمة . مثل هذه الأغانى توجد لدى جميع الشعوب و ينبغى التغنى بها فى كثير من الأحيان .

ألا تدل هزيمة الروس عند نهر ألما أن بلدهم ضعيفة و غير موحدة و أن شعبها بائس ؟ و أن نصرهم عند نهر «سينياف» يشهد بأنه مهما كان العدو شجاعا فإن الأشجع منه هم الذين يدافعون عن وطنهم .

الفرسان القبجاق يتفكرون و يتأملون . و صارت قبيلة أرجين تمدح شاعرها و مغنيها جلس الحكيم بصخب و قالوا « نجاح باهر ، ياله من رجل شاعرنا العظيم كوتان فلا أحد يجاريه فى حكمته ؟»

لم يتحمل ذلك الشاعر «كازتوجان» الفخور ذو الروح النارية و أصبح يشبه حصانا ألهبوا ظهره فجأة بالسياط فاندفع إلى المعركة. و دوى من جديد صوت آلته الموسيقية الدومبرا إلى عنان السماء و من جديد صدحت ألحانه الحربية المليئة بالنار .

صاح من الجيد أنك ذكرتنا بشيروخان يا صديقى القديم و معلمى لقد كان الأعداء يطلقون عليه شيروخان العملاق و هو جدير بأغنيتى..

و بكل مافى رئتيه من قوة شرع المغنى الصغير فى الغناء عن انتصارات شيروخان التى لا تعد و لا تحصى ثم سرد أسماء كثير من الخانات الذين اشتهروا بشن غاراتهم على الأراضى الروسية و على بلغار الفولجا و بيزنطة .

عم الصخب من جديد من كل جانب . وحده أخذ يفكر «جانيبيك» : « و إذا لم تعاد وأقمت تحالفا مع أولئك الكفار فكيف يمكن أن تنشأ دولة كازاخية عظيمة ؟ حينها لن ترهبنا قبيلة « نوجاى» أو خانة أستراخان أو كازان»...

و في الوقت نفسه صاح الشاعر «كازتوجان»



من يجرؤ على اتهامهم بالجبن بغير حق إذا كان الأعداء يبجلون شجاعتهم فى أغانيهم؟ و نظر إلى عيون الجالسين المحتقنة بالدم و الناظرة إلى الشاعر « كوتان» .

سمح له «أسان كا يجى» و قال تحدث أنت الآن أيها الشاعر «كوتان» و من جديد ساد الصمت .

قال المغنى العجوز نعم يتغنون بأسمائهم في البلاد الأجنبية و لكن هذه الأغانى سيئة. كان هؤلاء رجال شجعان لكنهم جميعا لقوا حتفهم في أرض أجنبية . و هل ضاقت بهم السهوب و لم يجدوا بها البراح و السعة؟ لكن التعطش للثروة دفعهم إلى شن الغارات و ماذا يمكن أن يكون أسوأ من بطن لا تشبع . من السهل أن تفسد الخيرات التى يتم الحصول عليها أثناء الغارات أكثر الناس أخلاقا فإنهم ينغمسون فى الخمول و يغرقون فى الكسل و يصبحون بلا عمل. و عندما تتعرض بلادهم لمحن قاسية فإنهم يتفرقون مثل الحمير البرية الخائفة لا يعرفون أين يذهبون ...

لذلك لن نتغنى اليوم بأمجاد أولئك الذين كانوا شجعانا فى الغارات و فجأة قوى صوت العجوز و ظهرت فيه نوتات شابة . دعونا نتغنى بالشجاعة الحقيقية و البسالة التى تظهر عند الدفاع عن الوطن . ألا يوجد عند القبجاق أمثله من هذا القبيل ؟

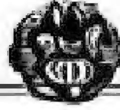
صمت القبجاقيون من جديد و نظر الفارس « قوبلاندى » حواليه و هز شاربه بفارغ الصبر.

و كان كل تذكير بأنه لا تظهر فى الغارات الشجاعة الحقيقية يدمر الانطباع عن البطولات الأخيرة . و كان الشىء الأسوء أن حملته الأخيرة كانت ضد أقاربه .

لم يتعجل « أسان كا يجى » فى الحديث ليتيح للناس التأمل فى الأفكار التى أوردها الشاعر « كوتان » إذ أن الغارات كانت تشنها القبائل الكازاخية في المقام الأول ضد بعضها البعض لم يكن يمر عام حتى تسرق العشائر السهبية الماشية و الخيول من بعضها البعض. و عن أى وحدة يمكن الحديث إذا كان الجيران القريبون يهاجمون بعضهم البعض ليلا ؟ لا أحد يستطيع أن ينام بأمان في السهوب و ساعد على ذلك خان أبوالخير لأنه بهذه الطريقة كان من السهل عليه التصدى للسلاطين المتمردين .

و أخيرا كسر « أسان كا يجى» الصمت . و بعد أن ربت على لحيته الطويلة برزانة وضيق عيونه العجوزة الحادة التفت إلى الشاعر «كوتان» قائلا :

و الآن أيها الشاعر الكريم أخبرنا عن أسلافنا وأفعالهم العظيم حتى نتمكن من تحديد الفائز...



ارتشف الشاعر «كوتان» رشفة صغيرة من حليب الفرس و وضع الكأس الخشبى الملون فى مكانه و أمسك فى يديه مجددا آلاته الموسيقية كابيز . و تدفقت الأصوات الرائعة و الصافية و المهدئة للقلب فوق السهوب . و بدا أن السهوب نفسها تتحدث مع أعشابها و بحيراتها و أنهارها و أحس الناس على نحو مفاجئ بنسيم هادىء و مسالم على وجوههم المحمومة كما لو أنهم قد تحرروا من شيء ثقيل على قلوبهم و شعروا ببهجة الحياة....

و عندما شرع المغنى العجوز فى الغناء أدرك الجميع فجأة أن صوته ليس أجشا و لكنه ملىء بضبط النفس الحكيم . و ربما كان هذا من أثر إحتساء حليب الفرس المفيد أو أنه لم يكن أحد يريد أن يؤذى المغنى و قد حاز صوته على إعجاب الجميع من الأرجين والقبجاق.

لدى قبيلة أرجين كما قبيلة قبجاق تاريخ قديم وأنا لا أريد أن أتغنى بالمهارة العسكرية لأرجين و لكن برغبتهم الجامحة فى التوحد و العيش بسلام مع جميع العشائر الكازاخية الأخرى . هذا هو أكثر ما نحتاجه الآن؟ و من يستطيع أن يقاوم هذه الرغبة الطبيعية ؟ ولذا فإنني أدعو الجميع للكف عن إراقة دم الأشقاء و لتنعم الزوجات والأطفال بنوم هادىء دون خوف من السطو الليلى الذى يراه الآخرون بطولة جديرة بالرجل الحقيقى.

و تذكروا أنه لم ينعم أبدا شعب بالسعادة وهو مازال متفرقا . و الحزن و الموت بإنتظارنا إذا فشلنا في تغيير أفكارنا في الوقت المناسب..

ارتفع صوت المغنى العجوز إلى أعلى النوتات الموسيقية و سمعته السهوب كلها. جلس الناس بلا حراك و بدا لهم أن الشاعر العجوز كوتان يستشعر ماسوف يحدث فى القرون.

و رجع صوته مرة أخرى إلى هدوئه و سكينته و قال :

اشتهر أفراد قبيلة أرجين منذ القدم بتفكيرهم الحكيم . إنهم يحترمون الروح العسكرية ولكنهم أيضا يبجلون العقل البشرى وهم الحفظة لموسيقانا القديمة وأغانينا وعاداتنا الجيدة. و فى منازلنا توجد كتب قديمة تحكى تاريخ شعبنا . ألا يعد كل ذلك مهما عند توحيد الشعب فى وحدة واحدة ؟.

يا «أسان كايجى» أنت ممثل أقدم قبائلنا قل لى هل أنا على حق عندما أتغنى لعشيرتى بهذه الصفات تحديدا أم أتغنى بالغارات المتبادلة ؟ مالذى يحتاجه الآن شعبنا ؟

و ببطء أوقف آلاته الموسيقية الكوبيز. و صمت الناس وغرقوا فى التفكير و فجأة دوى صوت شبابى متحمس :



فلتعش ألف سنة يا شاعرنا العزيز ... يستطيع شخص واحد أن يخرق السد و يستطيع طفل ضعيف أن يحرق غابة عمرها مائة عام و لكن كم من الوقت يحتاجه الناس كى تعيد النهر إلى مجراه أو تطفىء النار .. و هذا هو مالدينا إذ تكفى خطوة واحدة حمقاء لتدمير السلام بين القبائل... نعم نحن الأرجين سنفعل كما تقول أيها المغنى العراف.

كم كان فى هذا الصوت من العاطفة و الإيمان البشرى الطيب حتى أن الناس تسامحوا مع صغر سن المتحدث . قال هذا « قاسم» ابن السلطان «جانيبيك» و فى ذاكرة القبائل السهبية بقى هذا الحديث للأبد و الذى قيل قبل أن يتحدث الكبار فى السن. لم يشعر قاسم ذو اللون الأسمر و الأنف المعكوف و العيون اللوزية الجميلة بالحرج على الإطلاق وهو يرى آلاف العيون مصوبة إليه . و قد اشتعلت النيران العاطفية فى عيونه السوداء واهتزت قليلا فتحتى أنفه الرقيقة .

أيد معظم الناس تصرفه الشجاع في وجود الخان فقد أعجبهم أنه على الرغم من صغر سنه ينظرة للحياة كرجل ناضج . و لكن كان هناك أيضا من لم يرق لهم أفكاره التى عبر عنها غير أنه لم يجرؤ على مقاطعته لأنه كان يجلس فى قيادة الجنيكيزيين . صوب خان أبوالخير ناظريه إليه و فكر «هكذا أنت على هذا النحو يا ابن السلطان جانيبيك . و يبدو أنك ستسير خلف أبيك فى تطلعاته . و بالطبع إذا سمح لك السلاطين الآخرين بفعل ذلك » ....

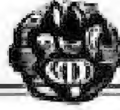
ابتسم أبوالخير فى سره على تلك الفكرة و لكن لم يظهر أى شىء على وجهه .

السلطة الآن بكاملها يمتلكها « أسان كا يجى » و قام هذا برفع رأسه.

قال بهدوء و سمعه الجميع يسعى الناس للسلام فى جميع الأزمنة و لقد غنيت لنا عن هذه الرغبة العظيمة لشعبك و إنك تستحق الجائزة الأولى عن جدارة .

دوى الهدير الهادىء بالموافقة من سجادة الخان إلى السهوب و كلما ابتعد يصبح أكثر قوة.

التفت العجوز ذو اللحية البيضاء بكامل جسده إلى المغنى الصغير و قال إن فنك عظيم أيها الشاعر « كازتوجان » . إنك غنيت بشكل صحيح عن شجاعة و جرأة فرسان عشيرتك و كانت أغانيك مثل نهر جيحون العاصف. فى الحقيقة لقد أظهرت أنك لاتبارى فى هذا و لكنك ارتكبت خطأ واحدا . إن المغني مثل المحارب يجب أن يعرف بقوة من أجل ماذا تتحقق البطولة . إن الجرأة و الشجاعة في حد ذاتها لا تعني شيئا و يحدث أنها تخدم عملا غير لائق . و كم من الأمثلة الرائعة للتضحية بالنفس في سبيل الوطن أظهرها القبجاق



ولكن لماذا توقفت فقط عند مهاجمتهم لجيرانهم . هل ستغنى لنا إلى الأبد هذه الأغنية ؟

إن سهوبنا تحتاج الآن إلى السلام و الهدوء . بهذه الطريقة فقط يمكننا أن نتكاثر ونقوى و نتصدى للأعداء الذين ينظرون إلينا كما ينظرون إلى طريق ممهدة . فقط من أجل الوحدة و حماية الوطن يجب أن نخرج السيف من غمده. حينذاك فليمدح المغنون الأبطال..

أنا أثق فيك أيها الشاعر « كازتوجان » . يبدو لى أنك لم تظهر لنا بعد و لو جزء ضئيلا من مقدرتك العظيمة . لماذا لا نستمع إلى أغانى عن المعارك الأسطورية الأخرى من أجل مجد الوطن و حينها ستمنح الجائزة الثانية..

***

لم يكن شيء يفوق تلك الجوائز فى السهوب و من ثم فقد ابتهج الأرجين . و كان جميع الموجودين راضون عن قرار « أسان كا يجى » الحكيم حتى الشاعر « كازتوجان» ذلك المغنى الأصيل و الرجل الشريف لم يغضب على الإطلاق لأن الشاعر «كوتان» كان أكبر منه سنا و أكثر خبرة . فقط وحده الفارس « قوبلاندى» صار يلوى شاربه الطويل. وتزايدت عداوته مع « أكجول بيك» إلى الحد الأقصى و بدا له أن منح الجائزة الأولى للمغنى الأرجينى من المكائد المتوالية للعدو.

لوح «أسايان كا يجى» للشاعر «كازتوجان» و هو يمسك بقوة فى يديه زمام المسابقة و أعطاه بنفسه آلة الدمبرا الموسيقية و قال :

تحدث أيها الشاعر..

لم يستغرق الشاعر وقتا طويلا.... و شرع فى غناء المقدمة الضرورية و لكن لأنه كان يريد أن يغني عن الأزمان الغابرة و سيتطرق الأمر لغزو جينكيزخان للسهوب فإنه توجه أولا إلى خان أبوالخير و قال :

ليست هذه الأغنية من اختراعى أيها الخان العظيم و لكنها قصة حقيقية تاريخية .

و قد بقى كل شيء فيها كما حدث فى الواقع . و إذا لم يعجبك شيء مما سأقوله عن أسلافك فاغفرلى ذلك..

«عندما تكون القوة في يديك يمكنك الاستغناء عن الحكمة». ظهر هذا المثل فى السهوب في وقت متأخر جدا و لكن فى تلك الآونة إذا اعتذرت باقتدار يمكن أن تتحدث



عما حدث بالفعل. و لكن ظهرت عقوبات مختلفة للذين يذكرون أحداثا تاريخية لم يكن يريد الحكام أن يتذكروها لسبب أو لآخر . و قد بدا للحكام ضيقى الأفق أنه ينبغى إعادة كتابة التاريخ أو الصمت و كل شيء سيكون على ما يرام . لكن عاجلا أم آجلا فالتاريخ نفسه سيعاقبهم عقابهم عقابا شديدا على إساءاتهم ضد أنفسهم...

***

كان الخان نفسه يضطر فى تلك الآونة أن يحسب حساب الخارجين عن القانون فى السهوب لأنه كان يعتمد على السلاطين . و جاء فى القانون غير المكتوب « يمكن قطع الرأس و لكن لا يمكن قطع اللسان » لذلك و على الرغم من أن خان أبوالخير توقع أن الأغنية لن تكون سارة بالنسبه له إلا إنه لم يظهر ذلك و لوح بيده بلطف و قال :

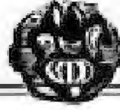
الشاعرعندنا حر أكثر من الطير...

و شرع المغنى الصغير فى الغناء بطريقة مختلفة تماما . و مثل الحصان السريع بدأ العدو عبر القرون و الأحداث و يسرع الإيقاع بالتدريج . هناك على الشواطى البعيدة لنهر أورخون و نهر كيرولين حدثت مأساة من قرنين و نصف قدر لها أن تنتشر في جميع أنحاء العالم .

و حتى الآن مازالت السهوب مفعمة بأصدائها و يتذكر الناس هنا كل أحداثها....

أطلق « تيموتشين » على نفسه لقب جنكيز خان و هو الجد البعيد لخان أبوالخير و أخضع القبائل الكازاخية كيرى و ألشين و نايمان. و مثل الحمم الساخنة انسكب المغول على القبائل المجاورة الصغيرة و الشعوب و كل من لم ينصهر فى هذا القدر إلى معدن واحد تحول إلى دخان ورماد. وكانوا يستخرجون أفضل حديد فى العالم آنذاك فى الروافد العليا لـ «سيلينجا» و « ينيسي» . و قد قام جنكيز خان بتسليح الشعوب المغلوبة على أمرها بسيوف من هذا الحديد و أرسلهم لجميع الاطراف لغزو مزيد من الأراضي الجديدة. و كانت تلك الشعوب تباد لدى أية بادرة للعصيان و بدا للناس أنه يوجد معنى خفى في كل هذا. الموت دائما مقدس و صاروا يعدون جنكيز خان ابنا للسماء.

دمر جنكيزخان مملكة « تونجوسكا سى - سى » و أراق بحر من الدم هناك و لكن فرسان سى سى تحديدا صاروا أفضل وأخلص خيالة فى جيشة. نفس الشىء حدث مع قبائل تا- تا و العشائر الكازاخية التى ترحلت جنبا إلى جنب مع المغول . و بعد أن أخضع جنكيزخان الصين حرك جيشه القبلى الموحد إلى الغرب و هوى الفرسان الكازاخ فى صفوف جيشه فى وحشية قاسية بسيوفهم على إخوتهم من العشائر الأخرى الذين وقفوا فى طريق المغول . فى الحقيقه كان « قاهر العالم» عقابا ربانيا .



لم تستطع السهوب المتفرقة أن تتصدى لهذه القوة و كانت خوارزم العظيمة على وشك الانهيار . و قد سقطت المدن واحدة وراء الأخرى أورجينتش ، و سمرقند ، و بخارى ، و مرو و لم يبق هناك غير الرماد الأسود حيث كانت تدب فيها الحياة منذ أمد قصير .

و توغل فرسان جوجى بعيدا فى السهوب الكازاخية . و بعد أن عبروا إرتيش و إيشيم و توبول و نورو وصلوا إلى وسطها و إلى قمة جبل أولتاى راية دولته . و كل من حاول أن يتصدى لذلك تم تدميره و من بقى على قيد الحياة أصبحوا محاربين مع جوجى و فى كل قبيلة كازاخية ظهرت قيادات جينكزية.

لم يكن كل هذا سوى نصف الكون . و دخل الجيش الجرار بقيادة الفارسان جيبى وسوبودايم حدود القوقاز بعد أن دار حول بحر قزوين. و فى كل خطوة كان المغول يخلفون وعودهم لأنهم لم يكن لديهم شىء مقدس سوى الموت . و قد أبادوا فى يوم واحد عن طريق الخداع ثلاثين ألف جندى جورجى. و بعد أن أسروا سفراء «شيروان شاه» أجبروهم تحت الرعب من الموت أن يدلوهم على الطريق إلى دربند . وعندما اتحد الانس مع القبجاق لصد المغول و رأى هؤلاء أنهم لم يتمكنوا من التغلب على القوات المتحدة فإنهم أرسلوا جواسيس للقبجاق و قالوا للقبجاق « إننا إخوانكم بالدم أما قبيلة الانس فإنهم غرباء » و قد صدقهم القبجاق . و قد أبيد جيش الانس الشجاع عن بكرة أبيه لأنه بقى بدون حلفاء...

دفع القبجاق ثـمنا باهظا نظرا لسذاجتهم فعندما أرسلوا قواتهم إلى منازلهم عاد المغول إلى السهوب القبجاقية و اجتاحوها كلها . و قد فر إلى الأراضي الروسية و شبه جزيرة القرم من بقى على قيد الحياة من القبجاق و هناك فقط ثابوا إلى رشدهم . و عندما يقترب الموت نفسه فليس هناك أى اعتبار لقرابة الدم . و بدى أن الانس و الروس هم الأقرب من حيث الروح و الذين تقاتل معهم القبجاق على مدى قرن و نصف و قد تغنى الشاعر «كازتوجان» مؤخرا بالغارات على الأراضى الروسية و الآن كأنه فهم أغانيه...

و قد تغنى الشاعر «كازتوجان» بالفارس القبجاقى الشهير و تلألأ الفخر الشديد في عينيه ... كتب أحد المؤرخين الفارسيين عن أزمنة الغزو المغولي أنه « لم ينج من السيوف المعكوفة إلا من كان يعبد الصخور» و قد جمع حوله العديد من الفرسان القبجاق الناجين من براثن الموت و بدأ القتال غير المتكافئ . انضم له مئات من الفرسان القبجاق المتناثرين ثم انضم له بعد ذلك البشكيريون و الانس و البلغار. لقد ألحقهم جميعا بجيشه و سرعان ما تحدث الناس عن فرقته فى كل مكان بإديل. و ليلاً و نهارا كان يطاردها المئات من أتباع « باتى» و لكنها كانت بعيدة المنال . و في المناطق التي غمرتها الفيضانات



قرب نهر الفولغا وجد المتمردون ملجأ لهم و هاجموا من هناك في كل مرة الفرق المغولية محطمين إياها الواحدة تلو الآخرى . و في نهاية المطاف قام « مونكى» أحد قادة « باتى» العسكريين و الذى سيصبح فيما بعد خانا للقبيلة العظيمة بتجهيز مائتي سفينة وجعل فى كل واحدة منها مائة محارب و قام بتمشيط تلك المناطق . و قبل أن يتمكن من السباحة هاجم رجال الفارس «بوشمان» مؤخرة القافلة و قتلوا غالبية المغول. و لكن فقط بعد أن وقع الفارس «بوشمان» فى كمين على إحدى الجزر نجحوا فى السيطرة عليه. و قد ساعد المغول فى ذلك عاصفة عاتية جعلت الجزيرة رأس أعلى عقب . و قام المغول بتقطيع«بوشمان» الأسير الجريح إلى نصفين.

و قد خاض النضال فرسان آخرون و قد خلدت الأغانى أسماء « بايان» و « جيكو» اللذان قادا حركة القبائل القبجاقية الأخرى من أجل الاستقلال و التصدى للاضطهاد المغولى .

كانت هناك فكرة تؤرق الشاعر «كازتوجان» فلقد غنى عن فظائع الغزو المغولي التي تناقلتها الأجيال . كانوا ينزعون الجلد عن الناس و هم على قيد الحياة ويلقون الأطفال في النار. آنذاك لم تكن هناك كلمات يصف بها الناس تلك الأفعال وصمت الشاعر «كازتوجان» و لم يعرف ماذا يسمى ذلك ..

و مرة أخرى لمس الأوتار بعدم ثقة و نظر حواليه ....نعم من أجل غزو العالم فعل ذلك الخانات المغول . و لكن لماذا كان من الضروري بالنسبة لهم غزو العالم؟... وماذا كانت النتيجة ؟ ألم تنقسم الإمبراطورية الكونية إلى آلاف القطع فى اليوم التالى لوفاة جنكيز خان؟ هل الفاتح العظيم سعيد بذريته الذين يقتلون بعضهم البعض ؟

ولم يكمل الشاعر كازتوجان حديثه فقد كان ينظر إليه خان أبوالخير بفم مفتوح و فى حالة ذهول . و نظر جميع الناس إليه. فقط وحده كان «أسان كا يجى» ينظر ناحية السهوب و يهز رأسه متفكرا..

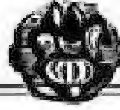
من بداية السرد التاريخى جلس خان أبوالخير بلا حراك مثل شاهد الضريح الحجرى .

أصبح منهكا وصار وجهه الأسمر يشحب و لكن لاحظ هذا فقط من كان يعرفه جيدا .

و هؤلاء كانوا قليلون فى حاشية الخان لأنه التزم فى إختيارهم بوصية جنكيزخان .

و فجأة رأى الشاعر « كازتوجان » عيون الخان...

***



رفع الخان يده بشكل آمر . و سكت الذين كانوا لا يزالون يحيون المغنى بصيحات بهيجة و هدأوا كاللهب المقذوف فى الماء . جلس المغنى نفسه مذهولا كما لوأنه قد ضرب على رأسه بفأس .

قال أبوالخير بهدوء حان وقت الصلاة ... فيما بعد نكمل سماع خرافات هذا الراوى الطريف

على الرغم من أن الخان كان مسلما إلا أنه لم يعرف عنه التقوى المفرطة و قد وقف فجأة و بسرعة و وقف الجميع خلفه...

***

استغل الفارس «كابتاجاى» الهرج و ابتعد بهدوء عن ذلك الحشد. ذهب إلى منزله الأبيض الجميل و تكلم بصوت منخفض مع الفارس الطويل ذو الشعر الأحمر الجالس للحراسة عند المدخل. و كان هذا يرتدى (تشيكمين) ثوبا جميلا ، و يلبس (ملاخاى) غطاء للرأس و يده تقبض على رمح حربى ثقيل .

سأل الفارس كابتاجاى عن أحد الأشخاص و قال ألم يحضر بعد ؟ لا لم يأتى بعد...

بدأ الفارس الأعظم للنيمانيين يقلق و أخذ يسير بهدوء فى المنزل ثم نظر إلى الخارج .

مهما حدث معه فى الطريق فطبقا لحساباتى يجب أن يكون هنا بالفعل .

قال الفارس هل أذهب و أتبين الأمر؟ اذهب

***

كان هناك شىء يدعو الفارس كابتاجاى للقلق . كان بطلا مغورا و كما يقولون فى السهوب قد صنع من عظام الجمال و يقولون أيضا عن هؤلاء الناس أنهم لا يعرفون الخوف و يمسكون الكوبرا بأيديهم العارية . و كان رداؤه حسنا و لكن إذا تحدثنا بصراحة فإن الفارس الشهير كان فقيرا ...

كان الفارس «كابتاجاى» يتولى إطعام خمسة عشر خيمة يسكن بها أقاربه الفقراء من نفس المزاج و الميول من الغنائم التى يحصل عليها فى المعارك وكذلك من صيد الغزلان. و فى سنوات السلم النادرة كان يأخذ قطعان أقاربه الأكثرغنى للرعى كراعى بسيط .

منذ عامين عندما كان متوجها إلى جبل أوليتاى لصيد الكباش الجبلية تعرض



لعاصفة شديدة واضطر لقضاء ثلاثة أيام في مخيم الرعاة الذين يرعون خيول خان أبوالخير. و هناك تعرف على الصياد الشهير من قبيلة كيرى «أوراك». كان «أوراك» هذا خبير خيول معروف فى كل السهوب و يعرف كيف يصطاد الذئاب و يطاردهم من على ظهر الخيل حتى يرهقهم .

تصادق الفارسان الفقيران اللذان يربطهما مصير مشترك و أقسما على الولاء لبعضهما البعض . و كان من المفترض أن يحضر إلى هنا منذ ثلاثة أيام . كان ينوى أن يشارك فى سباقات الخيل القادمة بفرسه الملقب بـ « أكباكاى» « ذو الأرجل البيضاء» و يأخذ الجائزة . و بالمناسبة فإن الفارس «كابتاجاى» هو الذى أرشده إلى ذلك . و بعد أن رأى كيف يصطاد «أوراك» الذئب و هوعلى صهوة حصانه فى ميدان مفتوح قال:

لماذا لا تجرب حظك في المسابقات القادمة ؟ على الرغم من أننى لا أعرف كثيراعن الخيول فإن حصانك «أكباكاى» ليس أسوأ من خيول الخان .

وافق، لكنه قال بشيء من عدم الثقه :

حسنا سوف أحضر و لكنى أخشى أن يقوم أحد هناك بخداعى ...

لم يلق الفارس «كابتاجاى» بالا بمخاوف صديقه لكن الآن بعد أن تأخر «أوراك».

السبب غير معروف تذكر الفارس كلامه فجأة وأتعب الحدس الثقيل صدره . فكرالفارس

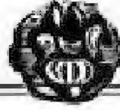
«كابتاجاى» : « لماذا تحدث عن بعض الذين يمكنهم أن يفعلوا أشياء سيئة ؟»

لم يستطع التفكير فقرر أن يرسل أحد فرسانه إلى «أوراك» الذى يقوم على رعى القطعان على مسافة غير بعيدة .

كان هناك شخص أخر ينتظر بفارغ الصبر وصول الراعى . كان يعرف أيضا أن أوراك عازم على الاشتراك فى السباق بحصانه الشهير . كانت تلك «أكوزى» كنة خان أبوالخير نفسه و أرملة السلطان « شاه بوداخ » الذى تقام له الأن وليمة الذكرى.

و قد جلست متشحة بالسواد على تلة صغيرة و تنظر إلى المكان الذى يجب أن يظهر منه الفارس « أوراك...»

ليس هناك شيء من الاثم بينهما مما قد يدور أحيانا بخلد الناس . كل شيء حدث كما يحدث عادة فى السهوب . كانا يعرفان بعضهما منذ الطفولة و لكنهما لم يفكرا أبدا



فى الحب . و فيما بعد صعدت «أكوزى» عاليا لسفح عرش الخان و تقبل «أوراك» هذا بهدوء لا مفر منه . و لم تظهر لديه مطلقا أية أفكار أن الأمور يمكن أن تتغير . ثم مات «شاه بوداخ» زوج «أكوزى» ذو المقام السامى وعندما ذهبت قبل بضعة أيام إلى قطعان الخان لتختار لها حصانا بمناسبة وليمة الذكرى التقت هناك الفارس أوراك . و قال لها الفارس أوراك ببساطة كما يتم كل شىء فى السهوب أنه يرغب فى الزواج بها . وعلى الرغم من فقرة إلا إنه من قبيله طيبة و شريفة و يملك الحق فى ذلك ...

قالت إننى لا أريد أن أكون خاطئة أمام الله أو ألوث شرفى أمام الناس فعندما تنقضى وليمة زوجى التذكارية سأطلب من والديه الإذن بالعيش معك . و إذا وافقوا فإننا سنوحد أقدارنا بالقانون.

سأل الفارس «أوراك» بقلق: و ماذا لو رفضا ؟ قولى ماشئتى لكن خان أبوالخير حاكم نصف العالم وعلى الرغم من إننى فارس حر إلا إننى مجرد خادم له. فهل يوافق أن يزوجك لفارس بسيط وفقير؟

قطبت «أكوزى» حاجبيها الجميلين و قالت و ما هى الأسباب التى تدعوه للرفض؟ و إذا رفض... فعلى كل حال سوف أخطب لك. فلا أحد توهب له الحياة مرتين. وأقسم أننى لن أتزوج غيرك يا فارسى.

شعر الفارس «أوراك» بفرح عظيم لدرجة أنه بدا له أن جميع عضلات جسمه القوى تغنى. وأحس بخفة الطير الذى يغزو أجواء السماء البعيدة.

قال بصوت خافت: إننى مستعد أن أهبك كل دقيقة من حياتي يا أكوزى الحبيبة.

وسأحضر وليمة ذكرى زوجك السابق حتى لا يقول الناس أننى لا أحترم ذكراه. وسأجرب حظى فى نفس الوقت فى السباق مع حصانى أكباكاى الذى ربيته بنفسى.

و ها هو الفارس «أوراك» لم يحضر وليمة الذكرى وهذا يعنى أنه قد أصابه مكروه لأنه لا أحد يستطيع أن يقف فى طريق هذا الفارس العملاق. لذلك فبعد أن تركت الوحيدة أكوزى مسابقة الخيول جلست هنا على التل وتنظر بقلق إلى بعيد. لم يلق أحد لذلك أى إهتمام واعتقدوا أنها تفتقد زوجها المتوفى... و لم يوقف خان أبوالخير الشاعر المتهور «كازتوجان» بسبب أن الشاعر أدان الجنكيزين فمنذ فترة طويلة نسى أحفاد «قاهرالعالم» الكثيرين موطنهم المنغولى البعيد.

لم يكن خان أبوالخير غبيا و أحس على الفور بالمزاج العام الذي يقوده بمهارة «إسان



كا يجى» والشاعر «كوتان» والذى عبر عنه الآن الشاعر القبجاقى «كوتان». وقد كان الخان يعتمد فى سياسته بشكل كبير على القبجاق وفجأة يدعو المتحدث باسمهم أيضا إلى الوحدة ولكن ليس للغزو تحت يد خان أبوالخير القوية ولكن للدفاع عن الوطن.

و هذا فى جوهره هو الطريق إلى استقلال الكازاخ الأمرالذى يعارضه خان أبوالخير...

***

نعم لقد بدأوا بالفعل في الاقتراب من بعضهم البعض وليس فقط أبناء جوتشي خان من يلعبون تلك اللعبة. ومن الواضح أن جانيبيك و كيرى عثرا على لغة مشتركة مع حكام مغولستان من قبيلة جغتاى. وهذا يعنى أن الجزء الخلفي لهم سيكون دائما محميا. وليس من قبيل الصدفة أن كثيرا من القرى تهاجر إلى أقاربهم فى مغولستان وهذا هو سبب ذلك الفرح الذى يضىء في أعماق أعين جانيبيك و كيرى الهادئة.

فقط فى تلك اللحظة بعد مباراة الشاعرين الأرجينى والقبجاقى رأى خان أبوالخير عمق الهاوية أمامه وأدرك أن التسويف مثل الموت.

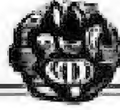
كل يوم من أيام الحياة يهدى إلى أعدائه يقربه هو نفسه من الهلاك. نعم إنهم هنا تعرفوا على جميع أعدائه الظاهرين والسريين. إنه يعرفهم جميعا ولكنه يصبر لأن الحاكم القوى قلما يكون بلا أعداء و إن وجودهم يؤكد قوته و تجاهله لهم. و لكن عندما يحتشدون معا ويتقوون بجيرانهم فمن الضرورى التصرف بحزم و بلا رحمة.

ها هم يقفون ويتقاربون من بعضهم البعض فرسان السهوب من قبائل متعددة وهناك الكثير منهم كأنهم حتوا من الجرانيت وليس عبثا وبصورة متوقعة ينظر فى اتجاهم السلطان جانيبيك... ينبغى معرفتهم جميعا.

عزم خان أبوالخير الذى كان يحيط به حراسه باحكام على التوجه إلى خيمة زوجته الرابعة «ربيعه سلطان بيغيم». و لكن توجه إليه العجوز «أسان كا يجى» وهو مازال جالسا على وسادة شرف الحكم الرئيسى للمسابقة وقال فى اتجاه الخان إزاء الصمت الذى حل على الجميع:

الأوز مدلل البحيرة لا يقدر جمال الصحراء، والحبارى الكبير الذى يعشق الصحراء إذا وضع فى البحيرة يموت من السأم.

كان هذا تعبيرا عن عدم الرضا بسبب ازدراء الخان للمباراة التى يحبها الشعب واضطر



خان أبوالخير للبقاء وحيث أن الشاعر العراف لم يتوجه بالحديث إليه مباشرة فلم يشرع فى الاجابة مباشرة وإنما نظر إلى الشمس بقلق.

كان خان أبوالخيرفي ورطة. فمن ناحية كان من الضروري الذهاب على عجل إذ كان فى خيمة زوجته الوزير الأول «بختى خوجه» الذي كان يتشاور معه حول جميع القضايا و من ناحية أخرى فإن هذا الرجل أبيض اللحية يتمتع بالحب في الصحراء مما يجعل عدم الاحترام نحوه ينتهى نهاية حزينة لأى حاكم فهو من ألقى «بيرديبيك» الأكثر وحشية من بين خانات القبيلة الذهبية على ظهره بمقطع شعرى واحد تحول لأسطورة: لقد عرفتك من جبينك المخيف يا بريديبيك خان إلى أين تعجل مع قافلتك ؟ إلى إديل تريد أن تكسر خيامك ؟ و تسبح فى دموع بشرية

و لن يكون هناك مكان ينقذك ...

و أنت يا قاتل أبيك أى أرض تجرؤ أن تؤويك ؟

وقف خان أبوالخير بصمت أمام العجوز مفكرا عما ينبغي القيام به . قرأ «أسان كايجى» فى عيون أبوالخير شيئا شريرا . و فجأة قام عن الوسادة و نظر بثبات فى وجه الخان و لأول مرة فى حياته يصوب عينيه تجاهه و تجمد الناس حواليه فى أماكنهم.

و قال العراف «أسان كايجى» بهدوء لماذا أوقفت أغنية الشاعر... إنك قررت أن تؤدى صلاة دموية يا سيدي الخان .. و فجأة كما لو أن سيلا من الكلمات الغاضبة اخترق سد العقل لم يستطع أن يمنعه العظيم «أسان كايجى» . و كل ما كان يغلى فى نفوس الناس كل تلك السنوات ألقى به فى وجه الخان المتغطرس :

حتى الخان الذى يتخلى عن العدالة لا يستحق أن يمنح قبرا ، أضلاعى على وشك التمزق ، و اقتربت نهايتى...

لذلك قم بتبديد حزنى أيها الخان و لا تتعجل فى الدعاء لغفران ذنوبك فإنك تريد أن ترتكب أكبرها ، تريد إضرام النار في وطنك و ترغب فى القطع إلى جزئين ،

الجنين الحي الواحد ، و الوحدة المريرة تنتظر من لا يثق بالأصدقاء لقد نسيت موطنك

و مرضت روح المغني الشاعر العجوز لا تجلب الفتنة و الاقتتال بين الإخوة فى العائلة الواحدة.

إن الطرق الملتوية أيها الخان تؤدي إلى الظلام و يتوقف عليك الآن



أن تكون فجرا مشرقا أو عاصفة سوداء

ماذا كان يتعين على الخان أن يفعل ؟ .. هل يستطيع أن يصلح الثغرة في السد التى أحدثها بنفسه؟ و فيها تضرب موجة التاريخ الوحشية الفتاكة و اليوم أو غدا سيتحطم السد إلى أشلاء .

الشيء الوحيد الذي يمكن فعله الآن هو توخى الحذر و إلا انجرف من أول موجة . وينبغى العثور سريعا على طريقة للنجاة والوصول إلى الشاطىء من ذلك التيار الهادر الذى لا يرحم. كيف أرد على حديث الرجل العجوز الذى قاله فى الوجه مباشرة و يعبر عن الأفكار الخفيه لأولئك الناس الذين يجلسون على تل الخان حتى الأفق و ينتظرون ؟ قبل أن يقول شيئا دوى صوت شخص متحمس :

من هذا ؟ فلتبتعد المصيبة عن قبيلتنا .

في تلك الأوقات الصعبة من الحروب الأهلية المستمرة والغارات السريعة حتى الخان نفسه لا يكون محميا من هجوم غير متوقع من الأعداء. في كثير من الأحيان يستغل بعض الجيران الثائرين أو ببساطة عصابات كبيرة من قطاع الطرق غياب الحاكم مع جيشه و يغيرون على مقر القبيلة و ينهبون كل مايستطيعون حمله . هذا هو السبب في تحول عيونهم القلقة حيث أشار الفارس الصائح.

ظهر من بعيد فارس ينهب الأرض على صهوة حصانه وعلى الفور أصبحت السهوب الخضراء الزرقاء خائفة.

هرع الفارس إلى خان أبوالخير و قفز من فوق حصانه و ركض و سقط إلى الأرض بوجهه.

و رفع رأسه فيما بعد و تحدث بسرعة و بانفعال :

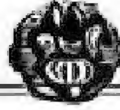
يا سيدي الخان هذا لساني فاقطعه و هذا رأسى فاقطعها من الأكتاف.. إننى مذنب لأننى لم انتبه. لقد فر الفارس «سايان» الذى وضع تحت الحراسة مع إثنين من حراسه .

كان ذلك الفارس هوعثمان خوجه الذي أمره الخان منذ قليل بالتحفظ على المتهم كقرة عينه

ابتلع خان أبوالخير أخيرا الغصة التى وقفت فى حلقة و قال :

و من الذي كان يحرسه ؟

فرسان من قبيلة أرجين يا سيدى الخان .



هز الفارس «قوبلاندى» كتفيه بغضب و بعد أن أمسك مقبض خنجره نظر بكأبه إلى «أكجول بيك» . لكن هذا جلس و كأن شيئا لم يحدث حتى أنه لم ينظر إلى عدوه و قام فقط بتصحيح وضع سيفه المعكوف المعلق على حزامه .

نظر إليهما خان أبوالخير و حول «أسان كا يجى» نظرة من خنجر الفارس «قوبلاندى» إلى سيف « أكجول بيك» و نظرالجميع إليهما.

في تلك اللحظة كما لو أنه تحققت نبوءة العراف «أسان» المخيفة فقد دوى الرعد و بدا لهم أن الأرض نفسها انقسمت إلى قسمين و سرعان ماغطت الغيوم السوداء السماء الزرقاء الصافية و اخترقتها السهام النارية دون انقطاع و انحنت الأعشاب في السهوب كما لو كانت تتوسل السماء طالبة الإنقاذ.

نظر خان أبوالخير صوب العاصفة القادمة إليهم بقلق ثم ذهب فى صمت إلى خيمة «ربيعة سلطان بيغيم» و تبعته حاشيته و لم ينظر حتى إلى «أسان كا يجى» و الشعراء الآخرين الذين بقوا فى أماكنهم منتظرين العاصفة برؤوس عارية .

قال «أسان كا يجى» وليمة اليوم كانت وليمة الحزن فنتمنى أن تتوج النهاية السعيدة كل هذا

رفع الناس أيديهم إلى السماء .

IV

على المنحدر الجنوبي من جبال أوليتاى فى قلب سهوب دشت و قبجاق تقع مدينة «أوردا بازار» مقر خان أبوالخير . باستثناء جبال أولتاى و كيتشتاو غيرالعالية جدا تمتد السهوب الشاسعة إلى الجنوب و إلى الشمال وإلى الغرب و إلى الشرق والتى يعيش فيها فقط الكباش الجبلية و الغزلان البرية. و كانت أقرب بلدة إلى الجنوب مدينة تركستان الذين أطلق عليها قاطنى السهوب قديما ياسى . و في الشمال مدينة تومين (تيومين) التى كانت تسمى منذ زمن بعيد تارا. و ينبغى السفرعلى صهوة الحصان مالا يقل عن عشرة أيام لأقرب مدينة منهما...

كانت مدينة «أوردا بازار » تعد نقطة تجمع قوات «باتى» الضخمة قبل أن تتوجه



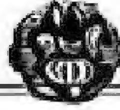
الغرب و كانت الوحدات العسكرية تزحف مثل النمل من مختلف أنحاء السهوب و تندفع كتيار مدمر إلى حيث تغرب الشمس الدموية . و حواليهم تمتد السهوب الخضراء و أعشاب المروج الغضة التى تستطيع أن تطعم هناك مئات الآلاف من الخيول فى نفس الوقت . و حتى الأن في منتصف هذه الجنة السهبية تقف تلال يوجد تحتها مدينة «كورجان باتييف»

أطلق على «أوردا بازار» لقب مدينة فقط لأنه يوجد بها مقر الخان. و هنا لا توجد أية شوارع أو ميادين مثل تلك التى توجد فى المدن ثم إن المبانى بها قليلة. وعلى الرغم من أن خان أبوالخير كان يحكم شعوب بدويه رحل و شبه رحل إلا أنه لم يجرؤ على ترك السهوب نهائيا و الانتقال إلى مدينة من مدن ما وراء النهر الشهيرة. كانت قبيلة الخان التى تتكون من خمس قرى

ترتحل فى فصل الصيف بدون انتهاك للتقاليد القديمة إلى سهوب دشت و قبجاق وترجع إلى «أوردا بازار» بحلول الخريف . و فى الصيف تصل حتى أنهار «جيم» و «ويل» فى الغرب وحتى توبول و إيشيم و نورا في الشرق. و أكثر من مرة يقيم خاندو أبوالخير يورتاته البيضاء على شاطىء نهر سيحون الرملى و فى الصيف التالى يشاهنها عند البحر الأزرق بالكاش .

لم يعتمد ارتحال قرى الخان على الطقس فقط كما لدى البدوالآخرين ففى كل خريف يجتمع مجلس الخان و يقرر أين و متى يكون وجود الخان و جيشه ضروريا هذا الصيف . فى أحد الأماكن يجب أن يلعب الخان دورالخاطب نيابة عن سلطان قوى كى يضمن تأييده و فى مكان أخر تقام خيام الخان بالقرب من قبيلة أوحت للخان بالخطر . و فى ليلة رائعة يتم تحطيم قرى تلك القبيلة حتى «الحوافر الأخيرة» كما يقولون فى السهوب . لذلك كانت طرق الخان إلى المراعى الصيفية غير معروفة وكان يعلم بها فقط أهل الثقة .

على ما يبدو لم تصبح لذلك « أوردا بازار» مدينة كبيرة مثل سمرقند و بخارى و هراة كان بها حوالي مائتي منزل من الحجر و الطين و حولها يورتات و خيام لا حصر لها تظهر وتختفتى في ليلة واحدة . و في وسط المدينة عدد قليل من القصور الصغيرة بناها أفضل المهندسين المعماريين فى الشرق من الطوب الأحمر الشهير الذي لا يخشى الزمن و على القمة من كل هذا المسجد الحجرى الأبيض بالهلال الذهبي القادرعلى المنافسة مع أفضل مساجد اسطنبول و بغداد. و يتميز عن المسجد الشهير الذى بناه تيمورلنك الأعرج في تركستان فوق قبرالشيخ خودجة أحمد ياسفى بصورة الدانتيل الحجرية النادرة التى تعكس التطريز السهبى القديم و لا توجد مثل تلك اللوحة في المسجد الذى بناه أوزبك خان في شبه



جزيرة القرم قرب فيودوسيا . و لكن لا أحد يعرف اسم الفنان الشعبي الكبير الذى صنع هذه المعجزة الحجرية...

أراد خان أبوالخير نقل عاصمته اقتداء بأسلافه المنتصرين إلى واحدة من المدن المفتوحة على الأرجح بسبب أن مدينة «أوردا بازار» لم تتضخم و لكنه لم يجرؤ على القيام بذلك حتى لايترك السهوب بدون مراقبة . بالإضافة إلى ذلك كان لديه أمل خفى أن الصراع والمعارضة فى السهوب سوف تضعف تدريجيا وسيتم قمع السلاطين المتمردين ثم يجعل أحد أبنائه البالغين حاكما على الكازاخ ومن ثم ينتقل إلى الأبد إلى مدينة أورتار أو سيجناك . و تصبح سهوب دشت و قبجاق الدعامة المأمولة لإمبراطوريته الشاسعة و تقدم له الجنود الشجعان و المخلصين...

بعد نهاية الاعصار الذى حدث فجأة هطلت أمطار غزيرة غير عادية . و لم ينتظر خان أبو الخير انتهاء وليمة ذكرى ابنه و عاد إلى « أوردا بازار» و ذهب معه إلى مشارف العاصمة أشراف القبائل الكازاخية من القبجاق و أرجين و كذلك السلاطين الجنكيزين من العشائر و القبائل الكازاخية الأخرى .

عاد خان أبوالخير مفعم بالأفكار الكئيبة و فى عينيه يومض البرق و قد اكتئب أكثر عندما علم بتفاصيل هروب الفارس سايان .

وعلم جميع المقربون أن شيئا فظيعا يوشك أن يحدث و قد اندهش الكثيرون عندما علموا أن هروب الفارس سايان لم يكن مطلقا سبب غضب الخان ...

ليس هناك ما هو أكثر أهمية لشعوب السهوب من سباقات الخيل و المسابقات . وتعتمد كل سياسة السهوب عليها في بعض الأحيان و أدنى انحراف عن القواعد يكون له مغزى عميق . ولسنوات يناقشون التغييرات التى تحدث فى السباقات و توقعاتهم للمستقبل. والآن هذا الحدث الرائع يوشك على الانهيار بسبب أحد الفرسان الفقراء الذى يصطاد بالخيول مثل الذئب الجائع .

في بداية الاستعدادات لوليمة الذكرى إنتشرت الشائعات بين الناس أن الفارس «تابونشيك أوراك» الذى يرعى قطعان الخان عزم على الاشتراك فى السباق بفرسه أكباكاى . فى ألعاب الخيل الملكيه والمسابقات يشارك الأغنياء وذو النسب العريق ولكن هنا يدور الحديث عن شخص يعد بطريقة أو بأخرى خادم بسيط للخان .

فى وليمة ذكرى ابن الخان اجتمع جميع الوجهاء من سهوب دشت و قبجاق و تعجبوا



كيف يجرؤ أوراك هذا أن يجيء إلى هنا مع حصانه الوحيد . الأسوأ من ذلك كله أنهم أخبروا الخان كل المعلومات عن هذا الحصان الملقب بـ «أكباكاى» و أنه أسرع من الريح و لن يستطيع أى من خيول الخان الأصيلة أن يصمد أمامه .

و سوف تسخر السهوب كلها من خان أبوالخير إذا فاز في السباق أوراك هذا بحصانه ذى الأرجل البيضاء و ستفرح الغوغاء و سيدوسون فى الرمال سلطة الخان و يكون هذا بالنسبة لهم إنتصارا.

و الأهم من ذلك أن خان أبوالخير نفسه يعرف جيدا صفات الحصان الملقب بـ أكباكاى. كان لدى الخان ما يسمى «ذاكرة الحصان» و أنه لا يمكن أن ينسى الحادثة التى حدثت قبل عامين . ذهب خان أبوالخير على حصانه المفضل تارلانكوك لتفقد قطعانه . و كان الجميع هناك يحاولون اصطياد الحصان البرى المملوك لتابونشيك أوراك و لكن لمدة ثلاثة أيام لم يتمكن أحد من اللحاق به . و فى لحظة خماسية انطلق وراءه الخان نفسه على حصانه تارلانكوك ثم أعطى حصانه لأفضل خيال و أمسك فى يديه حبلا لاصطياد الخيول البرية و اندفع وراء الحصان ذى الأرجل البيضاء الذى يرعى الآن بعيدا عن القطعان.

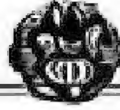
ولكن لم يحالفه الحظ فبمجرد أن دوت قعقعة حوافر تارلانكوك المقترب صر أكباكاى البرى أذنيه للاستماع و اختفى بسرعة فى ضباب السهوب . ومثل الريح طاردة حصان الخان الخالى من الدهون و المدرب تدريبا خاصا و لكنه تعب من المطاردة المتواصلة التى استمرت ثلاثة أيام فتنحى عنه أكباكاى بخفة و سهولة و لكن بالكاد تم اصطياد الحصان....

يبلغ هذا الأكباكاى حاليا سبع سنوات وهذا هو السن الذى يكتمل فيه عند الحصان الذيل و العرف و يصبح أكثر تحملا و مرونة . كان الفارس أوراك يقف قبل ذلك متواضعا فى أحد الجوانب ولكنه الآن يتحدى الخان نفسه .

و هناك شيء أخر أقرب للخيال يصعب تصديقه تماما سمعه خان أبوالخير حاكم نصف المعمورة من أهل الثقة. سمع أن الفارس أوراك الذى لايملك حتى منزل يورت أبيض يليق برجل حقيقى تقارب من كنة الخان الأرملة الجميلة أكوزى وعزم على ربط مصيره بها بعد الانتهاء مباشرة من وليمة الذكرى .

فى عشية الاحتفال استدعى خان أبوالخير وزيره المخلص بختى خوجه. وفى المساء قام سبعة أشخاص يرتدون ملابس داكنة بالوقوف في الطريق التي كان من المفترض أن يمر بها الفارس أوراك للاشتراك فى المسابقة...

***



فى الليل على حين غرة هجموا على الفارس أوراك الذى لم يكن يتوقع ذلك الهجوم وسقطوا جميعا عليه دفعة واحدة حتى أنهم لم يعطوه الفرصة للصراخ و وضعوا كمامة على فمه و ربطوا يديه و رجليه. و هناك أيضا وقف أكباكاى مقيدا بحبل. قام خدم الخان بربط الفارس الذى لا حول له و لا قوة فى ذيل أكباكاى و أخذوا يضربون الحصان بالسياط. أخذ الحصان الذى أصابه الجنون يحدث رعدا بحوافره الحديدية على الأرض القاحلة و فى الصباح أبلغوا الخان أن الفارس أوراك قد فارق الحياة....

قال الخان حين سمع بوفاة أوراك : «التفاخر» كان مصدر متاعبك أيها الفارس الغبى. إن كنة الخان ليست للرعاع القذرين و لكن الأرض تعج بالشائعات و خصوصا أنها ترى و تسمع من بعيد فى السهوب. و بمجرد عودتها من وليمة الذكرى عرفت أكوزى ما حدث للفارس أوراك . و على الرغم من النار المشتعلة في صدرها لم تظهر أنها تعرف هذا الأمر الرهيب. و لكن الألم الرهيب كان يعتصر قلبها حتى أنها لم تكن تستطيع أن تتنفس.

و خوفا من أنها قد تكون لم تخرج كل ما عندها بعد فقد أرسل إليها الخان أحد أتباعه ليبلغها مايلى :

و الله إننا ممتنون لها للشجاعة التي استطاعت بها أن تنتظر نهاية الحداد غير مدنسة على الإطلاق ذكرى ابننا العزيز . إنها لا تزال شابة و نحن لا نريد أن تبقى وحيدة بقية حياتها لذلك اسمح لها أن تتزوج و طبقا للقانون فالأخ الأصغر يعد خليفة للأخ الأكبر. وعلى الرغم من أن ابننا الحبيب شاه بوداخ مات قبل الأوان و لكننا بحمد الله لدينا عشرة أبناء و كل منهم قادر على تلبية مشاعر المرأة. و أعطى لها الحق في اختيار من تذهب إليه فى منزله .

قالت أكوزى حسنا سأفكر وسأبلغ ردى لسيدى الخان بنفسى .

بعد ثلاثة أيام قام أبوالخير بدعوة الوجهاء و البكوات و الفرسان. و في وجودهم وجه شخصيا هذا السؤال لأكوزى :

ياكنتنا العزيزة التى نكن لها عظيم الاحترام لابد و أنك قد توصلت إلى قرار فتفضلى الآن و اخبرينا به حتى نتمكن من الاستعداد لمراسم الزواج .

كان الأبناء العشرة يقفون هناك و يحملقون في الأرملة الجميلة بترقب بالغ . كانت نظراتهم مستعطفة أما عيونهم فقد كانت تلمع كأنها قد دهنت بالزيت . نظرت ناحيتهم بدون اهتمام و تبسمت قليلا .



إن أبناءك العشرة ياسيدى الخان إخوتى مثل الخناجر الصلبة الدمشقية و إنهم جميعا أكفاء و من المستحيل بالنسبة لي أن أفاضل بينهم لذلك أتوجه إليك بطلب صغير...

سمح لها الخان المأخوذ من المفاجأة و قال لها تكلمى

سأتكلم ... و لكن عليك طبقا للعادات أن تعد أنك ستنفذ طلبى .

فكر الخان : إن هذه العادات موجودة حقا في السهوب.

قال إننى أعتقد أن كنتنا لن تطلب ما من شأنه أن يضع بقعة سوداء على ثوب قبيلة شيبانى و إننى أعدك أننى سأنفذ طلبك إذا كان مقبولا .

إن هذا لن يدنس شرف أحد ولكن على العكس من ذلك سوف يزيد من مجد قبيلة الخان. فى هذه الحالة نستمع إليك و تنفس الخان الصعداء و قال لها تكلمى.

إننى أريد أن أقسم على القرآن. صاحت أكوزى و انتزعت من جيبها كتابا صغيرا بغلاف أسود و قالت هذا هو قرآنى يا سيدى الخان . و رفعت كتاب الله على رأسها و قالت أقسم لكم و لكل من حضر هنا أننى سأظل أرملة إلى الأبد .

رفع الخان رأسه بغضب و سقطت هى على ركبتيها و قالت :

أتوسل إليكم يا والدى الخان ألا تجعلني أخالف هذا النذر حتى لا أصاب باللعنة.

خمن خان أبوالخير على الفور أنها تعرف سر وفاة الفارس أوراك . و فى ثورة غضبه قرر أن يخالف القسم و يختار لها بنفسه زوجا من بين أبنائه العشرة . لقد أغضبه أن أكوزى فضلت عليهم جميعا راعيا بائسا . و لكن هذا القرار المتسرع قد يجلب العار لبيت الخان فقرر أن يتحلى بالصبر و قال :

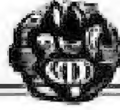
سألبى طلبك يا كنتنا ...

قال هذا دون أن يرفع رأسه و أدرك الجميع مدى الجهد الذي بذله ليقول ذلك.

نهضت «أكوزى» واقفة على قدميها و أشرقت عيناها و لكنها لم تكن تعرف بعد أن حلفت اليمين أن الفارس أوراك مازال على قيد الحياة .

***

لقد أنقذت معجزة ذلك الفارس البائس فبينما كان «أكباكاى» يعدو فى السهوب ليلا أحس فى فزع أن وحشا عالقا بذيله. و قد سحق رأس و ظهر و كتفى الفارس لارتطامهم



بالأرض و بدا أن النهاية حتمية لكن أكباكاى طار بسرعة مذهلة إلى بحيرة السهوب و ارتطم جسد الفارس المجرور فى عائق بالماء و علق الحصان بالوحل و لم يستطع الخروج منه . و فى صباح اليوم التالي وجد الرعاه الذى كانوا يسقون الخيول فى البحيرة هذا الفارس نصف الحى و أخرجوه إلى الشاطىء . كان وجهه مشوها بشكل رهيب وخرجت إحدى عينيه من مكانها و كان يتنفس بصعوبة بالغة . و بعد أن أدركوا أن هذا الأمر تم بتعليمات من الخان نفسه حمل الأصدقاء الرعاة صديقهم إلى واحد من الكهوف التى لاحصر لها فى جبل أوليتاى حيث شفى هناك و تحسنت صحته.

بعد خمس سنوات فقط علم خان أبوالخير خبر نجاة أوراك. كان فارس أعور يائس يقود فرقة من الرعاع الكازاخ يهاجم قوافل الخان فقط و يقتاد قطعان الخان و قطعان الأغنياء الذين يهينون الفقراء بقسوة. و كان خدم الخان يخشون هذا الفارس خشيتهم من النار و سرعان ما أبلغوا أبوالخير عن اسمه .

في تلك الأيام لم يكن لدى الخان شك فى أن الفارس «أوراك» على قيد الحياة و لذلك قبل قسم كنته. لم يكن أبناء الخان العشرة البالغين الذين ولدوا من الزوجات الثلاث الأول و الزوجات المحظيات يعدلون عنده ولده المحبوب «سويونشك» الذى ولدته «ربيعة سلطان بيجيم» ابنة أولوغبيك. و قد نقل الخان كل حبه لابنه الراحل البكر إلى حفيديه بعد وفاة أبيهما. و لم يكن مصير أبنائه الآخرين أو حياتهم الشخصية تهم الخان كثيرا .

و قد سكن غضب الخان على أكوزى جزئيا بسبب حبه لأحفاده و خاصة لأكبرهما محمد شيبانى . كان يستشعر فى الصبى الحاكم الجنكيزى القادم و كان من دواعى سرور جده أنه يعلم أن هذا الصبى لا يعرف الرحمة تجاه عبيده أو أقرانه. و حتى الثعبان يحب صغاره و يتمنى لهم الخير لذلك لا ينبغى بسبب دقيقة من الغضب على الأم التسبب فى الألم لأطفالها .

***

كان خان أبوالخير يفكر كثيرا فى المستقبل. و فى كل مرة كان يزن عقليا مزايا وعيوب خلفاءه المحتملين فهم يجب أن يكونوا سندا للقبيلة العظيمة التى صنعها بنفسه و لذلك لابد أن يمتلكون جميع صفات الحاكم .

كانت المقومات الجيدة و الحسنة لذلك الأمر تتوافر عند «سويونشك» فلقد ورث كل الصفات الضرورية عن جده الأكبر لأمه تيمورلنك الرهيب و منه أيضا خان أبوالخير من نسل جنكيزخان أخذ النصف الثانى من شخصيته. غير أن قلبه يميل بدرجة أقل لحفيده



محمد شيبانى فالواقع مع كل يوم يؤكد صحة إختيار خان أبوالخير الشريف من أفضل من الأب و الجد يتعرف فى أبنائه و أحفاده على الأسود و النمور .

لكنهما مازالا بعيدين عن العرش فطبقا للقانون يرث عرش الأب بعد شاه بوداخ الابن التالى شاه حيدر. و لكن هل سيأخذ الأبناء فى الاعتبار إرادة الوالد؟ ألا ينبغى عليه أن يزيل الوهم من رؤوسهم ؟

من النظرة الباردة المليئة بالكراهية التى ألقاها «بوروندوك» ابن السلطان كيرى على الصغير محمد شيبانى كان واضحا كم المحن التى تنتظره فى طريقه للعرش وفكر الخان « هل سيتحمل محمد شيبانى كل ذلك . إن طابعه حاد و دماءه حارة جدا وهذا يضر فى بعض الأحيان ...» فقبل أن تستدعى الصغار للقيام بالتحليق لأول مرة يجب على النسر الكبير أن يضمن عدم وجود أخطار تتربص بهم بالقرب من العش. فلو كان يعيش هناك أفاعى فإن أنثى النسر لا تسمح لهم أبدا بالتحليق حتى يتم القضاء نهائيا على تلك الأفاعى و نفس الشىء لدى الحكام.

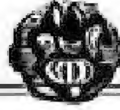
من الصعب نسيان الشرر الشرير في أعين «بوروندوك» المربع إذ أنه من النسل الثعبان ىلخان أوروس الذى يجب اقتلاعه من جذوره قبل أن يطلق صغاره للتحليق. و إذا أردت ألا يسحق الحفيد عند أول ضربة لجناحيه فيجب أن لا يبقى السلطان كيرى و ذريته على قيد الحياة .

و لكن المخاطر أكثر فى طريق سويونشك فمن جميع الجهات سيهدد الأعداء ابنه الحبيب حتى إخوته لن يرحموه .

***

قام خان أبوالخير من مكانه و تمشى على السجادة الناعمة. ومرة أخرى تذكر فجأة وجه الفارس الهارب سايان. الآن و كلما تذكر ابنه يأتي عن غير قصد إلى الذهن ذلك الوجه اللعين. إن انفجار الغيرة على "ربيعة سلطان بيغيم" زوجته المحبوبة يشوه ملامح أبو الخير. بالطبع لا أحد يراه فى ذلك الوقت و لكنه مع ذلك يتماسك و يجعل وجهه خاليا من التعبير و هادىء كالعادة.

كان هناك أمر أخر يزعج خان أبوالخير ففي العام قبل الماضي أحضر من الحملة التى شنها على السهوب قرب بحر قزوين ثلاثة خيول يبلغ عمر كل واحد منهم خمس سنوات



من سلالة تركمانية تثير الدهشة بجمالها و قوامها. عادة ما يقولون عن تلك الخيول الرشيقة القوية أنها يمكن أن تمر عبر خاتم الزواج الذهبي . و عند اقتسام الغنائم أعطى زوجته المحبوبة "ربيعه سلطان بيغيم" بسخاء تلك الخيول الثلاثة و قال لها عندما ترتحلين اركبي عليها أنت و ولديك كما يليق بحفيدة تيمورلنك العظيم .

على الرغم من أنه استولى فى وقت من الأوقات على عاصمة تيمورلنك وحارب ذريته وتزوج حفيدته قسرا فقد احترم خان أبوالخير ذكرى الحاكم العظيم التى ارتعدت أمامه أسيا بأكملها فى وقت من الأوقات . و تزوج "بربيعة سلطان بيغيم" كنوع من الاحترام للدم التيمورى على الرغم من أن الكثير من أتباعه و جميع زوجاته كانوا يعارضون ذلك...

بلغت الخيول الآن سبع سنوات وأراد الخان إشراكها في المسابقات و فى عشية وليمة الذكرى قال الخان لربيعة سلطان بيجيم :

خانوم احضرى الثلاثة خيول إلى وليمة الذكرى فإننى أريد أن أشركهم فى المسابقات جنبا إلى جنب مع تارلانكوك .

بدت الزوجة الرابعة للخان كفتاة فى السابعة عشر عاما على الرغم من أنها قد تجاوزت الثلاثين. نظرت إلى الخان من تحت الأهداب السميكة نظرة خاصة لا يملكها أحد سواها و قالت :

لا داعى للقيام بذلك يا عزيزى الخان . إن مثل هذة الخيول عادة ما تأتى فى المقدمة وسيكون الأمر مضحكا لو حدث ذلك و سيفقد الناس الاهتمام بالمسابقات . وإلى جانب ذلك فإنه من المستحيل اليوم إشراكهم فى سباقات الخيل فالحصان الأوسط صار يعرج وقد قام بالأمس مقوم العظام «كابيلاى» بفحصه أما الحصانان الآخران فلن يستطيعا العدو لأنهما تعلما أن يكونا دائما معا مثل البجع .

وافقها الخان و قال حسنا لا يمكننا الآن فعل شىء.

في نفس الليلة هرب الفارس الشاب سايان مع إثنين من حراسه من أرجين على هذه الجياد إلى مكان غير معلوم فى مدينة سيجناك . و كما جرت العادة بدأت تزحف فى السهوب شائعة روجها الأعداء « ياله من إنسان محظوظ ذلك الفارس سايان فإنه لم يستمتع بزوجة الخان الشابة فقط و لكنه سرق أفضل ثلاثة خيول عنده. لقد أهان خاننا بشكل حاذق» .



تتداول الشائعات بطبيعة الحال همسا ولكن كما يقولون إن الله يسمع الهمس الخفيض جدا وما يعلمه الله ينقله للناس. وغني عن القول فقد وصلت الإشاعة بسرعة إلى آذان الخان. وبالفعل فقد كان أبوالخير نفسه يشك في أنه هناك شيء ما بالفعل ليس على مايرام...

تذكر خان أبوالخير ذلك فضم قبضتيه بعجز و كان مستعدا لسحق العالم و لكنه آثر الحكمة وهوت يداه للأسفل مع الجرس الذى كان يريد أن يستدعى به الجلاد. ومن خلال وزيره بختى خوجه بين أن طبيب الخان البيطرى كابيلاى لم يفحص خيوله الثلاثة و اتضح أن "ربيعة سلطان بيغيم" قد كذبت عليه لأمر لا يعلمه و ذلك الأمر يعرفه العالم كله ما عدا الزوج المخدوع .

من المثير للاهتمام أن الطبيب البيطرى أكد كلام الخانوم أول الأمر لكن تلاميذه قالوا أن كابيلاى كان خارج المدينة فى ذلك الوقت . و بعد ذلك اعترف بكل شيء . من الواضح أن الخانوم قد أعطته رشوه و وعدته بالمزيد . و لم يدر بخلد الخان أن وزيره المخلص يمكن أن يبدل كل شيء أو أن التلاميذ يمكن بسبب مصالحهم أن يتآمروا عليك ابيلاى .

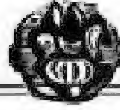
مهما يكن الأمر فقد كان كل ذلك كالحديد الساخن يحرق روح خان أبوالخير . لم يعد لديه أى شك فى أن زوجته تخونه فسبب حبها للفارس الوسيم سايان فعلت كل شيء فقد رشت الحراس و قدمت لهم أفضل خيول الخان و كذبت و برأت نفسها أمامه .

كان يمكن للخان أن يغفر لها كما غفر لها حتى الأن إذا لم تكن هناك تلك

الحادثة التى بدأت فى الظهور أثناء التحقيق فى هروب الفارس سايان. وفقا لتقرير باختى خوجه اتضح أن «ربيعة سلطان بيغيم» قد أصرت على أن يقوم على حراسة الفارس سايان فرسان من قبيلة أرجين و هذا يعنى أنها قد تواطئت على نحو ما مع السلطانين المتمردين «جانيبيك» و «كيرى».

حسنا عندما يتم التأكد من كل شيء بشكل نهائى فإن يده لن ترتعش. وسوف ينتقم بحيث تحط على كل التيموريين بقعة العارالسوداء . و إذا كانوا هم أحفاد الأعرج الحديدى (تيمورلنك – المترجم) فإنه جنكيزى و سيثبت لهم من شرفه أغلى.. .

ماذا يمكن أن يكون أكثر عارا للمرأة من أن تتواطأ مع أعداء زوجها. مثل هذه التهمة كافية لإنهاء حياة المرأة المحبوبة لأنه فى كل الأعراف تلعن تلك الزوجات و يجب ابتكار طريقة لإعدامها لم تستخدم من قبل. ولتبق الى الأبد قصة إنتقام الخان حينها



سينسى الجميع كل الشائعات المخزية الأخرى التى تسرى الأن عبر سهوب دشت و قبجاق.
تمشى خان أبو الخير على السجادة و لونه أسود من الغيوم مفكرا فى طريقة لإعدام زوجته الرائعة. كان الشيء الأكثر طرافة أن "ربيعة سلطان بيغيم" ابنة العظيم العالم أولوغبيك و حفيدة تيمورلنك القاسى لم يخطر ببالها ذلك الأمر الذى يرتاب فيه الآن زوجها الحاكم .

***

صحيح أنها طلبت من الخان أن يجعل الفارس سايان المربى و المعلم لابنها و صحيح أيضا أنها ساعدته على الهرب و لكن كان كل ذلك عن قناعات أخرى تماما . و كان من الصعب على الوزير بختى خوجه أو خان أبوالخير الذى أعماه الغضب غير المبرر أن يفهما ذلك.

ومهما فكر الخان لم يستطع أن يفكر فى شيء أفضل من قطع رأس الزوجة الخائنة. كان السحر الخاص لهذا الإعدام بالنسبة إليه يتمثل فى أنه سوف يتم وفقا للقانون الذي أنشأه جدها تيمورلنك و هو بالفعل إنتقام خانى و حتى أبوالخير قد سمح لنفسه بالتبسم و هو يفكر فى ذلك الأمر...

من بين جميع القوانين التي أنشأها الغزاة في الأراضي الكازاخية كان الأفظع والأقسى بعد القوانين الجنكيزية «مجموعة القوانين الخاصة بالمجرمين» التى وضعها تيمورلنك. ومن بين مواد هذة المجموعة تتميز مادة «عن عقاب الأبناء المجرمين فى حق أمهم و الأمهات المجرمات فى حق أبنائهن».

كان يتعين على الأطفال أنفسهم اختيار نوع العقوبة لوالدتهم. و ماذا يمكن أن يكون أكثر تطرفا من حيث قسوته؟ و الأكثر وحشية من هذا إذا لم تكن الأم غير مذنبة بحق أولادها و لكنهم يعاقبونها بسبب الحيل و الافتراءات.

فكر أبوالخير «إذا اقتنع ابنى سويونشك أن أمه مذنبة فإنه لن يتردد في الحكم عليها بالإعدام و ليكن هو أول من يرميها بحجر. نعم نعم و ليحل العقاب القديم بالزوجة الماجنة.. فليرموها بالأحجار و سيبدأ الرعاع فى قذفها بالأحجار مباشرة بعد أن يرميها ابنها بأول حجر و سيعجب الناس أن الخان يطبق العقوبة المقدسة عبر القرون بحق زوجته .

سوف يكون هذا إنتقاما مناسبا و سيحل بكل التيموريين عار لا يمحى من أجل أنهم قد ربوا مثل هذه الابنه المخزية و لكن ابنى سويونشك تيمورى بشكل جزئى . حسنا فليكن. حتى لو كان كل مايقال عن " ربيعة سلطان بيغيم" حقيقى و ليس هذا الابن



من دمي فالقضية ليست فى ذلك . الشيء المهم أنه سينتهى التأثير عليه من قبل أقاربه من ناحية الأم المكللين بالعار و إنه كابني سوف يحكم قبيلتى. و بالطبع إذا كانت تلك مشيئة الله.

ليس هناك شك فى ألا يكون سويونشك ابنه فهو يعرف ذلك و بدقة أكثر من أولئك الوشاه ومن هم على شاكلتهم. و لن تموت " ربيعة سلطان بيغيم" لأنها خانت زوجها جسديا فقد كانت ستعيش و تحيا حياة طيبة إذ لم تكن قد وجهت أنظارها إلى سلاطين أرجين إذ ينبغى على الزوجة أن تكون مشاطرة لزوجها في كراهيته للأعداء. و للحفاظ على نسل شيباني فى الجلوس على عرش الخانة الأوزبكية ينبغي أن تكون عديم الرحمه و تضحى بالآذان لتحافظ على الرأس . « و لكن ماذا لو لم يرد ابنى سويونشك أن يحكم على أمه بالموت ؟ لكن هناك ابن أخر و هو كوشكينشك . كلا إنها يجب أن تلقى حتفها تحديدا وفقا لحكم سويونشك التى تحبه أكثر . و إننى أيضا أحبه أكثر من الابن الأول . سيكون الأمر صعبا بالنسبة لها و مريحا لى . بالإضافة إلى ذلك سيكون لدى سويونشك تأثير أكبر عندما يتولى العرش . و مهما كان الأمر فيجب إقناعه بإصدار حكم الإعدام بحق أمه . إن بذرة جنكيز خان و تيمورلنك الأعرج منغرسة فيه و يتعين عليه ألا يعرف الشفقة منذ نعومة أظفاره . و فى هذا تكمن كل الحكمة لحكم الناس الضعفاء» .

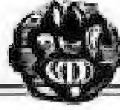
رن الجرس الفضى و دخل الوزير العظيم بختى خوجه و بعد أن ا نحنى أخبر أن المذنب فى هروب الفارس سايان «أوسبان خوجه» متحفظ عليه الزنزانة فى انتظار قرار الخان .

أشار الخان للوزير بعيونه عن مكان بالقرب منه و أومضت أعين بختى خوجه فقد كان يحدث ذلك دائما عندما يتوصل الخان لقرار هام. مال أبوالخير على أذن الوزير وهمس ببعض الكلمات. من الجانب بدا أنه ليس هذا خانا مع وزيره و لكن إثنين من قطاع الطرق يخططون لسرقة جديدة و لكن على مايبدو كان لدى الخان أسباب أن يتكلم بهذه الطريقه حتى فى قصره .

فجأة اكتسى الوزير بختى خوجه بشحوب مميت. إنه لم يسمع كل ماقاله الخان ولكنه كان وزيرا حقيقا و خمن الباقى وفقا لحركات شفاة الخان و بريق عينيه .

أجاب همسا « سمعا و طاعة يا سيدي الخان . سيتم كل شيء كما أمرتم» .

و فى لحظة لاح أمام الوزير وجه "ربيعه سلطان بيغيم" الملطخ بالدماء و المضروب بالأحجار و جسدها الجميل المصلوب على الأرض. ارتعد قلبه بفرح. كان بختى خوجه مثل جميع



التافهين يكره بشدة كل ما يخرج عن المألوف بما في ذلك الجمال. بالإضافة إلى ذلك فقد أثنت "ربيعة سلطان بيغيم" الخان عن تعيين باختى خوجة الوزير الأعظم. «كيف سيكون حالك الآن يا جميلتى سأفعل كل ما فى وسعى من أجل ألا تموتى بسرعة وستشربين الكأس من يدى حتى آخر قطرة فيه و فى القاع سيكون الموت و العار الأبدى»

سأل أبوالخير بصوت لايكاد يسمع و لكن كيف يتم إقناع الابن بالخطيئة المميتة لأمه ؟ فقط بعد أن يقتنع تماما ينبغي إخراجه إلى الناس.

رغبتك لدى أهم من كل شيء يا سيدى الخان. و انحنى الوزير بختى خوجة حتى قارب السجادة نفسها و قال سأفعل الممكن و المستحيل من أجل ذلك و لكنكم لم تقولوا لى بعد...

وما الذى لم أقوله لك ؟

نظر الخان بريبة إلى وزيره. هز الوزير رأسه و اقترب مرة أخرى من أذن الخان و قال:

و ماذا نفعل مع أكجول بيك .. فإنه أيضا المسؤول عن هروب فارسه ؟. و ليس هو فقط بل جميع السلاطين الأرجين متورطون فى هذا الأمر بطريقة أو بأخرى...

نعم إن بختى خوجة هذا خادم جيد و قادر على قراءة أفكار سيده كلها. كان التعطش للانتقام من زوجته المحبوبة قد طرد من رأسه لفترة من الوقت جميع الأمور الأخرى وقد تطلع إلى مستشاره في البداية بحيرة. و فجأة بزغ فى ذهنه شك رهيب. استمع خان أبو الخير بعناية إلى كل ما قاله الوزير الماكر و فى الروح كانت تتلوى أفعى مثل الزنبرك على استعدادا للانقضاض.

فجأة شعر بختى خوجة أنه ارتكب خطأ ما فلم يكن من الضرورى ربما أن يذكر مباشرة اسم عدوه أكجول بيك. إنه مثل "ربيعة سلطان بيغيم" قد أثنى الخان عن تعيينه وزيرا. و يمكن للخان أن يربط كل ذلك معا و يأخذ حذره. و هو الآن بحاجة إلى ثقة الخان الكاملة.

بالفعل تنبه خان أبوالخير و فكر « ربما كان من العبث أن أوكل قرار تقرير مصير ربيعة سلطان بيغيم لهذا الخادم ذى الصوت الحسن؟ إنه يكرهها و يكره أكجول بيكو يمكن أن يتطرف فى شيء ما. في مثل هذه المسألة الهامة نحتاج العقل و رباطة الجأش» ... لم تنكمش الأفعى المطوية فى النتوء المرن في صدر الخان. و لم يكن هذا بسبب الكلام الزائد عن الحد الذى قاله وزيره المخلص. فقد بدا للخان أنه مخلص جدا و لكن كل ما



يفعل فوق الحد عادة ما يستدعي الريبة . والآن هذه الأفعى ستذكر بنفسها يوميا حتى تنقض ذات مرة على الوزير بختي خوجة . و هل هو مذنب أم غير مذنب فلن يكون لذلك حينها أية أهمية. فهذا هو مصير كل هؤلاء الناس...

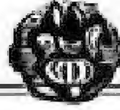
فكر الخان كيف نقرر مصير أكجول بيك ؟ فليس هناك شك في أنه ساهم في هروب هذا الفارس . و صحيح أيضا أنه قد تقارب مؤخرا من زوجتي الرابعة و الغرض معروف لدى. فالعنكبوت ينسج خيوطه حولى نهارا و ليلا و البعض يعلم من أجل ماذا و البعض الآخر بسبب الغباء أو بسبب الخسة المتأصلة فيهم . على أية حال فإنهم جميعا مذنبون و حان الوقت لتمزيق الخيوط المنسوجة حتى نتبين حقيقة أمرهم .

و عند تقرير مصير أكجول بيك و التخلص منه سيتم على الفور نزع أسنان جميع السلاطين الآخرين من قبيلة أرجين . و بعد ذلك سوف يكون من السهل الوصول حتى إلى جلودهم .

مرة أخرى ظهر أمام عينيه للحظة النظرة الشريرة لبوروندوك المربع التى رمق بها حفيده. نحن السلاطين و الخانات من قبيلة جوجى نشبه بعضنا البعض فى كل شىء مثل عظام الغنم فى اللعبة الطفولية. و هل رحمت أنا أحدا من الجوجيين فى الطريق إلى بساط الخان الأبيض ؟ وسيتصرف بوروندوك على هذا النحو فى وقت من الأوقات . سيقف خلفه قبيلة أرجين التى أريد أن أقطع رؤوسهم ... إن العشب الذى ينتزع من جذره لن يصبح أخضرا أبدا ولن يكفى فقط أن تنتزع السيقان فإذا قررت اقتلاعهم فلابد أن تصل بالأمر إلى نهايته. إذا كنت لا تريد أن تزول قبيلتك و تظهر على أنقاضها قبيلة جديدة وهى القبيلة البيضاء فلا ينبغى أن تشفق على أحد . أكجول بيك على استعداد لتنفيذ أوامر جانيبيك وكيرى ، إذا فلابد أن يموت ، والمرأة تؤيد سلاطين أرجين إذا فلابد أن تموت. وإذا كنت الآن أشك فيك يا وزيرى فى شىء ما فإنه من حسن حظك أنك لا تساند فى السر سلاطين أرجين المتآمرين. و لا تزال كلبي المخلص في مطاردتهم أما بالنسبة لأفعالك فسوف ننظر فى شأنها .

في اللحظة الأخيرة فقط لاح في ذهن الخان صورة رجل داس على ذيل ثعبان نائم . في هذه الحالة يستقيظ الثعبان على الفور و تكون عضته مميتة حيث يتراكم فيه السم أثناء النوم و من يدرى كم من السم تراكم داخل أكجول بيك هذا و هل سيخرجه كله إذا أطبق بأسنانه على مكان غير محمى . كل شىء يجب أن يتم تباعا .

قال ببرود افعل أولا كل ما يلزم فيما يتعلق بالمرأة و سوف نقرر مصير أكجول بيك فيما بعد .



سمعا و طاعة يا سيدى الخان... خرج و تراجع للخلف و إنحنى أكثر من المعتاد. رافقه خان أبوالخير بنظرة متأملة.

إن سعى الوزير أن يكون خاضعا بشكل خاص قد حذره و نبهه مرة أخرى .

فجأة ظهر بختى خوجة مرة أخرى على عتبة الباب : يا سيدى الخان يريد المحارب العظيم الفارس قوبلاندى أن يحظى برؤيتكم .

حسنا دعه يدخل .

لوح أبوالخير بيده أمام وجهه كأنه يبعد عنه الأفكار المزعجة التي تسللت من جميع الجوانب و انقضت عليه كما تنقض الكلاب على عابر سبيل جاء مصادفة للقرية بالليل . طرد البعض فتجمعت مجموعة أخرى جديدة أشد شرا و شراسة .

فجأة حلت محل اهتمامات الخان حول السلاطين من قبيلة أرجين و الزوجة الخائنة أفكار جاءت بلا دعوة عن حاكم سمرقند سلطان عبد السيد قريبه من بعيد. إن السلطان عبد السيد مدين له بكل شيء و لكنه مؤخرا و بدون أن يطلب المشورة قام بحملة اعتياديه كى ينتهى من الاستيلاء على خراسان و مناطق أخرى من إيران. و إذا أتم هذه الحملة بنجاح فإنه سيقوى و أول شيء سيفعله أنه سيسعى أن يفك الحبل الذى يريد خان أبوالخير أن يبقيه فيه.

كلا لا يجب أن يحدث هذا . إن السلطان عبد السيد يتعجل الأحداث. يتعين علينا الآن أن نتدخل كى نعطى السلطة على سمرقند لأحد الأشخاص من نسل تيمورلنك. و هذا سيجعل الأمور أكثر هدوء و قد نضجت بالفعل رأس السلطان عبد السيد و حان حصدها بالفأس .

عقب هذا انتقلت أفكار خان أبوالخير إلى مغولستان . لن يكون خان عيس بوجا الذى يحكم هناك راضيا عن المذبحة القادمة للسلاطين الأرجين و لأكجول بيك . إنه منذ مدة طويلة فى توافق مع جانيبيك و كيرى . . كم نحتاج هنا إلى حبل جيد مع حلقة قوية في نهاية كى نحضر حاكم مغولستان إلى المكان الذى يليق به فى الإسطبل .

عاجلا أم آجلا سيكون التصادم معه أمر لا مفر منه. و ربما حان الوقت لبدء حملة ضده ؟ هناك فى مغولستان الجبال و الثلج . فهل ستتحمل الصحة ؟ ... إن الطبيب الدرويش الشهير عبد الرزاق ناخيتشيفان الذى نقل تيمورلنك الأعرج أجداده من القوقاز كعبيد ثم اعتنقوا الإسلام قد فحصه بالأمس و قال له «أيها الخان العظيم إن الملح يتراكم فى عظامك



و يجب عليك أن تقلل من السفر و تمكث أكثر فى الأماكن الدافئة التى توجد فى بلاد ما وراء النهر .

فهل من الممكن أن يهمل فى صحته؟ إن ورثته ليست لديهم الخبرة الكافية بعد. بالإضافة إلى ذلك فعندما تموت فإن طول قبرك سيكون ثلاث خطوات. فهل تستحق أن تقلق أثناء الحياة و تحارب و تنشىء دولة و تعاقب بالموت ؟

لقد تذكر الحكاية الرمزية لجنكيز خان . بلغ « قاهر الكون» من العمر أكثر من أربعين عاما و بحلول ذلك الوقت بدأ فى تبرير لقبه المدوى . ذات مرة أثناء الصيد صرخ الشاب نويون سوبوداى باجاتور و أشار إلى سفح جرف عال :

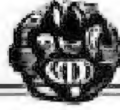
انظر يا سيدى الخان .

الينبوع الجهورى يتدفق من تحت الصخور و قطيع الغزلان شرب منه . و حيث أن الريح كانت تهب من ناحيتهم فإن الحيوانات الجميلة لم تلحظ كيف اقترب الناس منهم. رفع نويون سوبوداى باجاتور قوسه و وجهه إلى قائد القطيع لكن جنكيز خان رفع يده بلغة آمره و منعه من إطلاق السهام .

حقيقة الأمر أن الخان في تلك اللحظة رأى لوحة رائعة حتى أنه مال بجسده كله إلى الأمام كى يرى ما يحدث بصورة أفضل. ورأى المصاحبين له أصلة عاصرة (نوع من الثعابين – المترجم) متعددة الألوان طولها خمسة ساجين (الساجين ـ مقياس طول روسى قديم يساوى 17 سم المترجم) اقتربت من الغزلان من الجانب المقابل .

صوب «سوبوداى باجاتور» العجول بسرعة سهامه إلى الأصلة العاصرة إلا أن الخان أبعد يده مرة أخرى . على ما يبدو أن الغزلان استشعرت الخطر و أصابها الرعب فركضت في اتجاهات مختلفة . و لكن كان الوقت متأخرا فمثل الزنبرك الملقى من مسافة بعيدة انبسط جسم الأصلة العاصرة الضخم و لمع فى الهواء مثل البرق و صاح الغزال بحزن و وقع فى الأحضان المميتة. فى المرة الثانية لم يتمكن من الصياح فقد دكت عظامه وتحول إلى جوال ملىء باللحم الدافىء .و تمددت الأصلة العاصرة بكامل طولها و فتحت بشكل واسع فمها الرهيب و تجهزت للإفطار .

فى المرة الثالثة شد «سوبوداى باجاتور» وتر القوس و لكن فى هذه المرة منعه جنكيز خان من إطلاق السهام. و ما كادت الأصلة العاصرة تلمس رأس الغزال حتى غطاها ظل هائل. فجأة وعلى حين غرة سقط على الأصلة العاصرة مثل الحجر نسر جبلى. و بدأ صراع العمالقة إذ أن النسر كان ندا للأصلة العاصرة .



كان من غير الممكن فى ذلك الإشتباك المتلاحم أن نتبين أين الثعبان و أين النسر .

فى الحقيقة كانت معركة ملكية . لقد خاض ملك الثعابين صراعا ضد ملك الجو. لقد قاما بخنق و تعذيب بعضهم البعض و تناثرت قطع اللحم في كل الاتجاهات. و يبدو أن النسر قد غرس مخالبه الحادة فى جسد الثعبان حتى أنه لم يتمكن من فعل أى شىء برغم قوته الهائلة. و عندما بسطت الأصلة العاصرة جسدها فى سكرات الموت رأى الناس أن النسر طعنها بمخالبه فى رقبتها وعمودها الفقرى و شقها نصفين . و فى الحقيقة كان الجزء المتعرج من ذيلها هو الذى يحارب النسر .

مزق النسر بمخالبه الحادة و الطويلة جسد الثعبان و بدأ يمزق بشغف اللحم الملطخ بالدماء . و بعد أن وصل إلى درجة الشبع رفع الغزال الملقى جانبا و بسط أجنحته القوية ومع صيحة النصر حمله للأعلى حيث كان ينتظره على الصخور أبناؤه الصغار. و قد رافقه الناس أثناء طيرانه بنظراتهم .

و عندما طار النسر بعيدا أخذ الناس ينظرون إلى الثعبان الممزق . كان لابد للثعبان أن يعيش مائة سنة ليصل إلى ذلك الطول . و سأل أحد المحاربين جنكيزخان:

أيها الخان العظيم هلا قلت لنا لماذا انقض النسرعلى لحم الثعبان العجوز غير الشهى فى البداية ثم عاد فيما بعد إلى الغزال الأصغر و الأشهى؟ قال الخان لا يوجد شيء ألذ من لحم العدو .

و يصبح أكثر لذة عندما تهزم العدو فى معركة مميتة .

لم تنتهى هذة القصة عند ذلك الحد فبعد سنوات عديدة قبيل وفاة جنكيز خان بقليل ذهب مرة أخرى إلى الصيد. وعندما مروا بجوار الصخور المعروفة لهم قام سوبوداى باجاتور الذى أصبح كهلا برفع يديه إلى الأعلى و قال :

انظروا أيها الخان العظيم .

إنها نفس الصخور السوداء العارية التى تصل للسماء وعليها يزحف للأعلى ثعبان طوله ثلاثة أمتار متعرجا بكامل جسده. لقد وصل بالفعل إلى منتصف طريقه ومن الواضح أنه يعانى مع كل شبر يصعده للأعلى. و لو أنه سقط من هناك فسيبقى المكان الذى كان به رطبا بسببه.

مما لا شك فيه أنه ابن تلك الأصلة العاصرة التى لاقت حتفها بين مخالب النسر. و لكن ما الذى جذبه إلى تلك الصخور المنيعة ؟ نظر الناس ورأوا عش النسر فى أعلى القمة. كان



ذلك في منتصف الصيف و هناك على ارتفاع كبير كانت تجلس نسور صغيرة لم ينبت لها ريش بعد. وبين الحين والآخر كان يسمع صرخة إستغاثة خائفة كما لو أنهم قد شعروا باقتراب الموت . وأدرك الناس أن الأصلة العاصرة التى كبرت تريد مهما كلفها الأمر أن تنتقم من النسر لمقتل أمها بقتلها لصغار النسر .

حينذاك رفع «سوبوداى باجاتور» قوسه للمرة الرابعة وأوقفه جنكيز خان للمرة الرابعة...

زحفت الأصلة العاصرة الشابة ببطء وبمثابرة و وقفت على مسافة ثلاثة أوأربعة ساجين من العش و كان الأمر يتطلب منها بذل مجهود أخر غير كبير وسترتوى من دماء صغار النسر الحارة. صعدت فوق العش وفتحت فمها و فى هذا الوقت دوى صفير أجنحة النسر.

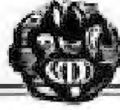
***

لكنها لم تكن هى تلك الأجنحة التى توجد الآن عند النسر العجوز. لم يكن مداها واسعا و لم يحس بالقوة السابقة فى مخالب النسر . إنه شجاع بطبيعته فلم يتراجع و اندفع بصدرة يدافع عن عشه. تمكن من الأصلة العاصرة الشابة و اقتلعها من الصخور و سقطا معا إلى الهاوية. حاول النسر أن يطير مع صرخة النصر الأبية ولكن الثعبان تمكن من إصابته قبل موته. لم يتحمل الجناح المكسور حتى الجذر أن يحمله مرة أخرى و سقط النسر على الصخور. سقط و فقد الريش و لطخ الأحجار بدمة القانى. حاول الطيران لآخر مرة و لكنه سقط ومات.

اقترب الناس من الطائر فى صمت و كانوا جميعا متأثرين من المأساة التى حدثت أمام أعينهم . نظر جنكيز خان إلى النسر و قال :

هذة هى قمة السعادة . في الحالة الأولى عندما كان شابا و قويا هزم عدوه فى معركة مميتة و فى الشيخوخة وافته المنية بعد أن ارتوى للمرة الأخيرة من دم ابن عدوه و لم يدعه يقتل ذريته . و حتى تكبر الثعابين الجديدة من أجل الانتقام فإن أبناء النسور سيصبحون بالغين و سيكونون قادرين على حماية أنفسهم و صغارهم .

بعد ذلك التفت جنكيز خان إلى أبنائه وحثهم على أن يكونوا جميعا مثل ذلك النسر إذ يتعين عليهم أن يدمروا دون شفقة كل من يمكن حتى فى المستقبل البعيد أن يسبب ضررا للجنكيزين وعند توديع العالم يغرز مخالبه فى عدوه و يعلن انتصاره بصرخة رهيبة .



وقف الآن خان أبوالخير محدقا فى مكان ما من خلال نافذة ضيقة وأخذ يفكر، هناك الكثير من العبر التى تركها جنكيز خان من أجل التعليم وكلها من حياة الطيور والحيوانات. أليس فى ذلك حكمة بالغة ؟ كل شيء يتكرر فى حياة البشر و يفوز دائما من يقتفى أثر الطبيعة . و قد برع جنكيز خان فى كل فتوحاته لأنه كان يحتذى فى كل شيء بالاسود و النمور . و عندما كانت تقتضى الضرورة كان يصبح ثعلبا و أحيانا لم يكن يخجل أن يكون ضبعا»...

و هنا تذكر خان أبوالخير لسبب ما منافسات أكينى الماضية . شيء ما آخر حاول أن يؤكده صاحب المائة عام أسان كايجى و الشاعر العجوز كوتان و من بعدهما الشاعر الصغير كازتوجان. إن لديهم حكمة غير مفهومة. اتضح أن الرجل يجب أن يتصرف بطريقة خاصة مختلفة عن النسور أو الذئاب كما لو أن الطبيعة لدى الوحش و الإنسان ليست واحدة .

و قد أدرك أن هذا هو ما أثار غضبه تحديدا و فى المقام الأول. و دائما ما يقوم الأذكياء- الشعراء و الموسيقيين و المغنين و حكماء الكتب- من قبيلة أرجين بتعكير المياة الصافية إنهم دائما يعارضون الحكام . و ليس من قبيل الصدفة إن سلفه العظيم كان المقام الأول يطاردهم في البلدان المحتلة . و ينبغى القضاء على هذه البذورالسامة من جذورها .

***

و لكن لماذا يتقبل شعب السهوب عديم الملامح حكمتهم الكاذبة بذلك الابتهاج؟ ربما يكونون على حق و توجد فى حكمتهم قوة؟ إنهم يريدون توحيد السهوب الكازاخية، و هذا يعنى تقسيم قبيلته. حسنا ، فلنرى ماهو الأقوى قصص جنكيزخان الحكيمة أم أغانى الشعراء البائسين. آنذاك سأل ذلك الشاعر كازتوجان الذى تلقى تعليمه على يد قبيلة أرجين أين هم الآن المغول ؟ أين هى الدولة العظمى التى أنشأها سلفه العظيم؟ ولكن لايزال هو - خان أبوالخير - على قيد الحياة و كثير من البلاد تقع تحت يديه. وستستمر للأبد لأن مثل هؤلاء الحكام فقط ينتظرهم النجاح و أنهم يبصقون على جميع الأذكياء و أن حكم جنكيز خان هى الصحيحة .

كأنه توجد قوة أخرى باستثناء الخوف من الموت لتوحيد الناس؟ إن خان أبوالخير مخلص لمبادئ الأسلاف و سينشيء مثل هذه الدولة التى سوف تعيش ألف سنة .

و الإنسان؟ وهل للإنسان قيمة .. وفي نفس هذه القصة تم التلميح عمن أخذ



جنكيز خان عقوبته الشهيرة. إنهم يجعلون رأس الإنسان إلى أسفل ويضغطون بسهولة فينكسرعموده الفقرى أسهل مما ينكسر لدى الثعبان الذى حارب النسر .

سيدي الخان...

ارتجف أبوالخير من المفاجأة و أمسك بخنجره المعلق فى حزامه...

إنه الفارس قوبلاندى . بعد أن دخل القاعة و رأى الخان الغارق فى أفكاره لم يجرؤ على إزعاجه و وقف في صمت لفترة طويلة على عتبة الباب. و على الرغم من تقدمه في السن كان الفارس كما فى السابق غير صبور . و فى هذا الصدد كانت الأمور التى أحضرته إلى هنا لم تكن تحتمل الانتظار و قام الفارس قوبلاندى باختراق الصمت.

كان صوت الفارس كأنه يخرج من الجرة الضخمة الفارغة التى يخزنون فيها الحبوب في بلاد ما وراء النهر و أيضا تلك الأصوات التى تحدثها المعدة الفارغة لحصان أو ثور المنفوخة من قبل الأطفال عندما يضربونها بالعصا . لكن الخان الذى كان ينظر من النافذة أمسك بسلاحه رغما عنه و لم يخف هذه الإيماءة عن الفارس .

هتف الفارس لا تخافوا إننى لست عدوكم يا سيدى الخان .

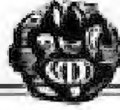
فكر الخان نعم ... نعم ...إنه عدو "أكجول بيك" . شعر أبوالخير بمرارة فى روحه أنه أظهر خوفه أمام الفارس التابع له . مثل هذه الاخفاقات تشكل خطرا على الحاكم .

و هرعت موجة جديدة من الكدر إلى قلبة . نصف العالم تحت قدمي و أنا دائما أرتعش كالأرنب الأخير في جحره .. بسبب و بدون سبب أخاف من كل قادم . هذا هو قدر من بيدهم السلطة..

سأل الخان بصوت خال من المشاعر هل جئت فقط لرؤيتى أيها الفارس ؟

كلا لقد جئت فى أمر هام ياسيدى الخان. جئت بخصوص هذا اللعين " أكجول بيك"...

نظر خان أبوالخير فى عينى الفارس و فكر : «إذن فقد خمن هذا الشجاع الأشياء التى تثير قلقى. كانت الكراهية الظاهرة لمنافسه الأبدى تلمع فى عينيه. حسنا فهذا ما ينبغى أن يكون ينبغى على المرؤوسين أن يعادى بعضهم البعض لمصلحة الحاكم. د ع الكلاب تتقاتل من أجل العظمة التى فى يديه. دعهم يمزقون بعضهم البعض فى كل مرة و يخوضون فى دمائهم أنفسهم. و فى هذا فائدة عظيمة لسلطة الخان. و فى الحقيقة إنه يعلم إنه لن يعادى شعب شعبا آخر أو قبيلة قبيلة أخرى ما لم يحرضهم ضد بعضهم



البعض. و لكن هل يوجد الخانات والسلاطين إلا لهذا الأمر ؟ فقط يجب أن يكون يقظا ولا يفوت اللحظة المناسبة . و قد قيل شيء عن ذلك في إحدى مواعظ جنكيز خان .

أتمنى ألا تتوحد هذه القبائل وإذا حدث فسيشكل هذا بالفعل خطرا على قبيلته وحتى التفكير في ذلك أمر مريع .

و لفترة طويلة كان خان أبوالخير منطلقا من تلك التصورات يسكب الزيت على نار الفتنة بين هذين الفارسين المشهورين. لكن الصراع بين الفارسين بقى حتى الآن مسألة شخصية. و مازالت قبيلتى أرجين وقبجاق تعيشان في سلام و وفاق. كان خان أبوالخير الذى اعتاد أن مثل هذه المواجهات سريعا ما تتحول إلى حرب أهلية مندهشا بطريقة غير سارة من ذلك الأمر .

لفترة طويلة لم يتمكن من فعل شيء. باستثناء سباقات الخيل ومسابقات الشعر التى تشتعل خلالها أحيانا المشادات بين أفراد قبيلتى أرجين و قبجاق لم يحدث بينهما ولو لمرة واحدة صدام جدى سفكت فيه الدماء. و رأى الخان في ذلك مجددا مكائد جانيبيك وكيرى. إنهما تحديدا يريدان توحيد القبائل و العشائر الكازاخية ضده. و قد وصلت كراهيته لهما إلى أقصى حد للتأجج حتى إن كل ما يحدث من أمر سيء في الدولة أو في أسرته كان يرى أبو الخير أيدى أولئك السلطانين المتمردين في كل مكان .

لكن السبب الحقيقي للسلام القائم بين العشائر تمثل في شيء آخر تماما. كان رعى الماشية الوسيلة الوحيدة لمعيشة القبائل الكازاخية و كان فرض السلطة المركزية المفرطة التى حاولت سلطة الخان تحقيقها على المخيمات المنتشرة عبر آلاف الكيلومترات في السهوب التي لا نهاية لها ببساطة شيء مستحيل . من الضرورى فرض حكم ذاتى و هذا يتعارض تماما مع الدولة التى صنعها بسرعة المحظوظ خان أبوالخير من حطام الامبراطوريات التي سبقتها .

غير أن الكازاخ أحسوا أنهم إذا استمروا في العداوة فيما بينهم كما في السابق فسوف يصبحون لقمة سائغة للمحتلين كما حدث في عهد جنكيز خان و تيمورلنك. ولم تستطع العشائر و القبائل البدوية وحدها أن تتصدى للأعداء و دائما ما كانوا يطلبون المساعدة الأخوية و دعم بعضهم البعض. لم يأخذ خان أبوالخير هذا في الحسبان و لكن استشعر ذلك جيدا سلاطين البادية الأكثر ذكاء .

***



لم يدر الحديث بعد عن توحيد جميع القبائل و العشائر الكازاخية . فقد انحصر الأمر على تحالفات بين أولئك الذين تقع مخيماتهم بجوار بعضهم البعض. كان يلوح فى الأفق بوضوح في هذا الخليط التاريخى اتحاد ثلاث قبائل ذات قرابة أو ثلاثة أجزاء كما كانت تسمى تلك الاتحادات . و كان أهم شيء فى تلك الظروف السلام و الصداقة بين أقوى العشائر و هما أرجين و قبجاق. و لم يسمح البكوات و الفرسان الواعون من كلا العشيرتين على الرغم من الصراع بين الفارس قوبلاندى و أكجول بيك أن يدب الخلاف بين العشيرتين. و كان يلعب دورا خاصا فى حفظ السلام أولئك المغنون الشعراء المشهورون مثل أسان كايجى والشاعر كوتان وتلامذتهم العديدون و المقلدون. فقد كانوا يتمتعون باحترام كبير في جميع العشائر و كانت أغانيهم تعكس رغبة كل الشعب للتوحد.

و في كل مناسبة يؤكد رجال خان أبوالخيرال مخلصين أن سلاطين أرجين المتمردين و شركاءهم متورطون في العدواة بين هذين المحاربين البارزين. و قد شارك الخان نفسه مشاركة فعالة فى تأجيج هذا العداء . و فى هذه المرة لم يغير من عادته .

سأل خان أبوالخير بحزن و طأطأ رأسه لماذا ذكرتنى بهذا البيك سليط اللسان؟ إنه أحيانا لايذكرك وحدك بكلمات سيئة بل يذكرنى أنا أيضا .

ما إن قال الخان ذلك حتى قام الفارس قوبلاندى فورا بضم قبضتة .

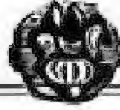
لم يعرف خان أبوالخير على الرغم من معلوماته أن هناك سببا آخر غير الأسباب الظاهرة يجعل هذين الفارسين أعداء لدودين. إنه كان يؤجج النار دائما من جانب واحد و رغبة فى الحصول على مايصبو إليه كان الخان يتحمل أحيانا حتى ما كان يفرضه عليه كل من هذين الخصمين .

أخذ الفارس قوبلاندى يزمجر و قال إذا كان هذا التافه يسخر منا فيجب أن نعاقبه بشكل ملائم .

قال خان أبوالخير لكن لدى أكجول بيك قوات كبيرة و نفوذه بين الكازاخ عظيم ولا يوجد فارس من الفرسان يحترمه الناس مثل ما يحترمونه...

قال الفارس قوبلاندى و من يحترمه غير البلهاء من قومه أرجين وأنتم تتساهلون معه فى كل شيء حتى أنكم قد سامحتموه فى هروب سايان رغم أن هذا من عمل يده .

أعرف ذلك .



و إذا كنتم تعرفون و لديكم أدلة حقيقية ضده فلماذا لاتكسرون عنقه ؟ ابتسم أبو الخير و قال فى حيرة :

لا يمكن فعل ذلك ... لقد قلت لك يا فارسى إن لديه قوات كبيرة .

صار لون الفارس قوبلاندى أرجوانى اللون و قال:

أى قوات لديه ؟ ماذا يستطيع أن يفعله كل فرسان أرجين الذين بالنسبة لهم الكلمة أهم من الفعل ؟ الأغاني و البلاغة شغلهم الشاغل. اعطنى موافقتكم و سأقوم مع عشرة من فرسانى فى رائعة النهار بتحطيم قرية أكجول بيك...

سأل الخان بعزم مبينا أنه يفكر بجدية فى عرض الفارس قوبلاندى أليست قرية أكجول بيك تجاور قرى جانيبيك و كيرى ؟. لن يصمت السلطانان عندما يرون أنك تدمر قرية أكجول بيك...

قال الفارس المتهور بصوت عال و لوح بقبضته فى الهواء فى هذه الحالة سوف تطالهم عصاتى بمجرد أن يتدخلوا فى هذا الأمر .

لكن خان أبوالخير لم يكن يصغي له وأخذ يفكر « كلا لا يمكن التصرف على هذا النحو . إذا أعطيت اليوم لأحد من عامة الشعب أن يشم الدم السلطانى فغدا سيرغب أن يتذوق الدم الخانى . لا يجب أن يصل الأمر إلى حده الأقصى . « فالثلج يسقط على الثلج و يجلس الخان مكان خان أخر» . إننا جميعا جنكيزيون و ليس من المفيد أن نجذب لحل الخلافات بيننا أى شخص أخر .

نعم مهمتنا أن نسيل دم بعضنا البعض و إننى سأتولى بنفسى أمر هؤلاء السلطانين. و لكن بماذا أجيب ذلك الفارس الشهير ؟ إنه ينتظر وعصاه ذات العشرين مسمارا جاهزة لتهوى على أى رأس سواء من الوجهاء أو الرعاع . حسن هذا الأمر أم سيء و لكن لابد أن أجعله يهدأ .

قام الخان بحركة كأنه يمسح العرق غير الموجود عن جبينه و قال إذا لم يكن هناك أكجول بيك هذا فإن جانيبيك و كيرى يصبحا على الفور منصاعين. و لكن إذا لم تخطىء فلن ينالك أى سوء .

كان خان أبوالخير يتباحث الأمر مع الفارس قوبلاندى كأنه يبحث معه أمرا لا يخصه و لا يعنيه فى شيء. و كان متعاطفا بعض الشيء مع أكجول بيك و وافق على الإجراءات المتطرفة فقط بدافع الصداقة نحو الفارس قوبلاندى . و لكن هذا الغريب قال بوضوح : إذا



كان الأمر كذلك فإننى أطلب موافقتكم على القضاء على أكجول بيك وحده . فهذا ما أريده .

باعد الخان بين يديه من المفاجأة و قال كيف يمكنني أن أعطيك إذن ؟ بالإضافة إلى ذلك هل هناك ضرورة لمهاجمة قرية كاملة بعشرة فرسان ؟ يمكن الاعتقاد أن الفارس الحقيقى هو من يتغلب على هذا البيك فى مبارزة خاصة. و فى الحقيقة فى الوقت الحاضر لم يعد هناك كثير من الفرسان الحقيقين و انك قد ألمحت إلى ذلك عندما تحدثت عن جريمة الهارب سايان

نظر الفارس قوبلاندى إلى الخان بتجهم ثم تمالك نفسه و لم يعد يرفع صوته . و كما ينبغى فى الحديث مع الخان أحنى الفارس قوبلاندى رأسه ثم سأل :

وماذا لو أن ذاك البيك لم يرغب أن يدخل معى فى مبارزة ياسيدى الخان ؟

نعم إن هذا رفض خطير ... فى الحقيقة كان الفارس في الأيام الخوالي يكمن لعدوه فى زقاق ضيق ثم يعود إلى منزله واحد من الإثنين و لكن الآن هذا غير ممكن.أنا نفسي قد أكدت عقوبة الإعدام لمن يقطع الطريق وسأعاقب بقسوة من يخالف هذا القانون إذا كنت بالطبع على يقين من تورط ذلك الفارس الذى قرر أن يدافع عن شرفه وعادة أنا بنفسى أقضى فى تلك الأمور .

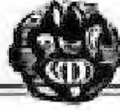
نظر خان أبوالخير مباشرة في عيون الفارس قوبلاندى و قد فهم هذا أخيرا و أخذت عيناه تمتلىء بالدم . و تحول لونه الأسمر إلى اللون الرمادى و انتفخت فى أصداغه عروقه الأرجوانية. و أخذ يفكر بسخط « هل لأقتل أحد الفرسان ينبغى أن أكمن له فى السهوب مثل قاطع الطريق . كلا إن الفارس قوبلاندى ليس خائنا أو جبانا . إنه لن يسمح لنفسه أن يقتل أو يكون مقتولا إلا فى معركة مشهودة» .

و قد خمن الخان أنه قد ضرب على الوتر الحساس عند الفارس قوبلاندى . و لم يتركه الخان يفكر حتى النهاية و قال بصوت آمر .

المعركة المشهودة تدمر السلام فى الشعب و أنا أمنعك من ذلك . و من المهم لقبيلة الخان أن تعيش القبائل المخلصة لنا فى سلام و صداقة. و إذا كنت تريد الانتقام من عدوك فهذا شأنك و لكن لا تشركنا فى شؤونك .

سمعا وطاعة يا سيدى الخان..

الآن يصدق الفارس البسيط من جديد خانة . في الواقع ليس أمرا جيدا أن يتعارك الأرجين



و القبجاق من جراء غضبه مع البيك أكجول. بالطبع مع أول لقاء سيقتل ذلك البيك ولكنه سيفعل ذلك سرا. إن قلبه يطلب الثأر و لابد أن يقتل عدوه. و وفقا للقواعد ستدور معركة بينهما و تليق بفرسان صادقين .

لقد قضيتم بحكمة ياسيدى الخان . و الآن سوف تحل كل الأمور قوة أذرع الفرسان بل حدة نصلى رماحهما .

أضاف خان أبوالخير كان الله فى عون من لديه الحق منكما .

انحنى الفارس أمامه إنحناءة كبيرة ثم استدار و خرج .

***

فكر خان أبوالخير فى كل شىء حتى فى أدق التفاصيل . فبمجرد أن ينتشر خبر مقتل أكجول بيك فسيمتطى على الفور كل من جانيبيك و كيرى صهوتى جواديهما و يهرعون إلى مقر الخان مطالبين بالقصاص الدموى للقتيل . فى تلك اللحظه قبل أن يتمكنا من استنفار عشيرة أرجين و استدعاء قواتهم من أماكن البداوة البعيدة يمكن توجيه اتهام لهما بالتحريض و العصيان. وسيحاولان المقاومة ومن ثم يمكن القضاء عليهما فى مستوع النفايات و فى عيون الجماهير سيكون كل شىء مبررا فخان أبوالخير ملزم بالحفاظ على وحدة شعبه و يعاقب بشدة أولئك الذين يزرعون الفتنة . بالإضافة إلى ذلك فإن كلا السلطانين يكونان قد قضيا نحبهما و لن يكون هناك أحد يقود الساخطين.

بعد أن توصل خان أبو الخير إلى ذلك القرار شرع فى تنفيذه فاستدعى بحلول المساء رئيس الحرس الخانى الفارس كارا أوسبان من عشيرة النيمان و أمره أن تكون جميع القوات فى المقر على أهبة الاستعداد .

انحنى كارا أوسبان و قال سمعا و طاعة يا سيدي خان .

و بعد عدة دقائق طارت من عنده رسل على خيول سريعة في اتجاهات مختلفة تحمل أوامر إلى كل الفرسان بالحضور باكرا إلى قصر الخان . و قد تعجل أحد الرسل بشكل خاص و كان يحمل رسالة بخصوص أوامر الخان غير العادية الموجهة إلى السلطان الأرجينى جانيبيك . و قد حذر أصدقائه أنه ينبغى عليهم أن يحذروا من شىء غير متوقع و وعدهم أن يعلمهم بما يحدث فى مقر الخان . أخبر السلطان جانيبيك المنزعج كيرى بكل شىء و أمر محاربيه أن يكونوا فى حالة تأهب .



قبل يومين ذهب أكجول بيك مع إثنين من المحاربين للصيد بالصقور بالقرب من جبال أيراتاو . و قد جلبت الصقور ذات الأعين الحمراء التى كانت تتوق منذ فترة وليمة الذكرى لدماء طازجة السرور للصيادين بصيد ضخم...

قضوا فى الصيد مدة أسبوع متنقلين من مكان لأخر و كانت الخيول البديلة محملة بحزم من الثعالب الحمراء النارية و ثعالب السهوب السوداء و البنية . بحلول نهاية الأسبوع وصل إليهم أخيرا مبعوث السلطان جانيبيك و قال لهم « هناك شىء يحدث فى مقر الخانولكى لا يحدث لأكجول بيك مكروه فالأفضل له ألا يعود إلى الديار.

كان أكجول بيك يعرف أن السلطان جانيبيك لن يزعجه بسبب أمر تافه . و فى هذا اليوم سارع إلى الوراء . و بعد أن نزل هو و المحاربان من الجبل أعطوا الخيول راحة فى منتصف النهار على الشاطىء الجنوبي لنهر جا نجابيل حيث كان كان يوجد مقر جوجى فى وقت من الأوقات. كان كل شيء هادئ في السهوب ولكن فجأة ظهر الفارس قوبلاندى الكاراكبشاكى يرافقه عشرة من المحاربين . كان وجهه أدكن من السحب و مرتديا درعا معدنيا واقيا و لم ينزل عن فرسه الجميل كوسانداك .

سأله أكجول بيك الذى كان يرقد بهدوء على العشب بالقرب من المياة إلى أين أنت ذاهب أيها الفارس المجيد قوبلاندى ؟

صاح الفارس قوبلاندى بصوته الجهورى إذا لم تكن إمرأة فادخل معى فى معركة حتى الموت و على أية حال لن تحصل إلا على الموت.

و حرك فوق رأسه عصاه الرهيبة التى كانت نهايتها تماثل رأس الطفل فى الحجم ومصبوبة بالرصاص .

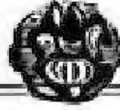
صاح فارس شاب ذى شارب أسود مرافق لأكجول بيك بتعجب أيها الفارس هل من الممكن أن تدعو لمبارزة فى سهوب جرداء ؟ مثل هذه الأشياء تحدث أمام الناس .

صاح الفارس قوبلاندى كالرعد هل تريد أن أضربك أيها الجرو بعصاى هذه أولا .

أغرب عن وجهى بسرعة و لا تتدخل فيما لا يعنيك .

***

كان أكجول بيك يعرف مدى الكراهية التى يكنها له الفارسى القبجاقى حتى



أنه لم يعد يتحدث معه . «دعونا نرى ما هو مقدر لي من الله» و تمتم و أمر الفارس باحضار حصانه المقيد أكجانباس. و لعدم وجود سلاح آآخر فى متناول يده أمسك بهراوة بسيطة مصنوعة من شجرة

البتولا و التى كان يصطاد بها الثعالب و الذئاب. و لم يتركه الفارس قوبلاندى المتعجل ليستعد و اندفع بحصانه ناحيته. و ما إن التفت أكجول بيك حتى اندفع نحوه الفارس القبجاقى بكامل ثقله و ثقل الحصان . و فى محاولة لتفادى العصا أصاب أكجول بيك كتف العدو المحصن بالدرع و لكن فى هذه اللحظة ضرب حصان الفارس بصدره حصان أكجول بيك الذى لم يستطع الهرب و هوى قوبلاندى من الحركة بهراوته على رأس عدوه المغطاة فقط بقبعة من الفرو. تطايرت جمجمة أكجول بى إلى قطع صغيرة و هوى الجسد الضخم على الأرض . و فى تلك اللحظة لم يكبح جماح فرسه و انطلق فى البرية و تبعه من كان معه من الفرسان .

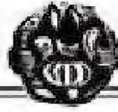
لم يتمكن الفارسان المذهولان مما حدث أن يعودا إلى رشدهما سريعا. و بالكاد استطاعا أن يرفعا الجثة مقطوعة الرأس على الحصان و انطلقا نحو أوردا بازار . و قد أرسلا وهما ما زالا فى الطريق رسولا إلى قرى أرجين بنبأ ما حدث .

فى ذلك الوقت كان خان أبوالخير يتحدث في قصره مع الوزير بختى خوجة. و قد أخبرهذا تفصليا كيف تسير الخطة المتفق عليها...

كان السلطان سويونشك لا يصدق فى البداية جريمة أمه حتى أنه انقض على الوزير بخنجر كان فى يده و صاح فى نفس الوقت أن تكذب على المرأة التى ولدتنى أيها الكلب الحقير و لكن ما إن سمع أن الخان نفسه يعلم هذه القصة حتى هدأ. قال له الوزير: إذا كنت ستجبن و لن تجرؤ كرجل فارس فأحكم عليها بالإعدام و سوف يتولى هذا الأمر والدك . و قال له أيضا بختى خوجة إنه يجب عليه أن يكون سليلا حقيقا لجنكيز خان الذى لم يعرف الشفقة فهى تناسب النساء و الجبان فقط هو الذى يشعر بذلك الشعور الوضيع .

في النهاية وافق السلطان سويونشك على أن يحكم على أمه بالموت علنا لكن الوزير الغادر أخفى بعض التفاصيل عن الخان نفسه . لقد تحدث الوزير بطريقة مختلفة مع السلطان الصغير الذى كان على خلاف ورثة الخان الآخرين تربطه ببختى خوجة علاقات وثيقة .

دعى الوزير بختى خوجة السلطان الصغير مستغلا أواصر الصداقة التى تربطهما إلى



مكان منعزل و جلس طويلا و لم يجرؤ أن يبدأ الحديث. قام سويونشك الذى فهم ذلك بمساعدته.

قال : قل أيها العالم بختى خوجة يبدو أنك تخفى عنى شيئا مهما .

أجاب الوزير إجابة ذات معنيين الحقيقة هى الحقيقة .

إذا كان هذا السر يخصنى وحدى فآذاني ملكك و مفتاح فمي فى جيبك .

نعم هذا يخصك وحدك و لا يوجد سر أبشع من ذلك و مستقبلك كله يتوقف عليه .

صاح سويونشك تكلم إذن .

ما إن ظهر إلى الوجود حتى تعرض لجميع أنواع المؤامرات و الآن أصبح يتشكك فى كل شىء. أول فكرة خطرت على باله كانت عن نفسه « هل يتهددنى خطر ما ؟» ولكن الوزير الخبيث قرأ كما فى كتاب مفتوح جميع أفكاره .

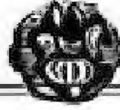
بدأ الوزير بشكل تعليمى هل يولد النسر الصغير إلا ليصبح نسرا كبيرا. إن والدك خان أبو الخير لم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره إلا و قد أصبح حاكما على سهوب دشت و قبجاق وأنت أصغر منه فقط بأربعة أعوام و لكنك لا تستطيع أن تبتعد عن إغراء ركوب الخيل أياما كاملة و التأرجح على الأرجوحة. وإذا لم يخرج الكتكوت من البيضة فى الوقت المناسب فإنه يموت فى القشرة و الوارث الذى لا يعتلى عرش الخان فى الوقت المناسب يحكم عليه بالمعاناة الأبدية . و ليلا و نهارا تتجسد أمامه السلطة الضائعة من بين يديه و ليس هناك شىء أفظع من ذلك .

عند ذكر عرش الخان لمعت فجأة عيون سويونشك. كان الوزيرىيعلم جيدا تلك النيران المفترسة فى العيون و سعى بصفة خاصة لظهورها. صمت الآن لبضع دقائق كأنه استغرق فى التفكير و أخذ يراقب تلميذه من طرف خفى. و لم يتحمل سويونشك .

قال صائحا كيف يمكنني حتى أن أحلم بعرش الخان و لدى إخوة آخرين يعدون أنفسهم أكبر سنا و أكثر حكمة و يجرى فى عروقهم بالطبع الدم الخانى...

أومأ بختى خوجة باهتمام ،

قال مواصلا الحديث المنقطع ابن الرجل من عامة الشعب هو ابن والده و لكن ابن الخان هو وريث العرش و البلاد . في جميع الأزمان يعد اعتلاء العرش أمرا صعبا لدى كل الشعوب لأنه عرش واحد فقط والمتنافسون عادة كثيرون . لكن من يحقق الهدف المنشود هم فقط الشجعان و الأقوياء . و فى الطريق للوصول إليه دائما ما تباد الأنفس و تسفك الدماء



و كلما أراقوا دماء أكثر كان حكمهم أكثر قوة و ثباتا. لكن لماذا نتحدث عن ذلك و أبى الخان لم يصل بعد إلى سن الخمسين ؟

يعد الخان شابا طالما أبنائه يعدون أنفسهم لم يبلغوا سن الرشد بعد. و إذا كانوا يعتبرون أنفسهم حتى الشيخوخة أطفالا يظل الخان شابا للأبد. فقط عندما يشعر الوارث أنه يستحق صولجان الخان يتحول الخان بشكل واضح إلى عجوز واهن .

عبس سويونشك

قال : أنت تريد...

ابتسم الوزير بتملق و قال :

فقط تحلي بالصبر قليلا لأنني لم أكمل حديثى لنهايته ... كلا إننى لست بأي حال من الأحوال أريدك أن تواجه أبيك الخان . إن المهر الصغير في القطيع يقوم من تلقاء نفسه دون مشورة من أحد بإزاحة الحصان العجوز عندما يحين الوقت . و لا يزال لديك الوقت لإثبات مدى احترامك لأبيك و لكن واجبى أن أحذرك...

و هنا قرب بختى خوجة شفتيه من أذن الوارث و تحدث بهدوء وإقناع :

فى الحقيقة أن سمو الخان أبوالخير يعاني من مرض عضال . و قد يلازم الفراش اليوم أو غدا. الله نفسه يأخد ما يعطينا إياه وهو الصحة وليس هناك مجال للشكوى. ولا يمكن لأحد من الموتى أن يتوسل له أمام القدر. و باختصار فإن الخان سليم فقط ظاهريا أما داخليا فإنه يعانى من ألف جرح مثل الحصيرة البالية . أواه

سمعت الدهشة فقط فى علامة تعجب سويونشك هذه . و كانت عيناه مثل الجمرات الملتهبة. هز الوزير رأسه برضا و تابع :

ألف سنة من الحياة لخاننا الحبيب .. و لكن لا قدر الله إذا حدث شيء ... و طأطأ رأسه كما لو أنه منسحق من كارثة وشيكة الوقوع و لكنه بعد ذلك رفعها بنشاط . كما يقولون رب ضارة نافعة . و إذا حدث لخاننا مصيبة فان العشرة الوارثين سيتركونه على الأرض . و لابد أن أحدا ما سيعتلى عرش أبيه.

فى هذا الوقت نسي سويونشك أن والده على قيد الحياة و بصحة جيدة . و رأى نفسه مرفوعا على السجادة البيضاء فوق كل شعوب الخانة الشاسعة و رأى نفسه على رأس القوات التى تقتحم المدن و تقهر البلدان المختلفة . و بدا أن القلب مستعد للقفز من الصدر .



سأل وهو يلهث و أنت يا معلمنا من تود أن تراه على عرش الخان ؟

توقع الوزير هذا السؤال و كلاعب شطرنج جيد حرك ذهنيا قطعة الشطرنج التالية غير أنه بدأ من بعيد :

اعلم يا سلطانى أن سيدنا الخان يفضلك عن أى واحد من هؤلاء العشرة . و رأي الخان هو رأيي أنا أيضا . أنت بجعتنا البيضاء التى تربت في سرب من الغربان السوداء. و يقول المثل القديم أن العدو الأول للوارث الذكى هو الأب الحاكم . و لكن في هذه الحالة ليس الأمر كذلك . ليس والدك هو العدو اللدود و إنما أمك .

ارتجف سويونشك من الخوف.

ارتعد صوته و أصبح بائسا و مشوشا و قال : لا ... لا مستحيل ... لا ... لو كان فى العالم أم واحدة على الأقل تحب ابنها فإنها أمى .

بالنسبة للفارس ذى المستقبل العظيم لا يوجد شيء أضر من الحب المفرط الذي لا معنى له من جانب إمراءة سواء كانت زوجة أو أم . نعم إن "ربيعة سلطان بيغيم" تحبك كثيرا لدرجة أنها تخاف عليك . إنها تعرف ماهى المخاطر التى تواجه الخان لذلك قررت أن تعطى العرش الذهبى لابنها الآخر « كوشكينشك » الذى تحبه بدرجة أقل...

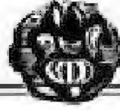
***

قال الوزير بختى خوجة هذة الكلمات بشكل هادىء و خال من الانفعال. اتسعت عيون السلطان سويونشك وجفت شفتاه من القلق و بدأ يضم قبضتيه بشكل متقطع

لايلزمنى ذلك الحب إذا كان سيحرمنى من العرش . إذا فهى قد كذبت على عندما قالت إننى سأصبح خانا . الآن فهمت أنها تحب كوشكينشك وحده حبا حقيقيا .

هذا ماكان يتنظره الوزير و قال:

للذى عزم بشكل قاطع أن يصبح خانا ليس هناك وجود لأقارب أو مقربين بل على العكس إن الأقارب و المقربين هما العقبة الرئيسية على طريق العظمة. تذكر ياسلطانى أسلافك العظام المنتصرين . لم يكن من بينهم حاكم حقيقي إلا خنق أو قطع رأس شخص من أقاربائه . و إن «قاهر الكون» نفسه قد كسر فى وقت من الأوقات العمود الفقري لابنه الحبيب جوجى. و لا ينبغى للخان الحقيقى أن يمتلك مشاعر الشفقة . إن



حكم الناس يتطلب يد قاسية و قلب من حجر. و تتأكد القدرة على الحكم فى الطريق إلى العرش . و لن يحصل الضعيف أبدا على الصولجان..

صاح سويونشك : سوف أصبح كذلك.

إذا كنت تستطيع أن تكون على هذا النحو من البداية فإننى و الجميع سنكون خلفك دائما .

إننى أستطيع .

من ذلك اليوم فقد السلطان سويونشك الهدوء و النوم . و فى العقل الصغير الشرير تتوالد بلا انقطاع جميع أنواع الخطط لكيفية الاستيلاء على عرش والده . أصبح يكره أمه و لا يصدق أى كلمة من كلامها و أصبحت كل ملاطفة من جانبها يتقبلها على أنها تكلف ماكر، و الابتسامة التى توجهها لأخيه الشقيق كوشكينشك تؤكد فقط كلام الوزير .

ألقى بختى خوجه الحطب بذكاء وهدوء فى الموقد المشتعل . و قال « انظر ما هي الذنوب المدرجة بحق أمك التى تبخل عليك بصولجان الخان . و إليك مثال غدرها و خبثها ... أنت لا تعرف ما تستطيع أن تفعله النساء . و ما دامت توجد بالقرب من حاكمنا الخان فلا تفكر مطلقا فى العرش . انظر كيف يقفز حولها بسعادة كوشكينشك» .

كان بختى خوجة وزيرا حقيقيا و لم يخطئ في حساباته . إن الذئبة تكون أما للذئاب الصغيرة ما داموا صغارا لم يكبروا بعد و لكن بمجرد أن ينمو الشعر على الجزء الخلفى من رقبتهم تصبح الأم بالنسبة إليهم مجرد واحدة من الذئبات الكثيرات . و كان سويونشك من النسل الذئبى لجنكيزخان .

لم يخبر الوزير الخان شيئا عن كل هذا . و فكر « و هل تهم الكيفية التى يرغم بها الابن أن يعدم أمه . الأهم هو تنفيذ إرادة الخان و... إرداتى» .

و لم يكن خان أبوالخير يهتم بالتفاصيل . إنه ببساطة وعد الوزير بألف دينار من الذهب إذا تم كل شيء بلا أخطاء و بدون تعقيدات.

و قال يجب أن يعتقد الجميع فى ذلك و ليس أنا وحدى . دع العالم يرى أننا عادلون

و لا نسمح حتى للزوجة الحبيبة أن تسخر من القانون فالقانون لدينا أعلى بكثير من مشاعرنا الخاصة و غرائزنا .



سمعا وطاعة يا سيدى الخان..

مد بختى خوجة يديه إلى الخان بتواضع .

لم يفهم الخان و قال له ماذا تريد ؟ الدنانير ياسيدى الخان .

نظر خان أبوالخير إلى خادمه الخانع المحنى و مرة أخرى خطرت له فكرة أن وزيره يعرف كثيرا جدا عن تلك الأشياء التى يجب أن يعرفها الخان وحده . ثم فكر أن ألف دينار ثمن جيد جدا مقابل هذه الخدمة. فالحديث يدور عن زوجته ابنة العالم أولوغبيك و سليلة تيمورلنك كما إن تربية الوارث التى يضطلع بها هذا الرجل أيضا تستحق الجائزة...

حسنا يا وزيرى سوف تحصل على المال فى يوم تنفيذ حكم الإعدام .

***

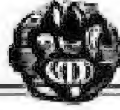
كان الوزير بختى خوجة يتأهب للخروج من عند الخان حتى نمى إلى مسامعهم جلبة وضوضاء . دخل الرسول مهرولا و انحنى و أخبر بوفاة الفارس الشهير «أكجول بيك» القائد الحربى وقريب خان أبوالخير . و قال إنهم قد أحضروا للتو جثته إلى قريته وتبكى عليه الآن النساء .

امتطى خان أبوالخير صهوة جواده «تارلانكوك» بمصاحبة فرقة ضخمة من حراسه وذهب إلى القرية الأرجينية التى كان يعيش بها المتوفى . هكذا كانت تقضى تقاليد السهوب القديمة و كان الخان ينفذها بدقة . حتى الأعداء فى مثل هذه الحالات يقدمون تعازيهم و كان خان أبوالخير أفضل صديق و راعى للفارس العظيم أكجول بيك .

بعد أن تجاوزت فرقة الخان القرى المحيطة « بأوردا بازار» توجهت إلى الروافد الدنيا من نهر « كاراكينجير» حيث وضعت اليورتات على عجل بمناسبة الجنازة المقبلة . على الشاطئ كبح خان أبوالخير جماح حصانه و نظر إلى العديد من القرى التي بنيت على جانبي النهر و حول البحيرات القريبة .

و كلما كان ينظر مدة أطول كان وجهه يزداد قتامة . فبالقرب من كل قرية لعشائر أرجين وقبجاق و نايمان وكونراد وكيرى وياوك تقف خيول محاربة مربوطة بالحبال الممدودة وتحت السروج برزت أنصال كازاخية طويلة وحادة . أين الشكل السلمى لليورتات والخيام . كان الانطباع يوحى بأن العدو على وشك أن يظهر فجأة.

انزعج الخان بشكل حقيقى و اعتقد أنه ربما تعجل فى الموافقة على قتل أكجولبيك. و مها حدث فلم يكن ذلك متوقعا .



نعم لقد أخطأ التقدير بشكل واضح و اعتقد أن السلطانين المتمردين جانيبيك وكيرى من السذاجة بحيث أنهم من هول قتل " أكجول بيك" سيأتون إليه ببساطة يطلبون منه بأيدى خالية من السلاح دية عن موت صاحبهم . إنهم استعدوا لكل شيء وينتظرون إجراءات متهورة من جانبه. و سيطالبون على كل حال بالثأر لمقتله.

تملكه غضب أعمى كما فى الصبا. حسنا دعهم يأتون حتى فى الظلام الدامس فسوف يقاتلهم و يصدهم مرة و للأبد عن التمرد و العصيان. حتى الآن في وقت السلم يوجد حول «أوردا بازار» عشرين ألف من الأتباع المخلصين و إذا أراد فسيصبح عددهم بعد أسبوعين عشرة أمثالهم .

و لكن بعد ذلك أوحى المنطق السليم للخان أن غالبية قواته و أفضل جزء بها من تلك العشائر المحاربة التى تقف خيامها فى مجموعات حتى الأفق أما الآخرون فهم أتباع أتوا من بلاد ما وراء النهر و أويغور و المغول الغرباء و الجاكاتى و القيرغيز و الكالميك . و سيكون معهم الكثير من أهل القبجاق بقيادة الفارس قوبلاندى و لكن من يضمن أنهم فى اللحظة الحاسمة أنهم لن ينحازوا إلى أقاربهم .

إن القوات تقريبا متساوية . لذلك يتصرف سلاطين قبيلة أرجين في الآونة الأخيرة على هذا النحو . فما العمل إذن هل يستدعى قوات من بلاد ماوراء النهر أم لا ؟ و من غير المرجح أنه سيمكنهم الوصول إذا بدأت المعركة. و بالتأكيد سيستغل جانيبيك و كيرى مقتل أكجول بيك لمصلحتهما الخاصة .

و لكن من الذى قام بتحذيرهم بهذا الشكل ؟ فالأمر يستغرق وقتا طويلا كى يتم الاستعداد على هذا النحو . و من غير الممكن استدعاء كل هذه القوات فى يوم واحد.

ذهب أبعد من ذلك . و ظهرت منازل اليورت التى وضعت خصيصا من أجل جنازة فارس قبيلة أرجين الأول وهنا على ضفاف البحيرة السوداء المحاطة بشريط داكن من نبات الديس الذابل تزاحموا كأنهم حشد من الأقارب المكلومين . كان عددهم لايقل عن مائة شخص. و بالقرب من كل منزل يورت يوجد رمح عالق بالأرض بشريط أسود و ذيل حصان أسود .

و في مكان الشرف وسط الخيام البيضاء مثل نسر أسود اقتحم قطيع من طيور البجع وقف منزل يورت الحداد ذات الستة عشر جناحا باللون الأزرق و الأسود الملفوفة بصوف سلالة خاصة من الأغنام . و من نظرة واحدة إليها تصاب الروح بالكآبة و فوق قبتها كانت ترفرف راية سوداء مشئومة مع صورة لعيون بشرية رمز عشيرة أرجين .



كبح خان أبوالخير جماح حصانه بطريقة لا إرادية . و بدا أن أن شكل منزل اليورت هذا يدعو إلى الثأر غير الرحيم مقابل القتل . و تذكر لا إراديا جنازة خان « مونكى» التى فكر فيها منذ مدة قصيرة . هل تريد عشيرة أرجين أن تكرر تلك الجنازة الدموية ؟ و من سيصبح رهينة لأجل القتيل أمام الأرواح ؟

وقد أبصر الخان فى هذا الأمر أيدى جانيبيك و كيرى . و تولد لديه انطباع أنهما قد استعدا للمعركة الحاسمة . و من المؤكد أنهما لا ينظران إلى الجنازة . و قد فكر أبوالخير لا إراديا أنه كان سيتصرف على هذا النحو لو كان فى مكانهما و امتدت يده إلى السيف لكنه سحبها على الفور و تظاهر بتعديل وضع الحزام .

لم يلحظ أحد حركته اللا إرادية . كان الناس ينظرون إلى منزل اليورت الأسود و حتى لم يلتفتوا إليه. لكن كيف يتصرف في الوضع الحالي؟ لم يلحق أن يجيب على سؤاله حتى اهتز من صيحة مفاجئة . فقد هرعت كتلة ضخمة من الخيالة إلى القرية تبكى وتعوى فى حزن لا إنسانى .

أه يا قريبنا..

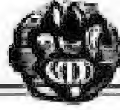
يا حامينا ... يا والدنا.

كان هذا تقليد كازاخى قديم إذ يهرع الجميع بأقصى سرعة إلى قرية الحداد مع صراخ وعويل مرددين « ياقريبنا» . لم يلتزم الجنكيزيون بهذة العادة و كانوا ينظرون إلى مثل هذه الأمور بازدراء . إن الكازاخ الذين أجبروا الغزاة على التحدث باللغة الكازاخية و التخلق بالعديد من العادات الكازاخية لم يهتموا مع ذلك حتى الأن أن السلاطين الجنكيزين لايشاركون في الجنازات وفقا لمراسم الدفن القديمة لسهوب دشت و قبجاق . و قد اعتقد هؤلاء أنه لا يليق بالخان أو السلطان أن يهرع إلى القرية المكلومة و هو يصرخ قائلا «أه يا قريبى». في ذلك الوقت كان هذا شيء خارج عن المألوف...

لم يستطع خان أبوالخير أن ينظر كما ينبغى إلى السيل المقترب وفجأة انسلخت مجموعة من الاتباع عن الحاشية و القوات السائرة خلفة. ومع الصراخ انضموا إلى الهارعين إلى القرية و إلى الفرسان المحزنون. وقد ذابت فرقته على مرأى منه و فجأة شعر أن تارلانكوك لا يستجيب للزمام. و مع القوة الدافعة للأمام دفع الحصان أبوالخير المذهول إلى الحشد العام

و من الأمام و الخلف و اليمين و اليسار يولولون و يبكون و يصرخون . يا قريبنا

مع هذه الصرخة العامة اقتربوا من منزل اليورت الأسود و تقريبا سقط الخان العاجز عن



حصانه قبل أن يصل إليه بمائة خطوة . و فقط هنا لحقه حراسه و قد أمسكوا الخان من إبطيه و مضوا به و ربطوا تارلانكوك .

أصاب الخان الذهول من كل ما يحدث أمامه و فكر « إذا كان قد حدث انشقاق حتى بين أتباعى فما الذى سيحدث إذا تعرضنا لمصائب أكثر فداحة من تلك ؟ كلا يجب أن نكون مستعدين مثل وتر القوس».

فتح أبوالخير باب منزل اليورت الأسود المنقوش و كان يرتدي درعا خراسانيا خفيفا ومن فوقه عباءة مطرزه بالذهب و على رأسه يلمع تاج ذهبي مصبوب مع رسم لقرون تورية .

نظر الخان فى المكان شبة المظلم و رأى أن الناس في الخيمة قليلون و فكر عندما رأى بين الجالسين السلطانين جانيبيك و كيرى يجلسان فى مكان الشرف « إنه من الضروري أن يدخل معى من الحراس ما يماثلهم جميعا» .

***

كان سلاطين أرجين يرتدون المعاطف الفخمة السوداء ذات الياقات السوداء من فراء ثعالب الماء و يطوق خصورهم أحزمة ذهبية . وكان يجلس معها حوالى خمسة عشر من البكوات الكازاخ و الفرسان و الشعراء المغنون. كان القتيل يرقد فى الجانب الأيسر من منزل اليورت. و كان عند رأسه والده الشاعر كوتان الذى جف فى يوم واحد و أصبح شبه ميت . كان موت ابنه قد حشه تماما كما يحش العشب و قد غنى شيئا حزينا لا يوصف بصوت عجوز لا يكاد يسمع عازفا على آلة الكابيز . و بدا أن كل شيء قد مات حوله وأن المغنى العجوز بقى وحيدا فى أرض جرداء...

بعد أن لاحظ جانيبيك و كيرى الخان الداخل تحركا ببطء و أفسحوا مكانا له . ولم يرحب به أى أحد من الجالسين و واصل الشاعر كوتان الغناء و تنامى إلى أسماعهم من اليورتات المجاورة بكاء نسائى هيستيرى .

بمجرد أن جلس الخان ألقى نظرة على الجانبين . كان كل شيء في منزل اليورت أسودا . من القبة الضخمة تدلت أكاليل ذات أهداب الحداد السوداء المنسوجة من وبر الإبل وحتى الهواء بدا فى منزل اليورت أسودا و تسربت البرودة لا إراديا تحت الملابس و فاضت على الظهر .

لم يستطع الخان أن ينظر إلى المتوفى و بدا له أن الجالسين قد لاحظوا ذلك . و قد أرغم نفسه بقوة هائلة أن يدير رأسه إلى أكجول بيك ثم ارتجف . على البساط الأبيض



المزين بزخرفة كازاخية قديمة تمدد على قطيفة سوداء جسد الفارس الهائل بدون رأس .

برزت فقط فقرة عنقية بيضاء واحدة حيث ينبغي أن تكون الرأس و يعلوها دماء جافة داكنة .

على بعد بوصتين من هذة الفقرة البارزة من الجسد كان يرقد غطاء الرأس العملاق المعروف للجميع بالقطيفة الزرقاء التى تعلوه والمبطن بفرو ثعلب الماء. وكان كأنه يدل على أين كانت توجد رأس أكجول بيك وكان الشيء الأسوأ تلك المساحة الفارغة بينهما. بدأ الخان يصاب بالحمى . و قد لاحظ كل من جانيبيك و كيرى بوضوح قلقه وارتباكه و لكنهما التزما الصمت . كان يشعر كل الوقت بنظراتهما نحوه وحتى لا يظهر أن هناك شيء يقلقه واصل النظر إلى محتويات خيمة الحداد .

عند رأس القتيل كانت هناك خوذة حديدية و درع معلقان كانا من الممكن أن يكونا عونا له فى المبارازة الأخيرة . من الداخل كانت الخوذة التى تشبه وعاء صغيرا مغطاة ببطانة سميكة من الشعر و أسلفها كان معلق معطف من السمور الأسود الذي كان المتوفى يرتديه في المناسبات الخاصة و زوج من الأحذية الأورجينتش الملونة مع جوراب شعر ملونة . وعند قدميه كانت توجد عصاته ذات التسعة مسامير و قوس كبير من شجرة البتولا لم يستطع أحد أن يشده فيما عدا صاحبه . يبدو أن كل هذه الأشياء قد وضعت خصيصا لتذكير كل داخل انظر إن أى من تلك الأشياء لم تكن عليه أثناء القتل ومن كان سيقدر عليه إذا كان محميا و جاهزا للمعركة .

أدرك خان أبوالخير أن الجميع يخمن أن أكجول بيك قتل بضربة غادرة . و تسلل الموت بشكل غيرمتوقع كما يتسلل ابن آوى الجبان إلى غنيمة غير محمية .

ظل الشاعر كوتان العجوز يطيل أغنيته الحزينة :

لماذا تشاجرت مع قوبلاندى الكاراكيبشاكى يا بنى ؟

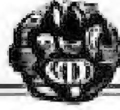
إننى عجوز و ضعيف و قريبا سوف أبلغ المائة من العمر...

لقد كنت أنت لأبناء أرض نوجايلينسكى النجم الهادى

من أجل ماذا أطفئك التعساء ؟..

لماذا تشاجرت مع قوبلاندى الكاراكيبشاكى يابنى ؟

و بدا أنه لن يكون هناك نهاية لهذه الأغنية الرتيبة التى لا تطاق . و واصلت آلة



الكوبيز تئن بالشكوى عندما كان التنفس لا يسعف الشاعر كوتان العجوز . و بعد فترة من الراحة بدأ من جديد...

و أخيرا صمت الشاعر كوتان كأن نبع الماء المر قد جف . وعلى الفور سمع الصوت الصافى المهدىء للطبيب الدرويش عبدالرزاق نخشيفان يقرأ القرآن . و قرأ طويلا و باحساس سطورا متساوية .

و قال خان أبوالخير كلمات التعازى بصوت يملؤة العظمة . وبمجرد أن انتهى من حديثه تحدث واحد من أكثر البكوات تأثيرا من عشيرة القبجاق كوبا بك السهبى الشهير ذو الفم الذهبى فقال :

إننى المسؤول عن وفاة ابننا المجيد يا أبناء بلدى . إننى قتلته فى نوبة من الغضب و إننى الآن فى وضع لا يمكننى أن أنظر فى أعين أقرباء البطل المقتول . نعم إننى فداء للشخص الذى فعل ذلك . إذا أردتم قطع رقبتى فإننى أقدم رأسى لكم . و إذا أردتم أن تنثروا رمادى فى الريح فهاكم جسدى وروحى أسيرة عندكم أبد الآبدين . حدث ما حدث و لا يمكن أن تعيد ما ذهب. و لكن من الممكن كما كان يحدث قديما أن أقدم الفدية .

تنهد السلطان كيرى بحزن و قال من الممكن أن تدفع الفدية و لكن هل سيقوم بطلنا البيك من فراش الموت .

قال السلطان جانيبيك بهدوء أولا سندفن فارسنا المغوار و نعطيه من الشرف مايستحقه و بعد ذلك نتحدث عن هذة المسألة .

أدرك خان أبوالخير الوعيد في هذه الكلمات . و غادر مع حاشيته قرية الحداد و أخذ يفكر طوال الطريق فى هذ الوضع . كانت كل الظواهر تشير إلى أن الخان لن يقضى فى مقتل أكجول بيك و إنما جانيبيك و كيرى . و زاد الموت غير المستحق كثيرا فى مجد بيك أرجين الرئيسى . و عادة ما يحدث ذلك . و بهذا يعرب الناس دون أن يدروا عن احتجاجهم على الظلم و يبدأون فى إلحاق فضائل بالضحية البريئة لم تكن فيها . و يقع العار الأكبر على المتسببين بموته . و كم من القديسين ظهروا على الأرض بتلك الطريقة .

لكن الشىء الأسوء فى ذلك هو أن وفاة أكجول بيك لم تصبح ذريعة للقضاء على جانيبيك و كيرى . شعر سلاطين أرجين بالفخ و كانوا على حذر . على العكس من ذلك فإن مقتل أكجول بيك سيفاقم الوضع فى الخانة و يمكن أن يؤدى إلى تدميرها . كان



خان أبوالخير ينظر دائما بوعى في تلك الأمور و لم يكن بحاجة إلى الهدوء الذاتى . و قال فى نفسه « يجب أن آخذ ذلك فى الاعتبار »

***

عندما انقضى أسبوع من وفاة أكجول بيك و انقضت ولائم الذكرى الأولى أحضر سلطانى أرجين جانيبيك و كيرى كل من كان قادرا على حمل السلاح من المحاربين من عشيرتهم إلى أوردا بازار وصفوهم للمعركة و ذهبوا بأنفسهم للخان طالبين العدالة. و قد تم كل شيء بهدوء وفقا للطقوس المتبعة بدون أية أخطاء . و لم يتزيد السلطانان فى القول و لم يقوما بإهانة أى أحد. و كما كان متبعا فى السهوب منذ القدم طالبا بفدية الدم للمقتول.

قال خان أبوالخير اقتلوا ثلاثة فرسان من القبجاق حسب اختياركم و اغلقوا القضية .

قالوا : لا حاجة لنا بأرواح أناس أبرياء . إننا نريد رأس قوبلاندى .

لم يستطع خان أبوالخير أن يوافق على هذا و كان السلطانان يعلمان ذلك. و هذا الجدال لن يحل برأس الفارس كوبلاندى وحده. و إذا فقد الخان قوبلاندى فإنه سيفقد دعم القبجاق .

قال الخان لا لن أسلمكم الفارس قوبلاندى .

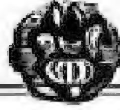
قام جانيبيك وكيرى عن الوسائد بدون إذنه و قالا :

في هذه الحالة سوف نذهب .

لم يجرؤ أبوالخير أن يصيح فيهم على الطريقة الخانية «الزموا مكانكم» فقبل وصولهم شاه الخان لفترة طويلة فرسان أرجين المصطفين فى السهوب و قد قاموا بإغلاق كل المداخل الجنوبية المؤدية إلى أوردا بازار و من بريق السلاح يمكن الحكم على أنهم كانوا متحمسين للغاية. لذلك غادر جانيبيك و كيرى القصر بهدوء .

في نفس الليلة بدأت أغلبية القرى من عشائر أرجين و قبجاق ونايمان وكونراد وآخرون فى التوجه إلى مغولستان بقيادة جانيبيك و كيرى و يقوم على حراستهم فى تشكيل عسكرى أثناء الخروج فرسان مدججين بالسلاح .

بحلول الصباح أضحت القرى المنشقة بعيدة جدا . و بعد أن استيقظ سكان « أوردا



بازار» وجدوا أن السهوب خالية تماما و قيل أن خان أبوالخير مريض حتى لا يجيب على الأسئلة العديدة من الأقارب و الأصدقاء المقربين.

و لم يستطع أيضا كاراكيبشاك قوبلاندى أن يبقى بالقرب من مقر الخان و انتقلت معه خمسة آلاف من منازل يورت القبجاق إلى شواطىء تورجاى. و قد حدث هذا بعد أن جاءته مجموعة من البكوات الكازاخ ذوى النفوذ من العشائر المختلفة.

كان يرقد بلا حراك في منزل اليورت الخاص به ذى الإثنى عشر جناحا عندما قدموا عليه.

قالت له زوجته قم أيها الفارس لقد قدم إلينا ضيوف ذوى مقام رفيع.

لكن الفارس لم يتحرك فقد كان كمن يكتوى بالنار و من المستحيل الحصول منه على شىء. حينذاك توجه إليه أرجين بيك الجليل.

يا عزيزى ألم تكن تنتظر هدية من الخان نفسه لتصرفك الحماسى هذا ؟ ما خطبك قتلت ابنا من عشيرتنا و ترفض دفع الدية المقررة على الدم. و بالطبع لو جمعنا كل غبائنا معا فسينتج واحد من بيننا مجنون و لن يكون أسوء منك. و لكننا لم نقدم عليك من أجل ذلك أيها الفارس الأحمق. نريد من أجل خير سهوبنا جميعها أن نتحدث معك و لكنك تنأى بجانبك عنا و تتأوه مثل العجوز العاجز الغاضب المستاء من زوجات أبنائه. هيا قم وتكلم كما ينبغي.

ما إن سمع الفارس قوبلاندى صوت أرجين بيك الأمر حتى أدرك أنه قدم إليه أشراف العشائر الكازاخية. ومن ثم فقد قام و جلس معهم فى دائرة. أمرت الزوجة بذبح فرس سمين ثم عادت إلى منزل اليورت و قامت لبعض الوقت برج الزِّق (وِعاءٌ مِنْ جِلْدٍ – المترجم) المصنوع من جلد خمسة أفراس صغيرة و صبت منه فى أكواب خشبية ضخمة حليب الفرس ذى الرغوة.

شرب أرجين بيك الذى كان متعبا من الطريق الطويل نصف الكوب الشهى من مرة واحدة ثم قال : اسمع يا قبجاقى. إننا من بلد مترامي الأطراف تطل حدوده الغربية على نهرى إديل و جايك و الشرقية على الإيرتيش و أورخون و قد حد الأباطرة الصينيون حدودها الجنوبية بسور الصين العظيم وفقدت حدودها الشمالية في الغابات الباردة لتوبول و إيشيم. لقد كنت أنت يا قبجاقى تحمينى لعدة قرون من ألشين ناحية الغرب و قبائل نايمان و كيرى و يواك من ناحية الشرق و الوسون و جاليير و دولات من الجنوب. و في الأوقات التى كان فيها «الخونو» يأسرون أبنائنا و بناتنا كان علينا نحن قبيلة أرجين



التراجع للقتال حتى شواطئ أورخون و أونون. و هناك في الأراضي الأجنبية أطلقوا على النهر كله أرجون تكريما لنا . و عندما غادر الخونو عدنا إلى الأماكن التى ورثناها عن أسلافنا و مرة أخرى وضعنا و تدنا على قمة جبلنا أرجيناتا . حتى المغول فشلوا فى الاطاحة بنا من هنا . و بفضل حمايتكم لنا لقرون كثيرة فإن القبائل و العشائر الكازاخية و نحن عشيرة أرجين لحمنا من لحمكم و دمنا من دمكم تمكنت من الحفاظ هنا فى وسط سهوب دشت و قبجاق على كل شيء عظيم لدينا مثل الحكمة و العادات و اللغة و الموسيقى والكتابة. كل هذا ملك لنا و لكم يا إخوتي و أولادى الكازاخ .

***

ما الذي يحدث هنا اليوم ؟ .. دعونا نفكر معا حول هذا الموضوع حيث لا يزال هناك وقت للتفكير . غدا قد يكون الوقت متأخرا جدا...

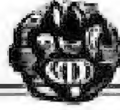
أراد الفارس كوبلاندى الحديث و لكن أرجين بك أومأ إليه أن يصمت ثم قال :

إن منزل اليورت ملك لك يا قوبلاندى و مازالت لديك الفرصة لتتحدث فيه كما تشاء . ولكن اسمح بالحديث لمن ربما لن يخطوعتبته مرة أخرى . تكلم أيها الفارس كاراخوجة.

كان الفارس «كارا خوجة» من عشيرة كيرى أكبر الحاضرين سنا و قد أطلقوا عليه بين الناس لطول قامته «خمسة أحزمه» . هز رأسه و التفت إلى الفارس قوبلاندى والجميع البكوات و الفرسان فى نفس الوقت ثم قال :

نحن جميعا نعلم أن كلمات «أرجين بيك» رزينة و صادقة و ليس بها أى تفاخر قبلى على أحد غير أنه من الواضح أن الأمهات القبجاقية لم تنجب وحدها الفرسان ...و يقال أننا فى وقت من الأوقات كنا كفارا وعبدنا الأحجار و الأشجار. ربما كان هذا لكننى أعلم أنه منذ أن تسمى كيرى بهذا الإسم فإننا كنا دائما معكم يا اخوتى من عشائر الوسون ودولات و أرجين و قبجاق ونايمان وأواك وألشين وجاليابر والآخرين كبيرهم وصغيرهم سعيدهم و شقيهم لأننا جميعا كازاخ . لقد خاض شعبى نضالا ضد جنكيز خان الدموي عشر سنوات كاملة و لاقى خيرة أفرادنا حتفهم أنذاك على يديه . نحن نعرف ما هي الحرية و لا نريد تكرار النير الجنكيزى (النِيرُ : الخشبةُ المعترضةُ فوق عُنق الثَّور أو عنقَمي الثَّورَينِ المقرونين لجرّ المحراث أو غيره. المترجم) الذي يسعى أبوالخيربكل الطرق المشروعة و غير المشروعة أن يضعه على أعناقنا .

تكلم أيها الفارس « كابتاجاى ».



أعطى « أرجين بيك» الكلمة للفارس الشهير من عشيرة نايمان كمتكلم ثان لأنه فقط كان أصغر قليلا في العمر من الفارس كارا خوجة. و قد جرى العرف منذ العصور القديمة بين الكازاخ تكريم الأقدم سنا .

قال زعيم نايمان سأكمل الحديث الذى بدأه الفارس « كارا خوجة » . بعد أن كسر جنكيز خان عشيرة كيرى هرع إلينا و لكن هل سلمنا دون قتال ؟ لسوء حظنا خاننا حليفنا الغاد «خوارزم شاه محمد» وقد مات كل من امتطى الحصان من نايمان بقيادة «خان ديان» فى ساحة المعركة .

لكن عشيرة نايمان لم تستكين فقد حارب الفارس الشهير « كوتشلوك » ابن ديان خان المغول عشرين عاما و بدافع الانتقام أبادوا جميع قاطنى قرانا البالغين و لكن الناجين مصادفة شرعوا فى بناء الحياة كإنسان نجا و طفا من الطوفان الكونى . و قد ساعدهم فى ذلك أنتم أيتها القبائل والعشائر الكازاخية ...

و لكن لماذا فشلنا في الدفاع عن أرضنا ؟ الجواب في حكاياتنا القديمة و أغاني الشعراء . ففي حين كانت نيمان ترعى قطعانها في ألتاي تصدت عشيرة كيرى وحدها للعدو فى أورخون و لم نأتى لنجدتها في الوقت المناسب حيث لم نكن موحدين آنذاك . ثم انقضت علينا جيوش جنكيز خان و كنت أنت يا قبجاقى مشتغلا بغاراتك على روسيا وبيزنطة . و لم يصل أنينا إليك لأنك كنت تعد نفسك شعبا آخر مختلف عنا . و لكن بعد ذلك جاء دورك يا قبجاقى ...

أليس هذا الذى حدث أيضا عندما حطمتنا قبيلة تيمورلنك الأعرج بارلاس؟ لقد حرض هو الآخر عشائرنا ضد بعضها البعض و ضربنا منفردين واحدا تلو الآخر بنجاح كبير بالضبط كما فعل قريبنا. إن شعبنا العريق الفتى تعرض لمذبحة مدبرة .

لافائدة من كوننا منقسمين كما فى السابق و لا نخضع إلا لمن كان على أرضنا مثل القبيلة الزرقاء و القبيلة الذهبية و قازان و أستراخان و شبه جزيرة القرم . و ماذا عن كونهم جميعا أقاربنا؟ بسبب ذلك يضرب السوط أكثر و تظل جروحنا مدة أطول .

استمعوا لى أيتها القبائل و العشائر الكازاخية.. إذا لم نتحد اليوم فسيكون الوقت قد فات . الآن و إلا فلا .. هل تسمعني أيها « الكاراكيبشاك قوبلاندى» الذي قتل شقيقه ؟ يا « دجالاير بوريباى» . تكلم

كان الفارس «بوريباى» من عشيرة جالايرقويا ومفتول العضلات و فى منتصف العمر.



تحدث نيابة عن عشائر الأنهار السبعة و تورفان فقال :

لم يرى الكثيرون منكم ما كابدناه نحن ... فبالإضافة إلى جنكيز خان خضنا نضالا ضد الأباطرة الصينيين و قادة الكالميك و قبل ذلك بوقت طويل ضد اليونانيين .

و نحن الناجون بعد كل هذا أتينا إليكم يا إخواننا . و معكم فقط سنسير على الدرب ... و لماذا أنت أيها الكاراكيبشاك قوبلاندى أصبحت عصا أجيرة في أيدي أبوالخير و تهوى على رؤوسنا ؟ و أنا أقول لك هذا لأن رأس "أكجول بيك" الذى قتلته هى رأسنا .

تكلم أيها الفارس « كارابورا ».

توجه « كارابورا »من طما وهو أصغر الفرسان و أكثرهم حمية مباشرة إلى كوبلاندى و قال

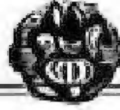
أربعون شخصا لا يستطيعون أن يتغلبوا فى جدال على شخص عنيد. و لا تفكر أننا سوف نقنعك يا قوبلاندى . الأربعون هم بالفعل أربعين و يستطيعون أن يرغموا أى أحد على احترام نفسه. و كان من الممكن التغاضى عن الدية كما كان يفعل أجدادنا لو أنك قد قتلت أحدنا في مبارزة . و تحدث المشاجرات أيضا بين الإخوة و لكن يدك لم ترفع على فارس واحد . بل رفعت يدك اليمنى الثقيلة على كل شعبنا ذلك أن قتل أكجول بيك قد ترك آثار عميقة و كلنا يعلم ذلك . و أنت تعلم أيضا يا قوبلاندى لذلك تذكر أن يدك القوية ستكسر كالقش و نحن من سيقوم بذلك.. !

اعتدل الفارس قوبلاندى فجأة و نظر إلى جميع العيون المحتقنة بالدم و قال هل هذا تهديد ؟ لقد واجه كاراكيبشاك قوبلاندى الموت وجها لوجه أكثر من مرة و لكن ولا مرة بقى على قيد الحياة من تجرأ على تهديده .

***

قال « أرجين بيك» بهدوء نعم هذا تحذير لك أيها الفارس أو تهديد كما تسميه . و إنه من العبث أن تفخر أنك قتلت أكجول بيك . و عاجلا أم آجلا يعود الحصان إلى لجام هو نحن ننصحك ألا تبتعد بعيدا عن سريك . بطبيعة الحال فى إسطبل أبوالخير الكثير من الطعام لكن هناك سيمتطيك الغرباء ...

نعم يا قوبلاندى إننا كثيرون و إذا كنا الآن فى حالة لا تؤهلنا لسحق قبيلة أبوالخير بعد إلا أنه لدينا من القوة ما يتيح لنا معاقبة المرتد و القاتل . لكننا نأسف لأولئك الذين



تسحبهم ورائك إلى أبوالخير و ستحمل ضميرك عبء حظهم السيء يا قوبلاندى . و تذكر شيئا آخر أيها الأحمق الكاراكيببشاكى أنه كان سابقا يناصر "أكجول بيك" كل من جانيبيك و كيرى و يطالبان بالقصاص منك و الآن نحن نتكلم معك بالنيابة عن كل سهوبنا الكازاخية العظيمة .

و إذا طالب كل شعبنا منك دية عن موت البيك أكجول فلن يكفى عندك مال أو دم أو عند عشيرتك كلها مهما كان غناها .

سأل الفارس قوبلاندى بصوت مختنق من الغضب ماذا تريد مني يا بيك ؟

أنت مجرم يا قوبلاندى و نحن لا نستطيع الآن أن نعرض عليك أن تتبعنا . و لكن إذا كان وطنك عزيز عليك فاجمع كل قراك و ارحل إلى شواطئ تورجاى حتى لا يتمكن عدونا هنا من استخدام السيوف الكاراكيبشاكية . و لا تظهر مثالا سيئا لضعف الإرادة حين نبدأ النضال من أجل الاستقلال . . و لوم نفسك إذا تصرفت بشكل مختلف فستصبح ملعونا من شعبك و سوف يقع عليك جام غضبه .

صحيح ما قلت يا بيك .

فليرحل هو إلى تورجاى..

لا يوجد لديك خيار آخر يا قوبلاندى...

رفع "أرجين بيك" كلتا يديه و قال :

لقد قلنا لك كل شيء يا كاراكيبشاك قوبلاندى .

و لما خرجوا جميعا من منزل اليورت و لم يتناولوا الغداء الذى تم إعداده من أجلهم قفز الفارس قوبلاندى و أمسك بعصاه الشهيرة . كان يريد اللحاق بهم و العراك معهم وتحطيم رؤوسهم ثم يدوسها في الأرض و كان يهدر بسبب الغضب . و لكنه غلب العقل وتذكر الكلمات عن الحصان الذى شرد عن القطيع . كان الفارس قوبلاندى يفهم فقط تلك الصور...

اختفى الضيوف المغادرين خلف أفق السهوب منذ مدة طويلة فجلس و فكر و أسند

رأسه الضخمة بذراعه المغطاة بالشعر . ثم تذكر شيء بعد فوات الأوان. لقد لحقه عار لا مثيل له و كان الوقت قد فات لإصلاح أى شيء . و قد تبدت لديه أفكار حول مكر أبوالخير الذى دفعه إلى ذلك القتل و اعتقد أن الفرسان على حق عندما نصحوه بالرحيل إلى تورجاى...



و قد أزيلت معظم القرى من مكانها و رحلت خلف جانيبيك و كيرى باتجاه مغولستان. أما أولئك الذين لم يريدوا أن يتبعوا السلاطين المتمردة علانية فقد غادروا إلى السهوب التي لا نهاية لها بعيدا عن الخطيئة. و عندما أصبح المكان خاليا تماما حول أوردا بازار كان لا يزال هناك في الجانب الجنوبي فارس وحيد فركب بأقصى سرعة على ظهر حصان ضخم ذي ذيل طويل كان يتطاير مع الريح . لقد كان ذاك هو الفارس قوبلاندى.

عندما سمع أن غالبية القرى رحلت عن مقر الخان بسبب مقتل أكجول بيك قفز على صهوة حصانه و هرع إلى هنا. سابق الريح لأكثر من يوم بليلة بدون توقف على صهوة حصانه غير العادى و في الطريق اقتنع أنه لم يبق أحد في تلك الناحية . و قد دلت المواقد المنطفئة و روث الخيل أنه حتى الأمس كان في هذه الأماكن كثير من الناس .

و بعد أن كبح الفارس قوبلاندى جماح فرسه بالقرب من أوردا بازار وقف طويلا في الوادى المهجور . و فجأة ظهرت في عينيه حياة و تباعدت حواجبه المقطبة . رأى على التل فارس آخر فحفز حصانه .

اقترب الفارس ببطء من التل و ترجل عن فرسه و اقترب من الفارس . كانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها. كانت أشعة الشمس تلعب على وجهها الأبيض وشفاهها القرمزية كانت مضغوطة على شكل قلب صغير و في العيون السوداء انعكس الفارس قوبلاندى بيديه المفتوحة بشكل غير طبيعي .

سألته : ماذا تريد أن تقوله لى أيها الفارس ؟

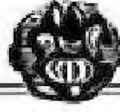
كان من الواضح أنها لم تكن سعيدة للغاية بمقابلته .

قال لها لقد قلت لك كل شيء يا ابنة الخان . ألم أقتل "أكجول بيك" في مبارزة من أجلك. و اعلمى أننى أريد أيضا أن أرسل الفارس " سايان" إلى الموت لأننى لا أستطيع أن أعيش في هذه الحياة بدونك .. فليخرج العالم كله لمحاربتى و لن أخاف إذا وقف في طريقى إليك.

صنعت الفتاة بيدها علامة فراغ صبرها و طأطأ الفارس رأسه. وقف هكذا طويلا وعندما رفع عينيه لم تكن بهما أية حياة.

قال لها الآن ... الآن انضغط قلب الأسد في صدرى و أصبح مثل قبضة الطفل و يدق في صدرى كقلب أرنب و روحى الرحبة كما السهوب وضعت في راحة يدك الصغيرة يا فتاة .

فلا تسخرى منى و قولى لى الحقيقة المرة .



هزت الفتاة رأسها بحزم...

إننى لم أفكر أن أسخر منك أيها الفارس . . و كل ما تقوله حقيقى . إن أمى أرادت بالفعل أن تزوجنى "أكجول بيك" فهل هو مذنب فى ذلك الأمر ؟ و الحقيقة أننى أحببت الفارس سايان و لكن ما ذنبه هو ؟ إن أمى تحبنى بجنون و تفعل كل شىء من أجل سعادتى. و قد ساعدتنى " ربيعة سلطان بيغيم" فى كل شىء . و لكن سعادتى ليست معك أيها الفارس العجوز الأحمق و لن أصبح زوجتك أبدا .

***

رفع الفارس الفخور رأسه و قال :

و إذا كان والدك سيعطيك لي ؟

في هذه الحالة لا بد لي أن أموت ... و أخرجت من تحت ملابسها خنجرا خراسانيا و نظرت إليه بتأمل . و قالت هذه السكين ستلمس جسدى قبل أنت تلمسه أنت .

صرخ الفارس و قال هل أنا بهذا السوء ؟

قالت الفتاة بحزم ليكن هذا آخر لقاء لنا و حولت وجهة الحصان و ركبت غير ناظرة إلى الفارس قوبلاندى القابع فى حيرة بالغة .

ظل ينظر فى إثرها حتى دخلت المدينة .

قال بحسرة : نعم كان كل شيء دون جدوى .

كان الآن يشبه أسدا مصابا بجروح مميتة إذ أن الجميلة جولباخرام الابنة الصغرى للخان الذى ارتكب من أجلها الكثير من الحماقات قد رفضته...

V

كلما اقترب خان أبوالخير من الشيخوخة كان أكثر اقتناعا أن متعة هذا العالم عابرة وسريعة الزوال مثل الحلم . نعم إن العرش الذهبى و الثروة و الحب و الحزن ليس سوى خداع بصرى و الموت وحده هو الشىء الحقيقى . لقد كان سلفه العظيم الذي لم يؤمن بشىء إلا به على حق...



و فى يوم رائع يودع هذه البهرجة الخادعة و يعود إلى باطن الأرض المسكن الدائم لكل من عاش و عانى و فرح غير أنه مادام حيا فلا يمكنه التخلي عن الهموم الدنيوية . و مادام الإنسان يدوس على هذه الأرض الفانية فإن الأهواء و الرغبات لا تفارقه أبدا .

كان أهمها يتمثل فى كيفية ترتيب أحوال أبنائه العديدين و أحفاده على نحو أفضل . و قد وزع السلطة فى ذهنه منذ فترة طويلة فيما بينهم فمنهم من عينه أميرا وآخر سلطانا و ثالث حاكما لمدينة كبيرة أما القبيلة التى أنشأها فلابد أن تبقى فى يديه وحتى بعد الموت .

و مع ذلك لا تزال هذه الرغبة بعيدة حتى الآن عن التنفيذ على الرغم من أن بعض أبنائه يقتربون من الثلاثين و أصبح البعض منهم للحقيقة حكاما و أمراء و لكن لم يشارك أحد منهم فى حملات صعبة أو حروب و لم يظهر أحد منهم شجاعة شخصية و بسالة و لم يحكم باستقلالية بدون إملاء من جانبه فماذا سيحدث عندما يموت و يتصرفون كما يحلو لهم.

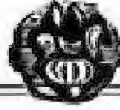
إن الأب هو أصدق مقيم لصفات أبنائه الشخصية . و قد علق خان أبوالخير آمالا عريضة على أحفاده محمد شيبانى و السلطان محمود و ابنه سويونشك . كان الثلاثة أصحاب همة و قساة القلب و لا يمكن أن تمسكهم كأفاعى جيدة بأيدى عارية .

***

كان الأحفاد تقريبا متساوين فى العمر أما ابنه سويونشك فقد كان يكبرهم بخمس سنوات فقط. و بطريقة أو بأخرى يجب أن يبقى الخان على قيد الحياة وإلا يموت حتى يكبرون و يصبح لهم ريش . يقع عبء السلطة أولا على ابنه سويونشك لذلك أسعد الخان الخبر الذى أبلغه به الوزير بختى خوجة أن سويونشك مستعد لفعل أي شيء من أجل السلطة . و قال الوزير المحنك «على الرغم من صغر سنه أظهر السلطان سويونشك ثبات نفس كالذى يوجد عند الرجل الحقيقى و أنه يفهم سريعا حقيقة الأمور و أنه على استعداد لإعدام الأم من أجل مصلحة الخانة».

نعم إن الكثير يعتمد على الدم الذي يتدفق في عروق الإنسان . و في عروق ابنه اندمج الدم الجينكبزى مع الدم التيمورى . و هل هناك على وجه الأرض أفضل من هذا المزيج النبيل ؟ و من غير هذا يستطيع حكم الناس ؟

بالأمس جاء إليه هذا الطبيب الدرويش غريب الأطوار عبد الرزاق ناخيتشيفان . و على



الرغم من انه اعتنق الدين الحق إلا إنه قد بقى فيه ضعف ما ورثه عن آبائه . و قد وجد عند السلطان سويونشك مرض خطير .

سيدى الخان إن ابنك يعانى من مرض رهيب و لا بد من التدخل الحازم..

كان الرعب ينبعث من عيون العبد بنية اللون.

سأل الخان بهدوء ما هو نوع هذا المرض ؟

هذا ليس مرضا عشوائيا . إنه نتج عن تدخل بعض الأشرار يا سيدى الخان .. إن عمره ثلاثة عشر عاما و إنه قد ينتهي نهاية سيئة...

تكلم .

بالأمس تحدثت معه ... مسح الطبيب المسكين الرعديد العرق عن جبينه و اتسعت عيناه قصيرة النظر إلى أقصى حد . و لديه هاجس واحد فقط و هو كيف يجلس على عرش الخان فى أقرب وقت..

أومأ أبوالخير برأسه علامة الرضا و هو غير قادر على كبح جماح نفسه . فكلما سعى الوارث مبكرا نحو العرش كان ذلك أفضل. و ينبغى أن يكون لديه هذا الشعور منذ الولادة و على الكبار بالتوازى تقويته و انماءه .

سأل الخان الطبيب وماذا تجد فى هذا العمل المذموم ؟

تحدث الطبيب بحماس و لم يلق بالا للسؤال هذا ليس كل شيء فبالليل و النهار و فى النوم و اليقظة يؤكد الصبي أنه يريد أن يقتل أمه و يقول : إنها مجرمة ... و إننى سوف أرميها في التراب و أقذفها بالحجارة لأنها تريد أن ترى « كوشكينشيك» على عرش الخان. مهما كانت هذه الميول تحظى برضاء الخان إلا أن هذا يعنى تمنى الموت العاجل للأب .

و ما تلك الأفكار حول كوشكينشيك؟ و من الذى أوحى له بها؟ إن الوزير بختى خوجة لم يتحدث معه أبدا عن ذلك . و هنا أضاف الطبيب الأجنبى استنتاجاته الخاصة :

هذا الفتى المسكين يريد أن يقذف أمه التى وهبته الحياة و قامت على تنشئته بالحجارة ظنا منه أنها تريد أن تعطى عرشك لأخيه الأكبر. و من الذى يضمن أنه لن ينقض عليك غدا ؟ فمن ذلك الشخص المجرم الوغد الذى يوجه عقله ؟

هذه الكلمات جعلت خان أبوالخير لا إراديا يستغرق فى التفكير . من الواضح أن الوزير قد بالغ كثيرا و لم يخبره عن شيء ما في تقاريره و لذلك حقق النجاح سريعا في هذا الأمر . يجب أن يكون على حذر من هذا المتملق .



بعد يومين أو ثلاثة أيام ستعقد المحكمة الشعبية العامة لمحاكمة خانوم ربيعة سلطان ربيعة بيغيم .و يجب على الوزير أثنائها أن يعلن عن جرائم الخانوم و يصدر الحكم. و يلزم على الأقل مجرد إيماءه بالموافقة من جانب سويونشك و وفقا للوزير لا يجب أن نشك فى حزمه على معاقبة أمه .

حسنا لقد حدث هذا أكثر من مرة فى ساحة الخان . إن أبوالخير قد أعد هذا بنفسه وغير نادم على شيء . و عن ذلك الذى حكى عنه الآن الطبيب عبد الرزاق ... و ماذا في ذلك.. اليوم يجب معاقبة "ربيعة سلطان بيغيم" و يجب التفكير في ذلك فقط. و إذا شارك هذا السويونشك غدا فى مؤامرة ضد والده فإنه سيذهب خلف أمه .

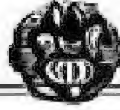
في ختام الحديث قام الطبيب المضحك بشد جسده كله و قال بتأثر من فرط القلق :

إذا كان الولد سيتقول على أمه فسأعلن جنونه ... فمن المستحيل تصديق كلام طفل مريض. وحقيقة أنه مريض هذا ما لا شك فيه .

لم يكن الطبيب الشهير «عبد الرزاق ناخيتشيفان» معروفا في جميع أرجاء الخانة بمهارته فقط و لكن بغرابة أطواره المضحكة . و هو الآن يتدخل فى مالا يعنيه. ما إن سمع هذيان « سويونشك » حتى أدرك أن ثعبانا قد دلف إلى الصبي و إذا لم يوقفه فسيدفعه إلى الجنون لذلك يرى أن من واجبه أن يحذر الخان من ذلك . و قد اندهش جدا للهدوء الذى استقبل به الخان ذلك الخبر .

لم يستطع الخان أن يسكت الطبيب و يقول له أنه بناء على أوامره قام الوزير بختى خوجة بالتعامل مع الوارث ليس بسبب أن الخان استشعر الحرج من عبد الرزاق المحب للحقيقة بل كان ببساطة يخاف أن يبقى دون طبيب مدركا أنه لن يعيش طويلا بسبب مرضه الرهيب...

بالإضافة إلى أمراض أخرى خطيرة كان الخان يعانى منذ فترة طويلة من الربو. و قد جرب أبوالخير جميع أنواع الأدوية العشبية الصينية و التعويذات الكازاخية و لكن الفائدة كانت قليلة . و قد قدم إليه جميع الأطباء و الكهنة والسحرة المشهورين من جميع أنحاء العالم من التبت و خراسان و سوريا والهند و لكن دون جدوى . فلقد تفاقم المرض وبحلول العام الخامس و الثلاثين كان سيكون ملازما للفراش . و أصبحت النوبات تتزايد ومن يوم إلى يوم كان يتوقع الموت . و شعر فجأة و هو الذى أرسل إلى الموت العديد من الناس دون أي أسف أن الحياة ذات قيمة...



و فجأة جلب أتباعه من مدينة ميرف الأسير العبد الطبيب عبد الرزاق و الذى خلال بضعة أسابيع عالج الخان فعليا مستخدما أبسط الوسائل .لم يتخلص من ضيق التنفس نهائيا ولكن يمكن الآن أن يتنفس وسع صدره و لم يعد يخاف الموت في أي لحظة . . لقد مرت عشر سنوات تقريبا منذ ذلك الحين و الخان الذي كان على وشك الموت لازال على قيد الحياة و بصحة جيدة حتى يومنا هذا...

مع قدوم عبد الرزاق اختفت الكثير من الأمراض البسيطة الأخرى التي كانت تعذبه في الايام الخوالي . لا عجب أنه في كثير من الأحيان يقول الخان إنه سيكون على قيد الحياة طالما بقى بجانبه الطبيب مبعوث العناية الإلهية إليه . و إنه يعتقد مخلصا أن عبد الرزاق ناخيتشيفان قد تم إرساله له تحديدا من الله .

ولعلمه بعناد طبيبة فقد قرر الخان تأجيل إعدام زوجته الرابعة. و لم تكن القضية فقط فى تهديد الطبيب ولكن كلمات سويونشك التى نقلها له الطبيب جعلت الخان يأخذ حذره. فإذا كان بختى خوجة قد أخفى شيئا ما عن الخان فإن ذلك مما يثير الريبة وينبغى التحقق من كل شيء و لكن بطريقة لا تثير الريبة عند الوزير الماكر...

فى هذه الأيام أجرى الوزير بختى خوجة الاستعدادات الأخيرة للمحاكمة المقبلة. وقد شغل جل وقته مع السلطان سويونشك لأنه تحديدا يتوقف على الصبى نجاح كل الخطة . و لكى يدفع سويونشك إلى الحالة المطلوبة كان يجلسه منذ الصباح فى إحدى غرف القصر على «عرش ذهبى» قد أعد خصيصا لذلك و كان يخدمه كوزير خدمته لخان حقيقى .

و قال إن الإنسان الذى يظهر الشفقة و لو مرة واحدة في حياته تجاه أى شخص كائنا من كان و خاصة الأقارب لا يمكن أن يكون خانا ثم جثى على ركبتيه و زحف إلى العرش و مد ذراعيه للأمام و ما إن استقر الوزير بجوار أذن الطفل حتى بدأ للمرة المائة بنفس الكلمات يعدد الخطايا الشنيعة التى ارتكبتها أمه .

و سأل في الختام و الأيدي مطوية بخضوع ماذا تأمرون أن تفعلوا بها يا سيدى الخان ؟ صاح سويونشك بهذيان اقطعوا رأسها .

سمعا و طاعة يا سيدى الخان .

زحف الوزير إلى الوراء وعاد ليكرر كل شيء من البداية .

إنها وعدت « كوشكينشك » بالعرش الذى كنتم تجلسون عليه يا سيدي الخان ...



فماذا تصنعون بكوشكينشك ؟

صاح «سويونشك» و فى عينيه سبحت أضواء مجنونة : اقطعوا رأسه .

ربما لن يتحمل الشخص البالغ كل هذا فى حين كان سويونشك يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما فقط و قد كانت ميوله الطبيعية تتسق تماما مع ما كان يعلمه الوزير بختى خوجة . كان الصبي يرى نفسه خانا فى النوم و اليقظة و تولدت فيه بقوه كراهية حارقة لجميع أفراد العائلة و الأقرباء ممن يرى فيهم منافسين له على «عرشه الذهبى» . و لم يكن السلطان الصغير الغبى سويونشك هو أول وآخر وارث للعرش يربى بهذه الطريقة. تغير المظهر الخارجي للصبى خلال بضعة أسابيع . أصبح شاحبا كالميت و ذبلت و جنتيه و ثبت فى عينيه بريق جاف و جائع . لقد تخلى عن الألعاب و ركوب الخيل الذي كان مولعا به من قبل و كان يخشى أن يغادر «عرشه الذهبى» للحظة واحدة . و كان ينقض بالصياح و اللعنات على كل من يحاول الاقتراب منه.

فى تلك الأثناء هزلت أيضا المسكينة "ربيعة سلطان بيغيم" و ذبلت . ولم تدري ماذا تفعل مع ابنها الذى كان يقابل حبها بالعداء و توجهت إلى عبد الرزاق ناخيتشيفان طالبة النصيحة خلال عشر سنوات من حياة البلاط شاهد الطبيب الطيب مرارا جميع أنواع المكائد و المؤامرات لذلك فقد قام بالتشخيص سريعا و ذهب يحكى للخان عن شكوكه.

فى هذا المساء أمر خان أبوالخير الوزير بختى خوجة تأجيل محاكمة "ربيعة سلطان بيغيم" ...

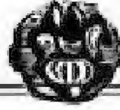
***

عندما هرب الفارس سايان من السجن أمر أبوالخير بإيداع مستشاره السابق أوسبان خوجة السجن و لكن بعد تفجر الفضيحة مع السلاطين المتمردين من أرجين و قتل أكجول بيك نسى الخان تماما أمر خادمه المخلص العجوز.

في الصباح نقلت له زوجته الأولى كلمات أوسبان خوجة . لكن كيف عرفت

بذلك ؟ . الخان لم يعد يتقصى تلك الأمور . طلب المستشار السابق تنفيذ القانون الذى يقضى بأنه «يمكن قطع الرأس و لكن لا يمكن قطع اللسان». و زعموا أنه قال أيضا « أنا أعرف أننى سأتعفن في الأرض و لكن قبل أن أموت أريد أن أقدم خدمة أخيرة لسيدى الخان فليستدعنى و لا يمتنع عن الإستماع لى» .

لم يستطع خان أبوالخير أن يرفض هذا الطلب القانوني لرجل خدمه بإخلاص سنوات



عديدة. و بالإضافة إلى ذلك فقد اهتم بما يمكن أن يخبره به مستشاره السابق. و أمر بإحضاره و بدأ يتذكر رغما عنه كم مرة أنقذه أوسبان خوجة في اللحظات الصعبة...

وقعت واحدة من هذه الحالات منذ فترة طويلة أثناء الإستيلاء على سمرقند . لم ينسى أوسبان خودجة الذي كان يخدم أمير سمرقند أن تيمورلنك هدم منزلهم و أسر جده . وعندما تسللت جواسيس أبوالخير إلى سمرقند سرعان ما وجد أوسبان خوجه معهم لغة مشتركة.

ذات مرة عندما كان أبوالخير يحتفل مع جيشه في أوردا بازار بعد انتصاره على سلفه جاء رسول من سمرقند أرسله أوسبان خوجة يخبره أن المدينة أصبحت بلا قوات تحميها حيث أن كيرزا أولوغبيك حفيد تيمورلنك ذهب بهم إلى خراسان . و على الرغم من التعب خرج جيش أبوالخير الضخم فورا من أوردا بازار . و حالما وصل الجيش إلى سمرقند خرج حاكم المدينة بنفسه للقاء أبوالخير وجثى على ركبتيه و وضع يداه على رأسه علامة على الخضوع.

دخلت القوات المدينة دون إراقة دماء و حصل أبوالخير على فدية كبيرة و اتفق معه على جزية سنوية.

و سرعان ما قدم أوسبان خوجه للخان خدمة أخرى لا تقدر بثمن . فعندما قتل أولوغبيك أصبحت ابنته " ربيعة سلطان بيغيم" يتيمة . كانت فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها وذات جمال غير أرضى . و علاوة على ذلك و خلافا للقوانين الراسخة الخاصة بالمرأة أرسل العظيم أولوغبيك ميرزا ابنته ذات السبع سنوات إلى المدرسة و علمها الفارسية و التركية والعربية و عمل على تربيتها بنفسه فكانت واحدة من النساء الأكثر تعليما في الشرق في ذلك الوقت.

و قال أوسبان خوجة للخان عنها : إذا كنت تريد أن تأخذ الذهب من سمرقند فالقطعة الأكثر قيمة هنا هى " ربيعة سلطان بيغيم" . عندما رآها الخان انتابه الخجل لأول مرة فى حياته و ليلا و نهارا كانت تأتيه نظرة الفتاة فى مخيلته ثم اتخذها فى النهاية زوجته الرابعة.

و قد ودعه آنذاك وجهاء سمرقند فى احتفال عظيم مدركين جيدا أن تقارب مالك السهوب القوى سيجعله عاجلا أم آجلا فى معسكرهم . و كان من ضمن مهر "ربيعة سلطان بيغيم" أربعون عبدا صغيرا و أربعين جارية جميلة و فى المقدمة كان يسير فيل أبيض ضخم عليه مظلة حريرية جلست فيها العروس. و سافر معها لخدمة الخان بصفة دائمة المستشار الجديد أوسبان خوجة .



لقد مرت سنوات عديدة منذ ذلك الحين و لم تكن هناك مرة واحدة أضمر فيها أوسبان خوجة بأى شكل من الأشكال المكر و الخداع أو لم يمتثل لأوامر الخان. كان يتوقع الأخطار التي تهدد عرش الخان حتى قبل الخان نفسه و يحذر منها دائما فى الوقت المناسب .

كان مثل الملاك الحارس الذى يجلس على الكتف الأيمن للخان بطريقة غير منظورة و يمنعه من ارتكاب الأخطاء . و يمكن القول بشجاعة أن النجاحات التي تحققت في هذه الفترة كان خان أبوالخير يدين بها لأوسبان خوجة.

كما أن " ربيعة سلطان بيغيم" أنجبت للخان ولدين موفورى الصحة و بفضل العقل و حسن الخلق و الجمال أصبحت زوجته المفضلة.

دخل الوزير الأعظم بختى خوجة ثم انحنى و قال :

يا سيدي الخان لقد أحضروا الخائن أوسبان خوجة .

عبس أبوالخير ... « خائن .. كيف يمكن أن يعرف أن « أوسبان خوجه» قد خان أحد ما؟ ربما ينظر إليه بعيونى و إننى أعتقد هذا ... و لكن هل قرارى صحيح ؟ هل يستحق هروب ذلك الفارس التافه أن أزج بهذا الخادم فى الزنزانة .. ياله من عالم متغير. وماذا إذا حدث معى مثل هذا فى وقت من الأوقات ؟ الآن طالما أن حياتهم في يدى ينحنون ثلاث مرات. ولكن حاول و لو لدقيقة واحدة أن تكون ضعيفا بين الناس فسيفرون منك كما يفرون من الأبرص و سوف يقوم آخرهم بكسر ظهرك . هذه هي الحياة و أنت لا تستطيع تغيير أي شيء » ...

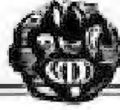
أومأ خان أبوالخير برأسه و قال :

ادخلوه .

أدخل إثنان من الحراس السجين ممسكين به من ذراعيه . كان أوسبان خوجه حتى فى السابق مثل الهيكل العظمى مما دعى الناس أن تطلق عليه اليعسوب . و لكن مهما اعتادت أعين الخان إلى نحافته خلال بضع سنوات فإنه ارتجف رغما عنه عندما رأى ما هو عليه الآن . لم يكن إنسان حي و إنما ظل فقط . كان الجلد الجاف ممدود على العظام العارية و غارت عيونه بشكل عميق حتى أنها كانت غير مرئية .

تحدث أوسبان خوجة بصوت أجش لا يكاد يسمع .

يا سيدى الخان .. إذا أطلقت سراحى الآن فإننى لم أعد بالفعل من أهل هذه الدنيا. ولن يستطيع أحد من حكام الأرض أن يخالف مشيئة الله و إننى لن أعيش أكثر من أسبوع. لذلك أنا لا أطلب منك الحياة وإن كنت أنت الخان الحاكم على الناس ... و إنك



لن تستطيع أن تزيد فى أنفاسي و إذا كنت ترغب فى تقليلها فإننى أيضا لست خائفا .

إننى أريد أن أتكلم معك عن شيء آخر ياسيدى الخان .

ماذا تطلب منى ؟

أن تسمعنى حتى النهاية ...

تكلم .

أولا و قبل كل شيء عليك أن تعلم لماذا عملت عندك كل هذه السنوات بأمانة و إخلاص . المجنون فقط هو الذى يستبدل ميرزا أولوغبيك النقى والنبيل بهذا الوحش فشكل الإنسان مثلك يا سيدى الخان . فاسمع السبب الحقيقي و لا تعتقد شيئا آخر.

حسنا ... نحن نسمعك .

يعلم الجميع عشرة أجيال من أسلافك ... و كان لدى أيضا عشرة أجيال من الأسلاف .

و على الرغم من أن أسماءهم لم تحفظ في ذاكرة الناس توجب على أن أعرفهم كما يتعين على أى شخص ... و أنا بعيد كل البعد عن مقارنة أسلافى بأسلافك أيها الخان. أنتم الحكام و نحن العبيد. أريد أن أتحدث عن شيء آخر . أنتم جميعا جنكيزيون ولكن يوجد بينكم أحيانا بعض من يتصفون بالإنسانية . كان جدك فى الجيل السابع السلطان «إيبس بوجى» هو ذلك الإنسان الجدير بهذه الكلمة السامية .. لم يصبح خانا فى زمانه ولكنه كان فارسا عظيما و قائدا شجاعا. و كان جدى «كارا نار» عبده فى الجيل السابع .

حتى من الحساء يبقى فى الجزء الأسفل من المرجل رواسب كلسية . و على الرغم من أن « كارا نار» كان من عامة الشعب لكنه أيضا اشتهر كفارس. و فى إحدى المعارك مع الكالميك عندما كان يحاول إنقاذ السلطان «إيبس بوجى» وقع عن حصانه مع بعض الفرسان الأخرين و وقع فى الأسر . و عندما انتهت المعركة بدأ تبادل الأسرى. وأخذ الكالميك فدية مائة حصان عن السلطان و عشرة عن الفارس البسيط. و مع ذلك كان هناك من بين الأسرى فرسان طلب الكالميك فدية عنهم ثلاثة أضعاف ما طلبوه عن السلطان إذ أنهم ألحقوا بهم فى المعركة خسائر فادحة . و كان جدى « كارا نار» واحدا من هؤلاء المحاربين الثلاثة الذين طلب فيهم ثلاثمائة من الخيول للإفراج عنهم...

دفعت الفدية على الفور عن إثنين من المحاربين المنحدرين من عشائر كازاخية عريقة



من قبل أقاربهم الأغنياء و لكن من يهتم بعبد الخان البسيط التولو نجوتى؟ لقد بكى آنذاك بكاء مرا و لكن القرى التي ينتمي إليها هي نفسها قد تأثرت بشدة من قبل الغزاة و لم يتمكنوا معا من جمع هذا القطيع . و كان الموت فى انتظاره لأن الكالميك كانوا يقطعون على الفور رؤوس الأسرى الذين لا يدفعون الفدية فى حينها . و فى أحسن الأحوال كانوا يصفدونهم بالأغلال و يسوقونهم إلى أسواق الرقيق الصينية للبيع في المناجم .

و كان هذا أسوأ من الموت...

و لكن السلطان ذو الأصل العريق «إيبس بوجى» ظهر فى الوقت المناسب. و دون أن ينطق بكلمة واحدة أحصى ثلاثمائة من الخيول الأصيلة السوداء من قطيعه و دفع الفدية عن جدى . و بعد أن رجع «كارا نار» إلى أسرته أقسم أن الأجيال السبعة المقبلة من ذريته سوف تخدم الأجيال السبعة من أسرتك يا خان أبوالخير بتفان و إخلاص. و قد ترك وصية شفهية بألا نستاء منكم حتى و لو كنتم ظالمين. وبى أنا و أنت يا خان أبوالخير يكون جدى كارا نارا قد أبر بقسمه .. و هذا هو السبب أنني انتقلت إليك من عند "أولوغبيك " النبيل .

ابتسم أبو الخير بامتعاض و قال :

لقد توغلت بعيدا فى الماضى ... علاوة على ذلك لقد أوصى جدك ألا تستاءوا منا ؟

نعم هذه الوصية تنتقل عندنا من جيل إلى جيل ... و إننى لن أستاء حتى لو ذبحتنى مثل الخروف .

حسنا فكما ترى إن لى عليك سلطة مضاعفة و الحكم عليك قد أصدره جدك ... هو ذالك بلا شك . و إذا قتلتنى بيدك دون أى ذنب من جانبي فإنك لا يقع عليك أى ذنب حتى أمام الله . و لكن الحقيقة هي أنني أنا المذنب فى حقك أيها الخان ..

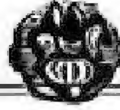
و ما هو ذنبك ؟

إننى أنا من ساعدت الفارس " سايان" على الهروب .

أنت .. في هذه الحالة سوف آمر بتأجيل موتك لمدة عام بل عشر سنوات .. و سآمر بتغذيتك حتى تعيش إلى أرذل العمر فى كيس حجرى و سألعن عشرة أجيال من أسلافك ..

لم يمس غضب الخان السجين مطلقا . و تابع النظر إلى مكان ما من خلال جدار القصر .

***



قال أنت تريد أن أموت كل يوم مجددا فليكن ذلك و أنا لست خائفا ... و إذا تغلبت إرادة الخان على أقدار الله فمن ثم وجب علينا الاستسلام و لكن ليس عن هذا أردت الحديث...

عن ماذا تريد أن تتحدث أيها العجوز ؟

لماذا لا تسألنى يا خانى لماذا ساعدت هذا الفارس على الهرب ؟

قال الخان : ملاك الله ينحرف عن الطريق عندما يومض الذهب فى عينيه .

قال لا يا سيدي الخان إن الملائكة و العبيد ليسوا فى حاجة إلى الذهب و إنما يحتاجه الملوك. مجرد سبب آخر جعلنى أساعد الفارس سايان على الهرب. الحقيقة أنه هو الابن الأصغر لميرزا أولوغبيك من جاريته من قبيلة أرجين و أخ زوجتك "ربيعة سلطان بيغيم" من الأب ، و يعرف ذلك فقط هى و أنا...

لقد أحضرت "ربيعة سلطان بيغيم" إلى هنا ضمن الأربعين عبدا أخاها غير الشرعي .

فقد كان من الضرورى ألا يعلم الورثة الآخرون أنه ابن " أولوغبيك". و أعتقد يا خانى أنه ليس من الضرورى أن أبين لك أنه لم يكن سيروق لهم ظهور منافس أخر على العرش. وإنهم كانوا سيذبحون هذا الطفل في المهد إذا أنهم لم يرحموا أبيهم نفسه .

و قد عهد لى ميرزا أولوغبيك العظيم قبل عام من موته بعد أن توقع المتاعب أن أقوم على حماية ابنته المفضلة " ربيعة سلطان بيغيم" و ابنه غير الشرعى الذى يبلغ من العمر سبع سنوات كما أحمى حدقة عينى . أقسمت له على ذلك . و هأنت الآن تعرف أننى و فى حتى للأيمان الذي أعطاها أجدادى السالفين...

الآن أنت تعرف فيما أنا مذنب و أصبحت الآن أشعر بارتياح . نعم لقد رتبت الهروب . وبناء على نصيحتى أبقت " ربيعة سلطان بيغيم" الخيول الثلاثة فى المنزل. و قد أخذت من السلطان جانيبيك حراسا من قبيلة أرجين فقط لأنهم وافقوا أن يهربوا مع الفارس الذى يمت لهم بصلة قرابه ...

و الآن قرر مصيرى يا سيدي الخان و الأمر سيان لدى . إننى أشعر بالراحة لأننى قد أوفيت بوعدي في هذه الحياة العابرة بقسم جدى « كارا نار» و وفيت بصدق بوعدى لخير الناس العالم " أولوغبيك"..

***



أصيب خان أبوالخير بالذهول عندما سمع هذا الاعتراف . و لم يعرف هل يفرح أم يحزن حيث أنه حين كان ينوى أن يعدم " ربيعة سلطان بيغيم" ليس بدافع الغيرة وحدها و إنما كان يريد أن يفضح كل التيموريين الذين يكرهم علانية . و كان السبب في ذلك سلوك حاكم سمرقند زوج ابنته الذى لم يعجب أبوالخير في السنوات الأخيرة بشكل متزايد .

إن الأمير عبد السيد الذى أجلسه خان أبوالخير على العرش اعترف به حاكمه الأعلى حتى إنه قد بني في هيرات قصرا تكريما له. و كان يرسل لأوردا بازار نصف الضرائب المحصلة غير منقوصة فى مقابل أن تضمن قوات الخان سلامة سمرقند . و لكن في السنوات الأخيرة تغير كل شيء فبعد أن ضم الأمير عبد السيد إلى ولايتى سمرقند و بخارى جزء كبيرا من إيران بما في ذلك شمال خراسان الغنية لم يعد يحسب حسابا للخان و يفعل كل شيء على هواه . بالإضافة إلى ذلك علم أبوالخير أن ابنته التى زوجها للأمير هى التى تحرض زوجها على العصيان...

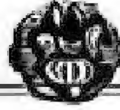
و الآن يتصرف زوج ابنته السمرقندى بوقاحة خاصة بعد مغادرة الكثير من القبائل الكازاخية مع جانيبيك و كيرى مما أضعف قوته إلى حد كبير. و قد بدأ بالفعل صغير التيموريين هذا في تهديد الخان بقبضته. و إذ لم يلقنه اليوم درسا فغدا سيتصرف جميع السلاطين و الأمراء و البكواتال خاضعين له على هذا النحو و ستنهار خانيته مثل الجدار الطينى القديم .

كلا إنه لن يسمح بذلك. و سوف يريهم أبوالخير بعيد النظر ذو الخبرة الكبيرة مخالبه الحديدية. إن "ربيعة سلطان بيغيم" قد سعت سعيا حثيثا ليساعد الخان عبد السيد ليجلس على العرش. فلتأخذ جزاءها عن كل شيء و سيأتى دور عبد السيد لاحقا .

و من المؤسف أن القوات ليست كافية الآن لحصار سمرقند .

نعم إنه يضعف و مع كل يوم يقوى الأعداء. جانيبيك و كيرى و عبد السيد هذا وعيسى بوجا حاكم مغولستان التى هاجرت لدولته الكثير من القرى السهبية. حسنا يجب علينا التحلي بالصبر...

في هذه الأيام كان خان أبوالخير يفكر على هذا النحو و تعرض أيضا لقضية "ربيعة سلطان بيغيم" . لقد كانت هذة القضية بالفعل كنزا يتيح له أن يرى جميع التيموريين و الحكام الآخرين التابعين له مدى حزمه . و هذا هو السبب في عدم سعادته جدا بشهادة مستشاره السابق التى تبعد أى شبهة عن " ربيعة سلطان بيغيم" .



لكن هناك فى مكان ما فى أعماق روحه شعر الخان بزوال جزئى للغيرة التي تسللت فى حين ما إلى قلبه . إنه لايزال يحب زوجته الشابة و الجميلة و يفخر على طريقته بعقلها و تعليمها و حسن أخلاقها .

لكن لماذا لم تقل له " ربيعة سلطان بيغيم" أن سايان هو شقيقها ؟ على ما يبدو أن السلاطين من أرجين يعلمون هذا الأمر و أخفوا عنه كل شىء . ألا يدل ذلك على علاقتها الخفية مع قبيلة أرجين ؟ و من يدرى أى شبكات قد نسجت له .

عبس الخان مرة أخرى ... ليس هناك عذاب فى الدنيا أقوى من الشعور المرضى بالاضطهاد. و يمرض به بعض الناس مثل خان أبوالخير كنوع من العقاب . كان يتخيل الأعداء في كل مكان و لم يكن يصدق أحد غير نفسه . و إذا أضفنا إلى ذلك أنه بطبيعته شخص مرتاب فيصبح من الواضح أن هناك ثعبان قاسى يلتهم قلبه طوال حياته ...

فكر أبوالخير «لا ... لا ... أنهم جميعا قد اتحدوا معا لتدميرى أنا و خانتى فلابد أولا أن أمحو من على وجه الأرض هذه الحية " ربيعة سلطان بيغيم" فهم أوسبان خوجة فيما يفكر فيه الخان .

قال بهدوء لقد علمت أرجين مني أن الفارس سايان من عشيرتهم . لقد قلت لهم ذلك قبل خمس سنوات...

لماذا ؟

شخص أغرقته الأمواج فى بحر مفتوح مثل اليتيم فهل من الضرورى أن أخفى عنه أنه يوجد على الأقل شخص من أقاربه فى هذا العالم .

هل لم يوجد غير أرجين ليتكأ عليهم ؟ إن الخانوم نفسها شقيقته السرية كانت قلقة بخصوص المكان الدافىء للمربى من أجله .

و لكنك لم توافق يا سيدى خان...

فكر الخان « نعم أنا لم أوافق . و كان من المستحسن لو أصبح ابن " أولوغبيك" أخا مختارا لابنى و عاش عندى . كان هذا سيكون سوطا جيدا فوق رأس التيموريين . كانوا سينظرون كل يوم ناحيتى . و كانت العقوبة التى كنت سأوقعها على عبدالسيد الوضيع ستلقى دعم الشعب ... و مها كانت قوتك فإن لم ترضى الناس فإن خانتك ستكون مثل ثوب قزم تغطى به عملاق . و عند أدنى حركة غير مناسبة فسوف تنحل جميع الغرز»...



مرة أخرى قطع حبل أفكاره أوسبان خوجة :

لو أعدمت الفارس المجيد سايان فإنك بذلك ستفقد أيضا ابنتك « جولباخرام...» لماذا ؟

إن لديها مشاعر كأى واحدة من بنات حواء ... إنها تحب الفارس سايان .

و من يعلم هذا غيرك ؟

أدرك أوسبان خوجة على الفور أن الخان لا يسأل هذا السؤال من قبيل الصدفة .

فكر ثم رفع رأسه و نظر نظرة طويلة إلى الخان و قال :

"ربيعة سلطان بيغيم" . إنها تنام و ترى فى المنام أن هذين القلبين المتحابين سيتوحدان .

فكر الخان «هذا يعنى أن " ربيعة سلطان بيغيم" أخت الفارس حقا فلماذا إذن أخفت عنى هذا ؟ فلو كنت قد عرفت كل شىء عن سايان هذا فى حينه كان من الممكن أن أجعله مربيا لولدى و لكان كل شىء على مايرام ؟

أرادت " ربيعة سلطان" أولا أن تطلب منك أن تجعل سايان شقيقا اختياريا لسويونشك وفي هذه الحالة كان سيمتنع عن «جولباخرام» للأبد لأنه طبقا لقانون «محمد» لا يمكنه

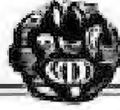
الزواج بأخته . و لذلك فقد طلبت منك فقط أن تعينه مربيا ... و لكنك عاندت وقتها يا خانى و لم يجرؤ أحد أن يكشف لك سر الفارس سايان لعلمهم بطبيعة بشخصيتك . فهل كنت ستعطى ابنتك لأحد المتشردين فى حين أن الفارس الرئيسى الكاراكيبشاكى يمنى نفسه بها . و الفارس قوبلاندى لا يتنازل لأحد آخر عن فريسته . ولكن كل شىء يمكن أن يحدث ..

الآن تذكر خان أبوالخير القول المأثور عن جنكيزخان « قبل أن تقود خانتك تعلم أن تحكم فى قبيلتك» لماذا سمح بكل هذه المكائد و لماذا لم يعرف عنها شيئا . فقد كان يعتبر نفسه قلب الخانة الذى من خلاله يسرى الدم كله من الأوردة التى لا حصر لها . لكن فجأة اتضح أنه قلبه مغلق بسبعة أقفال حتى بالنسبة إليه .

لم يمسك أبوالخير بالجرس و لكن صفق فقط بيديه . ظهر على الفور على عتبة الباب بختى خوجة و صار يحدق فى الخان بفزع .

أحضر لى الآن ابنتي « جولباخرام» و استدعى الفارس قوبلاندى .

قال الخان « الآن سوف أزوجها للفارس العجوز فعلى الأقل سأربط نفسى للأبد مع قبيلته المحاربة و أثار من قبيلة أرجين و فارسهم الهارب سايان . فليس هناك عار أكثر من ذلك



للفارس الشاب .. و هل الفارس سايان مذنب أم لا فى رأيى لم يعد ذلك يهم . و هو مذنب أنه لم يكشف أمره فى الوقت المناسب . الآن هو بين أسوأ أعدائي و فات الوقت لإعادته ... و لكن بالنسبة إلى "ربيعة سلطان بيغيم" فسوف ننتظر . إنها حقا بريئة و مازالت قادرة على منح السعادة » ...

اسمح لي يا سيدى الخان أن أعطيك نصيحة أخرى . لقد كنت تستمع إلى نصائحى فى وقت من الأوقات......

تكلم .

الخان الذى يستأمن وزيره على سر مثله مثل الذى وقع فى براثن الوحش. سيكون مصيره دائما في يد الوزير . و إذا كان صديقا فسوف يساعد على الخروج من المتاعب وإذا كان عدوا فكن على حذر منه . و مهما كان الأمر فليس من السهل التخلص منه...

لماذا تقول لى هذا ؟

كن على حذر من بختى خوجة يا خانى . إن الناس صاروا بالفعل يخافون منه و ليس منك، و هذا يحدث عندما يقبض الوزير بيديه بإحكام على الحاكم...

اخترقت الفكرة الرهيبة أبوالخير مثل البرق « إن هذا الميت على حق . إن بختى خوجة يعرف كل أسرارى حتى تلك التى أخشى أن أستأمن نفسى عليها . و ماذا لو حاول على الرغم من حقارته أن يستخدمها ضدى ؟ ربما حدث شيء من هذا القبيل . لا عجب أنه ينتابني مؤخرا شعور لدى رؤيته كأنه ثعبان يزحف إلى المنزل . « انتابته مرة أخرى موجة من الشك العنيف».

إن الوزير يعرف كثيرا جدا و لا ينبغي أن يكون على قيد الحياة .

جاءته كلمات مستشاره السابق كما لو كانت من مكان بعيد و أومأ الخان برأسه و هو مستغرق فى التفكير. إن هذا الرجل قضى كل حياته في قصور حكام مختلفين . و ربما كان لديه أسباب للاستياء الشخصى من هذا الوزير و لكن الخان نفسه فكر فى هذا الأمر أكثر من مرة. نعم نعم إن بختى خوجة المرواغ يعلم الكثير جدا حتى يموت ميتة طبيعية. و لسوء حظه أنه أصبح وزيرا و لابد أنه يعرف ماذا سيكون مآل ذلك .

دخل أحد العاملين فى القصر ثم انحنى و قال :

يا سيدى الخان .. إن زوجتكم الأولى المبجلة لم تجرؤ أن تبلغكم أنه منذ يوم أمس يبحثون في كل مكان عن «جولباخرام» ابنتكم المشرقة . بالأمس ذهبت لرؤية فرسين



رماديين كانا سيشاركان في السباقات المزمع عقدها في القرية السفلية . و الآن لا يوجد أثر للخيول أو لكريمتكم..

ضم الخان الذى اعتاد بالفعل مؤخرا على المفاجآت في منزله الجرس حتى ظهر البياض فى أصابعه .

و الفارس قوبلاندى ؟

أه يا سيدى .. كان الخوف يطل من عيون عامل البلاط. إن الفارس قوبلاندى الكاركيبشاكى قد غادر مع قراه قاصدا تورجاى...

صمت الخان و سأل بهدوء :

لماذا؟

لم يقل شيئا لأحد و إن فرسانه مسلحون و لم يسمحوا لأحد بالاقتراب من القافلة . يقول الناس إنه ذهب وراء الهاربة جولباخرام باتاشايم و لكنه لم يلحقها لأنها قصدت قصدت مغولستان حيث رحلت إلى هناك قرى أرجين . و لكن هذا هو كذب مشترك فلا أحد يعرف أى شيء..

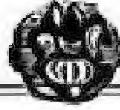
صر أبوالخير أسنانه و قال «كلا إنها ليست كذبة . إن الناس يعلمون قبلى ماذا يحدث... على مايبدو أن الفارس قوبلاندى كان يأمل أن يتزوج ابنتى فهربت ابنتى منه ومنى وقصدت قبيلة أرجين» .

و لكن أى صنف من البشره ذا الكاراكيبشاك فبدلا من أن يشكرنى أننى لم أسلمه للعدو يتركنى في أصعب لحظة ... و لكننى لا أتهمه بشيء .

لكن هذا يعنى أن كل ما قاله أوسبان خوجة صحيح. من أجل الفتاة أراد الفارس قوبلاندى أن يقتل الفارس سايان. ولهذا السبب أيضا يكره أكجول بيك ... ولكن شواطىء تورجاى ما زالت تحت سيطرتى و من الجيد أن الفارس لم يذهب فى إثر جانيبيك وكيرى إلى الحدود الأجنبية .

***

قال خان أبوالخير مع ابتسامة ساخرة يبدو أن الفارس القبجاقى قد فقد قوته إن لم يستطع اللحاق بالفتاة .



كان يعلم أنه بعد خمس دقائق سوف تنتشر هذه الكلمات في جميع أرجاء القصر مع الإشارة إلى ابتسامته الهادئة الساخرة . و بعد ساعة ستتردد في المدينة . و بعد ثلاثة أيام سوف تجوب الخانة كلها. و سيعلم بها أهل مغولستان و سمرقند و بخارى و خراسان. وسيعلم العالم كله أن رحيل أرجين و القبجاق من ورائها ليس له أى تأثير على قوته . وكم من مرة حدث هذا في صحراء دشت و قبجاق .

نعم يا سيدى الخان . أيد كلامه عامل القصر و تراجع للخروج .

التفت خان أبوالخير و أشار بيده غاضبا نحو أوسبان خوجة . يجب أن يبقى هذا وحيدا .

أمسكوا المستشار السابق من ذراعيه وجروه خارج الغرفة .

وداعا يا سيدي الخان . صرخ الرجل سيء الحظ و لكن الخان هز كتفه بغضب .

لم يكن هذا هو الوقت الذى يصل فيه إلى الحقيقة و الخير. و عادة ما ينسى الحكام وعند رؤيتهم أناس يدينون لهم بشيء يصيبهم الضجر .

و لكن بما يدين خان سهوب دشت و قبجاق كلها لمجرد سجين كان في الماضي مستشارا له؟ إن أبوالخير جعله مستشاره ثم قام بإبعاده . و لكن ألم يقدم له أوسبان خوجة نصيحة جيدة حول المستشارين الذين يعرفون أكثر من اللازم ؟

كان عليه أن يبقى بمفرده أخيرا للتفكير في كل ما حدث . حالما أغلق الباب وراء الحراس اضطجع أبوالخير خان على وسادة و أخذ يحدق فى صورة السجادة بنظرة شاردة .

و من وقت لآخر كانت يده تمسح العرق عن جبينه الناتج عن تفكير صعب...

هكذا ذهب جانيبيك و كيرى إلى أحفاد جغطاى فى مغولستان طلبا للمواطنة و نقل الفارس قوبلاندى الكاراكيبشاكى قراه إلى تورجاى. و في بلاد ما وراء النهر نأى عنه بجانبه الوغد التيمورى عبدال سيد. و لكن هذا ليس كل شيء . في الآونة الأخيرة أبلغوه أن الشاعركازتوجان الذى « قامته مثل قامة الغراب » قرر هو وعدة قرى قبجاقية الانضمام إلى جانيبيك و كيرى . و قبل مغادرته بارك المغنى الصغير القبائل الباقية فى إديل ألشين و جباس بالكلمات التالية :

إذا أجلست الجمل هنا على العشب في المناطق الساحلية فإنك لن تجده أبدا.

و عندما تسبح السمكة فى مياه ضحلة

فإن الخيول لا تشرب الماء..



و الضجيج الليلى بسبب الوحش و صخب الطائر الشبعان لا تجعل الشخص ينام و لو تحت الأرض .

لكنني سأغادر شواطئك يا إديل .

و أباركم يا من بقيتم و أتمنى لكم السعادة في كل العصور.. لماذا تواصل القبائل و العشائر الكازاخية الذهاب إلى جانيبيك و كيرى ؟ هل أصبحت القبيلة العظيمة التي أنشأها بصعوبة على حافة الهاوية ؟ إن لديه عشرة أبناء ، و خمسة عشر بنتا ، و خمسون حفيدا . ألا يكفي هذا لتغطية جميع الشقوق في القارب الذى يتسرب إليه التيار المتدفق؟

بدأ بعض أبنائه يظهرون مخالبهم و هو مازال على قيد الحياة . فماذا سيحدث للقبيلة عندما يصبحون وحدهم و لم يعد من الضروري ترقب سوط الأب ؟ سيقومون بتمزيق الخانة إلى قطع صغيرة . يجب أن يقوم قبل فوات الأوان بيد من حديد باستعادة النظام فى بيته وعند عتبة منزله .

أولا ينبغى أن يجعل من بلاد ما وراء النهر حليفا مخلصا . إن للتيموريين هناك وزن وتأثير لذلك نحن بحاجة إلى استخدام "ربيعة سلطان بيغيم" . إن حفيدة تيمورلنك و ابنة محبوبهم أولوغبيك يجب أن تكون على قيد الحياة و بصحة جيدة و خاصة أنه لم يعد هناك أي شكوك حول اخلاصها. و قد قال جنكيز خان أن الحرب ضرورية للاستيلاء على الأراضى الأجنبية لكن الأقدر على حكمها هم أمراؤها و سلاطينها . لذا يجب أن يكونوا من منزله . فليدع أولاده يحكمون فى مدن سيرداريا القديمة وراء جدران سميكة بدلا من أن يكونوا حكاما فى تلك السهوب المتزعزعة المتغيرة حيث يعتمد كل شىء أحيانا على مزاج هذا الفارس أو غيره أو عشيرته . فعاجلا أم آجلا سوف ينقل عاصمته إلى هناك على الرغم من كل البدو الذين يذهبون دون أن يخبرونه عن ذلك مسبقا .

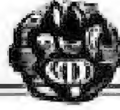
و عندما يرسخون أقدامهم هناك سيكون من الممكن استعادة النظام في السهوب .

أولا و قبل كل ذلك لابد من تنفيذ الحملة المخطط لها منذ فترة طويلة على مغولستان. و سيدفع العصاة ثمنا باهظا لمغادرتهم من تلقاء أنفسهم و سيعودون زحفا على بطونهم طلبا تحت حمايته . و سيحرض كل جيرانهم عليهم .

لقد أحسن القول أوسبان خوجة هذا :

« الوزير الذي يعرف الكثير لا ينبغي أن يكون على قيد الحياة »

وهذا الأمر ينطبق عليه أيضا . فعلى الرغم من أنه يقع في حفرة عميقة و أنه لن يعيش



طويلا و لكن لا يجب أن يعتمد على الله في هذه المسألة . إن الأرض لديها آذان أيضا . لقد قال الكثير من الأسرار اليوم . ومازالت ذاكرته تحتفظ بالكثير أيضا ... و ماذا عن بختى خودجة...

منذ ذلك اليوم امتنعوا عن تقديم أي طعام لأوسبان خوجة القابع في كيس حجرى .

و اختفى فجأة الوزير الأول بختى خوجة . غادر منزله مع أربعة من الحراس و لم يعد ثانية.

ذهب رسل الخان إلى الجوانب الأربعة للبحث عنه و لكنه اختفى كأنه غرق فى الماء.

سرعان ما انتشرت الشائعات أن بختى خوجة هرب إلى مغولستان . اكتأب الخان من هذه الحادثة و أخذ يختلس النظر إلى زملاء و أصدقاء الوزير الهارب. في البداية كانوا يتهامسون حول أسباب اختفاء مواطنهم و الآن أصبحوا يخشون على أنفسهم من انتقام الخان.

***

لكن خان أبوالخير خان اكتفي بأن اتخذ من ابنه الوزير الهارب ذات الثلاثة عشر ربيعا و التى كان يرقبها منذ مدة طويلة زوجة خامسة له .

و مع ذلك كانت " ربيعة سلطان بيغيم" بالنسبة إلى الخان أغلى من بقية الزوجات . و واصل معها مناقشة العديد من شؤونه . و للأمانة ينبغي القول أنها قدمت للخان نصائح جيدة .و تقلص ظهور ومضات الشك فيها عند الخان إلى حد بعيد. و بمجرد أن اختفى بختى خوجة حلت محل الوزير حتى في حل القضايا البعيدة كل البعد عن النساء. و يتجلى فيها عقل والدها الحاد وتدخلت في حياة الخانة بدون ضجيج وبكرامة وبطريقة غير ملحوظة...

و لم يمض وقت طويل حتى أصبحت "ربيعة سلطان بيغيم" الشخص الرئيسي لدى الخان .

لم يتخذ أي قرار مهم إلا بعد مشورتها. و حاولت أن تقدم النصائح بشكل أقل لأنها أحست أنه إذا بدأ خان أبوالخير يعتمد بشكل كبير على أى شخص فإنه لن تكون نهاية هذا الشخص سعيدة . و ليس عليك الذهاب بعيدا لتجد الدليل

***



فى هذا الوقت وردت الأخبار أن «محمد جوكى» حفيد أولوغبيك سيحضر إلى أوردا بازار. و بأمر من " ربيعة سلطان بيجم" تم استقباله على مشارف المدينة فى احتفال مهيب. رافقه عشرات الفرسان و عند بوابة أوردا بازار ترجلوا جميعا عن خيولهم و دخلوا المدينة سيرا على الأقدام و تركوا أسلحتهم عند مدخل القصر و انحنوا أمام خان أبوالخير انحناءة عظيمة...

جفل خان أبوالخير و أمسك خنجره بيده فقد كان «محمد جوكى» يشبه الفارس الهارب سايان مثل قطرتى الماء. حتى الوحمة لديهما فى نفس المكان .

أحنت " ربيعة سلطان بيغيم" التى كانت تجلس بجوار الخان رأسها قليلا و قالت :

يا سيدي الخان هذا هو أخ زوجتك الأصغر «محمد جوكى» ابن ميرزا عبد اللطيف .

ثم التفتت إلى الضيف و قالت :

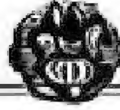
يا قريبى الوحيد هل كانت سفرتك طيبة ؟ هز رأسه بالإ يجاب و قال الكلمات المعتادة. إنك الآن تقف أمام صهرك الجليل الحكيم مثل النبى سليمان و الرهيب مثل الإسكندر ذو القرنين و أمام خان سهوب دشت و قبجاق كلها الصديق الوفى لبلاد ما وراء النهر و خراسان .

قامت هى أولا من مكانها و ذهبت إلى ابن أخيها و عانقته . شعر الخان مرة أخرى بالدوار و عندما أخذت ابن أخيها إلى الخان رجع الخان خطوة إلى الوراء و سلم عليه بيده . كان احتضانه كما هو المتبع مع الأقارب فوق احتماله.

لم يستطع خان أبوالخير كما المسحور أن يحول ناظريه عن وجه الضيف. إن له نفس الحاجبين السميكين و النظرة الثاقبة و نفس الوجه الشاحب والنبيل الذى لدى الفارس سايان. و تحركاته هي نفسها خفيفه و نمرية...

لم يغادره الفزع و كان يبدو للخان كل الوقت أن شيئا ما يدبر ضده و أن الفارس الهارب سايان قد دلف فى القصر فى شكل محمد جوكى . و كل لحظة كان ينتظر من ناحيته ضربة خنجر . ابتسمت « ربيعة سلطان بيغيم» التى فهمت كل شىء بلطف ووضعت يدها على يده لتطمئنه .

همست فى أذنه لقد نسيت أن أحذرك يا خانى العزيز أن محمد جوكى كأنه محاكاه للفارس سايان .



و لما رأت أن القلق مازال ملازما للخان طلبت منه السماح بأن تبتعد مع الضيف و وافق أبو الخير بارتياح . و أخذت "ربيعة سلطان بيغيم" إلى جناحها .

لم تكن تريد أبدا أن تعاتب البريء محمد جوكى على ذنب والده عبد اللطيف الذي قتل والدها أولوغبيك. لم يعش عبد اللطيف طويلا بعد أن قتل أبيها وذبح على نفس العرش. و لم يستفد من ذلك كله إلا الأعداء .

قالت له لا ينبغى لابنة أولوغبيك أن تعادى ابن عبد اللطيف لأننا من دم واحد. ومن المعروف من قديم الزمن أن «ستة من المتشاجرين فيما بينهم لا يغلبون شجاع واحد فى معركة». وإننا نحن الأكثر قربا من بعضنا البعض من بين الباقين على قيد الحياة من أولاد أولوغبيك. و دعنا نكون مثالا يحتذى لأقاربنا المتنازعين. يجب على أحفاد الفاتحين العظام أن يسعوا دائما للسلام حتى لا تصيبهم لعنة الله ...

لم تكن " ربيعة سلطان بيغيم" لطيفة هكذا مع محمد جوكى من قبيل الصدفة .

فلقد تربيا معا في قصر أولوغبيك و كان ابن شقيقها يصغرها فقط بخمسة أعوام .

و لكونها كانت أكبر منه فقد قامت على رعايته منذ الطفولة . و على الرغم من قسوة طباع ساكنى القصر فإنهما منذ نعومة أظافرهما يكنان لبعضهم البعض الحب والمودة . و قد تغلب هذا الشعور على بقية كل ما حدث بين آبائهم وأقاربهم .

تكريما لمحمد جوكى أقامت الزوجة الرابعة للخان وليمة عظيمة . و مرة أخرى تنافس الفرسان والمصارعين و من الصباح إلى المساء في حديقة الخان تأرجحت الأرجوحات .

عندما انقضى أسبوع التسلية و المرح الواجب بحق الضيف استقبل أبوالخير محمد جوكى. و قد حكى للخان عن الهدف من رحلته الطويلة و الصعبة وعن خططه المزمع القيام بها. و لما رأى الخان أن الضيف قدم عليه بدون سلاح فقد هدأ بعض الشيء. أصبح الحديث حميميا. و بطبيعة الحال كان " لربيعة سلطان بيغيم" الحاضرة هذا اللقاء الدور الرئيسي فى هذا. تعود أبوالخير تدريجيا على شكل قريبه و لم يعد يمسك بالخنجر عند رؤيته .

قال محمد جوكى أشياء مثيرة للاهتمام . واتضح أن الشعب و البكوات الأجلاء غير راضين عن حكم عبد السيد. و تساءل خان أبوالخير عن عدد و عدة القوات في سمرقند وبخارى و هرات. تحدث محمد عنهم بوضوح و قدم تقييما لحالتهم. وبعد ذلك من دون اطناب طلب من خان أبوالخير الدعم في النضال المقبل من أجل استرداد عرش التيموريين .



قال أيها الخان العظيم أبوالخير لهذا السبب جئت لكم. إن جدى أولوغبيك تسلم هذا العرش من تيمورلنك نفسه. و الآن جاء دوري و حقى فى عرش جدى لا جدال فيه..

سأله خان أبوالخير وكيف تعتقد كيفية تحقيق ذلك ؟. إن الحق فقط عند من يسانده جيش قوى...

أعلم يا خانى ... الآن ذهب عبد السيد في حملة لاستكمال غزو خراسان و بلخ. ويأمل بهذا تعزيز قوته بحيث لا يكون بعدها فى حاجة لأحد. و فى بلاد ما وراء النهر يتزايد السخط لأن الحرب تستهلك كل شىء. ساعدني في الاستيلاء على سمرقند وسيبتعد الجميع عن عبد السيد. هذه الفرصة السا نحة لى من غير المرجح أن تتاح لى مجددا...

ابتسم أبوالخير ابتسامة عريضة و قال :

عندما كان لابد من انتزاع السلطة من عبد الله قال لى عبد السيد الشيء نفسه ...

تعجب محمد جوكى و قال أنا لست عبد السيد. إذا أصبحت خانا على سمرقند فإننى لن أنسى دعمكم لى. أقسم على المصحف أننى سأكون لك كابن. أليست العزيزة "ربيعة سلطان بيغيم" أقرب شخص لي في هذا العالم ؟

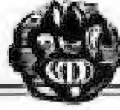
قال خان أبوالخير بهدوء إننى لا أريد أن أتبناك .... لدي ما يكفي من الأبناء و لكن أريدك أن تكون بدلا من ابنى على عرش التيموريين.

هذا هو المصحف و هذا هو الخبز و سأقسم لك على هذا. و لكم أن تفعلوا بى ما تريدون إذا أخلفت قسمى..

فكر أبوالخير طويلا ثم نظر إلى محمد جوكى بعيون مختلفة تماما. كانت عيون قاسية لقائد حربى ثم قال :

كم بقى في ولاية سمرقند من الفيلة المحاربة القادرة على خوض القتال ؟

كان هذا السؤال دائما ما يشغل بال القادة السهبين عندما يبدأون الحرب مع بلاد ما وراء النهر. و منذ أن غزا تيمورلنك جزءا من الهند و لدى جميع حكام آسيا الوسطى الكبار بدرجة أكبر أو أقل فيلة محاربة ضمن جيوشهم. كان العدد الأكبر منها يتواجد في ولايتى سمرقند و بخارى. و لقد كانت وسيلة فعالة ضد خيالة البدو. كانت الخيول شبه البرية السهبية التى لم ترى الفيلة مطلقا تخاف بمجرد رؤيتها تلك الوحوش و تخرج عن الطاعة. و كان الفرسان الشجعان يقتربون من الفيلة الضخمة دون عناء و لكن كان يجلس على ظهورها رماة محميين يمطرون المهاجمين بوابل من السهام .



كان خان أبو الخير عادة ما يختار هذه اللحظة لمهاجمة بلاد ماوراء النهر عندما تكون الفيلة في أي حملة خارج المدينة . و مثل قطيع الذئاب الذى يهاجم حظائر الماشية ليلا تنقض خيالته على المدن المتروكة بدون حماية كافية . و بعد الاستيلاء عليها تصبح فيلتها عديمة الفائدة .

و للحقيقة كان هناك فى ذلك الوقت عدد قليل من الفيلة في ولايات بلاد ما وراء النهر و لكن لدى أبوالخير من سنوات الصبا فزع داخلى منها . كان يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما عندما قدم لأول مرة إلى أسوار سمرقند . و أطلق عليه سكان المدينة ثلاثة أفيال فقط فهربت جميع قوات خيالة خان أبوالخير كثيرة العدد فى جميع الاتجاهات فى حالة من الذعر . و عندما هاجمه الحيوان الضخم شخصيا ملوحا بزلومته جبن لدرجة أنه رمى الرمح وهرب على الأقدام و ترك الحصان . و لكن من الجيد أن الحصان الذكى وجده فى موقع لطمر النفايات و أبعده عن المعركة .

و منذ ذلك الحين كان خان أبوالخير دائما ما يستعلم عن الفيلة قبل الذهاب إلى بلاد ما وراء النهر. و كما يقول المثل «من لدغه الثعبان يخاف أن يخطو على حبل ملون»

طمأنه محمد جوكى و قال له إنه ليس هناك فى بلاد ما وراء النهر غير هذه الأفيال الثلاثة و لكنها هرمت لدرجة أنها لا تصلح إلا لنقل الحريم .

سأل خان أبوالخير بارتياب و هل من الصعب الحصول على أفيال أخرى ؟

القضية ليست فى الأفيال ... فمن أجل تعليمهم فنون القتال واستخدامهم فى الأغراض العسكرية نحتاج لفيالين (سائق الفيل ـ المترجم) ذوي خبرة . و في وقت سابق قام بهذا العمل

العبيد الأسرى من الهند . و قد هرم الكثير منهم ولقوا حتفهم

وفر الآخرون إلى بلدهم و العشرون فيلا التى بقيت بدون فيالين قام أعداء عبد الله بتسميمها فى ذلك الوقت...

هز أبوالخير رأسه بارتياح و قال :

حسنا فعلوا..

رفع عينيه إلى السقف حيث كتبت عليه عبارات مختلفة بالخط العربى و قرأ بصوت منخفض : « حيث يمكنك التصرف فا نجز مهمتك دون إراقة دماء و إذا لم تستطع التصرف فليعينك الله» .



تحت هذه العبارة علق على الحائط الكثير من الأسلحة مثل سيف دمشقي و سيف سهبى معكوف و رمح مزدوج ثلاثى الحواف مصنوع من السيليكون الصلب و هرواة لها بثرات حديدية بذلك السيف قطع ذات مرة رأس مربية و معلمة و بهذا الرمح خرق قلب مصطفى خان .

ضحك أبوالخير رغما عنه ... و إذا لم تستطع التصرف فليعينك الله « كما لو أننى قد حملت السلاح بدون عون الله ثم إن الله لم يسمح بوجود الرماح و السيوف على الأرض من أجل التسلية» .

نعم كان الله معه دائما و إلا لما حالفه الحظ طيلة حياته . و الآن سمح بأن تموت الفيلة المحاربة مسمومة في بلاد ما وراء النهر. أليس هذا علامة من الأعلى على شن هجوم على هؤلاء المواطنين الذين يعانون من السمنة المفرطة و لا يلومن بعد ذلك عبد السيد إلا نفسه الحانث بالقسم. و الله لن يكون معه لأنه حنث بيمين الله . و قد أختير خان أبوالخير لتنفيذ حكم الله عليه .

أحد النظر إلى وجه محمد جوكى وقال :

«أسعد قريبك» هكذا يقول القرآن وأنا على استعداد لمساعدتك ولكن هناك شرطين...

أحنى محمد جوكى رأسه .

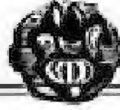
أولهما .. و التفت خان أبوالخير نحو " ربيعة سلطان" مبينا أن هذا الشرط يتعلق بها تحديدا. لقد تزوج الأمير عبد السيد ابنتى ليؤكد قسمه . و كيف سأعاقب هذا الحانث بالقسم الذى أهاننى بشده رغم قرابته لى ؟

ابتسمت الزوجة التى فهمته على الفور و لوحت بيدها و قالت :

بالطبع عودة الابنة إلى والدها من عند هذا الزوج الخائن ليس عقابا كافيا جزاء جرمه . و كعقاب و تأكيد سلطتك لابد لك يا خانى أن تتزوج ابنة عبد السيد ذات الثالثة عشرة ربيعا من زوجته الأولى عبادات...

أكد أبوالخير على كلامها و قال نعم هو ذاك و التفت إلى الضيف ثم قال شرطى الأول قالته لك زوجتى و ستقسم أن هذا الزهرة المغلقة التى يتحدثون عن جمالها كثيرا فى بلاد ما وراء النهر ستكون فى زهريتى .

أقسم أيها الخان العظيم .



و الشرط الثاني بسيط ... القسم الذى حنث به عبد السيد يمكنك الآن أن تؤديه إلى .

أقسم يا سيدي الخان .

انطلق على الفور من أوردا بازار جيش قوامه عشرة آلاف محارب . و كان من بينهم بعض الفرسان المشهورين الذين يعرفون أسمائهم فى بلاد ما وراء النهر . و ذهب مع الجيش محمد جوكى ليستعيد عرش التيموريين الذى ينتمى إليه حسب القانون...

كان خان أبوالخير يعلم أنه في غياب الأمير عبد السيد سيكون من السهل الاستيلاء على سمرقند . و أيضا وفقا لعادته بعد أسبوع يذهب بنفسه على رأس عشرين ألف جندي من النخبة. و لن يستطع أحد الآن فى بلاد ما وراء النهر أن يتصدى لها .

***

خلال فترة حكمه نقل خان أبوالخير عاصمة قبيلته عدة مرات . و قد فكر ذات مرةأ ن ينقلها إلى شبه جزيرة القرم بالقرب من كارا داج . و هناك على الساحل البحرى الدافىء يقع مسجد و قصر جده أوزبك خان . ثم ظهرت لديه خطة إحياء مدينة سراي في إديل التى دمرها تيمورلنك . و لكنها كانت بعيدة عن بلاد ما وراء النهر الذى يربط معها سياسته بشكل متزايد و فى الغرب قامت و قويت دول جديدة و كان يعلم أنه لن يكون فى مقدوره التغلب عليها . أما فى بلاد ما وراء النهر فى هذه « الجنة على الأرض» وفقا للشعراء و العلماء كان لا يزال حليفا مطلوبا .

لذلك في كل مرة كان يعود إلى أوردا بازار كى لا يفقد الصلات مع بلاد ما وراء النهر . لكن هذه البلدة الصغيرة السهبية تقع بعيدا عن طرق القوافل الكبيرة و كان يوجد بها عدد قليل من المتاجر و كان لا يزرع فيها أى شىء . و الخانة الكبيرة تحتاج إلى عاصمة حقيقية و لا بد للخان و حكومته أن يعيشا بالقرب من أملاكهم الرئيسية .

و حاليا مع رحيل جزء كبير من العشائر السهبية إلى مغولستان وتورغاى سقطت تماما أهمية أوردا بازار...

على أي حال أصبحت منطقة أوردا بازار أكثر خطورة للتجار وموظفى الخان. في السنوات الأخيرة تعددت حالات السرقة والاعتداء على قطعان الخان. و أصبحوا يتحدثون على نحو متزايد عن فارس محلى يدعى أتامان جمع حوله فرسان شجعان و يوزع على الفقراء ماشية وخيول الخان المسروقة. ويقولون إنه يركب حصانا سحرى غير عادى ويرافقه فقط فرسان فقراء و رعاة الخيول . في الواقع فإن كتائب الحراسة الخانية طاردت



مرارا و تكرارا في الرمال هذا الفارس و لكنه كان يختفى مع فرسانه فى لحظة واحدة وكان من المستحيل حتى اكتشاف آثارهم...

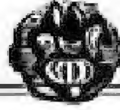
و لم يكن هذا «الفارس الأعور» غير «أوراك» الراعى السابق لقطعان الخان. عاش نحو عام في كهف جبلى بين السحرة المعالجين له. و قد تشوه وجهه بندوب فظيعة. ولم يكن يرغب فى أن تراه أكوزى على هذه الحالة مفضلا أن يظل بالنسبة لها و للعالم بأسره فى عداد الموتى. و اتخذ الفارس أوراك لنفسه اسما آخر و قليل من الناس من يعرف سره. لم يكن لديه أى فكرة أن واحدا من الأسباب التي أراد خان أبوالخير بسببها نقل عاصمته بالقرب من الواحات الخضراء لبلاد ما وراء النهر كانت غاراته الجريئة.

بعد الكثير من التفكير قرر أبوالخير أن يجعل عاصمته مدينة جرجانية (أو كما تسمى باللغة الخوارزمية أوركنج – المترجم) الواقعة على نهر جيحون أو أموداريا كما أصبحوا على نحو متزايد يسمون هذا النهر المجنون و المتقلب الذى يعد واحد من أكبر الأنهار في العالم. و في مكان قريب على مرمى البصر تقع خيوة (الاسم القديم و التاريخي لمدينة خيوة هو خوارزم – المترجم). و حولها توجد حقول مهجورة من خراسان القديمة التى عادت إلى سابق عهدها تدريجيا بعد الهزيمة المروعة على يد جنكيز خان. و من جرجانية كان يمتد طريق إلى بحر قزوين و بلاد ما وراء النهر و خراسان و بلخ. و فى الجوار كان يعيش أقرباؤه من الكاراكالبيك الذين لن يشكلوا أى تهديد للخانة القوية أما سهوب دشت و قبجاق المضطربة فتقع خلف صحراء بحر آرال ...

هل من الممكن الحلم بشيء عظيم في هذا العالم؟ من جيل إلى جيل سينتقل اسمه وسيحكم نسله كل الأمم و يتمتع بالأفضلية على الآخرين. و هو ليس فى حاجة إلى حكمة كل الشعراء الذين لا يحترمون المجد العسكرى من أجل عالم حقير. وبالدم يبقي كل شيء و كلما كان هناك سفك دماء أكثر كلما علا ذكره على مر العصور ..

***

بعد هذه الحملة قرر أبوالخير خان عدم العودة إلى أوردا بازار و لكن ما زالت العديد من القرى الموالية له باقية فى مكانها. و بعد أسبوع توقف الجيش للراحة بالقرب من نهر سيخون داريا و رؤية أنقاض المدينة الكازاخية أوتارار التى اشتهرت بمقاومتها البطولية لجنكيز خان. ونصبت هناك الخيام و منازل اليورت لإعطاء الناس استراحة و لإطعام الخيول. خلال هذا الوقت وصلت إدارات خطوط الإمداد العسكري و قوافل الزوجات المحظيات التى كانت تسير خلف الجيش. كان من الممكن البدء فى العبور الذي لم يكن في تلك الأيام من الأمور السهلة ...



كان نهر سيخون داريا هنا عاصفا ومتقلبا . وكان تغطي شواطئه أعواد نبات الديس الطويل و وقفت الغابات الشاطئية مثل الجدار بالإضافة إلى نبات الدردار و الدجيدا السميكة. وكان هناك العديد من الطيور و الوحوش و كل ليلة بالقرب من مخيم الخان نفسه كانت تهدر النمور القلقة .

فى عهد جنكيز خان كانت هناك طريقة فريدة لعبور الأنهار الواسعة . كان كل محارب يرتدى فروة من جلد الماعز الخفيف أو جلد العجل و فى حوافها وضعت أحبال رقيقة من الشعر فى ثقوب. و فى هذه الفروة وضع السلاح و الملابس ثم يشد الحبل فيحصل على حقيبة جلدية كبيرة مغلقة جيدا و مليئة بالهواء. وعادة ما كان يربطون هذه الحقيبة بذيل حصان محارب و يسبحون بالقرب منه ممسكين به . وقد استطاع المغول بهذه الطريقة التغلب بسهولة على النباتات العالية على ضفاف انهار أورخون ، ينيسي ، وإيرتيش و كل العقبات المائية في طريقهم. و قد أخذ عنهم بعض الكازاخ هذة الطريقة. و لكن الجزء الأكبر من الكازاخ بما في ذلك القبجاق استخدموا طريقة مختلفة من العصور القديمة. كانوا يدفعون إلى الماء قطيع من الخيول التى لا تحمل أى أحمال فتسبح فى المقدمة الخيول الأكثر خبرة و قوة . وفي وسط القطيع تعبر المهور تحت حماية الأمهات. ويركب الناس طوافات يصنعونها من أعواد نبات الديس و الصفصاف و يستخدم عدد قليل معدة بقرة منفوخة أو القرع المجفف .

بعد يوم من الراحة أمر أبوالخير جنوده بقطع نبات الديس وصنع طوافات و ذهب هو مع بعض اتباعة و خاصته إلى الغابات الشاطئية للصيد . في فصل الربيع كان النهر فى هذا المكان يفيض على ضفتيه و عندما ينحسر الماء تبقى هناك العديد من البحيرات الصغيرة و أفرع جانبية للنهر . و في سنوات الجفاف عادة ما تأتى إلى هنا من أجل الرعى الصيفى قرى من جبال كازيكورت البعيدة . و فى المستنقعات الموحلة تجد عند الحفر أسماك ضخمة مثل سمك السلور و البربوط فى طول الإنسان .

عندما لا ترتحل القرى إلى هنا يبقي هذا المكان مملكة للحيوانات و الطيور .وللغزلان و الأيائل التى تعيش هنا بكثرة قيمة خاصة . و من غير المرجع أن يكون هناك مرعى أفضل لهم من هنا .

كان خان أبوالخير يمتطى جواده تارلانكوك و الذى أرغموه على الطاعة طوال الطريق إلى أوترارا . و عندما خرجوا إلى منطقة خالية فى الغابة صر تارلانكوك أذنيه فقد هرع إلى هذا المكان قطيع من الغزلان البخارية المرقطة وعدد قليل من الأيل الأحمر . لم



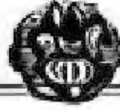
تكد الناس تبدى اندهاشها من هذا حتى ظهرت الذئاب خلف الغزلان و الأيل. كانت إناث ضارية شرسة ذات عرف على مؤخرة العنق . انقض خان أبوالخيرعليها و طار ورائها على حصانه تارلانكوك تاركا حاشيته خلفة على مسافة بعيدة ...

رأى أمامه سهل به شجيرات إكليليه المروج و نبات كوراى و خلفهما تلألأ نهر سيخون داريا بلونه الأزرق الداكن . و على اليمين و اليسارلمعت تحت الشمس بحيرات المستنقعات. و امتد الضباب الأبيض على الأرض حاجبا الرؤية عن كل ما يوجد على الجوانب . كانت الغزلان فى الأمام تشبه السراب المختفى وأصبح الذئب البنى الداكن الذى اقترب من القطيع بالفعل تحت حوافر تارلانكوك. استدار الذئب بجسده كاملا إلى الخان و برقت عيون الوحش الزجاجية و في نفس هذه اللحظة اخترق سهم الخان قلبه . سقط الذئب الذى تطاير في الهواء على الأرض و شد الخان وتر قوسه و هرع خلف الذئب الثانى. و سرعان ما سقط الذئب الثانى ثم الثالث تحت وقع سهام الخان . و في غضون بضع دقائق قتل خان أبو الخير أربعة ذئاب . و فى جعبتة بقى سهم واحد فقط . كان هناك بضع ذئاب تركض إلى الأمام و أراد أن يطارد الزعيم الوحش الرمادي الضخم الذي كان يقود القطيع بأكمله .

بدا أن تارلانكوك يطير فوق الشجيرات . شد خان أبوالخير وتر قوسه إلى آخر مدى و من المرجح أن السهم قد أصاب الزعيم . توقف الذئاب عن المطاردة على الفور و شردت جميعها بسرعة. لم يعيرها أبوالخير أى إهتمام و وضع القوس خلف ظهره وأخرج الخنجر. قرر أن يأخذ ويذبح من القطيع غزال أحمر واحد على الأقل . و لكن الأيل حطموا جدار نبات الديس الكثيف أمامهم و اختفوا أيضا عن الأنظار .

كبح أبوالخير جماح حصانه و سار راكبا عليه ببطء على طول الأدغال . و لكن فجأة رفع تارلانكوك الجزء الخلفى ثم أخذ فى الصهيل . كاد الخان أن يسقط على الأرض من المفاجأة و قد أرغمه الرعب الذى استولى عليه أن يمسك بما تبقى لديه من قوة بعرف حصانه الوفى . و على بعد عشر خطوات فقط بالقرب من جثة غزال قتل خنقا رأى أبوالخير نمر ضخم يستعد للقفزة الأخيرة . كانت عيونه تقدح نارا شريرة و تحركت شواربه وضرب الأرض بذيله . و بمجرد أن أنزل تارلانكوك حوافره على الأرض قفز النمر في الهواء وغطي نصف السماء ببطنه البيضاء . و أصبح مخلبه الرهيب بالفعل فوق رأس أبوالخير و لكن فجأة سقط النمرعلى الأرض . فتح الخان عيونه المغمضة و رأى الوحش ملقى على جزئه الخلفى .

كانت بطنه ترتعد قليلا و قرب الحلق و أمام القلب برزت ريشة سوداء .



كـى تقتـل بسهم واحد مثل هذا النمر ينبغى امتلاك قوة هائلة. ومن يقدر على فعل ذلك ؟

نظر أبوالخير جانبا و تجمد فى مكانة . لقد رأى فى الأدغال الكثيفة الموحلة فى ذلك الجانب من الوادى ما لا يقل عن مئة من الفرسان المجهولين . و على مسافة خمسين خطوة منه وقف و كأن شيئا لم يحدث اثنان من الخيول الأصيلة التى أهداها فى وقت سابق لربيعة وعلى الحصان الآخر جلست ابنته جولباخرام . و حيث أن قوس الفارس سايان سلطان بيغيم. و كان يجلس على أحدهما الفارس الهارب من سجنه سايان كان بدون سهم فقد عرف على الفور هوية من أنقذه . ماذا يفعل ؟ هل ينحنى للفارس الشاب و يشكره على إنقاذه من موت محقق أم ينقض عليه و ينادى على الأتباع ؟ ذلك أن هذا الشخص هرب مع حراسه ثم خطف ابنته ..

بينما وقف الخان مترددا أخذت ابنته من جعبتها سهما حاد الحافة كالجاروف و جذبت وتر القوس وبدأت بهدوء تصوبه نحوه. رأى الخان عينيها الضيقتين. كانتا تشبهان عينيه تماما. خفق قلب خان أبوالخير. و إذا كان قد حاول أن يحمى نفسه على الأقل من النمر الغاضب بفولاذ دمشقي رقيق فإنه الآن كان واقفا بلا حراك كما لوأن جسده قد صب عليه رصاص ثقيل . في جزء من الثانية ظهر إشفاقه على نفسه و التوق للحياة و الندم المر أنه ذهب للصيد دون درع و ترس...

جلس أبوالخير بلا حراك و عيناه مغمضتان .

بعد فترة من الزمن سمع قعقعة خيول ماضية بالقرب منه و سمع صوت ابنته :

قالت عبثا أمسكت بيدى ... لو كنا نحن الذين وقعنا تحت قدميه ما كان ليرحمنا .

قال لم أكن لأستطيع أن أبقى و لو ليلة واحدة مع امرأة قتلت والدها .

كان الرجل يتحدث بصوت هادئ و أدرك الخان أنه الفارس سايان.

قالت : فى هذه الحالة اقتله أنت بنفسك .

قال : ما من امرأة بقلب نقي تطلق كلمة زوجى على الرجل الذي قتل والدها ؟ فتح أبوالخير عينيه و لكن لم يكن هناك أحد بجانبه . على مايبدو أن قطاع الطرق اللصوص الذين يقودهم الفارس الهارب قد اختبأوا في الأدغال . و من مكان بعيد سمع صوت آلة الكاراناى الجهورى العميق . كان رجال الحاشية و الوجهاء يبحثون عنه .



و كان تارلانكوك الذى اعتاد على صوت الآلات النفخ يصهل بصوت عال و لفترة طويلة كأنه يرد عليهم...

في وقت لاحق وصل الوادى بختيار بجاتور و الفرسان الآخرون و الأتباع . و ما إن رأوا الذئاب المقتولة و النمر الممدد على الأرض شرعوا في الثناء على شجاعة و بسالة الخان . لكن أبوالخير لم يقل شيئا كما لو كان قد تحجر .

لأول مرة يتسلل الندم إلى قلبه و اعتقد أنه سيموت قريبا ...

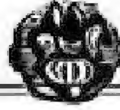
شرعوا فى العودة إلى المعسكر و كان خان أبوالخير صامتا طول الطريق . و فكر هل لم أتعلم خلال مدة حكمى لأكثر من ثلاثين عاما أن أستكشف الناس ؟ . أما كان يجب أن ألقى نظرة فاحصة على الفارس سايان هذا ؟ فقد كان يمكن أن يكون خادم مخلص و قائد حربى . ناهيك عن أن السيف الذى أحمله فى يدى قد يسلط فوق التيموريين. فعندما تريد غزو العالم تحتاج تحديدا لمثل هؤلاء الناس المخلصين و الغير قادرين على الخداع و المرواغة .

أخذ الأتباع جلود النمر و الذئاب و علقوها على رقباهم . و أصبحت ملابسهم غارقة فى الدماء و بقيت قطرات من الدم على الطريق الترابى . كانوا مسرورين بعد رحلة الصيد الموفقة لكن الخان واصل السفر صامتا . و ما أن اقترب من خيمته حتى أشار بإصبعة إلى بختيار بجاتور .

قال له إذا وقع فى يديك فى غير وجودى الفارس سايان مع ابنتى جولباخرام فأطلق سراح الفارس مع كل التكريم ثم قال بهمس و نظر لسبب ما حواليه و اقطع رقبتها هى فقط .

من هذه الكلمات القليلة أدرك بختيار باجاتور الذكى الذى حل محل الوزير مؤخرا أن الذى قتل النمر هو الفارس سايان . علاوة على ذلك فمن الواضح أن السهم الذى أخرج من قلب النمر لم يكن من سهام الخان . و هكذا فإن الفارس الذى ظهر من مكان مجهول أنقذ الخان . من الممكن أن نفترض كل ذلك لكن كان هناك شىء غير مفهوم لرجل الحاشية القديم لماذا يأمر الخان بإطلاق سراح الفارس فى حالة القبض عليه و مع كل التكريم . إن الخان كان يتصرف في مثل هذه الحالات عكس ذلك تماما . إنه على غرار جميع الجنكيزيين يعتبر شعور الامتنان شعورا متدنيا و يوجد فقط لدى العبيد ....

و تساءل بختيار باجاتور « ربما يشعر الخان العظيم بدنو أجله ؟ » . و أشار بمظهر ينم عن السرور إلى جلد النمر الذى كان فى ذلك الوقت محاطا برجال الحاشية .



قال لم أر أبدا نمرا بهذا الحجم . و ينتابنى الرعب عندما أفكر ماذا كان سيحدث لو كانت ارتجفت يدك يا سيدى الخان . لقد ابتعد الموت عنك و لم تذهب ضحيتى سدى .

سأل الخان أية ضحية ؟ .

بمجرد أن ابتعدت عنا هرعنا جميعا خلفك . و لكن من يستطيع أن يلحق بحصانك تارلانكوك. حينذاك شرعت فى الدعاء إلى الله أن يحفظك وعاهدته أن أضحى بشاة بيضاء الرأس كرر أبوالخير بهدوء ناظرا فى عينى باجاتور سامحا له أن يفهم أنه يفهم جيدا تلميحاته و قال أطلق سراح الفارس سايان إذا وقع فى يدك .

و إذا وقع مرة ثانية؟ حينها اقطع رقبته .

ابتسم بختيار باجاتور ابتسامة عريضة فى سره . الآن أصبح واضحا له بما لا يدع مجالا للشك أن الفارس سايان تحديدا هو الذى أنقذ الخان من الموت . و هو يعتبر أن من واجبه أن ينقذ الفارس سايان من الموت مرة واحدة تعبيرا عن امتنانه لإنقاذه من الموت . رأس برأس ونكون متعادلين . بعد ذلك لن يكون هناك أى تسامح . كان من الواضح أن الخان لا ينوى أن يموت . و رقته هذه يمكن أن تفسرها بأنها لحظة ضعف...

لذلك و خوفا من يقع خان أبوالخير فى مثل هذا الموقف مرة ثانية لم يعد يذهب للصيد فى تلك الأماكن. و بعد أسبوع عبر جيش ضخم فى الآلاف الطوفات الخفيفة إلى الجانب الآخرمن نهر سيحوندرايا . في هذا الوقت أبلغوا الخان أنه قبل ثلاثة أيام من وصولهم عبرت تحديدا من هذا المكان عدة قرى كازاخية فى طريقها لمغولستان للإنضمام إلى جانيبيك و كيرى. أمر الخان اللحاق بهم و قتل جميع الرجال و النساء و الأطفال .

قرر أن يشارك في هذه الحملة القصيرة و لكن وصلت قافلة محملة بالهدايا من قبل محمد جوكى الذى استولى مؤخرا على سمرقند . و لم يبق محمد جوكى على عرش التيموريين طويلا لأن الأمير عبد السيد العائد من خراسان استطاع بمعاونة حلفائه من أن ينتزع منه السلطة مرة أخرى . و لكن مما أدخل السرور على قلبه أن محمد جوكى أرسل لخان أبو الخير على ما يبدو جميع كنوز سمرقند . و كان أهمها عبادات ذات الثلاثة عشر ربيعا ابنة عبد السيد من زوجته الأولى . نظر إليها الخان المتخم بالملذات بين الحرير و الأوانى الذهبية و السجاجيد السمرقندية الشهيرة الملقاة أمامه على الرمال الساحلية الحمراء .

قام أبوالخير بتأجيل الحملة المزمع القيام بها عدة أيام و بقى فى خيمته مع هذه الوردة الناضجة و التى سعد بها سعادة مضاعفة لأنها كانت ابنة عدوه. أحس بطعم التفاح



الأخضر على شفتيه و قادتة عيونها السوداء الكبيرة الخائفة إلى حالة من الهيجان كما كان يحدث في الشباب البعيد. كانت فوق رأسه خيمة زرقاء ذات قوائم فضية و تصور نفسه نسر يمزق فريستة بسعادته .

في صباح اليوم التالي أراد الخان إعطاء الأمر لأنصاره بالتقدم و لكن أفراد الاستخبارات أبلغوه أن الوقت قد فات . على ما يبدو استطاع أحد ما تحذير القرى الكازاخية التى انطلقت جنوبا عبر نهر سيحونداريا فعبروا النهر من جديد و لكن هذه المرة للخلف إلى الضفة الشمالية و تحركوا إلى مكان ما مع التيار إلى كاراتال . و تلك العوامات التي عبر عليها جيش الخان و التى انطلقت بالأمس مع التيار كان لا يمكن أن تترك خلفهم كوسيلة جاهزة للعبور و التي من الممكن أن يستغلها أى عدو . و كانت المدة الزمنية المقررة لصنع عوامات جديدة تبلغ قرابة أسبوع...

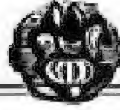
فكر الخان «حسنا فليذهبوا إلى كاراتال . المهم ألا يذهبوا إلى مغولستان و إلى جانيبيك و كيرى . سأتحصن فى أورجينتش و سأدمر مغولستان و هناك سأخذ السهوب . لن يفلتوا منى أبدا .

لم يكن لديه فكرة أنه بعد عشرين عاما سيدفع أبنائه ثمنا باهظا مقابل شهوة والدهم . حقيقة الأمر أن هذه القافلة الكبيرة من الفارين و التى لم يذهب ورائها يقودها الأن إلى كاراتال الخان الكازاخى القادم قاسم ابن السلطان جانيبيك . و لو كان أبوالخير قد أدركه فمن يدرى ماهى الأحداث التى كانت ستقع فى المستقبل . لكن السلطان الشاب قاسم على قيد الحياة و بصحة جيدة و أوغل مع قافلته إلى السهوب .

***

و بعد أيام قليلة تغلب جيش أبوالخير على الرمال الحمراء و المستنقعات المالحة فى بلاد ما بين النهرين و وصل إلى جيحون داريا . و عندما كان الخان يسير مع التيار إلى الجنوب رأى على الضفة الأخرى من النهر مآذن كثيرة و أسوار و أبراج . فقد ظهرت مدن خوارزم القديمة...

و عندما عبر إلى الجانب الآخر دخل بسهولة أورجينتش التى كان يتمنى أن يجعلها عاصمة له . . كان هناك مسجد ضخم مع قبة زرقاء و هلال قد بني منذ سنوات عديدة . و كانت هناك أيضا قصور أنشأها أفضل الحرفيين من الهند و روما و الصين. لكن خلافا لخططه لم يجعل خان أبوالخير أورجينتش عاصمة لخانته و واصل التجول مع قواته في



الروافد الدنيا لهذين النهرين الكبيرين و من وقت لأخر كان يصعد للأعلى مع التيار إلى ما وراء النهر و يتدخل في حروب مستمرة شنها فيما بينهم التيموريون الذين لا حصر لهم .

كان أبوالخير يعتقد كما في السابق أن الهدف الرئيسي للحملة هو غزو مغولستان التي يهاجر إليها مع كل عام مزيد من قرى السهوب. و قد شعر أنه هناك تحديدا يختمر تهديد رهيب لخانته . و اعتقد الخان أنه من الممكن نقل عاصمته إلى أورجينتش بعد غزو مغولستان. و من الممكن أن تساعد خوارزم القديمة في تعزيز جيشه و إمداده بالمحاربين. غير أن أبو الخير لم يتمكن طويلا من الحفاظ على أورجينتش التي تم الاستيلاء عليها فجأة . و بعد عام اضطر الى تركها و إرسال قواته إلى سيجناك . أيام و شهور طويلة كان يقضيها خان أبو الخير في تدبر خططه قبل القيام بأي حملة للاستيلاء على أراضي أجنبية. كان يجهز الإمدادات و يرسل العديد من الجواسيس . و لا ينبغي لأحد من عامة الناس أن يعرف عن ذلك شيئا . و بعد ذلك في أحد الأيام العادية يرى الناس فجأة أن خانهم غاضب على هذا أو ذلك الحاكم من البلاد المجاورة . وفي نفس اليوم يسيرالجيش في حملته . ويعطي هذا انطباعا أن غضب الخان يمكن أن يمحو المتمردين من على وجه الأرض .

تم الأمر في هذه المرة على هذا النحو. ركض الخان فجأة إلى قصره في سيجناك مثل النمر الجريح. و حتى يرى الجميع الغضب الخاني تم عشية دعوة «أفضل الناس» في المدينة إلى القصر. و جلسوا مع رجال الحاشية في جميع الممرات و في الإيوانات التي لا حصر لها يستمعون على استحياء إلى صوت الخان. و في الشوارع هدأ الناس و بدأوا يتهامسون وانفض السوق بسرعة .

دوى في القصرصوت مثل الرعد أين بختيار باجاتور ؟ بختيار باجاتور.

بختيار باجاتور .

***

انتقل النداء من فم إلى فم حتى وصل إلى خارج أبواب المدينة حيث كانت هناك خيمة قائد جيش الخان و سرعان ما تناثر الغبار من هناك حتى وصل إلى القصر . و قفز من على ظهر الحصان الذي لم يقف بعد رجل ضخم أسمر الوجه بصدر عاري ظهر من تحت ردائه وسيف معكوف في حزامه و ركض إلى داخل القصر . و كما كان متبعا من أجل النظام دفع جانبا إثنين من الجنود الواقفين على الأبواب . و جرى عبر الممرات و دفع الحراس مرة أخرى و دلف إلى قاعة الاستقبال و بخطوات قصيرة ذهب إلى مكانه عند قدم الخان اليمنى .

سأل الخان بصورة مرعبة قل لي يا بختيار باجاتور هل حدث في عهد جدنا ابن الشمس جنكيز خان أن تجرأت عشيرة أو قبيلة على الهرب من يده القوية ؟ .



حدث ذلك مرة واحدة يا سيدى الخان .

و كيف تصرف حينها «قاهر الكون» ؟

أرسل جدك العظيم جيشه خلف الهاربين فقام بمحو الجاحدين من على وجه الأرض و لم تبق أسماؤهم فى ذاكرة الناس لأن جنكيز خان الذى مثل الشمس نهى عن النطق بها .

قال إذن لماذا نتسامح مع بعض المتمردين الأوغاد الذي تجرأوا على الهرب من عندنا إلى مغولستان ؟ و لماذا تجرأ أمراء مغولستان على إيواء هؤلاء العصاة ؟ أحنى بختيار باجاتور رأسه و قال :

فى انتظار أوامرك يا سيدى الخان..

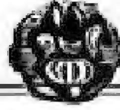
***

ارتدى خان أبوالخير في الليلة السابقة لخروج جيشه للحملة كما حدث ذات مرة فى شبابه ملابس أحد الجنود البسطاء و ذهب برفقة إثنين من حراسه المخلصين إلى النار التى يتدفأ جنوده حولها . لسنوات عديدة لم يفعل ذلك و الآن ضاقت ملابس الجندي البسيط على هذا الجسد السمين و خدشت الجلد الناعم .

إنه يتذكر جيدا أحاديث المحاربين التى كان قد سمعها من قبل حول النار . أثناء حملاته الأولى المظفرة على دشت و قبجاق و ماوراء النهر كان الجنود حول النار يغنون و يبتهجون. كانوا يتحدثون عن المدن الرائعة ذات المآذن بقببها الزرقاء و عن الجميلات المدلالات فى غرف الحريم التى لا تعد و لا تحصى و الغنائم الوافرة التي تنتظرهم . الشيء الأول الذي أذهل خان أبوالخير فى هذه المرة الصمت الحذر و الحزين حول النار . لم يقم أحد بالغناء و الرقص و الابتهاج . كان الجنود يتحدثون بهدوء . كانوا يتحدثون بصوت خفيض حتى أن الخان قد اقترب بشدة من أحد أماكن النار المشتعلة ليستمع إليهم .

قال جندى شاب ذى حواجب كثيفة يرتدى معطفا قديما كما لو كان يقنع نفسه : ليس لنا من الأمر شيء سنذهب للحملة كما أمرنا و سوف نجد شيء ما فى رَمخ لوصناديق أولئك الذين تجرأوا على الفرار من أيدى الخان . و كل شيء سيكون ذى منفعة لمعيشتنا حتى نصل إلى مغولستان..

سأل بشكل قاسى محارب ذوى عيون ملونه يبلغ من العمر حوالى خمسة و أربعين عاما له ندبة عبر خده و ماذا ستأكل زوجتك و أطفالك الأربعة أثناء وجودك في الحملة ؟



كان لدى الخان ذاكرة مذهلة فى تذكر الوجوه و قد تعرف على هذا الجندى الذى يدعى أوريسباى . لقد شارك هذا الرجل أحمر الشعر تقريبا فى جميع الحملات و تلقى ضربة سيف قبل خمسة و عشرين عاما عندما أنقذ الخان نفسه من الأعداء المهاجمين .

نعم زوجتك .

على الفور سكت المحارب الشاب عن الكلام . و بدا للخان أنه حتى شواربه التى برزت للتو بطريقة قتالية قد تدلت بشكل مؤسف . و ساد حول النار صمت خانق . تذكر الجالسون عوائلهم و خيامهم الرقيقة التى غزلت من صوف الماشية الهزيلة .

واصل أورسباى حديثه فقال إن هذه الحملات المستمرة لم تجلب لنا فائدة كبيرة أما الخير كله يكون فى الحملات ضد الأجانب . أما هذه الحملة فضد أشقائنا الذين ليعودوا يتحملون كلاب الخان التى تمزق لباد منزل اليورت...

سأل شخص من الظلام و لماذا رحلوا ؟ أليس جانيبيك و كيرى من نفس عشيرة أبوالخير؟ وسوف يسحلوننا

كما يفعل هو . هل شاهدت من قبل خانا أو سلطانا لم يأخذ ما يريده ؟

قد يكون ذلك صحيحا و لكن قريبك ينزع عنك جلدك فقط أما ذئاب أبوالخير فتنزع كل ما لديك . لقد اتخذت هذه العشائر القرار السليم برحيلها مع جانيبيك و كيرى .

و ليقوموا هناك بسحل ذويهم . و ربما على الأقل يقومون بحمايتنا من غارات الأجانب .

فالسهوب أصبحت منذ فترة طويلة زوجة الأب لسيدنا الخان . فخريرالمجارى المائية والصلوات في مساجد المدينة ذكرته بوطنه . و رغم كل شىء ففي السهوب تستطيع أن تتنفس بحرية أكثر . و إذا ضغط عليك بقوة سلطان ما فالسهوب كبيرة و أنت غير مرتبط بمنزل مبني من الطين أو حقل . في المساء يتم تحميل كل شىء على جمل و في الصباح لن يعثر عليك أحد .

دوى نفس الصوت من الظلام قائلا : ألا تعتقد أن جانيبيك و كيرى سيقومان ببناء مدنهما ؟

وافق أورسباى و قال سيحين الوقت و سيبنون و لكنها ستكون مدنهم و ليست مدنا مسلوبة من آخرين . انظروا كم من بلدات سيطر عليها خان أبوالخير . و الآن كما يقولون يلبس ثيابا غير ثيابنا و لن يكون أولاده أبدا سهبيين مثلنا .



غير أن جانيبيك و كيرى ذئاب ليست أقل سوءً من أبوالخير .

ألقى أورسباى نظرة على الجالسين و قال عندما يحين الوقت سنلقى الفخاخ على الذئاب فلم تعدم سهوبنا الحدادين الجيدين ؟

فجأة شعر خان أبوالخير أن يده تقبض على السلاح . و كان قد سحب بالفعل الى المنتصف شفرة منحنية ليقطع بضربة واحدة رأس أورسباى هذا إلا أنه أرغم نفسه بقوة الإرادة أن يسحب يده . فلا يليق بالخان أن يعاقب شخصيا بعض العظام السوداء . فلسوف تزحف الشائعات السيئة في المعسكر قبل الحملة ... لكنه لن ينسى أورسباى هذا . ولن ينسى جميع الذين كانوا يجلسون بالقرب من النار . إن لديه أناس ذوى خبرة فى التعامل مع مثل هؤلاء الصعاليك المتمردين . و خطى أبوالخير خطوة للخلف في الظلام .

و على الرغم من أننى لا أملك أى مال فإننى لا أريد أن أخرج مع هذه الحملة...

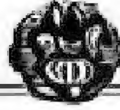
و قد تعرف خان أبوالخير على صوت عبده التولينجوتى المدعو كوكوش . تخطى هذا العبد المحارب الخمسين سنة و استحق الثناء فى جميع المعارك من الخان نفسه . قبل عشر سنوات جعله الخان قائد مئة و الآن يجلس هذا الكلب و يستمع إلى الأحاديث التحريضية بل و يقولها بنفسه .

قال كوكوش ذو الشعر الأشيب لا أريد أن أكون مذنبا أمام الله والناس فأرفع السيف على الأشقاء . ربما أنا لا أقارن مع الآخرين من حيث نبل الدم و لكن كان لي أب و أم . إنى لا أرى السعادة في هذه الحملة . فالكلب السلوقي الذى يقهرونه بالركل لن يستطيع أبدا أن يلحق بالثعلب .

هناك العديد من تلك النيران الهادئة وراء الأسوار ، و لكن الخان لم يطف بهم . و سار فى الشارع ليلا يملئه غضب عارم ، و انزلق من وراءه ظلين طويلين .

و نظر الخان خلفه. ربما يفكر هؤلاء الحراس بنفس طريقة من كانوا عند النار؟ وفجأة تذكر الخان كيف قبض على الخنجر. و ما لداعى إلى ذلك ؟ فقد تحدث أورسباى الأصهب عن فخ الذئاب لاصطياد جانيبيك و كيرى. لماذا أراد أن يقطع رأسه . لكن مهما يكن فجانيبيك و كيرى سلاطين و عظام بيضاء. و مهما حاربهم أبوالخير فسيكونون دائما أقرب إليه من هؤلاء الصعاليك و العبيد الذين لا أصل لهم ...

***



كوش - القرية المرتحلة - امتدت فى ترحالها قرابة الميل و ليس ذلك لأنها كانت قرية كبيرة. فلقد كانت خيولهم و إبلهم هزيلة جدا ، و نصف أمتعتهم البائسة وضعت على ظهور بعض الأبقار و الثيران البارزة عظامها. و سار العديد من الرجال و النساء مشيا على الأقدام و الذي تقريبا لم يحدث أبدا في الترحال العادى . و من ورائهم كان قطيع صغير من الأغنام يثير الغبار . و حولهم سهوب مرة حرقتها الشمس...

كان يسير فى المقدمة رجل عجوز طويل و نحيف ذو لحية طويلة و وجه صارم. كل منظره ملهم و فخور لا يتفق مع كوش البائسة الرثة التي تسير وراءه. كان ذلك الشخص هو الشيخ المبجل كونورباى الذى اشتكى يوما ما للسلطان جانيبيك من ظلم خان أبوالخير. و فى النهاية جاءت القرية التى دمرت من الإتاوات التى لم يسمع بها من قبل فى المؤخرة خلف العشائر التى رحلت خلف السلاطين المتمردين . فى الحقيقة كان الشيخ ينتظر الإبل التي كانت قادمة إلى شواطئ تشو من عند الأقارب الذين قد هاجروا بالفعل. و لكن الإبل لم تأت فانطلقوا سيرا على الأقدام .

كانت تلك آخر قرية ترحل من عنده و لما رأت خان أبوالخير أمامها توجهت إلى تلة سهبية منخفضة. كان معه مئة من الحراس الشخصيين المختارين وعشرين من جنود الخيالة.

كان من بينهم أولئك الذين سمع الخان أحاديثهم في الليلة التي سبقت الحملة. و أعد لهؤلاء عشرين سهما من السهام الحادة و كان ينبغى لهذه الأسهم أن تخترق ظهور الساخطين في أول اشتباك مع العدو .

نظر قائد الحراس المئة و الذى كان يسير بالقرب من أبوالخير للخلف و أعطى العلامة فانفصل على الفور عشرات الفرسان و انطلقوا إلى كوش. و بعد أن قاموا بتطويقها عادوا أدراجهم بأقصى سرعة .

صاح الحارس و نزل عن فرسه و قال إنهم ذاهبون خلف جانيبيك و كيرى يا سيدى الخان.

قال خان أبوالخير بهدوء و أشار إلى سفح التل : إتنى بهم هنا .

انطلق خمسون من الحراس الشخصيين نحو كوش. و سمعت الصيحات و بكاء السيدات و خوار الأبقار و ثغاء الأغنام الحزينة . و جمعت القرية بأكملها فى أرض منخفضة ذات أشواك طويلة . نظر الناس بخوف إلى أعلى التل حيث كان يقف الخان بثبات . و كان العجوز كونورباى وحده ينظر بفخر و هدوء و لم يكن على وجهه ثمة خوف .



عندما هدأ الصراخ سار الشيخ ببطء للأعلى و توقف أمام وجه حصان الخان مباشرة .

و بعد أن أحنى رأسه بوقار قال :

أمامك ياسيدى الخان العظيم يحنى رأسه كونورباى ذو التسعين عاما من عشيرة جاباجايلا...

قال خان أبوالخير بهدوء دون الرد على تحية الشيخ إلى أين ترتحلون ؟ قال إلى نهر تشو ياسيدى الخان ... إلى المكان الذى ذهب إليه كل شعبنا .

و ما حاجتكم إلى ذلك ؟

لقد صرنا نخشى العيش هنا ياسيدى الخان . فقد أصبح جباة الضرائب المرسلين من قبلك مثل الذئاب الجائعة .

و هل هناك حيث أنتم ذاهبون لن يجمعون الجزية ؟

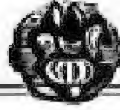
سوف يجمعون و لكننا نأمل أن يجمعوها مرة واحدة فقط . أما هنا فبالإضافة إلى أن سلاطين العشائر يأخذونها تأخذها أنت أيضا. و إنك لتأخذها بطريقة تجعل الدنيا تعتم فى أعين الناس .

و لكننى خانك. والناس تدفع من زمن سحيق نصيب الخان. أو أنك قد نسيت عهد الأجداد الأساسى أيها العجوز ؟

كلا لم أنس . و لكن طبقا لهذا هذا العهد فإن الخان الذى حصل على نصيبه يجب أن يحمى رعاياه من الأعداء و من الظلم . و أنت لم تفعل هذا أو ذاك . لقد ذهبت بجيشك إلى بلاد ما بين النهرين و تركتنا بدون حماية . و أصبحنا غير محميين من جميع الجوانب . أما عن العدل فاسأل جباة ضرائبك كم من الماشية والبشر من قرانا فى الربيع المنصرم سيقوا للبيع . فبدلا من المساعدات المتوقعة تعين علينا أن ندافع عن أنفسنا ضد خدمك اللصوص .

تحدث الشيخ العجوز بصوت هادىء خالى من العواطف و بحزم لا يتزعزع فى عينيه الرمادية . و سرعان ما خبت النيران الصفراء التى اندلعت فى أعين أبوالخير. و أعطى علامة بطيئة بيده. أحنى قائد المئة رأسه بسرعة و لوت ابتسامته الصفراء القاسية شفتيه الزرقاء و قال :

للخلف در أيها العجوز ناكر للجميل و انظر وفاة بذورك .



حول الشيخ العجوز وجهه ببطء صوب قريته. في نفس اللحظة انقض حراس الخان المتوحشين بالسيوف العارية على الشعب الأعزل الضعيف . صعدت إلى السماء الصافية المشرقة صرخات بشرية عديدة . هرع نسر السهوب الخائف إلى أحد الأركان و سرعان ما غادرهذا المكان اللعين .

أمسك العديد من الرجال و المراهقين الهروات و السكاكين ، و لكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا ضد محاربين شباب أقوياء مدججين بالسلاح . و غطت النساء أطفالهن بأيديهن و أجسادهن. و زحف الأطفال أنفسهم في رعب تحت بطون الأبقار ، و قد أخرجهم من هناك حراس الخان بركلات أقدامهم. أمسك إثنين منهم بيدى الشيخ كونورباى . كان لا يزال يقف بثبات و لكن لمعت في زوايا عينيه دمعتين صغيرتين عجوزتين .

لكن عيون خان أبوالخير توهجت كما كان فى يحدث فى شبابه بنار صفراء هائجة .

و دائما ما يجعله الدم البشرى و الدموع و العنف يحس بالانتعاش و يرغمون قلبه على أن يدق بشكل أقوى . و ذابت شفاهه السميكة و اختفت فى ابتسامته .

و سأل بصوت أجش : ما هذه الغمغمة أيها العجوز ؟

كانت شفتى الرجل العجوز تتحرك بصمت. و انحنى أبوالخير إلى فم الرجل العجوز ليسمع ما يقول .

كان الرجل يقول يا الله إذا كنت موجودا فى كل شيء فعاقب ابن آوى القذر هذا ...

وحده ابن آوى الشبعان من بين جميع الوحوش يمزق بأسنانه أطفال الآخرين .

بعد أن علم قائد المئة من تعبيرات وجه الخان ما قاله الرجل العجوز وقف فى ركاب الحصان و صفع العجوز بقوة على وجهه بالسوط .

و لكن الرجل العجوز لم يتحرك . و واصلت شفتاه الهمس بالشىء ذاته :

يا الله إذا كنت موجودا فعاقب ...

أجبرت صرخة حادة من العسس الجميع على توجيه رؤوسهم ناحية الشرق . من هناك من ناحية السهوب جاء ثلاثون أو أربعون فارسا. و فى ضوء الشمس الغاربة بدوا كأنهم فرسان نارية ظهروا من العدم . وكان فى مقدمتهم عملاق أعور ممسكا برمح فى يديه و ممتطيا جوادا بعرف طويل . وكانت العصابة السوداء لا تغطى عينه فقط و لكن جزءً من وجهه المخيف .



أوراك

أوراك المنتقم. ..

فارس العظم الأسود .

***

نظر خان أبوالخير رغما عنه للوراء حيث يعسكر جيشه الضخم . و لكن للوصول إليه ينبغى السفر مدة نصف يوم . ذهب الخان إلى الأمام مع حراسه الشخصيين لأن الكشافة أخبروه أن لمدة ثلاثة أيام على الطريق في كل الاتجاهات في السهوب لا توجد أى قوات. فمن أين ظهر أوراك هذا راعي قطعان الخان السابق ؟ إنهم لما أبلغوا أبوالخير عدة مرات عن الغارات التى يشنها على القوافل . و من كل واحدة منها كان قاطع الطريق هذا يأخذ الجزية . و كان يوزع كل شىء حتى آخر قرش على الفقراء و العظم الأسود . و قد حاولوا مرارا القبض عليه و لكن دون جدوى . و قد عرف أبوالخير أيضا أن أوراك اللعين أقسم على أن يقطع حلق الخان نفسه .

و لكن ليس هناك الكثير من قاطعى الطريق مع هذا الأعور . و شاهد الخان بارتياح كيف أن الحراس الذين صدوا الضربات اصطفوا فى خط مستقيم و صوبوا الرماح للأمام فى انتظار هجوم المتمردين . فى تلك اللحظة سمعت صرخة مدوية من خلفهم . ارتجف الخان و قفز رغما عنه إلى كاهل الحصان . و نظر من خلف مرفقه فرأى عشرين فارسا من أولئك الجنود الذين كانوا يتحدثون حول النار يهاجمون الحراس من الخلف .

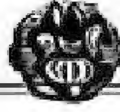
أوراك ـ المنتقم نحن معك .

أوراك ... أوراك . ...

اضطَرَب خط الحراس و تقوض و قام الفرسان المغيرون من الجانبين بسحق و تفريق جنود الخان في اتجاهات مختلفة .

و لكن لم يشاهد خان أبوالخير كل هذا . فقد انطلق جنبا إلى جنب مع قائد المئة و قائد العشرة للحراس الشخصيين الملاصقين له صوب معسكره تحت حماية القوات .

صاح الفارس أوراك بصوت كالرعد هلموا ورائى أيها المنتقمون .



لنلحق بهم .

أوراك . أوراك .

انطلق الفرسان وراء قائدهم . و سقط حراس الخان من على خيولهم واحدا تلو الآخر صرعى السهام التى أطلقوها عليهم . و رمى الحبل بقوة فانطرح قائد المئة المخنوق خلف حصان الفارس أوراك حتى قبل أن يتمكن من الصراخ . و قد أنقذ الخان حصانه فقط . فمع كل قفزة كان يحمل سيده بعيدا عن المطاردة و سرعان ما أدرك الفارس أوراك أن خيولهم المتعبة لن تلحق بالخان .

عاد الفارس أوراك مع محاربيه إلى قريته و صاح فى الناجين من مذبحة الخان :

أيها الناس كل هذه الخيول الخاصة بحراس الخان الملعونين أصبحت ملك يمينكم .

اركبوها و ارحلوا بأسرع وقت ممكن قبل أن يعود الخان مع كلابه .

و لحق بأوراك كل أتباع الخان السابقين ممن ضربوا الحراس فى ظهورهم . و لكن الفارس لم يذهب بعيد ا مع فرقته. فبعد أن دار حول التل حول فرسه جانبا و ركض في السهوب إلى وحدات المتمردين المنتقمين الأخرى التى اختبأت لفترة في السهوب الشاسعة ...

***

غابت الشمس وراء الأفق و بدا جسد الفارس أوراك الآن على ظهر حصانة أكبر عشر مرات مما هو عليه في الواقع . و شاهد سكان القرية الناجين كيف هرع إليهم الفارس العملاق ، كما لو كان هرع إليهم من السماء . و بدت لهم قفزات الحصان السريع بحجم الميل ، و كان الحصان الذى لم يسبق له مثيل من الجانب الأيمن رمادى اللون و من الجانب الأيسر أسود اللون . و فيما بعد حكى الأطفال الذين كبروا و شاخوا لأحفادهم عن ذلك وحكى هؤلاء لأحفاد أحفادهم . و هكذا وصلت إلينا هذه الأسطورة الشعبية عن الفارس المجيد المنتقم .

***

أجل خان أبوالخير الحملة على مغولستان إلى العام المقبل لكنه لم يذهب إلى هنا كفى العام التالى و لم يذهب إلى هناك أيضا بعد عامين .



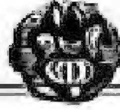
الجزء الثاني

I

كان الخان عيسى بوجا يشعر بالكآبة فى قصره الهادىء و البارد . لا شيء يستطيع أن يسعد روحه المتخمة بالملذات ، فلم تسرى عن نفسه الحدائق الأسطورية لمدينة المماليك القديمة و لا المنظر الرائع لجبال آلاتاو و لا النافورات و الشلالات الاصطناعية المرحة و الرنانة كضحكة العذراء في شوارع عاصمته . و لم تسعد روحه حتى عند رؤية نصف جوال من الذهب كانوا يغسلونه على شواطىء نهر ألتين يميل الذى كان مليئا بالماء آنذاك و الذى أحضره له المنقبين عن الذهب من عشيرة جلاير . من أجل عدم تجاهل هذا الاجتهاد أمر الخان بإعطاء كل واحد من هؤلاء الفرسان المنقبين عن الذهب تلا واحدا على ضفاف النهر ذاته. نظر من النافذة و رأى الفرسان الذى حصلوا على هذه العطية التى لا تقدر بثمن يقفزون من السعادة ثم ابتسم . و لكنه ارتجف كما لو أن أفعى زلقة باردة تسللت إلى صدره. لقد تذكر النبأ الذى تلقاه بالأمس .

في المساء انتظر بالكاد لنهاية مجلس الخان ثم توجه على الفور إلى أنقاض مدينة المماليك القديمة عاصمة جده جغتاى خان الابن الثانى لجنكيز خان. و كانت هذه الأطلال عزيزة جدا على الخان. فهنا ترعرع و نضج و عرف الحب . و فى هذا المكان بالذات شاهد للمرة الأولى والده يأمر بقتل رجل...

منذ زمن طويل حين كان والده السلطان فايس فارسا شابا كان أولوسهم (دولتهم - المترجم) يقع على الضفة اليمنى لنهر جيحون داريا و على الجانب الآخر بالمقابل كانت تقع مدينة ما نجيت التى بناها تيمورلنك الأعرج و تبعد عن مدينة أورجينش مسيرة يوم واحد .



كانت الضفة اليمنى لنهر جيحون داريا صحراء لا نهائية مغطاة بالحصى وفيها كانوا يعيشون. كان ينمو هناك الشيح المر و كان الكاراك الباكيين الخاضعين لهم يرتحلون فى هذه الصحراء. حتى الآن تقع على الشاطئ قلعة طينية إرتفاعها أربعين ساجين و يبلغ سمك أسوارها عشر ساجين. و فى المنتصف يوجد العديد من القصور مبنية بالطوب اللبن و بالقرب من مبانى زراعية. و لمدة قرنين من الزمان كانت القلعة ملكا للسلاطين الجنكيزين من نسل جغتاى و تسمت فيما بعد باسم السلطان فايسداغ ...

كان النهر الهائج يحدث ضجيجا ليلا و نهارا من وراء الأسوار و يفيض هنا و هناك على شطآنه ، و يغرق الحقول و الحدائق التى زرعها الناس بجهد جهيد . و كان عددها قليلا على الأرض التى داستها جحافل جنكيز خان . و كانت القنوات المهجورة الملقى بها عظام الجمال ذات منظر قبيح . و بعد كل فيضان يتحول كل هذا إلى صحراء مرة أخرى ...

كان عيسى يتذكر بصعوبة تلك الأماكن التى عاش بها والده و حارب فيها كثيرا . و عندما رفعوا والده على السجادة البيضاء و نصبوه خانا على مغولستان انتقلوا إلى مدينة أماليك عند سفح آلتاو و بدت تلك المدينة بعد إزهار شاطىء نهرجيحون داريا فى منظر ساحر.

و فى الحدائق الظليلة وعلى امتداد شوارع أماليك ترعرت أشجار التفاح والكمثرى والمشمش والتف العنب متعددة الألوان على الأسوار . و كانت القنوات مليئة بالماء الجليدى الشفاف و لم تكن الحرارة شديدة ..

مثل هذا الأعداد من البشر لم يره عيسى أبدا من قبل. و قد يصاب الإنسان بالصمم فى السوق و الشوارع المحيطة به من صياح باعة الماء و الحلوى و من ضربات الحدادين على الحديد و صرخات الدراويش و المجانين . دخل لأول مرة فى حياته المسجد ذى القبة الضخمة الزرقاء و كشخص بالغ قام بأداء الصلاة . و هنا فى أماليك علم عيسى بوجا أنه توجد على الأرض ديانات أخرى غير الإسلام .

و كيف حدث ذلك . كان والده فايس خان رجلا تقيا للغاية . ذات مرة بعد صلاة الفجر أيقظ أبناءه " يونس ، و عيسى بوجا " و أخذهم إلى المدينة القديمة. ورافقه حراس من أتباعه. و برزت حواليهم أنقاض المنازل و الأسوار المهدمة و فى المنتصف يوجد مبنى أبيض عال ذو قبة خضراء و صليب نحاسى لامع على القمة . و توجد حوله حديقة قديمة . هرع إلى الحديقة الملالى و الدراويش و الإيشان(رؤساء الطرق الصوفية – المترجم) و غيرهم من الناس فى عمائم بيضاء و خضراء. و أمام كنيسة الكفار وضعت المشنقة . و تحتها كان



فى انتظار الإعدام رجل عجوز حسن المظهر ذو لحية كبيرة و عيون زرقاء. و كان يرتدى قميصا أبيضا من الكتان يصل إلى ركبتية وكانت يداه مربوطتين خلف ظهره .

صعد الملا الأكبر إلى منصة خشبية و تمتم بالصلاة و التفت إلى فايس خان :

يا حامى المؤمنين و راعى الإسلام المبجل فايس خان اسمحوا لنا بتنفيذ أمركم السامى المصدق عليه بالختم الذهبى .

أومأ الخان برأسه و قال :

أسمح لكم .

توجه الملا الأكبر طويل القامة ذو الخدين الأحمرين إلى الرجل العجوز المقيد و قال :

هل سمعت أيها الكافر . إن فايس خان أعظم العظماء العادل كالنبي سليمان، والرهيب كالإمام علي إطلع على خطاياك وهى تتمثل فى أنك أقمت على أرضنا كنيسة معادية و محرمة شرعا حيث استدرجت المسلمين المتدينين عن طريق الكذب و الخداع من أجل ثنيهم عن الإيمان الحقيقي . لهذا أيها الكافر دانيال حكم عليك خان مغولستان بالاعدام شنقا... فعن أى شيء ستتوسل لدينا قبل موتك ؟ هز العجوز رأسه بالنفى و قال :

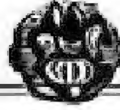
أنا لا أريد أن أطلب شيئا من الكفار. وأطلب من الرب غفران ذنوبى .. وسعادتى عظيمة أننى نلت الشرف أن أكون ضحية للإيمان .

نظر الملا مرة أخرى إلى الخان الذى أشار بعلامة بيده . توجه الملا إلى الجلادين الواقفين على جانبى الرجل العجوز المقيد فى الأصفاد و قال :

هذا هو أمر و إرادة الله ... باسم خاننا الرحيم أمركم بشنق المسيحي دانيال .

لف الجلادون الحبل على الفور حول عنق العجوز و بدأوا يرفعونه إلى عارضة المشنقة و جذبوا الحبل بكل ما أوتوا من قوة . بدأ العجوز يتمدد بالتدريج و ارتجف جسده كله عندما ابتعدت رجلاه عن الأرض . و ربط الجلادون بمهارة نهاية الحبل فى الوتد المدقوق فى الأرض و انحنوا للخان .

لم يسبب هذا الموت آنذاك قلقا على الإطلاق لعيسى بوجا . فقد كان ينظر للشنق كما ينظر إلى لعبة للأطفال حتى أنه صفق بيديه عندما تعلق الرجل العجوز في الهواء . لم يكن يشعر بأى شفقة أو خوف . و لقد أعجبه المهابة التى كان يتحدث بها الملا و المنظر الجدى و الهام لجميع المشاركين في تنفيذ الإعدام .



و توجه نفس هذا الملا إلى الخان و قال :

يا أعظم العظماء و يا شعلة الإيمان .. في غضون سنوات طويلة كانت هذه الكنيسة بؤرة لاغواء المؤمنين و ملجأ لكل أنواع القذارة و المكر . و منها انتشرت كتابات الهرطقة عبر كل أراضى مغولستان الخاضعة لكم . فاسمحوا لنا أن ندمر عش العار هذا .

لوح الخان بيده موافقا فهجم على الكنيسة من جميع الجهات جميع الخوجات و الملالى والمؤذنون والمحاربون و المريدون مع الغناء بصوت عال و صب اللعنات. في البداية ألقوا أنشوطة على الصليب النحاسى و أسقطوه على الأرض ثم أتوا على القبة إلى قبة فحجب الغبار السماء .

لم تكد الشمس ترتفع عاليا حتى أصبحت الكنيسة أثرا بعد عين . كان من الصعب التصديق أنه في الصباح كان هناك مبنى أبيض جميل بناه فنانون مجهولون من اليوغور والوسون . و فى الناحية المقابلة كانت جثة الرجل العجوز تتمايل مع الريح . . .

لم يكن عيسى بوجا يعرف آنذاك أن هذه الكنيسة قد بناها السكان المحليون الذين كان جزء منهم منذ القدم نساطرة. و كان الخانات و الحكماء الذين حكموا الماليك قبل فايس خان يؤمنون بالتسامح الإسلامى المعتاد و لم يلقوا بالا للكنيسة فى الجزء القديم المتهدم من المدينة و لكن مع اعتلاء خان فايس عرش الخانة تغير كل شىء . قرر فايس خان المتعصب تدمير الكنيسة و قد فعل ذلك بكل القسوة الكامنة فيه .

و كان من الممكن أن ينسى الشاب عيسى بوجا هذا الحدث العادى جدا فى تلك الأوقات لولا أحد اللقاءات...

كان أطفال الخان يلعبون في كثير من الأحيان في الحديقة الكبيرة التى كانت تحيط بالكنيسة المهدمة. ذات مرة ركض عيسى بوجا إلى أعماق الحديقة ثم توقف فجأة . فقد كانت تقف على ركبتيها تحت الشجرة الكبيرة متدلية الفروع حيث دفن الكافر المشنوق فتاة ترتدى ثوبا أسود و تحمل باقة من الزهور و تبكى . كانت تبلغ من العمر إثني عشر أو ثلاثة عشر عاما .

فكر الفتى باندهاش «من هذه الفتاة ؟ و من أين أتت إلى هنا ؟» بدأ الاقتراب منها بهدوء .

فى هذا الوقت وقفت الفتاة فانتزع عيسى بوجا الخنجر المعلق فى حزامه .



صاح بخوف توقفى . إننى أعرف من أنت ... أنت لست من البشر و لكنك من نسل الروح الشريرة إبليس

لقد قرأ و سمع جميع الأساطير فى ذلك الوقت و لم يستطع أن يتصور أنه من الممكن أن ينجب الإنسان مثل هذا المخلوق الجميل .

كانت الفتاة ذات شعر أشقر و عيون كبيرة زرقاء و هادئة مثل الماء في بحيرة جبلية. وقد أدهشه بصفة خاصة شعرها المجدول فى ضفيرتين طويلتين تصلان إلى الأرض فى شكل ثعابين شمسية مسبوكة. و بدا وجها أنظف وأكثر بياضا فى برواز الشعر .

و اعتقد أنها «ربما تكون حورية البحر فلدى حوريات البحر فقط مثل هذه البشرة البيضاء و تلك العيون .. نعم نعم إنها خرجت من النافورة لتسحرنى و تسحبنى إلى الماء ..

بسم الله .. بسم الله » . . .

خطت الفتاة خطوة نحوه .

صاح فى رعب توقفى .

توقفت الفتاة .

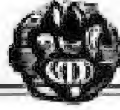
همس عيسى بوجا بينه و بين نفسه بشكل محموم إننى لن أتكلم معها أبدا لأننى إذا تكلمت سأموت. ياللهول يبدو أنها تتجه نحوى مجددا . لا لا عندما تقترب سأقذف الخنجر فى جسدها . لا ينبغي السماح لها أن تصل إلى .. أستغفرالله ... أستغفر الله ، لكن الفتاة لم تعد تتحرك من مكانها و نظرت إليه بعيون مليئة بالقلق و اليأس .

قالت الفتاة و قد أحنت رأسها أمامه : عفوا يا خان أوغلو أننى ظهرت في طريقكم فإنكم لم تلعبون من قبل فى هذا المكان ...

قال عيسى بوغا إنك حقا ساحرة و إلا كيف عرفتى من أكون ... بسم الله .. بسم الله..

قالت بهدوء : أنا لست ساحرة .

كانت تشبه الحجر الأبيض النفيس و لم يستطع أن يحول ناظريه عنها . و لم يستطيع الابتعاد عن هذه الطيف الرائع الذى التقاه بشكل غير متوقع فى الحديقة الصامتة . ولكنها عندما أرادت أن تمر بالقرب منه و الذى كان يشغل الطريق الوحيد صرخ عيسى بوجا مرة أخرى و قال :



لا تقتربى و قولى لى من أنتى إنس أم جان ؟ أو ربما إنك حورية البحر ؟ لا تقتربى ..

أدركت الفتاة أنه يخاف منها و ابتسمت من خلال دموعها و قالت :

لا تخف إننى مجرد فتاة ..

اقترب بتردد و مازال قابضا بيده على خنجره و قال إنك فتاة .

ضحكت بمرارة و قالت بالطبع فتاة .. أمر والدك بإعدام والدى و الآن أنت تريد قتلى . من أجل ماذا ؟ و هل يستطيع أى شخص أن يعلم ما إذا ما كان الإنسان مذنب أم لا ... ماذا تنتظر ؟ أقتلنى ...

تذكر عيسى بوجا على الفور إعدام الكافر فى الساحة أمام الكنيسة . كان لديه نفس العيون الزرقاء التى لدى هذه الساحرة . و هذا يعنى أنها حقا إنسان و ليست روحا شريرة . و لابد من الاقتناع بذلك فى نهاية المطاف .

إذا كنتى حقا من مخلوقات الله فقولى هذة التعويذة « الله . بالله فليطالنى أنا المؤمنة عقاب الله فى حالة الخداع من جانبى» .

قطبت الفتاة جبينها و كررت :

الله . بالله إننى إنسان و ليست روحا . و ليطالنى عقاب من الله إذا كنت أكذب عليك . و لكنى لا أستطيع أن أحلف بمحمد لأن لدى دين آخر ... و هو دين المسيح ...

إذاً فأنت ابنة الكافر ؟

في رأيكم كافر و في رأينا رجل من أتباع العقيدة الصحيحة .

قال بارتياح الحمد لله أنك لست روحا شريرة . و لن يكون من الصعب تحويلك من كافرة إلى مسلمة مؤمنة . و هذا ما سننظر فيه بعد ذلك ...

أحس عيسى بوجا على الفور أنه مستعد لفعل أى شيء من أجل هذه الفتاة ذات الشعر الذهبي و العيون الزرقاء . و بعد أن زالت مخاوفه و كرر بهدوء فى نفسه «بسم الله ... بسم الله » اقترب منها...

بالفعل إنها ابنة الكافر الذى شنق فى العام الماضى . بعد إعدام والدها قام بإنقاذها أحد المزارعين اليوغور الذى حوله والدها إلى المسيحية . لقد أخفى الفتاة الصغيرة لديه و الآن ينتظرون القافلة التي ستذهب معها إلى فلورنسا لأقارب والداها البعيدين .



كانت تأتى كل أسبوع إلى قبر والدها حاملة الزهور و التقت هنا عيسى بوجا . كان فارسا وسيما طويل القامة . و الأهم من كل ذلك لم تكن فى عينيه القسوة الشريرة لفايس خان . كانت الطيبة و اللطف يشرقان فيهما ...

***

صارا يتقابلان كل يوم عند قبر والدها و لم يعد أحدهما قادر على العيش دون الآخر .

و كالعادة كان يلمس يديها بحذر و لكن كان هذا خشوع أمام جمالها ...

ذات مرة ارتاب السلطان جونوس شقيق عيس بوجا الأكبر فى الأمر . و قد أدهشه أن شقيقه الأصغر قد تخلى عن الألعاب السابقة و يختفى عن أنظار الجميع فى الحديقة القديمة . ذات مرة تعقب شقيقه و سمع حديثه مع الفتاة . في نفس اليوم أبلغ والده أن عيسى بوجا يلتقي الكافرة و يريد أن يتزوجها ...

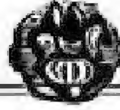
تلقى فايس خان هذا النبأ بقلق بالغ لأنه مما لا شك فيه أن الذى سيرث العرش من بعده عيسى بوجا الذى أنجبته ابنة الخان المغولى و ليس جونوس الذى أنجبته إمراة من القبجاق. و إذا تزوج عيسى بوجا مسيحية فمن يضمن أنها لن تجذبه إلى دياناتها لا سيما أنه ليس لدى الصبى الروح الطيبة على الطريقة الخانية . قد تكون هذه هى بداية النهاية لعشيرة جاكيتاف التى كان يعرف تاريخها و قرأ عنه فايس خان .

شهدت هذه العشيرة الكثيرمن المتاعب بسبب النساء و ليست عشيرة جاكيتاف وحدها فقد أفشلت النساء منذ البداية كل الجنكيزيين و هذا من الواضح أحد أسباب تدهور الأسرة الحاكمة ..

لكن كان لدى فايس خان من العزيمة ما يكفى كى لا يسمح لابنه بتكرار خطأ الأجداد و يتزوج من فتاة أجنبية ..

في صباح اليوم التالى استدعى عيسى بوجا غير المرتاب فى شىء إلى فناء الخان و هناك قام إثنان من الجلادين الضخام بذبح الفتاة ذهبية الشعر أمام عينيه . نظر فايس خان إلى ابنه برضا فقد شحب الابن و لكن لم يقل شيئا .

منذ ذلك الحين فقد الخان الشاب الحساسية المضرة بالحاكم وأصبح الدم البشري بالنسبة إليه كالرطوبة الطبيعية و كالمياه التى تتدفق فى النهر عبر المدينة ...



سرعان ما أثبت عيسى بوجا أن الدرس الذى تعلمه لم يذهب سدى . فبعد سبع سنوات جلس بدلا من أبيه على عرش مغولستان و أمر على الفور باعتقال شقيقه جونوس . «كما أنه ليس هناك سكن فى الحجر فليس عند الخانات علاقات قرابة» . هكذا يقول الناس .

غير أن جونوس أفلح فى الهرب ...

أقام عيسى بوجا تمثالا فوق قبر الفتاة الكافرة وعندما كان يحس بالتعاسة كان يذهب إلى هناك. فى تلك الأيام كانت أحكامه هى الأقسى وكان يعاقب صاحب الحق والمذنب . كان الجلادون يعرفون ذلك و عندما كان الخان يرجع من عند قبر الفتاة ذهبية الشعر كانوا يستخدمون أكثر الطرق تطورا و تعقيدا فى تنفيذ الإعدام . لقد كانا هما نفس الجلادين اللذين قطعا رقبتها و لم يرغب الخان فى تغييرهما مطلقا ...

***

اليوم زار عيسى بوجا قبر الفتاة ذهبية الشعر ولكن لم تظهر لديه الرغبه في رؤية ثمة دماء . فى الآونة الأخيرة تراكمت الهموم فوق رأسه. فقد كان الدم يتدفق كالنهر على كل حدود مغولستان...

لا سيما و قد وردت رسالة مزعجة من ابن أخيه الأمير سيتالى النائب فى كاشغر . بدأ العدو القديم عملياته مجددا . لقد عبرت جحافل صينية لا حصر لها الحدود و توغلت في غولجا وكاشغر . و قال نفس الشيء في تقاريره الفارس أركاليك من عشيرة أويوسون . يقوم الجنود الصينيون فى أرض الوسون بالنهب و يسوقون الأسرى إلى أعماق الصين . و قد طلب كل منهما المساعدة العاجلة .

جاء تقريبا في وقت واحد من الشمال مع هذه الرسائل المزعجة رسل من القبائل الكازاخية نايمان و كيرى . خلف إرتيش الأسود بدأ حكام أويروت التحرك مجددا على ما يبدو بتحريض من الصينيين و من المستحيل المزاح معهم . على أى حال و على مدى قرون ينام الأباطرة الصينيون و يرون فى المنام أراضى تلك الناحية من صحراء جوبى. و هم على استعداد أن يتحالفوا مع ألد الأعداء و مع الشيطان نفسه للاستيلاء فقط على هذه الأرض. وهبت الميليشيات الكازاخية من قبائل الوسون و دولات و جايلار مرارا في الدفاع بصدورهم عن أراضيهم و أبعدوا المعتدين الجشعين عن وطنهم . و لكن فى كل قرن يبدأ كل



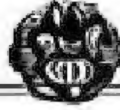
شيء من جديد . و لا يترك الأباطرة الوديان الخضراء للأنهار السبعة تنعم بالهدوء و يحلمون بالحلم الأبدي عن البحر الأزرق – بلخاش .

تناثرت العظام فى الصحراء كلها و لكن هل يعد الأباطرة رعاياهم ؟ و باصرار النمل يزحفون كل عام و يزحفون إلى بوابات جو نجار . و لكن ما إن ينهوا زحفهم حتى ينتزع منهم فرسان السهوب الروح القتالية ، و تهرب مشاتهم حتى أنك لن تستطيع اللحاق بهم و أنت على ظهر الخيل . كلا لن يسمح لهم بالانتصار من يعيش منذ القدم على هذه الأرض التى ارتوت بدماء الأجداد .

***

من غير المرجح أن الخان عيسى بوجا كان يشفق على شعبه . و لكن كانت خزينته تعانى من التوتر المستمر على الحدود. و بأى حق يطالب الأباطرة بأرض تابعة له ؟ كان من الواضح أن هذا لم يكن مجرد تخويف و لكنها حرب فى بدايتها. كان الحكام الصينيون كما النسور الجارحة يتابعون باهتمام كل ما يحدث فى مغولستان و قد اختاروا الوقت الذى تزايد فيه الصراع بين أمراء شرق كاشغر وخانيات أولوس جغتاى. العدو يشكل خطرا مضاعفا عندما لا يكون هناك إجماع داخلى في البلاد. ولكن كان هناك حالة أكثر خطورة تقلق خان مغولستان . فى الحقيقة أنه فى السنوات الأخيرة قوى و انتفض في الغرب الأعداء القدامى – التيموريون . منذ أن اعتلى عبد السيد عرش سمرقند بمساعدة الذئب المحنك أبوالخير من الممكن توقع الحرب فى أى يوم. عبد السيد هذا يتخيل نفسه أعظم العظماء بعد الانتصار فى خراسان . فقد هاجمت قواته بشكل متصاعد حدود مغولستان غير أن عيسى بوجا الحازم جدا كان يعاقبهم كل مرة ويطردهم من حدود بلاده. و لكن في السنوات الأخيرة تبجح أمير سمرقند تماما و لم يعد يخفى خططه بخصوص مغولستان .

أول شيء فعله عبد السيد أنه وجه الدعوه لجونوس شقيق عيس بوجا الهارب إلى إيران وآواه و أغدق عليه بجميع أنواع التكريم. و جاء صباح اليوم من سمرقند الى عيسى بوجا رجل غير معروف. فتح الوشاح المرسوم أمام الخان و أراه عدد و مكان القوات الواليه لعبد السيد و التى تأتمر بأمر جونوس . و تدل كل الشواهد أن جونوس سيتحرك إلى الماليك إن لم يكن اليوم فغدا. و على الأرجح أن هذه القوات ستتحرك عبر أنهار تشو و تالاس من مدن ياسا و ساوران. من هناك يأتى الخطر الرئيسى .



نعم عندما يهاجم العدو الأجنبى فإن أسهل شيء هو تحريض الناس للدفاع عن وطنهم. فى مثل هذه الحالات لا يتطلب الأمر التحدث كثيرافالناس يكونون مستعدون لجميع أنواع المصاعب و الضرائب و في المعركة لاتهتز أيدى الجنود .

و لكن عندما يكون هناك عدو داخلى فإن المسألة تكون معقدة . فالعوام عادة

ما يقفون بمعزل عن الصراع من أجل العرش و ينتظر الآخرون و يحسبون لمن سينضمون. و هم الآن تقريبا غير مهتمون من سيخدمون عيسى بوجا أم جونوس حتى أقرب الأقارب من الصعب الوثوق بهم فى مثل هذا الصراع ...

ماذا يمكن أن يكون أشد خطرا من حدوث حريق في منزلك . و فى الحقيقة أنه كان على وشك الاشتعال . ربما كان صحيحا أن الخان عيسى بوجا ليس حاكما لطيفا. ولكن كيف نشرح للناس أن الخائن و الواشى جونوس سيكون على العرش أسوأ من الطاعون . بالنسبة لغالبية الأقارب و الرعايا فهو مجرد طريد بائس وضحية خداع أخيه الشقيق ...

***

كان الخطر بالفعل عظيما . فمنذ أن فقد المنحدرين من نسل « باتى » عرش القبيلة الذهبية بدأت عشائر السهوب الكازاخية الانجذاب نحو أولوس جغتاى لأسباب خاصة بهم.

أولا : دخول خانات المغول الجغطيين أكثر من مرة واحدة فى تحالف مع العشائر الكازاخية للدفاع المشترك ضد الأباطرة الصينيين و حكام أويروت الذين يخدمونهم. ثانيا : كان خانات المغول أنفسهم نصف بدو رحل و كانت قطعانهم الكثيرة ترعى جنبا إلى جنب مع القطعان الكازاخية . علاوة على ذلك فقد كانت تربطهم مصالح مشتركة. لكن أفعال أبوالخير و التيموريين أبعدت بصورة كبيرة عنهم الكازاخ الذين اضطروا إلى تحمل الكثير من الظلم و الاضطهاد .

و على الرغم من الخلافات الأبدية بين خان أبوالخير والتيموريين فإنهم سرعان ما يتوحدون عندما تسنح لهم الفرصة للتدخل في شؤون مغولستان.

كل يوم يبلغون عيسى بوجا عن جواسيس أبوالخير الذين يزرعون الانقسامات بين شعبه الذى تحت سيطرته .



و الآن عندما تجرأ التيموريون بالعمل علنا ضد عيسى بوجا سمح خان أبوالخير لقواتهم بالمرور عبر أراضيه و من يدرى ربما تنضم خيالة أبوالخير نفسه إليهم فى اللحظة الأخيرة. إن العدو العنيد لمغولستان عبد السيد سيفعل كل شىء لتحقيق هدفه . و يبدو أنه قرر أن يزوج ابنه من ابنة جونوس .

و ليس بسبب الدهن يهذى عبد السيد فمن الممكن فهمه فإنه إذا لم يتخذ أى إجراءات فلن يبقى فى القريب العاجل من الممتلكات التيمورية سوى الذكرى فخان أبوالخير جشع و نهم إلى حد كبير .

و ما الذى يحتاج أن يحققه الخان عيسى بوجا؟ فقط يريد أن يتناطح أبوالخير مع حليفه الوهمى الأمير عبد السيد كثورين هائجين. و مادام الإثنان فى عداء نسبى تصبح مغولستان آمنة .

كانت مغولستان تشبه نمرا جريحا يستجمع كل قوته قبل أن يقفز و كان على الخان عيسى بوجا التفكير فى أشياء كثيرة ...

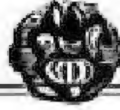
كانت مغولستان تعد واحدة من أقوى الدول قبل نصف قرن من هذه الأحداث . لكن الصراع الخانى الداخلى قد وضع الدولة على حافة الهلاك ...

وهل وصل عيسى بوجا نفسه إلى عرش الخانة بسهولة ؟ ليس من قبيل المصادفة أنهم يقولون أن الأنف قد أعطى للإنسان كى لا تنقرالعينان بعضها البعض. و من يستطيع أن يشغل مكان مثل هذا الأنف الحاجز بين ولدى فايس خان بعد وفاته؟ استمر الصراع بينهما ثلاثين عاما من أجل العرش. وشارك فيه جميع السلاطين والأمراء العديدون .

وبمساعدتهم استطاع عيسى بوجا أن ينتزع العرش من جونوس و لكنه سرعان ما نسى ذلك و بدأ بكل الوسائل قمع كل هؤلاء السلاطين و الأمراء الذين جعلوه خانا ضاربين بعرض الحائط مصالح الوريث الأكبر .

فر العديد من السلاطين و الأمراء إلى حكام أويروت وإلى أبوالخير أما الذين مكثوا فى مغولستان فشرعوا فى إنشاء العصابات والتآمر ضد الخان .

و قد أفلح خلال تلك السنوات فى صد هجوم جونوس مرتين . و لكن هذه المرة حشد أخوه جيشا كبيرا جدا . و ليس عبد السيد من أولئك الحكام الذين يتخلون عن الخطة بسرعة و ليس من قبيل الصدفه أن قرر التيمورى الغادر أن يتصاهر مع جونوس ...



كلا لا يمكن التصرف فى هذه الحالة دون حلفاء أيا كانوا .

***

دخل نائبه الرئيسى «كاستيك بك» و ذكر أن جميع من تمت دعوتهم لحضور المجلس مجتمعون .

سأل عيسى بوجا وهل جاء أيضا الأمير سييتالى ؟ نعم لقد أرسلنا إليه الرسل حين أمرتم بذلك ياسيدى الخان .

و الشيخ محمد ؟

وصل معه فى نفس الوقت .

نظر النائب بدهشة إلى الخان الذى يسأل عن أشياء بديهية . و لكن عندما سمع عن وصول الأمراء الذين أنقذوه في اللحظات الصعبة أحس عيسى بوجا بثقة أكثر فى نفسه . و ارتدى القبعة التاج المهداة إليه المغلفة بالذهب و المزينة بالماس و أمسك فى يديه صولجان الذهب الثقيل و توجه إلى قاعة الاستقبال حيث كان ينتظره المجلس . وقد مشى خلفه «كاستيك بك» و الأمراء من أقاربه الذين كانوا ينتظرونه عند باب الخروج .

عندما دخل القاعة قام جميع الأمراء و البيات و السلاطين و البكوات و الحكام من على الأرائك و الوسائد ، وانحنوا إنحناءة عظيمة أمام الخان . فكما كانت تجرى العادة فى بلاطه وقف عيسى بوجا على عتبة الباب وصنع بيديه إيماءة ترحيب عظيمة و قال :

مرحبا بكم أيها الأفاضل المختارين .

أحدث المختارون ضجيجا و همهمة بطريقة ودية و قالوا هل أنتم بصحة جيدة يا خاننا العظيم ؟

قال كل شيء بيد الله .. و ذهب الخان إلى مقعده والتفت إلى الضيوف و قال أهلا بالأقارب الأعزاء . أطلب منكم جميعا الجلوس .

بعد ذلك اعتدلوا و جلسوا فى أماكنهم . و جلس هو على عرش خان مغولستان الفضى المطعم بالذهب و الأحجار الكريمة . كان يجلس بلا حراك و جمدت القاعة كلها أيضا . كانت تهيمن فى القاعة ثلاثة ألوان و هم الأبيض ، و الأزرق ، و الذهبى. كان الأمراء النبلاء



والسلاطين و الأقارب الآخرون من الدم الجنكيزى يرتدون القفاطين الزرقاء ويعتمرون العمامات البيضاء . و كان الأقل نبلا و وجاهة و هم حكام المدن و القرى يرتدون الملابس البيضاء و يعتمرون العمامات الزرقاء . و كانت أحزمة و أشرطة زعماء القبائل الكازاخية المطعمة بالذهب تتلألأ ، و على رؤوسهم كانوا يضعون قبعات مبطنة بفراء السمور والدلق والثعلب .

خلافا لخانات و أمراء آسيا الوسطى لم يكن فى أولوس جغتاى وظائف اليد « اليسرى» و اليد « اليمنى » للخان . بالقرب من الخان نفسه و أسفل منه كان يجلس النائب الرئيسى. و يجلس الباقون حسب الوظائف التى يشغلونها فعلى مقربة من الخان جلس حكام الإمارات الكبرى و البايات و فرسان العشائر الكازاخية الحليفة و الخاضعة ثم حكام المدن الكبرى و رجال الدين من الصوفية و الأشراف و المريدون .

لم يتحدث عيسى بوجا بالتفصيل عما يعرفه الجميع بشكل جيد لكنه سأل فقط :

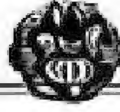
فى رأيكم أيها المختارون ماذا يتعين علينا القيام به هل نجمع في قبضة واحدة جيش مغولستان الموحد أم أن كل حاكم و سلطان يخوض معركة منفصلة على الأرض الخاضعة له ؟ ثانيا هل يتعين ترك مقر الخان فى ألماليك المحصنة تحصينا ضعيفا أم ننقله أثناء الحرب إلى قلعة اكسو ؟

أحنى الحاضرون رؤوسهم و بدا أن ثقل الأحداث الجارية يضغط عليهم . التزم الجميع الصمت . فمن اعتادوا على الطغيان يحسبون بشكل محموم الفوائد التى سيتحصلون عليها من الوضع القائم . و لم يكن أحد منهم يهتم كثيرا بوضع مغولستان أو مصير الخان.

" إن العجل الخاص بك أفضل من الثور المشترك" ظهرت فى تلك السنوات هذه المقولة. وهنا تذكر عيسى بوجا وصية جنكيز خان و التى دعا فيها خلفاؤه بتدمير أى شخص على الفور لمجرد التفكير فى معارضة الخان . و قد أعطى عيسى بوجا الكثير من الحرية لحكام مغولستان و الآن بعد أن حلت الأوقات الصعبة فإنهم يفكرون فقط فى أنفسهم...

عبس الأمير سييتالى و قال بصوت عال بعد أن نظر إلى الجمع المترهل :

ياسيدى الخان .. نستميحك عذرا و لكن كلماتك غير المتوقعة نزلت على عبيدك كهراوة عزرائيل. امنحونا بعض الوقت للتفكير و سوف نقوم بالرد كل وفق أفكاره الخاصة .



خفض الخان يده و قال ليكن .

ظهر في القاعة رجل ذو لحية تشبه الوتد و شوارب ناتئة من الجانبين . انحنى أمام الخان و هز رأسه بفارغ الصبر .

يا سيدي الخان .. بالليل جاء رسول من الشمال إلا أن حراس الليل لم يسمحوا له بدخول المدينة .

فليدخل

في نفس اللحظة ظهر على الباب رجل ملتح قوي البنية في منتصف العمر ذو وجه برونزي بسبب الرياح و الشمس . كان يرتدي معطفا من وبر الإبل ، و متمنطقا بحزام عريض بقطعة من الفضة ، و يلبس في قدميه حذاء سفر واسع في الاعلى من عند الساق. يمسك بيد واحدة سوطا ثقيلا ملتويا و ضغط بيده الأخرى على صدره علامة على الاحترام، و جلس عند الباب و قال :

السلام عليكم .

كان الغبار يغطي وجهه و ملابسه . و كان من الواضح أنه جاء من بعيد و لم يسترح كثيرا في الطريق .

سأله الخان السؤال المعتاد من أي القبائل أنت أيها الرجل ؟

من عشيرة دولات ... و جئت إليكم ياسيدي الخان بتكليف من حاكم مدينة جانغ المبجل سيوندوك ميرزا .

ليس لدي أسرار أخفيها عن أقاربي . قل ما يريد أن يبلغني به حاكمك ؟

أمر الحاكم «سيوندوك ميرزا» أن أبلغكم أيها الخان العظيم خبرا عاجلا . جاء إلى حدود الأرض التي يسيطر عليها الحاكم الكثير من الناس بقيادة السلطانين جانيبيك ابن بركة و كيري ابن بولات. والناس الذين جاءوا معهم من عشائر أرجين و قبجاق و نايمان و كيري و أواك و من عشائر كونرات و ألشين و عشائر أخرى ...

ظهرت النيران في عيون خان مغولستان و سأل باهتمام سافر :

و ماذا يقولون ؟

يقولون إنهم لم يعودوا يرغبون في العيش مع خان أبوالخير ويطلبون عطفكم و أراض



للسكنى و مراعى للماشية . إنهم مازالوا على الجانب الآخر من نهر تالاس و سيأتى إليك على رأس خمسمائة من الأتباع مباشرة عبر الجبال السلطانان جانيبيك و كيرى .

وإننى قد انطلقت ليلا ونهارا عبر طرق أخرى لتحذيركم فى الوقت المناسب ياسيدى الخان .

وكم من الوقت يمكن أن يستغرقه هذان السلطانان للوصول إلى هنا ؟ فى موعد لا يتجاوز صباح الغد ياسيدى الخان .

و كم عدد الناس على الجانب الآخر من تالاس ؟

عدد لا يحصى يا سيدى الخان .. عندما أفرغ من كان فى المقدمة حمولة الجمال من مدة طويلة و قاموا بطهى الطعام كانت القوافل لاتزال تسير و تسير من ناحية السهوب. وقد شغلوا الشاطىء كله فى مسيرة نصف يوم .

لكن هذا ليس كل شيء. من الجبل كنت أرى السهوب . و بقدر ما يمكن أن ترى العين رأيت المرتحلون يتحركون فيها باتجاهنا . ربما هناك فى قبيلة أبوالخير أصبحوا يبتلعونهم أحياء .

عبس عيسى بوجا بشكل مخيف فأغلق الرسول الثرثار فمه على الفور . أدرك أنه ارتكب خطأ و فكر أن «الغراب لا ينقر عين غراب آخر» . و كى يحمى نفسه أحنى رأسه مرة أخرى كما لو أنه طلب الإذن بمواصلة الحديث .

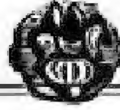
قال له الخان تكلم .

يا سيدى الخان .. إننى أنقل فقط كلمات رسالة الحاكم «سيوندوك ميرزا» التى قمت بحفظها . لقد أمرنى أن أبلغكم الآتى : « ليعلم أعدل حكام الأرض و حامى شعب مغولستان كله أن سبب هجرة الكازاخ إلى أراضينا هى القسوة و المضايقة من جانب خان أبوالخير و عدالة خاننا الرحيم المعروفة في جميع أنحاء العالم».

فهم بعض الحاضرين خبث الرسول و ضحكوا فى سرهم. أعجب الخان بحديث الرسول وابتهج ابتهاجا عظيما. كان من الواضح أن خبر وصول الكازاخ قد أثرعلى الخطط المستقبلية لعيسى بوجا. لوح للرسول بيده ثم قال :

حسنا استرح و نم و غدا ستسمع ردنا لحاكمك و احفظ و بلغ .

قال الرسول بعد أن أدرك أنه أنقذ رأسه من سيف جلاد الخان برده الموفق : « سمعا وطاعة



يا سيدى الخان» و توارى عن الأنظار فى نفس اللحظة . و عندما وصل إلى الفناء تنفس الرسول الصعداء و قال فى نفسه « من لا يتحدث بحذر يموت دون أن يمرض» ، « و الأحمق وحدة من يتذاكى أمام الخان ».

***

كل ما أبلغ به الرسول للخان كان صحيحا ، و أنه لم يكن من قبيل المبالغة أن الناس التى قدمت إلى مغولستان لا تعد و لا تحصى .

في اليوم الرابع من الترحال السريع جمع السلطانان جانيبيك وكيرى جميع زعماء وبيات وفرسان القرى النازحة. كان جانيبيك أكثرهم بلاغة وكان هو المتحدث قبل الجميع .

قال السلطان جانيبيك لا أعتقد أنهم ينتظروننا بأذرع مفتوحة . « فقريبك لا يكون سعيدا عندما تكون غنيا و لكن عندما تكون فقيرا فإنه يبخل عليك حتى بالطعام». أنا لا أريد التكهن بالسوء و لكن لا أحد يعرف كيف ستستقبلنا مغولستان . لذلك فمن الضروري أن نعبر هذا الطريق الطويل و نحفظ قوانا وصحتنا . عندما يرون أننا أقوياء سوف يحترموننا و إذا وصلنا منهكين فسوف يشفقون علينا فقط . يمكنهم اللحاق بنا و قد لا يلحقون بنا و لكن أى سعادة فى أن تكون قريبا فقيرا ..

من ذلك اليوم عندما علموا أن قوات الخان لا تسعى فى طلبهم بدأو يتحركون ببطء ليتيحوا للماشية أن تحصل على نصيبها من الغذاء .

بعد أسبوع دعا كل من جانيبيك و كيرى أبناءهما و أحفادهما و الأشقاء الكثيرون الأكبر سنا و الأصغر سنا إلى مجلس العائلة . أمر السلطان جانيبيك أحد فرسانه بقطع حزمة من سيقان إكليليه المروج الذي يصل سمكها سمك مقبض السوط . و يحكى فى الأساطير القديمة عن مثل هذا الاختبار للأبناء . توجه أولا إلى ابنه البكر جاديكوالابن البكر لكيرى بوروندوك و قال :

ليأخذ كل منكما عودا واحدا .

أخذا كل منهما عودا واحدا و نظرا باهتمام إلى جانيبيك .

فلتقوما بكسرهما .



تكسرت القضبان الخضراء بين أصابع الفرسان القوية محدثة صوتا خفيفا .

و الآن ليأخذ كل منكما عودين إثنين معا .

كان عليهم بذل مزيد من الجهد لكسر القضبان المزدوجة .

ليأخذ كل منكما أربعة عيدان معا .

استطاعا فقط بمساعدة الركبة كسر قضبان إكليلية المروج .

أمر جانيبيك أن يأخذ كل منهما عدد سته من العيدان .

أخذ كل من جاديك و بوروندوك ستة من سيقان إكليلية المروج و شرعا فى ثنيهما وكسرهما بكل أنواع الحيل . و أفلحا بالكاد فى فعل ذلك .

حسنا فليأخذ كل منكما عشرة من العيدان .

شرع فى تنفيذ الأمر مرة أخرى جاديك الملىء بالعروق و بوروندوك المربع طويل الأيدى. كانوا يعرفون أسطورة السهوب هذه و بذلا قصارى جهدهما ليتعلم منهما الأخوة الأصغر سنا. بعد أن فعلا ما فى وسعهما ألقيا بالقضبان بعيدا :

لا نستطيع .

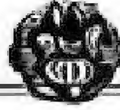
جلس السلطان جانيبيك فى صمت لفترة من الوقت ثم أحاط الجميع بنظرة واحدة .

و على الرغم من أنه حتى الأطفال يعرفون هذه الحكاية فقد كررها كلمة كلمة كما يحكيها الفرسان و السلاطين الآخرون لأولادهم و كما يغنيها الشعراء من قرن لقرن :

هذا هو ما يحدث مع الناس . لو كان هناك واحد بمفرده فى ساحة المعركة فمن السهل قتله و لكن عندما يكون الناس متحدون فإنهم لا يخافون من عدو أبدا . عندما نكون معا يمكننا ردم البحر . و إذا توحدت القبائل الكازاخية فإنها ستصبح قوة هائلة . عشرة عشائر تساوى عشرة أصابع فى كلتا اليدين . و لينقبضوا جميعا ليتحولوا إلى قبضات .

كان بوروندوك أكبر من كل أبناء جانيبيك و كيرى لذلك فقد تحدث نيابة عن الآخرين :

نعم ستكون قبضات جيدة ... و لكن ماذا سيحدث للعشائر البعيدة عنا ؟ إذا كانوا يرغبون فى الانضمام إلينا فإن المسافة بعيدة على الخيول الكازاخية ..



قال بورندوك لقد فهمنا و لكن ماذا علينا الآن أن نفعل ؟

قال السلطان جانيبيك بقسوة « إن الطعام الممضوع لا يناسب الذئب ذو الأسنان» . فكر بنفسك في الأمر .

نظر بورندوك عند قدميه و قال لا أعرف ... نهاجم وننهب أولئك الذين لا يريدون أن يلحقوا بنا و نأخذ الباقين معنا .

تضايق كيرى من أجل ابنه الذى فى مثل هذه اللحظة الحاسمة لم يستطيع أن يجد الحل المناسب .

قال لو فعلنا ما تقوله يا بنى فإننا بذلك نخيف الناس . لا يجب أن تجبر الناس بالقوة ...

قال جانيبيك فليقل كل واحد ما يفكر فيه .

منذ القدم يعلم الكازاخ أبنائهم على هذا النحو . و على الرغم من أن هذه المدرسة كانت بسيطة فإن المعارف بقيت مدى الحياة ثم بنفس الإصرار و الوضوح ينقلونها إلى الجيل القادم .

كان من المستحيل أن يتكلم الصغار قبل الكبار لذلك كان قاسم الأبن الأوسط للسلطان جانيبيك يتململ فى مكانه و لم يحول بصره عن والده .

سمح له جانيبيك و قال له حسنا تكلم أنت .

نعم يا أبى بعد إذنكم أود أن أشارك برأيى مع إخوتى .

تكلم ... تكلم ..

إن بوروندوك محق حسب رأيه عندما يقول أنه من الضرورى إعادة الحمقى إلى الحق بالقوة و لكن عمى الحكيم كيريكى أشار إلى أن هذا الاقتراح غير قابل للتنفيذ. وهل يمكن أن نفكر فى إستخدام القوة الآن ضد أى شخص كان و نحن ننظر خلفنا ونفكر هل سيلحق بنا الأعداء أم لا ؟ بالإضافة إلى ذلك يجب أن نصل مغولستان كشعب موحد و قوى .

قال الآن السلطان كيرى مستحسنا هذا الكلام تكلم يا قاسم

قال قاسم بحماس سنصل إلى تخوم مغولستان وتركستان كدولة الكازاخ و ليس



كقرى متفرقة . و ليرى وليفهم أحفاد جغطاى وشيبانى أنه يتعين عليهم أن يحسبوا حسابنا فى المستقبل و أن خروجنا من بلادنا خروج مؤقت. وسيعطوننا ما نريد عن طيب خاطر إذا علموا أننا نستطيع أن تأخذه بالقوة . و يجب ألا يكون لديهم شك فى أنهم إذا لم يقدموا لنا الأراضى و المراعى فلدينا القدرة على أخذها منهم .

واقترح أيضا أن يأخذ كل شجاع و بليغ منا خمس أو عشر فوارس بسطاء معه ويتفرقون فى السهوب . و يجب أن ندعوا الناس فى كل قرية نتواجد فيها أن يتبعونا. يجب أن نوضح لشعبنا نوايانا . لن يتحرك الجميع بالطبع على الفور خلفنا و لكن الباقون سوف يفكرون . و ينبغي أن تكون الصيحة بسيطة و واضحة لجميع الكازاخ أيا كانت عشيرته أو قبيلته غنى أم فقير نبيل أو شخص عادى و هى «فلتكن القبيلة البيضاء موحدة للأبد» .

أومأ كل من جانيبيك و كيرى برأسيهما فى نفس الوقت و قالا :

حسنا ما قلت يا قاسم ..

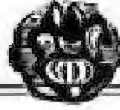
فكرتك صحيحة يا بنى ...

لوح جميع الإخوة و الأقارب بمن فيهم الأطفال بأيديهم مستحسنين ما قال .

قال جانيبيك موافقا و مدعما فى أولاده السعى نحو الاستقلال : لقد دخلت إلى جوهر المسألة ، إن سبب خروجنا ليس ناجما فقط عن غضبنا من خان أبوالخير و إنما هدفه الرئيسي استعادة القبيلة الكازاخية التى أسسها منذ قرن مضى جدنا الكبير أوروس خان ...

يمكننا أن نرفع راية أوروس خان في المنطقة الواقعة بين نهرى جايك و إديل على أنقاض القبيلة الذهبية. و لكن هذا سيكون على حافة السهوب الشاسعة لدينا. وخلف إديل يوجد أعداؤنا قبيلة النوجاى و خانيات قازان و القرم و أستراخان و بعد ذلك تنتهى السهوب الحرة و الناس هناك مستقرون على الأرض و لا يجب أن نجعل على مقربة منهم مقر دولة البدو الرحل. تماما كما حدث مع قبيلة أبوالخير فعاصمة الخانية سرعان ما امتدت إلى بلاد قوية مستقرة و ستقطع رغما عنها علاقاتها مع الناس الذين يجوبون السهول منذ آلاف السنين و يعيشون على هذا ...

***



و لكن هناك مكان مناسب جدا حيث رفع جدنا رايته هناك في وقت من الأوقات ألا و هو سيجناك . و هو أقرب مكان إلى غالبية القبائل الرحل الكازاخية الرئيسية. و سيجناك الخاصة بنا مازالت في أيدي أبوالخير و لكننا لن نتوغل بعيدا عنه في مغولستان . وفي مغولستان توجد عشائرنا مثل الوسون و دولات و جالاير .

في غضون ذلك فلنقم بتنفيذ ما اقترحه ابني قاسم. و إنه أول من سيأخذ خمسة من الفرسان وسيتنقلون معه من قرية إلى قرية. و سيفعل مثل هذا أفضل الناس منكم .

و كلما جئتم بقرى أكثر معكم فسنعيد إحياء القبيلة البيضاء بسرعة . و سيكون مكان التجمع على ضفاف نهر سيحون داريا و لستم في حاجة إلى من يعلمكم كيف تعبرون الأنهار ...

في صباح اليوم التالي ذهب أبناء جانيبيك و كيري الذين بلغوا سن الرشد و معهم العديد من البكوات و الفرسان إلى إتجاهات مختلفة من السهوب الكازاخية الواسعة داعين القرى للخروج من قبيلة أبوالخير. و تقابل جواسيس خان أبوالخير مع العديد من القرى التي كان يقودها السلطان الشاب قاسم على ضفاف نهر سيحون داريا لكن الخان كان يقضي الليلة مع زوجته الشابة و تأخرت المطاردة يوما كاملا ...

والأن يسير الجميع خلف القافلة الرئيسية وتوجهوا جميعا إلى تالاس . وأصبحت القبيلة البيضاء دولة ولكنها حتى الآن دولة فوق الجمال بدون أرض وبدون عاصمة .

***

و بعد أن انفض المجلس بقي مع عيسى بوجا خان مغولستان أكثر الناس ثقة و ولاء . و لم يكن بحاجة إلى التظاهر أمام الشيخ محمد و سيياتلي و النائب الرئيسي كاستيك بيك. كان الفرح يملأ روح الخان . فمع قدوم القبائل الكازاخية المحاربة حلت على الفورالعديد من المشاكل . . .

قاموا بمناقشة الوضع القائم فترة طويلة و بالتفصيل. و قد تقرر توطين الكازاخ بامتداد حدود مغولستان مع القبيلة الزرقاء والتيموريين على امتداد نهر تشو و ساريسو وتالاس وبادام فضلا عن منحهم المنحدرات الشمالية لجبال كوزيباس و كاراتوي . وسوف يصبحون درعا حربيا ضد أبوالخير و الأمير عبد السيد ولكن يكون هناك مدافعين أكثر ولاء منهم .



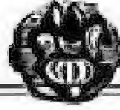
لكن هذا ليس كل شيء . بل سوف تخصص العشائر الكازاخية كضرائب تدفع مقابل الأراضي والمراعي التي سوف يتسلمونها وحدات مسلحة بالكامل على الحدود الأخرى مع الصين وخانية أويورت إذا اندلعت الحرب هناك . لذلك ستكون الفائدة منهم مضاعفة لصالح مغولستان .

بعد أن توصلوا إلى هذا القرار أرسل عيسى بوجا لاستقبال السلاطين الكازاخ أوجه الناس عنده كما يفعل فقط عند استقبال أقرب الأقرباء . و بأذرع مفتوحة استقبلهم على أعتاب قصره . و قضى جانيبيك و كيرى و القادمين معهم من البايات و الفرسان شهرا كاملا فى ولائم مستمرة وأكلوا و شربوا فى طبق واحد مع خان مغولستان . و قد قبل السلاطين الكازاخ شروطه دون اعتراض و سرعان ما تم إرسال ألف فارس من الفوارس الشجعان إلى الحدود الصينية فى أخطر جزء منها و هو بوابات جونجارى. و ترأس هذة الفرقة السلطان جاديك الابن البكر للسلطان جانيبيك . و ما إن وصل إلى المكان حتى قام بزيادة قواته إلى خمسة آلاف فارس أخذهم من فرسان العشائر الكازاخية المحلية و سرعان ما أخرج المتسربين من الفرق الصينية عبر تلك «البوابات» . و بعد وصول مثل هذا الجيش بقيادة النجل الأخر لجانيبيك الفارس كامبار اضطر حاكم أويورت أن يعقد معاهدة سلام مع مغولستان .

تم توطين القرى الكازاخية على امتداد الحدود الشمالية الغربية لمغولستان حيث أنه فى حالة الهجوم من جانب قبيلة أبوالخير أو ماوراء النهر يمكنهم في غضون أيام قليلة وضع ميليشيات الفروسية . و كان بعض المحاربين و الفرسان يقومون بدوريات مستمرة .

فكر السلطان جانيبيك : «على الحدود مع الصين يعيش أناس من الكازاخ على الرغم من أنهم من قبائل أخرى. دعوهم يقتنعون بأن لديهم دائما من يدافع عنهم وهذا سيسرع من انضمامهم إلينا . أما فيما يتعلق بالحدود مع قبيلة أبوالخير فإننا لم نكن نريد أن ننفصل عنها .

قام كل من السلطان جانيبيك و السلطان كيرى شخصيا بالمهمة الصعبة المتمثلة في توطين القرى و توزيع الأراضى و المراعي بينهم . وعلى الرغم من أنه قد أخذ فى الحسبان بشكل دقيق عدد المهاجرين فإن حصة الأسد كما جرت العادة حصل عليها البايات وأقارب السلاطين الكثيرون . و في الوقت نفسه حضر إلى السلطان جونوس نجل حاكم كاشغر الشرقية عبدالرشيد سلطان من عشيرة جغتاى أيضا. كان جونوس عادة ما يستقبل عن طيب خاطر مثل هؤلاء الأقارب النبلاء معولا على مساعدتهم فى الصراع من أجل عرش مغولستان. و بسبب الظهور غير المتوقع للكازاخ على الحدود فإنه قد أوقف



الاستعداد للحملة على المماليك و أمضى الوقت في الولائم و المرح مع الضيف الوافد عليه. و لكن لسوء حظه رأى عبد الرشيد ابنة جونوس الجميلة سلطان و وقع فى حبها. و لأن اختيار نجل الأميرعبد السيد قد وقع عليها فقد أحبها جونوس أكثر من بناته الأخريات وقدم للفتاة كل شيء.

جاءت «سلطان» بنفسها لتشاهد هذا العاشق من كاشغر و تسخر منه فى حضوره.

و قالت لوالدها «كيف أنام معه في سرير واحد ومرورى بجانبه يثير إشمئزازي» ثم كررت هذه الكلمات للمقربين من جونوس. ولا عجب أن هذه الكلمات وصلت إلى عبد الرشيد.

بعد أن قام بالسب و اللعن رحل الضيف المستاء إلى بلده كاشغر. وتابعت الفتاة السخرية منه مع صديقاتها غير مدركة أن هذه النكات أحيانا تخرق الحياة . . .

ما إن غادر الضيف الكاشغرى حتى استدعى الأمير عبد السيد السلطان جونوس إليه فى بخارى حيث انتقل إليها مؤقتا من سمرقند. و بمجرد أن غادر انقض السلطان قاسم بتوجيه من حاكم مغولستان على الطرف الشرقى لواحة فرغانة و سرق ثلاثة آلاف من خيول جونوس.

***

لم يكن هناك فارس حقيقى واحد سعى وراء الخاطفين. فقط وحدها قفزت «سلطان» ذات الخامسة عشر ربيعا على الحصان و اندفعت ورائهم ممسكة حبلا فى يدها. و على المعبر عبر نهر تالاس ظهرت أمام فرسان قاسم و كاد هؤلاء أن يسقطوا من على ظهور خيولهم من الدهشة عندما رأوا هذه الفتاة المحاربة. و صاروا و قد أسكرتهم الغنيمة السهلة يسخرون من رجال عشيرة جونوس الذين اختبأوا فى أوكارهم من الرعب و لمطاردة الخيول المسروقة أرسلوا إحدى بناتهم. على الفور ألف السلطان قاسم أغنية و غنى لها هذا المقطع الشعرى :

قولى لى ما اسمك أنا أطلب ذلك منك و إن لم تقولى فلن أدعك تذهبين بأى شيء .... يا له من غبى قائد الخيل الذى سمح لك بأن تقاومى هذا الهجوم

قولى لي هل أنت الفرسة الوحيدة فى كل هذا القطيع.

أومضت الفتاة بأعينها في اتجاه السلطان الجميل طويل القامة و غنت ردا على ذلك :

من حديثك الجميل علمت أنك السلطان و اعتدت ركوب أى فرس في الادغال.



لكنني مهر جونوس و حتى في نومى لم أر متاعا حيا على ظهرى

بالأمس ركب جميع رجالنا إلى الجهة الأخرى و إلا لما استطعت أن تفوز ليلا بتلك السرقة الحقيرة

و هل السلطان الحقيقى قادر كما اللص

على نهب من لا حول لهم و لا قوة أجب على أنت بنفسك لقد ركبت الحصان إلى هنا لأصبح فداء عن والدى .

أعد إلينا ممتلكاتنا باسم الخالق و لا تجعل السلطان جونوس أضحوكة للأعداء .

اضحك على ابنته إذا كنت مستعدا لذلك .

قال السلطان قاسم يا أيتها الزهرة العطرة التى لم ينزعها أحد بعد من شجرتها لا أستطيع رفض اقتراحك و اننى مستعد أن أمتع نظرى بك حتى على حساب الثلاثة آلاف من الخيول. حقيقة ما حدث بينهما في الخيمة البيضاء التى أمر قاسم بنصبها على شواطئ تالاس يعلمه الله وحده . على أي حال لم تسمع دموع الفتاة و لكن لأكثر من مرة دوت بالليل ضحكة أنثوية سعيدة برجفة رنانة .

في الصباح أمر الفارس الشاب السخى بعودة القطيع المكون من ثلاثة آلاف حصان .

و بكت سلطان عند الفراق و هى واقفة على ظهر حصانها . أصاب الحزن أيضا الفرسان الذين فقدوا مثل هذه الغنيمة الضخمة. لم يجرؤا مباشرة على توبيخ السلطان إلا أنهم ألفوا أغنية حول هذا الحدث و التى صبرتهم إلى حد كبير .

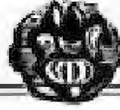
بدون نار لا فائدة للحجر الصوان والماعز الماكرة عبء على الراعى و سخاء كاسيكى حقا لا حدود له :

ثلاثة آلاف من الخيول مقابل قبلة فى أغلب الظن مصير خادع كما الثعلب الأحمر بالنسبة لنا سمعنا فقط في تلك الليلة لعندليب

بالتأكيد صدر المغنى من الذهب

إذا كانت هذه الرجفات تساوى مثل هذا الثمن

على المعبر لم يتمالك نفسه أحد الفرسان الطائشين و غنى للسلطان قاسم هذه الأغنية. ابتسم السلطان قاسم فقط و لكن في الطريق إلى الديار قام مع نفس هؤلاءالفرسان بانتزع قطعان أحد السلاطين الكثيرين الحدودين والتى كانت ترعى بالجوار لذلك لم يخسر



الفرسان شيئا . توسل قاسم إليهم ألا يخبروا أحدا عن حكايته مع سلطان لإن ابنة السلطان التى فقدت عذريتها تفقد في نفس الوقت كرامتها مثل البشر العاديين . وعد الفرسان بالتزام الصمت و لكن شخص ما لم يلتزم بذلك و وصلت جميع الأغاني إلى عصرنا ...

***

سرعان ما قرر جونوس تزويج ابنته من أمير أند يجان الشيخ عمر بن عبد السيد . في هذا الوقت بإذن من خان أبوالخير ذهبت زوجته " ربيعة سلطان بيغيم " فى زيارة إلى بلاد ما وراء النهر . لم تستطع إلا أن تتدخل فى وساطة الزواج . ذهبت مع حاشية فاخرة إلى العروس وأخذت سلطان و ذهبت معها إلى أند يجان .

ما إن علم السلطان جانيبيك بذلك حتى استدعى ابنه قاسم .

و قال ما الذى ستفعله مع ابنة جونوس فهذا شأنك . أخشى فقط أنها ستقدم خيولك ثمنا لليلة ثانية . كل ما يهمنى فى هذا الأمر أن تحضر ربيعة سلطان بيغيم آمنة وسليمة . آنذاك سنتكلم مع خان أبوالخير بطريقة أخرى .

ذهب السلطان قاسم مع فرسانه لإعتراض قافلة الزفاف و هناك اشتبكوا مع رجال الكاشغرى عبد الرشيد الذين نصبوا كمينا لنفس الغرض . هاجم الكاشاغره القافلة قبله و لكن السلطان قاسم انتزع المرأتين .

مرة أخرى لم ينفذ قاسم تعليمات والده . فى حقيقة الأمر أنه عندما كان يعيش في بلاط خان أبوالخير كانت ربيعة سلطان بيغيم تعامله باللطف المتأصل فيها . و كان قاسم يكن لها احتراما كبيرا فأطلق سراحها مع كل مظاهر التكريم و تخلص من ابتزاز والده السلطان جانيبيك .

أطلق السلطان قاسم معها أيضا الجميلة الشابة سلطان ، و لكنهم يغنون فى الأغانى القديمة أنها كانت لا تريد أن تفارقه و يلمحون إلى أنها هى التى بعثت رسولا سريا بمعلومات دقيقة عن الوقت و الطريق التى سوف تسلكها قافلة الزفاف . و بعد زواجها بالفعل ظلت سلطان عشر سنوات تنتظر غارة فرسان قاسم . و ينبغى القول أنها كانت تنتظر إلى النهاية ...

لم يختلق السلطان قاسم لنفسه الأعذار أمام والده و هو يبلغه عن أسباب الفشل .

***



قال لم أكن أريد أن أكون مثل الكلب الذي أبعد عن الطبق كلبا ضالا ثم يبدأ في لعق قمامة أخرى فبعد أن حررت العروس من السلطان عبد الرشيد لم أقدر أن أكون مثله .

و لماذا أطلقت سراح ربيعة سلطان بيغيم؟ احتراما لذكرى أولوغبيك العظيم .

على الرغم من أن السلطان جانيبيك قد قطب حاجبيه إلا أنه قد استحسن فى نفسه تصرف ابنه . قال بحسرة أغلب الظن أنه كلما تقدم الإنسان في السن يخشى بقوة ألا يسعفه الوقت للانتقام من جميع أعدائه . لقد تصرفت بطريقة صحيحة يابنى و يبدو أننى قد استسلمت لهذا المرض . الشيخوخة ليست بعيدة . حسنا إنك تستطيع طالما أنا على قيد الحياة أن تتصرف بنبل . و أدعو الله أن يبقى لديك هذه المشاعر النبيلة حتى آخر حياتك .

***

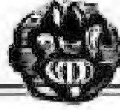
كانت الليلة صامتة و مخيفة مثل مستنقع أسود راكد . و على الرغم من أنه كانت تخيم فوق السهوب سحب سوداء على ارتفاع منخفض لم يكن هناك برق أو رعد . و يبدو أن كل شيء قد توقف في العالم حتى شخير الخيول و شخير الفرسان لم يدوى بعيدا كما جرت العادة عندما يكون الهواء فى ليالى السهوب نظيفا و خفيفا ...

كان هناك حوالى خمسين شخصا من الفرسان مجهولى العشائر و فقراء من العظام السوداء و الذين على الرغم من أنهم يملكون منازل يورت في إحدى القرى النائية لكن عندما كان يظهر أوراك هناك كانوا يجعلون من الخيول ليلة مظلمة و يذهبون بهدوء لبضعة أيام للانخراط فى فرقته . و لكي لا يعرفهم أحد خلال الغارة الروتينية على قطعان البايات و الخان كانوا يرتدون على وجوهم عصابات المنتقمين السوداء .

بدأ الفارس أوراك يظهر منذ فترة طويلة في تلك الأماكن- فى السهول الفيضية- لأنهار تالاس و تشو و كاراتال . و في الآونة الأخيرة نهبوا قافلة جانيبيك نفسه . و للحقيقة لم يقتل أو يأسر أحد و لكن اللصوص فروا بثلاثين من الإبل المحملة بالآنية و الأقمشة فى السهوب.

سأل قائد القافلة الزعيم الأعور إذا كنت من الكازاخ فلماذا تنهب قافلة سلطانك ؟ قال إن سلطانك يقوم مقابل هذه الآنية و الأقمشة بسلخ جلود فردين من العظم الأسود أما نحن فنوزع كل هذا بالعدل . و إذا كان سلطانك عادلا حقا فدعه يتحقق بنفسه و يقتنع .

و بالفعل سرعان ما ظهرت هذه الآنية و الأقمشة فى أفقر خيام القرى المهاجرة بما في ذلك خيام العبيد



التولونجوت . و لم يجرؤ جانيبيك أن ينتزع من الناس بضاعته التى وزعها اللصوص لكنه قرر القضاء على الفارس أورك .

قال السلطان جانيبيك عندما كان ينهب قوافل أبوالخير كان هذا يروق لنا و لكننى لست بحاجة إلى قطاع طرق فى خاناتى ؟ و ينبغى على العظم الأسود أن يعرف مكانه .

***

فى إحدى الليالى استدعى السلطان بوروندوك و أمره بالقضاء على فرقة الفارس أورك . وفقا لحساباته فإن الفارس الأعور لابد و أن يكون الآن فى مكان ما فى الروافد الدنيا من نهر تشو .

قال بوروندوك بتجهم لقد آن الأوان من وقت طويل للتخلص من هذا الصعلوك .

قال له جانيبيك محذرا افعل كل شىء بهدوء و إلا سيثور الناس .

أومأ بوروندوك فقط برأسه في صمت .

لم يعرف كل هذا الفارس أوراك الذى كان يتقدم فرسانه الصامتين و كان ينظر من حين لآخر نحو الشرق حيث ظهر خط رفيع ينبئ بقدوم الفجر . و فجأة سمعت جلبة من الخلف فالتفت الفارس و قال :

ماذا حدث؟

ردوا عليه من الظلام : لقد اختفى تنيجي المجدور (مصاب بداء الجدرى - المترجم) كيف اختفى ؟

كان معنا بالأمس و اليوم اختفى . قال إنه سيذهب إلى الوادى من أجل حصانه المقيد ولكنه لم يعد ...

كبح أوراك جماح حصانه . لم يكن تنغي فقيرا أو بلا عشيرة كفرسانه الآخرين ولكن فيما يبدو أن بوروندك قد أساء إلى تينجى هذا بشىء ما فانضم إلى فرقة المنتقمين. كان الفارس أوراك يشك فى ولائه من البداية و تذكر القول المأثور «الغراب لا ينقر عين غراب مثله» . و مع ذلك فقد جلب تينجي لهم خمسة خيول جيدة و لكن الفارس توجس خيفة .



كان الاختفاء غير المفهوم من جانب تينجى قبل شن الغارة مباشرة على قطعان السلطان قد جعله يأخذ حذره .

رفع الفارس يده و قال :

أيها الفرسان يجب علينا أن نسرع . فإذا كان تينجى خائنا فيجب علينا الإسراع قبل يرسلوا المدد إلى حراس قطعان السلطان .

هرعوا إلى الأمام و لم يعرفوا أن الموت ينتظرهم فى الأمام . قبل بضعة أيام تم تحذير بورondوك عن الهجوم المرتقب للمنتقمين و من ثم فقد انتظرهم . لقد أبلغه تينجى بالمكان المحدد الذى ستتوجه إليه فرقة الفارس أوراك . و كان مع بورondوك مائة و خمسين محاربا من المحاربين المختارين و قد نصب كمائن على جميع مسارات السهوب .

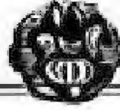
كان الوادى الواسع بين تلين منحدرين يسبح فى الضباب الأبيض بلون الحليب قبل الصبح . و فى الأراضى المنخفضة و فى نتوءات التلال كان أفضل قطيع السلطان من الخيول الأصيلة البيضاء مثل الثلج و الخيول الصهباء القاتمة ذات الذيل و العرف الأسودين ترعى بتكاسل أو مستلقية فى مجموعات مع مهورهم الصغيرة . و وقف الفحول مثل الحارس فى الجيش كل واحد منهم عند إناثه من الخيول و هم دائما أول من يشم رائحة المتاعب القادمة. و الآن حركت الخيول آذانها و أخذت تستمع إلى ليل السهوب.

و فجأة بدأوا جميعا فى الشخير و تحركوا حول الإناث فى دوائر واسعة . قفزت الإناث وأخذت فى الصهيل بفزع و بدأت تتجمع فى مجموعات . ارتفع الضباب فوق الوادى و في الظلام قبل الفجر شوهد الفرسان يقتربون . كانوا راكبين خيولهم فى خط ممتد وفى نصف دائرة كان يغطون الحصان البعيد . كانوا يغطون وجوهم و رؤوسهم بعصابات و أغطية رأس سوداء و لكن الوحيد الذى كان يمكن على الفور معرفته من بينهم هو الفارس العملاق أوراك . و بدلا من العصابة كان يضع على سائر وجهه عصابة من الجلد تغطى العين الميتة

و قبل أن يتمكن المنتقمون من الوصول إلى خيول السلطان اعترضهم من التلال فى نفس الوقت من كلا الجانبين فرسان آخرون .

بوروندوك . بوروندوك ..

و لكن حتى بدون هذه الصرخة العنيفة التي دوت فى كل أرجاء الوادى رأى المنتقمون



من أمامهم . كان المربع بوروندوك كجذع السنديان يمتطى صهوة جواده الأصهب و يلوح بالسيف فوق رأسه .

كمين.

ارجعوا للخلف ..

و لكن كان ذلك بعد فوات الأوان . عند مدخل الوادى ظهرت فرقة كبيرة و ظهرت على التلال سهام فى أقواس مشدودة. كبح الفارس أوراك جماح فرسه بحدة كما لو كان يفكر ماذا سيفعل بعد ذلك و أخرج سيفه من غمده فى طريقة للخروج من الوادى. ذهب المنتقمون في الاتجاه المعاكس و كان الفارس أوراك فى أخر الركب . كان ينتظرهم هناك ما لا يقل عن مئة فارس وكان الفرسان يمارسون الضغط من الخلف بقيادة بوروندوك .

قال الفارس أوراك بصوت مخيف : إلى الأمام أيها المنتقمون .

بدأ يركض بحصانه و سبق جميع محاربيه و كان أول من التحم بفرسان السلطان .

ليس هناك شيء أسوأ من القتال فى الصحراء عندما يصطدم حصانين جامحين ببعضهم البعض. الخيول تصهل و هى فى حالة من الذهول و يصرخ الناس بوحشية و فى الغبار الكثيف ترتفع الهراوات الثقيلة و تومض السيوف و تقطع بنصالها الحادة ما تصل إليه .

و خلال دقيقة أو دقيقتين تتساقط تحت حوافر الخيول الوحشية أجساد مقطوعة الرؤوس و يداس على الجرجى و يجر خلف الخيول الذاهبة إلى السهوب المخنوقين بأنشوطة الحبال .

لكن لا أحد يعرف ما يمكن أن تؤول إليه هذه المعركة غير المتكافئة . و على الرغم من أن عدد المنتقمين كان أقل من عدد الفرسان الآخرين بمقدار الضعفين إلا أنهم كانوا المحاربين الأكثر صلابة . و قد استطاع الفارس أوراك وحده أن يوقع فى هذه المعركة ما لا يقل عن عشرة من فرسان السلطان . و ربما تمكن الباقون على قيد الحياة من المنتقمين فى الابتعاد إلى السهوب و لكن الصيحة الجديدة القوية هزت الوادى بأكمله :

قاسم . قاسم .

جاء السلطان الشاب قاسم لنجدة بوروندوك . و قد أنهى الأمر المئة فارس و داسوا بخيولهم على البقية الباقية من المنتقمين .



و لكن السلطان نفسه لم ينطلق إلى الأمام و لكنه انتظر نهاية المعركة على التل.

و قرر أنه لا يليق بالخان القادم للكازاخ المشاركة في هذه المعركة التافهة . الى جانب ذلك إن هؤلاء ليسوا مجرد لصوص و كان قاسم يعلم ذلك جيدا . فلا يمكن البدء بالشجار مع عامة الناس الذين يعتمد مجده عليهم بطريقة أو بأخرى . إنهم رعاياه فى المستقبل و من الممكن سفك دماء الرعايا فقط بعد أن يستقر على العرش .

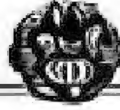
وقف قاسم وحده على التل و لم ينظر حتى فى اتجاه المعركة . وعندما نظر رأى العملاق وحده على حصانه بعصابته السوداء فوق عينه. وكما المنجل الحاصد كان يحارب بالسيف الضخم و خشى فرسان السلطان الاقتراب منه . و كان لا يزال هناك عدد قليل جدا من الفرسان المعادية تحول بينه و بين السهوب المفتوحة . و لكن في هذا الوقت قطع بورondوك و هوعلى صهوة حصانه الثقيل الطريق الوحيد للخلاص . و الآن اقتربا ببطء من بعضها البعض الفارس الأعور و السلطان بوروندوك .

لم يتمكن قاسم حتى معرفة ما حدث . فقد تعامدت السيوف و طارت فى إتجاهات مختلفة. ولكن في نفس اللحظة بدأت تلف فى الهواء هراوة ثقيلة وطار بوروندوكالمصعوق من السرج . وركض الفارس أوراك على حصانه نحو السهوب . و شد قاسم لا إراديا قوسه. كان الفارس الأعور فى الأسفل على مسافة مائة خطوة منه و كان يمكن للسهم ذو الطرف الملتهب أن ينفذ إلى قلب الفارس. فلم يكن هناك أحد يضاهى قاسم منذ الطفولة فى الرمى من القوس الكازاخى الحاد.

أطلق السهم . أطلق السهم يا جرو .

قال ذلك بوروندوك الذى وقف على قدميه لكن قاسم خفض القوس . كلا لم ترتعش يده و لم يأسف على هذا الفارس الشريد . و لكنه رأى بعينيه أن هذا الفارس أوقع بضربة واحدة من هرواته بوروندوك الذى لا يقهر . وسيكون بوروندوك تحديدا منافس قاسم فى الصراع على عرش الخانة و حينذاك سيحتاج السلطان قاسم أناس مثل هذا الفارس المنتقم...

كان الفارس أوراك قد ابتعد كثيرا . و قام بوروندوك بالسب و اللعن لكل شيء فى العالم و هرع خلف الفارس مع خمسين من فرسانه و لكن كان ذلك دون جدوى . و عندما عاد لم يقل شيئا لأخيه قاسم و لكنه نظر إليه بعيون حمراء غائمة .



في الصباح حملوا الجثث و قد تفاجئوا عندما وجدوا وجوه معروفة تحت عصابات المنتقمين السوداء . كانوا كلهم من الفقراء و العظم الأسود و من التولو نجيت الصعاليك . أمر بوروندوك بإضرام النار في منازل الجناة و قطع رقاب أسرهم . و انطلقت قواته إلى مختلف الأطراف لتنفيذ أوامره . و لكن شخص ما حذر مسبقا أقارب الضحايا و الذين جمعوا على عجل جميع متعلقاتهم و غادروا إلى السهوب . و قد جابت قرى بأكملها من الذين لا عشائر لهم السهوب الكازاخية كلها و إلى من كان سينضم الهاربون ...

قبيل المساء استدعى السلطان بوروندوك بإيماءة منه تينجي المجدور و قال له :

أيها الوغد ... استلقي هنا بجانبي . فلربما يريد الذئب الأعور في هذه الليلة أن يذبح كبدافع الإنتقام . فهنا سينحني على سكيني .

***

رقد الخائن بعيون مفتوحة و صار يرتجف . و عندما ظهر في الفتحة المضيئة من خيمة السلطان ظل أسود هائل لم يصدر أي صوت من الرعب . كيف تمكن الفارس أوراك من الوصول إلى وسط مخيم السلطان هذا ما سيظل سرا أبديا لتينجي المجدور . لقدقام السكين الطويل الذي يحمله دوما الراعي الكازاخي بتدبيسه في البساط . و ما أن تنحنح السلطان في الصباح حتى رأى بجانبه تينجي ميتا . من الواضح أن أوراك هذا الشريد فارس حقيقي و إلا كان قد دبس بوروندوك نفسه في نفس الوقت . بموجب قانون السهوب وحده الخائن يقتل كالكلب ...

صمت حراس المعسكر في الليل و تبادلوا النظرات فقط .

***

و هكذا مرت ثلاث سنوات في حماية حدود مغولستان و في الغارات و المناوشات . استقر اللاجئون في وادي تشو و في وادي ساريسو . و في الربيع الرابع عندما استعدت القرى للترحال إلى جايلا و قال السلطان جانيبيك لابنه :

ألا تريد أن تذهب مع بوروندوك إلى حفل بمدينة جانغو و مقابلة رجل عالم و ذو شأن ؟ اندهش قاسم و قال أذهب في مثل هذا الوقت المضطرب ؟

أنت بالطبع تعرف أنه وفقا للقانون القديم تتوقف العداوات و الحروب خلال المسابقات الاحتفالية .



إن الاحتفال الذى دعي إليه الناس الأكثر تميزا من عدة خانات و إمارات قام بتنظيمه واحد من أغنى الناس في سهوب آسيا الوسطى و سهوب دشت و قبجاق وهو التاجر محمد حكيم التارازى. فى كل عام يرسل العديد من القوافل التجارية الضخمة للصين ومنغوليا و الهند و التبت و بيزنطة و موسكو و حتى إلى فيليكي نوفغورود . لقد تاجرهذا الرجل مع كل العالم و أقام العلاقات . و لا يبخل على الحفل بالمال و تعزز الاحتفالات موقفه و تساهم في أمن القوافل .

لكن فى هذه المرة كان لدى التاجر سبب مهم للاحتفال . كان لديه كل شيء صناديق مليئة بالذهب و المجوهرات و العديد من قطعان الغنم و قطعان الخيول الأصيلة وقطعان الإبل . من أجل الذهب منحه خان أبوالخير لقب رئيس التجار . وحده لم يعطه الله الأطفال .

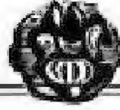
و أخيرا أنجبت له توكال أصغر زوجاته ممتلئة الصدر و ممتلئة الجسم وريثا . لكن وكما هو الحال دائما كانت هناك بعض ألسنة الشر التى تؤكد أن الصبى حقا من نسل تيرازى و لكنه يشبه أخ التاجر محمود الضخم كقطرتى الماء .

مهما قيل فالاحتفال حقيقى . و قد خصصت ثلاث جوائز رائعة للفائزين فى شكل طيور مسبوكة من الذهب الخالص . لا يقدر الفارس المتوسط أن يرفع أى واحد منها بسهولة و يستطيع الراغبون وفق اختيارهم المشاركة فى الثلاث مسابقات وهى العدو على الأقدام مسافة ستة فراسخ (الفرسخ الواحد حوالي ستة كيلومترات) و على الإبل عشرة فراسخ وعلى الحصان عشرين فرسخا . و قد اقتبس النوع الأول من الرومان و الثانى من العرب والثالث محلى سهبى. و بالإضافة إلى ذلك خصصت الكثير من الجوائز الصغيرة للأنواع المختلفة من سباقات الخيل والمصارعة .

قال السلطان جانيبيك لابنه إذا ذهبت فاعلم أن العدو على الأقدام لا يليق بالسلاطين .

و لكن يقولون إن سباقات الفروسية ستكون مثيرة للاهتمام . و سيأتى الدارجون من شبه جزيرة القرم و إيران و خراسان . و في تلك الأنحاء تكون الخيول أسرع من الريح ...

كان جانيبيك محقا فقد جاء فى بداية الاحتفال ضيوف من جميع أنحاء العالم تقريبا و قد تم تسكينهم فى مئة من الخيام البيضاء الضخمة على شواطئ نهر تالاس الخضراء.



وجاء الآلاف من الناس لمشاهدة كيف يقوم الخدم بترويض الخيول التى لا مثيل لها فى الجمال قبل المسابقات . و يقوم الفرسان و السلاطين من مختلف الخانيات و الإمارات و الذين على عداء مع بعضهم البعض بالتنافس بأريحية عالية . كانت بانتظارهم سباقات الخيل و الألعاب و التى كانت تقيم بطولاتهم دون السفك المعتاد للدماء ...

و قد بقيت ذكريات هذا الاحتفال فى الأغاني و الأساطير .

و يقال أن الجائزة الأولى فى سباق العدو فاز بها المصرى الملك بن زخروم الهزيل و الطويل مثل العمود . كان يبلغ من العمر خمسة و ثلاثين عاما و طوال حياته كان يبنى الجسور. و مثله مثل أى عالم لم يعجب أمراء بلاده شيء ما فيه و اضطر إلى الفرار بقافلة تجارية إلى تركستان . و هنا أصبح أيضا مشهورا لعلمه و كان الكثيرون ينظرون إليه من طرف خفى .

توجه إلى صاحب الاحتفال و قال : أيها الكريم محمد حكيم . لقد ذكرتم أن الفائز يمكنه أن يطلب بدلا من الطائر الذهبى أى شيء آخر يعادل قيمته . و إننى البائس أطلب منكم أن تعطونى المال لبناء جسر رائع فوق سيحون داريا . إننى لم أتمكن من بناء مثل هذا الجسر فوق نهر النيل و الآن سيتحقق حلمى . و سيتمكن الناس من زيارة بعضهم البعض و ينتهى حينئذ العداء بينهم. وكلما تم بناء المزيد من الجسور على الأرض فستقل الحروب .

اتقدت عيون الرجل عندما تحدث بمثل هذه الكلمات الرائعة . و لكن سرعان ماعبس جميع الخانات و الأمراء و الشيوخ و الحكام المدعون إلى ذلك الاحتفال . حملق التاجر فى وجوههم و أومأ برأسه :

حسنا أيها العالم العداء أنا ملتزم بكلمتى . و لكن من الضرورى فقط حساب تكلفة هذا البناء .

ركض البناء السعيد إلى المكان الذى أراد أن يبني فيه الجسر و جلس يحسب على شاطىء سيحون داريا الموحل . وفى الصباح عثروا على البناء ميتا مع كسر في العمود الفقرى .

و فاز بالجائزة الثانية السلطان بوروندوك على الجمل الأسود العالى لكنه رفض الطائر الذهبي .

***



قال له النكتة السهبية المرة في إشارة الى الشائعات التى تشوه سمعة التاجر : الأفضل أن تعطينى زوجتك الأخيرة التي أنجبت لك بالفعل الطفل الذهبى .

و كم كانت دهشته عظيمة عندما وافق التاجر و أرسل فى ذلك المساء إلى خيمة بوروندوك زوجته الشابة .

فاز بالجائزة الثالثة محمد شيبانى الذى يبلغ من العمر خمسة عشر عاما على حصانه الرائع أختا نجير سليل حصان أبوالخير الشهير تارلانكوك .

قال للتاجر إن الطائر الذهبى يليق فقط بالخانات . و إننى فقط مجرد محارب في جيش جدى المجيد أطال الله فى عمره . و إننى أطلب منك أن تسلح لي بثمن الجائزة خمسمائة من الاتباع

نظر التاجر الذكى القارىء للقلب البشرى بثبات فى عيون الفتى و أومأ برأسه موافقا :

قال إذا كنتم ترغبون في ذلك فإننى على استعداد أن أسلح لكم ألف محارب و أحنى رأسه بخضوع كما لو كان أمام خان حقيقى .

أدرك جميع أعداء أبوالخير فى تلك اللحظة أنه من السابق لأوانه دفن قبيلة أبوالخير فلديه يترعرع وريث قوى .

فى المساء قرر البكوات و السلاطين المتآمرين إرسال قاتل لمحمد شيبانى . وافق بورونودوك

على الفور و لكن السلطان قاسم عارض هذا القرار فجأة و قال :

نحن سلاطين و لسنا قتلة ليل . ينبغى قتل وريث عرش الخان في معركة عادلة .

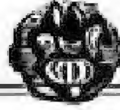
في تلك الليلة حذر السلطان قاسم الفتى محمد شيباني أن يكون حذرا. و فى الليل تسلل كوريباى القاتل الأجير الذى وعدوه بجبال من الذهب خفية إلى مخدع محمد شيباني ممسكا خنجرا فى يده و لكنه محمد شيبانى تمكن من شقه إلى نصفين ...

و هكذا بقيت الطيور الثلاث الذهبية لدى التاجر الماكر محمد حكيم .

***

و وقع حدثان أيضا فى هذا الإحتفال .

حضرت خانوم ربيعة سلطان بيغيم الاحتفال مع أبنائها و رافقتها الأرملة أكوزى .



و قد نصبوا لهم خصيصا على أحد التلال اثنين من منازل اليورت البيضاء و تجمع بالقرب منهم الكثير من الناس فقد أراد الجميع أن يشاهدوا الملابس الفخمة التى ترتديها النساء ومتعلقات الخيول المرصعة بالأحجار الكريمة .

ما إن حصل محمد شيبانى على الجائزة و أضاء مجده مثل الشعلة في الليل أصبح السلطان سيونوشك الطموح الذى حفظ دروس الوزير بختى خوجة مدى الحياة أشد بياضا من الثلج بسبب الحسد المدمر . حينذاك صارت الحكيمة ربيعة سلطان بيغيم تشرح له العواقب التى تنتج عن العداء بين الأقارب من أجل العرش و المجد و قصت على الصبى قصة مقتل أبيها و أخذت وعدا من ابنها الحبيب الذى كاد أن يحكم عليها فى وقت من الأوقات بالموت المخزى ألا يسعى إلى عرش الخانة .

و قالت ينتظر الحاكم الموت والبؤس . و لكى تكون سعيدا ينبغى فى كل مرة أن تدوس على رأس أفعى الحسد التى تتربص بالإنسان في أكثر الأماكن غير المتوقعة . و إذا أعطيتها حريتها للحظة واحدة فإنها سوف تعضك . و الجروح التى تحدثها أسنانها غير قابلة للشفاء .

أما الحدث الثانى فلم يلحظه أحد . كانت أكوزى أرملة ابن الخان تجلس على سجادة ناعمة فى خيمتها البيضاء و فجأة سقط ظل عريض على قدميها. قفز قلبها عندما شاهدت الوجه المشوه للرجل الواقف على عتبة الباب ...

لا تخافي ... أنا أوراك .

قالت أوراك أوراك وهى فاقدة للوعى .

نعم أنا على قيد الحياة و لكن أسوأ من رجل ميت كما ترين ...

حكى لها قصة إنقاذه بصوت هادىء و ثابت و هو لايزال واقفا فى على عتبة البابو كانت تسمعه و كأنها فى حلم .

قال لها إن الناس يقولون أنك أقسمت على القرآن و على الخبز أنك لن تتزوجي مطلقا وإننى أشكرك أنك لم تنسى ذكراى . و إننى لن أنسى اخلاصك حتى عندما تتقبل الأرض السوداء رفاتى . و الآن أنا أحررك منى و أطلب منك باسم حبنا النقي عدم التخلي عن الأفراح التى وهبها الله و أن تتزوجى من رجل مناسب . و إننى أنزع عنك قسمك . إننى بالنسبة لك ميت و لكن بالنسبة لكل الجناة و جميع الخانات و السلاطين و الأمراء والأثرياء الآخرين ذوى القلوب القاسية فإننى سأعيش للأبد .



صاحت أكوزى إنتظر.

لكنه كان قد اختفى بالفعل. و خرجت مسرعة من الخيمة. لكن لم يكن هناك أحد بالخارج.

في صباح اليوم التالى أصيبب الناس بالذعر فلقد سرق الفارس المجهول الملقب « بالأعور» مع أربعين فارسا من أنصاره قطيعا ضخما من الخيول المملوكة للتاجر محمد حكيم التارازى. و كتب على حجر من أحجار السهوب ما يلي : « كعقاب على وفاة باني الجسور بن زارخوم و لتنعم روحه الطاهرة في بساتين الجنة».

***

في ذلك الصيف نقل عيسى بوجا خان مغولستان مقره نهائيا الى أكسو.

قال فى المجلس الخانى إن الكازاخ يحموننا من الأعداء الخارجيين و إذا اخترق الأعداء دفاعاتهم فعلى كل أمير و حاكم التفكير فى الدفاع بنفسه.

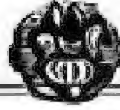
اعتقد الخان أنه بهذا القرار يرضى رعاياه الغاضبين على الدوام. لم يكن لديه قوة أو رغبة أن يعارضهم. لقد خلصه قدوم الكازاخ من القلاقل على الحدود الغربية. و أعرب عن اعتقاده أنه لن يخاطر الآن كل من جونوس أو عبد السيد أو أبوالخير نفسه بغزو مغولستان لأنه قبل ذلك سيكونون مضطرين إلى العبور عبر القبائل الكازخية الرحل المعادية لهم.

كان حاكم مغولستان محقا فى شيء ما. فلقد تفاجأ كل من جونوس و حاميه عبد السيد بالفعل من الظهور غير المتوقع للفرسان الكازاخ على حدودهم. و الآن تم إغلاق الطريق المباشر بإحكام أمامهم إلى المماليك فبدأوا في البحث عن طرق أخرى إلى مغولستان وسرعان ما وجدوها.

اتضح أن نقل مقر الخان إلى أكسو كان مفيدا لخططهم. لم يكد يستقر هناك

عيسى بوجا مع حاشيته حتى أبلغوه ما لا يصدق فلقد ظهرت فى الثلاثة معابر من أكسو فرسان جونوس و حليفه عمر شيخ ميرزا.

ذهب جونوس ببساطة بعيدا و التف حول الأراضى التى يشغلها الكازاخ. و تحرك جيشه شمالا عبر الصحراء المهجورة القاحلة و عند البحر الأزرق تقريبا عبر إلى الروافد الدنيا لنهر ايلى و تحرك للأعلى مع التيار و دخل ياركيند.



لم يكن مقدرا لعيسى بوجا التعيس أن يعيش طويلا . فقد مرض قبل شهر من قدوم السلطان جونوس إلى ياركيند و لازم الفراش . كان لديه مرض غريب . كان بالكاد يحرك لسانه وكانت عينيه يغشاها الظلام . وبدت الحياة للخان كالحلم والأحلام كحياة حقيقية . كانت تزوره فقط فى تلك الأحلام الفتاة ذهبية الشعر ذات العيون الزرقاء التى تشبه السماء فوق ألاتاى . و قد أدهشه أنه أخيرا خرج من هذه الحياة الرهيبة وبعد ثلاثين عاما تقابل معها و هى لا تزال فى ميعة الصبا .

أراد المحيطون بالخان أن يسمعوا الاسم الذى يتذكره قبل الموت .. اقتربوا من رأسه وهمسوا فى فزع « أستغفر الله ..... أستغفر الله . نطلب من الله ألا يكرر أحد من الأحياء ذنوب خاننا» .

فيودوسيا .

هكذا كانت تدعى ابنة الكافر و قد كانت تهمس بهذا الاسم شفتى عيسى بوجا .

ما إن سمع السلطان جونوس بوفاة شقيقه حتى حول بشكل حاسم الخيول في الاتجاه المعاكس على الرغم من توسلات حليفه و زوج ابنته عمر شيخ ميرزا .

قال له «عمر شيخ ميرزا» لن تكرر فى حياتك أبدا مثل هذه الفرصة المواتية . إنهم الآن حائرون و غير مستعدون للمعركة . العرش أمامكم و أنتم كتلميذ الملا المرتجف الخائف من العصا تفرون من المعركة .

قال السلطان جونوس بهدوء " لا أستطيع الدخول بالسلاح لحضور جنازة أخى . ماذا سيقول الناس" .

ربما تذكر فى هذه اللحظة كيف أبلغ أبيه عن حب شقيقه للفتاة زرقاء العينين الغريبة . و مع ذلك فقد عاد في نفس اليوم مع جيشه إلى تركستان .

***

ربما كان هذا أحكم قرار . فقد أعلن الأقارب بالإجماع دون الانتظار لنهاية الولائم الجنائزية التى استمرت قرابة الأسبوع على روح عيسى بوجا جونوس خانا على مغولستان .



II

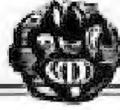
في منتصف الطريق بين قبيلة أبوالخير و مغولستان و بلاد ما وراء النهر تقع منطقة رطبة شاسعة أطلقوا عليها منذ القدم تركستان . يحدها نهر سيحون داريا من الغرب ومن الشرق سلسة جبال كاراتاى و تتداخل حدودها فى الشمال مع سهوب دشت و قبجاق وتقطعها من الجنوب أنهار بادام و تشيرشيك . و تحميها الصحراء و عدم وجود الماء من جيرانها الجشعين . و تتناوب على أرضها الكثبان الرملية مع كثبان الملح التى تشقها الشمس إلى سهول و منها تخرج مثل السيوف المنحنية متجهة إلى السماء منحدرات صخرية عالية . وكأنها تنذر بالظهور الوشيك هناك خلف الأفق بسلسة الجبال الضخمة تيان شان و بامير التاى و جبال هندكوش ...

في هذه السهوب الجافة تقع على الأنهار المنبثقة من الجبال غير البعيدة منذ زمن سحيق مدن سيجناك و سوران و ياسا و سيرام و أرخوك و أرتور الشهيرة على نهر سيحون داريا .

و حولها فى كل العصور التصقت بها ضواحى و قرى صغيرة و التى عاش فيها سكان من مختلف القوميات . و كانت هذه المدن مراكزثقافية و دينية و تجارية فى السهوب الكازاخية الشاسعة و ربطتها بجميع بلدان الشرق .

يجرى نهر تشو أحد أكبر الأنهار الكازاخية بالضبط فى نقطة تلاقى تركستان وسهوب دشت و قبجاق . و تكون بدايته من جبال تيان شان في البحيرات الشفافة .

و لكن مياهه تنبع فى الأعلى في أنهار تريسكى آلاتاو الجليدية . بعد أن يخرج النهر من مضايق آلاتاو يواصل طريقة بسلاسة و قوة عبرالرمال حتى يصب فى المستنقعات المالحة لسهوب دشت و قبجاق . هناك فى الأرض المالحة يوجد العديد من البحيرات نصف المالحة و العذبة و المتصلة مع بعضها البعض من خلال الأنهار الصغيرة و الفروع . و في واحدة من هذه البحيرات يصب نهر تشو المنهك قبل أن يصل إلى سيحون داريا بمقدار مسيرة يوم واحد على الخيل . و توجد بحيرة أخرى .على مسافة قريبة حيث يصب نهر سهبى آخر و هو ساريسو الذى يجرى عبر دشت و قبجاق من الشمال الشرقي . و فى الحقيقة أنه في السنوات الجافة يختفي أحيانا في منتصف الطريق في الرمال و لكن الناس ذوي الخبرة دائما ما يعثرون على المياه العذبة حتى في المجرى الجاف .



على مسيرة خمسة أيام سفر بالخيول من ذلك المكان الذى يتجه فيه نهر تشو نهائيا ناحية الغرب يوجد البحر الأزرق بلخاش و الذى يصب فيه خمسة أنهار كبيرة .

و بهذه الطريقة يرتبط الجزء الجنوبى من سهوب دشت و قبجاق بأكمله و الصحارى المتاخمة له بسلسلة واحدة من الأنهار و البحيرات و التى على امتدادها حتى في سنوات الجفاف يمكن للخيل أن تجتازها . في العصور القديمة كانت المياه هنا أكثر من الوقت الراهن لذلك ازدهرت آنذاك مدن سيجناك و تاراز و أورتار و التي كان من الممكن المرورمنها عبر المياه أو بالقرب منها إلى أعماق السهوب العظمى .

***

و قد عبرت القبائل و العشائر الكازاخية القادمة مع جانيبيك و كيرى أنهار تشو وساريسو و تالاس و جزء منهم البحر الأزرق فى دروع مع التيار . في عام القدوم قبل حلول الصقيع الخريفى وضع أكثر من مائتي ألف لاجئ منازل اليورت على طول الشواطئ فى سفوح الجبال المريحة و المحمية من الرياح. وقد ذهبت بعض القرى إلى أبعد من ذلك في الجبال حيث يخضر العشب فى فصل الشتاء. و قد عبر السلطان جانيبيك مع قريته والتولنجوتيون عبر الجليد إلى الجانب الآخر من البحر الأزرق إلى دلتا نهر كاراتال حيث توجد المراعى الصيفية لبعض القبائل الكازاخية. و قد بنيت هناك أكواخ للناس والماشية.

كانت شهرة السلطان جانيبيك كبيرة جدا بين الكازاخ و كانوا يعترفون به ضمنيا زعيما لهم . لقد كانت بداية جيدة و شغلت الدولة الكازاخية المطوية فى الواقع مساحة شاسعة من بحيرة تيليكول إلى تارباجاتاى .

وهكذا امتلك الكازاخ مساحات شاسعة لإدارة إقتصاد الترحال وحصلوا على أماكن ممتازة لقضاء فصل الشتاء . ومع ذلك فقد كان هناك في الأماكن البرية غير المأهولة بالسكان على طول الأنهار وبخاصة في المناطق التي غمرتها الفيضانات على طول شواطئ البحيرات في تلك الأيام الكثير من الحيوانات المفترسة بما فيها الفهود و النمور . وقد اضطروا إلى مراقبة الماشية فى كلا المكانين و لكن الكازاخ الصيادين و المحاربين بالفطرة سرعان ما طردوا الحيوانات المفترسة من أماكن الرعى الخاصة بهم .

لكن لم يكن الخان عيسى بوجا طيبا إلى ذلك الحد الذى يقدم للاجئين تلك الأراضى الرائعة مقابل حراسة الحدود فقط . لا عجب أنهم يقولون إنه اذا أهدى قاطن السهوب شيئا لقريبة فإنه يهديه أغلى شىء أولا يجعله يعيش فى راحة و سلام . كم هى رائعة تلك



المروج الفيضية عند الأنهار و البحيرات في الشتاء عندما تسمح الثلوج الضحلة حتى أثناء الصقيع بإقتياد الماشية إلى المراعي و كم هى لا تطاق في فصل الصيف عندما تحول الجحافل التى لا حصر لها من البعوض و الهوام جميع أشكال الحياة البشرية و الحيوانية إلى جحيم . لذلك لم يستقر الناس هنا منذ أمد بعيد . و ما إن تقوم شمس الربيع بنشر الدفء حتى يغادرون المخيم و يهيمون على وجوههم فى هذه الأماكن . و فى كل ربيع كان جانيبيك و كيرى يفكران باستمرار فى كيفية العثور على مراعى . كان فى حوزتهم فى الوقت الراهن مائة و عشرين ألفا من منازل اليورت و كانت ثروة الكازاخ المتمثلة فى الماشية تعتمد إعتمادا كليا على المراعي المريحة ...

كانت القرى الكازاخية التى قدمت معه إلى مغولستان تعود فى كل صيف طوعا أو كرها إلى المنطقة الواقعة إلى الغرب من البحر الأزرق التى كانت لا تزال خاضعة لقبيلة أبو الخير . و لكن كانت يدى الخان قصيرة للوصول إليهم و أصبحت هذه الأراضي بسرعة كبيرة ضمنيا خارجة عن سيطرته .

***

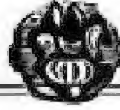
قامت العشائر الكازاخية القاطنة فى تلك الأماكن بالإعتراف بسلطة السلطانين جانيبيك و كيرى عليهم .

وأصبحت كل هذه العشائر الموحدة التى يقودها أناس حازمون و عمليون قوة لا يستهان بها و بعد خمس سنوات من الرحيل الجماعى من سهوب دشت و قبجاق توصل مجلس بايات و شيوخ جميع العشائر والقبائل الخاضعة لجانيبيك و كيرى إلى قرار هام . في أوائل الربيع بناء على اقتراح من السلطان جانيبيك تم تنصيب السلطان كيرى الأكبر سنا خانا للقبيلة البيضاء أى قبيلة الكازاخ .

كان هذا إعلانا واضحا بانشاء الخانية الكازاخية . و لم يكن الأمر مجرد إعلان رسمى للخانية الخاصة بهم و لكن قرروا فى هذا الربيع أن يكون ترحال القرى الرئيسية للمراعى الصيفية داخل سهوب دشت و قبجاق .

قال ممثلو العشائر و القبائل إن السهوب ملكنا منذ القدم و إن خان أبوالخير نفسه قد غادر ديارهم تقريبا مع معسكره و إننا نعود إلى ديارنا . و إذا حاول أبوالخير أن يمنعنا فسوف نقاتله كخان أجنبى غازى .

***



اضطروا إلى القتال و لكن ليس مع خان أبوالخير . فمقر أبوالخير الآن على مشارف بلاد ما وراء النهر و إنه لم يعد يستطيع كما كان من قبل بغارة خاطفة اخضاع سهوب دشت و قبجاق . كل ما كان قادراعلى القيام به في هذا الوقت هو ارسال عشرة آلاف جندى من اللشكريين بقيادة كاراتشين القائد العسكري الرهيب .أدرك الجيش بسرعة كبيرة القرى الكازاخية التى تتحرك ببطء عبر السهوب و لكن لم يتمكن من تنفيذ تعليمات أبوالخير فى الدفع بهم إلى الصحراء و قتلهم عن بكرة أبيهم . فقد كان يتبع القرى جيش مكون من ثلاثين ألف جندى بقيادة جانيبيك نفسه فى جاهزية تامة للمعركة .

تظاهر السلطان جانيبيك ببساطة أنه لم يلاحظ فرسان كاراتشين . و اتبع عسكر أبوالخير مثال كلاب الفناء المشيعة للذئب الرمادى على مسافة آمنة . ساروا لفترة طويلة خلف القرى و لم يجرؤوا على الهجوم . و نادرا ما كانت الدوريات المتقدمة تطلق السهام على الجنود المتأخرين و لكن بمجرد أن يبطىء فرسان السلطان جانيبيك من عدو خيولهم يتراجع عسكر أبوالخير .

و فجأة استدار الثلاثون ألفا من الفرسان الكازاخ و هرعوا كالحمم المدمرة إلى عسكر أبو الخير و لفوا أنشوطة الحبال حول جيشهم . كانت هذه طريقة سهبية قديمة نسيها كاراتشين . و بعد أن تمالك القائد نفسه كان الأوان قد فات للتراجع . كانت السهوب الجرداء ممتدة لمساحات شاسعة و ليس هناك مكان للاختباء فيه و شد الثلاثون ألف فارس الأقواس منتظرين فقط أمر جانيبيك ليفرغون فى نصف دقيقة جراب سهامهم . من غير المرجح أن ينجو أحد بعد ذلك من عساكر أبوالخير و إذا نجا أحد فإنه لن يهرب من أنشوطة الحبل .

***

حينئذ طلب كاراتشين باجاتور السلام . لم يرغب السلطان جانيبيك أن يبدأ علاقاته الجديدة مع جيرانه المستقبلين بسفك الدماء فوافق على ذلك و لكن بشرط أن من يرغب منهم في البقاء معه يتركهم كاراتشين . كان من بين عسكر أبوالخير الكثير من المحبين للسهوب فانضم ثلاثة آلاف جندي منهم لجيش جانيبيك. وأطلق سراح الباقين وأجلس كل إثنين على حصان واحد . حتى الآن بقى الطريق السهبى الذين يطلقون عليه « إثنان على حصان »...

***



مرت ثلاث سنوات و اعتاد الجميع على الترحال فى فصل الصيف إلى موطنهم الأصلى. بعد هزيمة كاراتشين أقسم الغاضب خان أبوالخير على معاقبة الكازاخ المنشقين عن قبيلته و لكن فكر أن يفعل ذلك بضربة واحدة عند الاستيلاء على مغولستان . و في حال نجاح حملته التى يخطط لها فإن جميع مخيمات الكازاخ الشتوية الموجودة الآن فى مغولستان سوف تقع فى يديه و لن يفلت أحد من كازاخ القبيلة البيضاء ...

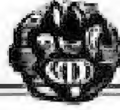
سرعان ما توفى كيرى الذى كان مريضا لفترة طويلة و تم تنصيب جانيبيك خانا لجميع الكازاخ. وعندما رفعوه على السجادة البيضاء كانت القبائل الكازاخية بالفعل قد شغلت جميع الأراضي فى وديان تشو و تالاس و ساريسو و حول البحر الأزرق فى الجنوب وفى فصل الصيف ذهبوا إلى الشمال إلى سهوب دشت و قبجاق حتى وصلوا يسيلونورا وتوبول. وأصبح الجيران يطلقون على الخانية الجديدة القبيلة البيضاء .

لكن خان جانيبيك كان يعرف جيدا أنه إذا لم يحدث توحيد فى القريب العاجل لكل السهوب الكازاخية فإن القبيلة البيضاء الوليدة ستنهار سريعا . . فأبوالخير الغاضب سيجمع جيشا ضخما و سيعترض طريق القرى المرتحلة و سيقتطع منهم المراعي الصيفية فى جايلاو . و سيكون المخرج فى هذه الحالة إما الانصياع له أو الموت .

إن إنشاء دولة كازاخية قوية موحدة هو ما سينقذ الشعب من التفتيت و الابتلاع من قبل الشعوب الأخرى . كان جانيبيك فى ذلك الوقت سياسيا محنكا و يعرف صعوبة وجود مثل هذه الدولة بجيش نظامي و نظام ضريبى موحد للاقتصاد الترحالى . لمثل هذه الدولة ينبغى وجود مدن و لكن ليس مدن على غرار سمرقند و بخارى و مرو و لكن مدن تجذب إلى السهوب و تشكل معها اقتصادا موحدا .

أحيانا يفكر جانيبيك و يستسلم لحلمه الأبدى فى التحالف مع روسيا و المدن الواقعة على نهر الفولجا و جايك و لكنه سرعان ما يلغى هذه الفكرة . فروسيا بعيدة جدا عن الخانية الكازاخية الفتية و إنها هى نفسها لا تزال تشبه فرخ العقاب الذى لم يتمالك نفسه بعد .

ويمكن الحديث بهذه الطريقة فقط عن المدن الواقعة على حواف السهوب و الممرات المائية المرتبطة بها ، أو مسارات القوافل المزودة بالمياة . لذلك ينبغى لهذه المدن أن تكون متاخمة لحدود تلك البلدان التي للسهوب معها علاقات تجارية مزدهرة . و ستلبى جميع هذه المطالب بالكامل مدن شمال تركستان التى بنيت فى حين ما خصيصا من أجل التبادل التجارى مع البدو الرحل القدماء . لكن تركستان خاضعة لأبوالخير و جيشه أقرب لهم من أن مسارات الرحل البعيدة ...



إن مدن سيجناك وسايرام و وياسى و المدن القديمة الأخرى فى تركستان قد محيت فى وقت ما من على وجه الأرض من قبل المغول الغزاة . و كان على ما يبدو أنها لن تقوم له قائمة أبدا و لكن الناس أعادوا بناء سيجناك و قام جد جانيبيك أوروس خان بنقل مقر القبيلة البيضاء إلى هناك . و الآن يتعين على خان جانيبيك الذى أحيا القبيلة البيضاء من جديد انتزاع عاصمة جده من أبوالخير القوى .

كان يتعين على جانيبيك فعل الكثير . أولا كان عليه أن ينشىء دولة موحدة من العشائر و القبائل الكازاخية المتفرقين و المتشاحنين مع بعضهم البعض و المنجذبين إلى دول أخرى . و لكى لا يخنق الجيران المتوحشون هذه الدولة يبنبغى إنشاء جيش قوى موحد . و الشىء الأهم ينبغى إحياء سهوب دشت و قبجاق و هذا الجزء من تركستان الذى كان وفى وقت ما ملكا للقبيلة البيضاء و التي بدونه كان الوجود المستقل ضربا من الخيال .

إن الاستيلاء على مدن تركستان يعني حربا دموية طويلة مع خان أبوالخير والتيموريين المتحالفين معه . فبالنسبة لهم تعد مدن تركستان الكازاخية المفتاح الذي يفتح دائما الطريق إلى السهوب . و بالنسبة إليهم فإن خسارة تركستان تعادل التخلى عن جميع الغزوات فى الشمال و الشرق ناهيك عن التهديد من قبل الجار السهبى الوليد .

لم يكن الأمر يتمثل فقط فى الوجود العسكرى فقط . بالنسبة للسكان المستقرين في جميع أنحاء آسيا الوسطى كان اللحم و من قبله الصوف و الجلد ضروريين بنفس قدر حاجة البدو الرحل لمنتجات الحرفيين في المناطق الحضرية . فجميع السلع التى ينتجها الشرق الأوسط بوفرة لأسواق الصين و الهند و أوروبا مثل السجاد الخراسانى و البخارى والخوارزمى الشهير و أفضل الجلود و الصوف و القماش في العالم ترد بطريقة أو بأخرى من البدو الرحل . و الثروة الحيوانية المحلية فى بلاد ما ورواء النهر أو فى خوارزم تكفى بالكاد لتلبية احتياجات الكثافة السكانية العالية هناك .

من أجل إنتاج السلع كان من الضرورى التجارة مع السهوب الكازاخية . والشخص الذى يمتلك مدن تركستان هو من يحدد الأسعار . و كالعادة لم تكن في صالح المنتجين الرئيسيين .

و بالنسبة للعديد من القبائل الكازاخية لم يكن الجزء الشمالي من تركستان وخاصة واحة بريسيرداريا مهما فقط كمدن و لكن الأمر الأول تمثل فى العبور لقضاء فصل الشتاء فى مغولستان البعيدة و منطقة الأنهار السبعة و تمثل الأمر الآخر فى أنه على مسيرة أيام قليلة يوجد نهر سيحون داريا حيث تقع لدى الكازاخ منذ القدم أماكن رعى



شتوية ممتازة . و علاوة على ذلك يستطيعون بيع منتجات الاقتصاد الترحالى دون وسطاء.
خلد الخان الكازاخى جانيبيك للنوم و رأى فى المنام عاصمته المستقبلية سيجناكو رأى مدن ساوران و سوزاك و ياسى و سايرام التى أعيد بنائها و تحصينها . مثل كل الخانات لم يكن يهتم كثيرا بوضع و مصالح السكان المحليين و اذا أبدوا اهتماما فمن زاوية كيفية استخدام الحالة العاطفية للناس في الحرب المستقبلية .

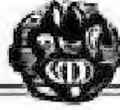
و هنا لا بد من القول أنه أظهر بعد النظر . ففى كل هذه المدن التركستانية المحاطة بحزام عريض من الحقول و الحدائق كان الفلاحون الذين لم يكونوا يختلفون كثيرا عن العبيد يكدحون بصورة غير أدمية . و كانت تفرض عليهم ضرائب فادحة ، و لكنهم كانوا يعانون أكثر من الجبايات غير القانونية التى يفرضها الحكام واحدا تلو الآخر . كان حكام هذه المدن و جباة الضرائب و البايات الذين لا حصر لهم و غيرهم ممن يملكون السلطة يسحلون المزارعين و الحرفيين إلى درجة أن هؤلاء الناس كان يضطرون إلى بيع أطفالهم كعبيد لدفع « جراج الجراجات » كما كانوا يطلقون على ضريبة الخان .

بالإضافة إلى ذلك كان هؤلاء الحكام و جباة الضرائب غريبى الأطوار و فاسدون . ما إن تبدأ الحرب فإنهم يقررون بأنفسهم إلى جانب يكونون و يختارون القوى الذى استولى على المدينة و يبقى السلطة فى أيديهم . و عادة ما يجعل الخان أو الأمير الحاكم شخصا مخلصا و فى أغلب الأحوال من أقاربه . و التزم خان أبوالخير بهذ المبدأ . فقد حكم أقاربه مدن ياسى و ساوران و سايرام .

كان أبوالخير مع كل ارتيابه و شكوكه على ثقة أن كل هؤلاء الناس يموتون ولا يسلمون المدن التى تحت أيديهم للعدو . كان ذلك صحيحا بالفعل و لكن لم يقترب عدو أقوى من أبو الخير بعد من أسوار هذه المدن .

ربما كان السلطان جانيبيك أفضل من فهم ذلك. كان يعمل على ألا يضطر فرسانه غير المعتادين على اقتحام المدن تسلق الأسوار العالية. كان الشيء الأهم له هو دخول تركستان بجيش بحيث يصبح واضحا للجميع تفوقه الكامل على أبوالخير. ولن يضطر حكام المدن إرغام أنفسهم على البقاء رغم كل ما لديهم من علاقة قرابة مع أبوالخير والولاء الذى أظهروه له كثيرا ...

ولكن الآن حان الوقت الأكثر خطورة فى حياة القبيلة البيضاء. كان أمام العشائر الكازاخية هدف واحد و هو تحرير أنفسهم من نير أبوالخير و قد توقف الشقاق والنزاع تقريبا. و لكن الآن عندما امتلكوا مراعى جيدة بدا للكثيرين مرة أخرى أنه



يمكنكهم العيش مستقلين بدون الحاجة لدولة عامة حيث أن أى باى أو فارس متشبع بالفخر القبلي يعتبر نفسه على قدم المساواة مع جانيبيك الذي كان منذ فترة قليلة مجرد سلطان بسيط . بالإضافة إلى ذلك فإن الأعداء لم يزعجوا الكازاخ من زمن بعيد وحن الكثير من الجنود إلى العودة إلى ديارهم . و أرادوا مثل الآخرين أن يتهادوا خلف القطعان المسالمة و يستمتعون بالأغاني و سباقات الخيل .. كان يجدون صعوبة فى تصديق أن الجيش الذى أنشأه جانيبيك وحده هو الذى سيمنع الأعداء من ارتكاب المجازر الدموية ضد البدو الرحل المتمردين .

لم ينم أيضا خان أبوالخير . و اندس رجاله بين الساخطين و حرضوا العشائر بعضها ضد بعض و وعدوهم بالدعم فى الاقتتال الداخلى . أدرك جانيبيك أنه إذا استمر هذا الوضع فإن كل جهوده ستذهب سدى . ينبغى ضرب خان أبوالخير بسلاحه . كانت أرجين و قبجاق اليد اليمنى و اليسرى لأبوالخير فى سياسته فى السهوب . قرر جانيبيك أن يمسك فى يديه تلك الهراوتين . لا ينبغى هنا إظهار الليونة فعندما لا يساعد الإقناع ينبغى الضرب على الرأس .

لقد حان الوقت للانتقال إلى سياسة نشطة لتحقيق الهدف و مع هذا الهدف عاد خان جانيبيك بمقره و الموالين له من القرى إلى إلى شواطئ كاراكنجير . و هناك في وسط السهوب الكازاخية ضم للمجلس البايات والفرسان البارزين من العشيرتين القوتين المتنافستين أرجين و قبجاق . أولا و قبل كل شيء وجهت الدعوة للمغنين و أصحاب الفم الذهبي و من بينهم الشاعر كوتان التى « قامته مثل الغراب». و مرة أخرى انتظر الجميع بفارغ الصبر وصول الخالد أسان كا يجى- أسان جوريمكى . لقد تجاوز المائة عام بكثير و لا يتخيل الناس أنه سيموت كما سيموتون .

***

نزل الحكيم العجوز و العراف و المحب للحقيقة عن جمله السريع ذو السنام الواحد المعروف في جميع أنحاء السهوب و وضع يده على عيونه الحادة لحمايتها من الشمس الغاربة وراء التلال . و دوت الأصوات السلمية التقليدية في الهواء الدافئ مثل ثغاء الأغنام فى مكان ما قريب و خوار الأبقار المارة ذات القرون الضخمة و الضروع الثقيلة أحفاد الثور الأسطورى كما يقولون « زيجى بابا» . وصهلت بصوت رنان الخيول السهبية ذات العرف الطويل و الجمال السوداء المسماة نارا تنادى بصوت كالبوق على الجمال الصغيرة و صوت أنثوى صاف ينادى بمودة على طفل « كوزى جان كوزى جان» أنت حملى ...



يا حمل.

أصبحت جميع الأرض الفيضية لنهر كاراكينجير التى لا مثيل لها الخصبة بالأعشاب و نبات الديس على فترات متقطعة مدخنة . فقد استقرت هناك مئات القرى و بدت أسراب الخيام من بعيد كلعب الأطفال. و فى كل مكان على جانبي النهر تتصاعد الزوابع الترابية البطيئة إلى السماء الهادئة . و هذا ما يدفع قطعان الأبقار و الأغنام للاقتراب من القرى في المساء و يصل الضجيج الأصم كما لو كان من تحت الأرض . و دوى من مكان قريب جدا هدير حوافر خيل. فقد هرع فارس شاب يمتطى حصانا و فى يديه أنشوطة من الحبال خلف حصان أبيض غير مروض. و قد تفلت منه الحصان و تابع العجوز أسايان كا يجى هذه المطاردة مدة طويلة.

خرج خان جانيبيك من خيمته ما إن سمع بقدوم أسايان كا يجى ليكون فى استقبال المغنى الشعبى و تكريمه التكريم الواجب. و خرج معه البايات و الشيوخ و الشعراء الذين وصلوا للتو . توقف جانيبيك رغما عنه على عتبة الباب و تباعد حاجبيه الكثيفتان المخيفتان . و ظهر شيء يشبه الابتسامة على الوجه العبوس و المهموم دائما و خرج الهواء من صدره بصعوبة ...

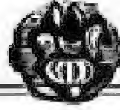
كان من المستحيل أن يبقى غير مبال لدى رؤية تلك اللوحة المفتوحة. لقد كان فيها بعض الهدوء غير العادى و اختفى الخوف على الفور و بدت الهموم غير ثقيلة إلى هذا الحد .

قال جانيبيك بهدوء : هكذا ستنقضى الحياة و لن ترى أكثر من هذا .

و في الوقت نفسه أبدع الفارس الذى كان يطارد الحصان الأبيض و ألقى عصا طويلة أفقية على رقبة الحصان فاندفع الحصان الأبيض و سحب الشاب مع حصانه على طول ضفة النهر . و مع ذلك تمالك الشاب نفسه و ثبت قدميه فى الركاب ، و صار يلف الحبل ببطء على قطب العصا فبدأ الحصان الأبيض تدريجيا يهدأ حتى توقف عند السرج الذى يجلس فيه الفارس .

قال خان جانيبيك انه فتى رائع . ابن من هذا الفارس ؟ لقد شهد اليوم أسان كا يجى بنفسه شجاعته و مهارته .

ركض أحد الأتباع ليعرف اسم الفارس و التفت جانيبيك بقوه و ذهب إلى أسان كا يجى الذى كان يمسكه من الجانبين الشاعر الأرجينى كوتان و الشاعر القبجاقى كازتوجان . توجه الناس من جميع الجهات إلى التل الذى كان يقف عليه الشيخ العظيم و وقف الجميع فى الأسفل فى تقديس صامت . كان هذا الصمت أسمى من أشد التحيات الصاخبة و التى خلفها يمكن بسهولة إخفاء المشاعر الحقيقية .



ثم حدث ما لا يصدق . اقترب خان القبيلة البيضاء جانيبيك الذى يرتعد أمامه الأعداء من التل و كابن أمام والده المسن الحكيم انحنى انحناءة عظيمة . لم يحدث هذا أبدا فى السهوب أن انحنى الخان لمغنى شعبى .

و قال كلمات ترحيب لا تمت بصلة تماما للطريقة الخانية :

قال : مرحبا بالجد أسان ..

نظر الجميع إلى المغنى الكبير فى انتظار رده .

قال هل أنت على ما يرام يا شعلتنا ؟ لم يقل الحكيم خلال حياته الطويلة مثل هذه الكلمات البسيطة و الهامة لأى خان .

وفقا للعادات الكازاخية القديمة تعانقا ثلاث مرات من خلال الكتف كالناس الذين يكررون الشيء ذاته ثم مال بصدره على الشاعر كوتان و الشاعر الصغير كازتوجان و ذهب الجميع إلى منزل اليورت النسائى الأبيض الذى يشبه الشراع العالى فى السهوب الكازاخية المفتوحة لكل الرياح ...

دخلوا منزل اليورت و جلسوا على الجانب الأيمن على بطانية مبطنة بالحرير . أجلسوا أسان كايجى أعلى من الباقين حتى أعلى من الخان نفسه . وكل تفصيله من تفاصيل

الضيافة السهبية لها أهمية خاصة و يفهم الجميع دون كلام هذه المحادثة الصامتة. عندما أحضر الجنود القائمين على الخدمة و لم يكن ذلك من قبيل الصدفة الوسائد الناعمة لتوضع تحت مرافق الشعراء لم يقم أسان كايجى ومن وراءه المغنيين الآخرين بالاتكاء عليها و صاروا يجلسون ضامين أرجلهم على الطريقة السهبية احتراما للخان .

أحنى خان جانيبيك رأسه باحترام فى اتجاههم و بعد ذلك فقط غيروا جلستهم .

قال جانيبيك : مرحبا بكم يا أسان كايجى العظيم بين أطفالك و هل أنتم قدمتم من مسافة بعيدة؟

المسافة بالنسبة لجملى أكسيراك ليست بعيدة و بالنسبة لرجل عجوز مثلى ليست قريبة ثم ابتسم الرجل العجوز ابتسامة شبابية و ابتسم معه الجميع . لقد كنت في الجنة الأرضية حيث تزهر الأشجار مرتين في العام و تغنى العنادل فى الشتاء ... لقد كنت فى الماليك عند جبال آلاتاو الخضراء حيث ارتحل ذات مرة إلى هناك جدى مايكى بيك . هز أسان كايجى رأسه و قال نعم هناك الكثير من نعم الله حتى أن الروم قاموا ببناء كنيسة



هناك فى وقت من الأوقات لتأكيد هذا الأمر ... و ستسيل دماء كثيرة أيضا على هذه الأرض يا جانيبيك .

إن نبوءاتك ليست سارة أيها الشاعر .

و من سنلوم أنه على جميع طرق الأرض استقر من قبل أجدادنا . لكن الرياح السيئة دائما ما تهب بسبب هذه الجبال و أوما أسان كا يجى إلى الشرق إلى الاتجاه الذي جاء منه. من هناك و فى هذه المرة أيضا تأتى المحنة الرئيسية على مناطق ترحالنا و لن نستطيع الاختباء منها فى هذه السهوب الشاسعة .

و ماذا تقترح ؟

أن لا نبتعد عن الخطر و لكن ننتظره فى الأنهار السبعة عند جبال آلاتاو على أرضنا القديمة . فلتكن هناك مدننا و مراعينا ليعرف الأعداء أنه ينتظرهم دائما لقاء يليق بهم .

و إذا أغلقنا للأبد الممرات الشرقية فستكون السهوب أكثر هدوءا .

و كيف سيتقبلوننا هناك ؟

فى الأنهار السبعة يعيش باسيملى والوسون أسلاف العشائر الخاضعة لك . منذ مائتي عام بنوا هناك عاصمتهم ألماليك . وحد الكازاخ و ناضل من أجل أرض أجدادك . الأنهار السبعة هى أرض ميعادنا . و إذا لم تجلب لك السعادة فستجلبها لذريتك ...

و هل ستتركنا الذئاب الرمادية من قبيلة أبوالخير أن نفعل ذلك ؟ لا ضير فى أنهم الآن يكشرون لنا عن أنيابهم و لكن سيأتى الوقت و سيكونون فى نفس موقفنا . . . .

حتى يحين ذلك الحين سيكون لديهم متسع من

الوقت للوصول إلى جلودنا .

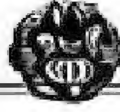
ربما تكون القرون القادمة أكثر إشراقا و لكن لا يزال القوى يكسر حلق الضعيف.

لذلك من الأفضل أن تكون قويا ياخان القبيلة البيضاء.

ولكن الذئاب قوية..

إنك لن تستطيع تغيير طباع الذئب ... في الطريق إلى هنا توجهت إلى ياسى لآداء الصلاة فى مسجد أحمد خوجة و قد نزف قلبى مما شاهدته هناك .

***



ماذا رأيت هناك أيها الشاعر ؟

لقد ساق الكازاخ ماشيتهم إلى ياسى من أجل بيعها . فلقد أمر الحاكم أن يسلبهم ماشيتهم و يطردهم هم أنفسهم إلى الرمال .

نعم إنهم فى كل مرة يفعلون ذلك .

قفز الشاعر الصغير كازتوجان من مكانة و قال :

و أين يستطيع الكازاخ حينذاك شراء الشيت لتغطية أجسادهم و قماش الكفن القطنى ليلفون فيه به بعد الموت ؟

من المرجح أن انفجار سخط المغني الشاب قد أثر على خان جانيبيك . فقد ضغط الهادىء دائما و المتوازن جانيبيك على مقبض سوطه حتى ظهر البياض فى أصابعه و قال :

كل هذا سنأخذه فى تركستان ... سنأخذه بأنفسنا إن لم يريدوا أن يبيعوه لنا .

نظر أسان كا يجى إلى جانيبيك بشكل متأمل و قال :

يا شعلتى يا جانيبيك ... إننى أرى فيك حكمة جدك الجليل أوروس خان . و أود أن أقول أننى أشك في جدوى خططك . لقد أعجبنى على الفور رحيلك عن أبوالخير لكني لم أستحسن فى نفسى ترحالك إلى الأنهار السبعة . لكننى أدركت الآن فقط إلى أى مدى كنت ترمى ، و بطبيعة الحال نحن في حاجة إلى المدن التى أورثها قبيلته جدك أوروس خان. فنحن لسنا بحاجة إلى عنب بخارى أو مشمش طشقند مهما كان لذيذا . و لكن بدون مدننا حيث يمكننا أن نبيع خيولنا لن تقوم لنا قائمة ...

تركستان أرض آبائى و أنا لا أريد سفك دماء الأشقاء . و لكن ما لعمل إذا لم يرد أبوالخير أن يعيد مدننا ؟ الآن قوتنا ليست كبيرة . و لكن في العام المقبل عندما تصلنا التعزيزات فسنتحدث بصوت عال .

تدخل فى الحوار الشاعر كوتان و قال في كل أمر حكمته الخاصة به . إن الناس الذى تعبوا من الترحال المستمر و صاروا الآن يأكلون حتى الشبع . و عندما ينمو اللحم و الدهن فلن تستطيع أن تسنهضهم و لو بالسوط .

يهجم العدو على الحلق و ليس على الدهن .

هز الشاعر كوتا رأسه متأملا :

الشبعان لا يفكر فى الطعام .



ستمع خان جانيبيك طويلا إلى حديث الشعراء عن الحرب و السلم . لم يذكروا عدد الرماح و السيوف أو حتى عدد القوات ، و لكنهم يذكرون شيء يصعب فهمه و لكنه الشيء الأكثر أهمية . و في كثير من الأحيان شهد بنفسه أثناء المعركة كيف تراجع القوى أمام الضعيف و كيف هزم الجيش قليل العدد جيشا يفوقه عدة مرات . إنه ذلك العلم الذى بدونه لا يكون هناك قائد حقيقى و فيه يكون الشعراء أفضل المعلمين .

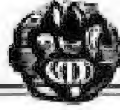
قال لهم أشكركم على تلك الأفكار التى عبرتم عنها هنا و جعلتنى أقوى بكثير عن ذى قبل و إننى لن أنسى أبدا كلماتكم الحكيمة .

***

نصبوا لكل شاعر خيمة بيضاء و كانت خيمة أسان كايجى البيضاء تماثل تقريبا خيمة الخان و لكن هل دامت منازل الشعراء الشعبيين فى أى وقت من الأوقات . إنهم ينتقلون من من خيمة إلى خيمة و من قرية إلى قرية و فى اليوم الذى يزورون فيه بيت أحد ما يصبح هذا اليوم عيدا أسريا و عشائريا إلى الأبد . و سرعان ما جاء هنا إلى القرى التابعة لمقر خان جانيبيبك من شواطىء إديل الشاعر شالكييز ذى الخامسة عشر ربيعا ابن أخ حاكم أستراخان تيمير بك . نعم إنه يبلغ من العمرةخمسة عشر عاما فقط و لكنه اشتهر فى السهوب كلها بالصدق و سعة الحيلة و الشجاعة التى لاهوادة فيها فيما يتعلق بأقوياء هذا العالم . و قد منحته السهوب كلها هذه البادئة النحوية المهمة التى تسبق اسمه وهى لفظة الشاعر ...

انعقد المجلس الخانى العظيم الذى دعا إليه جانيبيك في هذه الأيام أيضا بمشاركة الشعراء. و قد جرى فيه الحديث عن التوحيد الكامل للكازاخ و تقرر استدعاء جميع قوادي فرسان جميع العشائر الكازخية لاجتماع طارىء فى كاراتوز نور . و كان الذهاب إلى هناك من أى مكان يتسم بالراحة .

كان يتعين مناقشة ثلاث قضايا فى هذا الاجتماع . القضية الأولى تتمثل فى دمج جميع العشائر و القبائل دون استثناء في قبيلة موحدة . و القضية الثانية نظرا لبعد مناطق البدو الرحل الكازاخية بعضها عن البعض ينبغى تشكيل ثلاث اتحادات قبلية و كل جزء يتحدد طبقا للأرض المسكونة و الاهتمامات الاقتصادية و العلاقات العشائرية والتضامن . بالفعل لمدة نصف قرن يتحدث الكازاخ عن تلك عن المنظومة إلا أن الصراع الداخلى الأبدى لم يتح الفرصة للتوصل إلى أى قرار مقبول من الجميع . الآن حانت اللحظة المناسبة . تم اقتراح أن يكون لكل جزء الباى الخاص به أو فارس و له مقر ، و لكن يكون



تابعا للمقر الرئيسى للقبيلة البيضاء . و تشبه هذه المنظومة فى نواح كثيرة تقسيم جنكيز خان أو التقسيم إلى ولايات كما فعل تيمورلنك و الفارق الوحيد أنهم يفعلون ذلك ليس من أجل الحملات حملات الغزو البعيدة و لكن لإنقاذ أنفسهم ...

القضية الثالثة كانت تنبثق من القضيتين السابقتين إذ كان يتعين على الخانية الكازاخية الموحدة أن تطالب أبوالخير بإعادة مدنهم على الحافة الجنوبية من السهوب . وفى حالة عدم موافقته على ذلك فلا بديل عن الحرب ...

مر فصل الصيف و قبل حلول اليوم المحدد بأسبوعين ارتحلت قرية الخان يرافقها الأقارب و الأصدقاء المقربين و التولينجوتيون إلى بحيرة ساؤومال كول . و كان يستغرق الوصول إلى كاراتوز نور من هنا سفر نصف يوم على ظهور الخيل السريعة .

و الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى هناك ملىء بالأشواك القاسية و بالأعواد الجافة . و على جانبيها سهول ملحية صلبة مثل الحجر . كان كل شيء هنا يبدو كئيبا و غامضا .

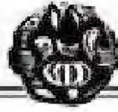
و العمود الأسود المعلق عليه رقاع بيضاء و الجماجم البشرية المتكلسة بفعل الشمس لعدة قرون تذكر بأنه فى العصور القديمة كانت هذه الأماكن مقدسة و قدمت فيها القرابين لآلهة السهوب القاسية .

***

و قبل الوقت المحدد أرسل خان جانيبيك قافلة خاصة إلى كاراتوز . و قد تم نصب خمسين منزل يورت كبير من أجل الضيوف ، و حفرت آبار جديدة حيث كانوا يحصلون على المياه فى قرب جلدية . و على طول الوادى امتدت الحبال التي ربطوا بها المهور الصغيرة . و جلبوا قطيع كبير من الأفراس من أجل الحليب . و قد وصل جانيبيك قبل الجميع يرافقه أبناؤه جاديك و قاسم و بوروندوك نجل الراحل كيرى قبل الجميع ليستقبل شخصيا ممثلي العشائر و القبائل .

سرعان ما بدأ البايات و الشيوخ و الفرسان الكازاخ في التدفق على كاراتوز . و لقد كان المختارون فقط وحدهم يعلمون بهذا الاجتماع . كانوا تقريبا جميعهم من قادة القبائل و العشائر و كان البعض منهم يملك قطعان لا حصر لها من الخيول و الأغنام . و قد رافق كل واحد منهم مفارز من المحاربين و الفرسان و مئات من التولينجوتين . كانت السلطة على السهوب في أيديهم و كلامهم يعني الكثير لخان جانيبيك ...

***



كان القرن الخامس عشر قرنا صعبا على الشعب الكازاخى و تحديدا في هذا القرن أدركت العشائر و القبائل الكازاخية المتناثرة و المتقاتلة فيما بينها في حرب ضروس أنه ينبغى عليهم فى نهاية المطاف أن يتوحدوا من أجل البقاء على قيد الحياة . لكن زعماء العشائر كانوا مستبدين و تواقين للمجد .

بحكم طبيعتهم كانوا معارضين للدولة الموحدة . لكن هذه المرة كانت العاصفة الوطنية الشاملة قوية لدرجة أنها جذبتهم خلفها رغما عنهم . و عندما تنبهوا كان الأوان قد فات لمقاومتها بالإضافة إلى أن وزن خان جانيبيك كان ثقيلا بما يكفى فى السهوب .

هكذا غنى منذ بضع سنوات الشاعر البالغ شالكييس عن هذه الأحداث ساخرا من الحاكم تيمير بك :

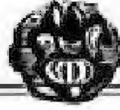
إننى ابن تيلينشا - شالكييسو تيميربك - هو شمسى ...

إنه قوى - تيميريبك - لدرجة أننى فى عهده لمست الغيوم بقرونى هكذا بدا لي ولكنى كنت مجرد نقار خشب وحيد

و بالكاد لم أكسر بسبب الغباء هذه القرون ...

إن «تيمير بيك» حفيد الفارس الأسطورى يد يجى الذى كان يخاف الناس من مجرد ذكر اسمه كان يدرك جيدا أنه إذا خضع لخان جانيبيك فإنه سيفقد الكثير من سلطته غير المحدودة. و كان يعتقد «أن الأوزة بين الغربان أفضل من الأوزة بين الاوز»، و بدأ في تعزيز علاقاته مع كازان و شبه جزيرة القرم . و في العام نفسه زوج ابنته ذات الخامسة عشر ربيعا من ابن خان كازان . و فى المستقبل توقع تحسن العلاقات حتى مع السلاطين الأتراك البعيدين الذين أصبحوا في كثير من الأحيان يزورون القرم و سهوب أستراخان لكنه يفعل ذلك ليس من منطلق الرغبة في إقامة علاقات حسن الجوار و لكن لكسب التأييد في الصراع الداخلى فى السهوب . كان يتصرف حكام المناطق الحدودية السهبية على هذا النحو على أمل أن يحتفظوا لأنفسهم بأكبر قدر ممكن من السلطة . و بالمناسبةعندما كانت تحين اللحظة المناسبة فإنهم كانوا ينسون فورا الإلتزامات التى أقسموا عليها أمام حلفائهم و يهاجمونهم كأشرس الأعداء ...

أخذ « تيمير بيك» يفكر : على كل حال لقد ضعف أبوالخير بعد رحيل الكازاخ، ثم إن روسيا الموسكوفية ليست قريبة ، و نسعى إلى إيجاد لغة مشتركة مع كازان وبين أديل وجايك يرتحل الألشين المخلصين لى و جزء مني النوجالينسيف . و هكذا فالخطر



الرئيسي بالنسبة لى يتمثل فى خان جانيبيك الذى « يمتلك قبضة حديدية في قفاز مخملى ».

لكن «تيمير بيك» كالعادة لم يجب بالرفض الكامل . فلقد كانت رغبة شعبه فى التوحد كبيرة جدا و مثل ذلك الرفض كان سيضر بزعيم العشيرة حتى بين أنصاره خاصة و أن الحديث يدور حول الحرب ضد قبيلة أبوالخير البغيضة التى جلبت الكثير من المتاعب للألشين .

قال « تيمير بيك » فى بداية الإجتماع إنه لأمر جيد أن السهوب قررت أن تصبح موحدة .

وقد حان الأوان منذ فترة طويلة أن ننتزع تركستان من أبوالخير و ننزع عنه أسنانه. إن الألشين و الجاباس و الجاكالبايلينس و الآخرين القاطنين بين أديل و جايك على استعداد لتقديم خمس تومين (التومين وحدة عسكرية تتكون من عشرة آلاف جندى ـ المترجم) لمساعدة جانيبيك . و لكن هل من الملائم أن نخضع لخان يوجد فى مكان ما يبعد عنا بسبع و عشرين أرضا فى سيجناك ؟

ضحك الوسونى «كارا أوسبان» أكبر الجميع سنا فى هذا المكان بصوت عال و قال :

ألا تعتقد أن حصان خان جانيبيك لن يستطيع أن يقطع بسهولة نفس المسافة التي قطعها حصان تيمير بيك ؟

فهم « تيمير بيك » العصبى التلميح و وفقا للعادة القديمة ألقى أمامه على السجادة سوطا مزدوجا ملفوفا بأسلاك ذهبية كعلامة على استعداده للجدال و قال :

من غير الممكن الوصول إلى كل الأماكن على ظهر الحصان فهنا سيسقط كالعشب المجزوز ... و قد كان لخان أبوالخير قرون طويلة و وصل بعض فرسانه حتى إديل و إلى كازان نفسها . و ماذا كانت النتيجة ؟ عادوا إلى الديار برقاب ممدودة كالعمود و جلبوا معهم قملا فى حجم العصفور ...

رمى «كارا أوسبان» السوط أمامه و قال :

و لكنك يمكنك أن تعول على ملاعبة وهمة حصانك . و فى ذلك الوقت لم تكن الخيول مثل خيولك مزودة بالوهق (الوهق هو الحبل في أحد طرفيه أُنشوطة يُطرح في عنق الدابة و الإنسان حتى يؤخمذ – المترجم) . انتبه « يا تيمير بيك» كأنك تعتقد أن وهق جانيبيك ليس بأطول من وهق خان أبوالخير .



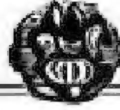
كانت هذه أصداء خلاف قديم. وعلى الرغم من أن الألشين و الجاباس و الجاك البايلينس الذين يرتحلون فى المنطقة الواقعة ما بين نهرى أديل و جايك كانوا رعايا خان أبوالخير لكن في الواقع لم تنصاع هذه العشائر الحربية فى أى وقت من الأوقات تماما له. وقد أرسل إليهم خان أبوالخير مرارا قوات لإخضاعهم و ترأس الفارس « كارا أوسبان » بنفسه ذات مرة واحدة من تلك الحملات ...

في ذلك الوقت كان العجوز «تينسيك بيك» والد «تيمير بيك» على قيد الحياة والذى و إن لم يكن قائدا متميزا فإنه كان يمتلك قدرا كبيرا من المكر و الحيلة. و قد قدم لابنه تيمير الذى بدأ فى ذلك الوقت يجمع السلطة فى يديه نصيحة هامة. قال له «لن ينتصرعليك جيش أبو الخير فى معركة مفتوحة. تظاهر بأنك لا تضمرله أى نوايا عدائية و على استعداد للخضوع له» أطاع تيمير بيك النصيحة الحكيمة. و ارتحلت كل القرى الخاضعة له لشبه جزيرة القرم و بقى هو مع خمسة آلاف الجنود و العربات فى مكانه.

عندما جاء « كارا أوسبان» بجيش عظيم إلى إديل رأى على الجانب الآخر الكثير من الخيام و الأدخنة التى لا حصر لها ترتفع إلى السماء. لا بد و أنها قرى ألشين و جاباس وجاكالبايلينس المتمردة الذى جاء لاخضاعها. و بدون اعطاء فترة راحة للجيش المتعب من السفر الشاق بدأ كارا أوسبان فى نفس الليلة العبور إلى الجانب الآخر. فى الصباح كان الجيش بالفعل فى المكان و لكن لم تكن هناك أية قرى على الساحل الغربي لإديل.

أدرك كارا أوسبان أنهم عبروا في نفس الليلة إلى الضفة الشرقية و غادروا إلى السهوب و تحديد إلى نهر جايك. أمر « كارا أوسبان» الغاضب بالرجوع ثانية و مطاردتهم. و لكن القرى المتمردة ابتعدت عنه بسرعة كبيرة و لم يتمكن من اللحاق بها و أدرك فقط بعد ألف كيلو متر فى رمال نارية أنه لا يطارد القرى و لكن يطارد جيش تيمير بيك. امتطى جيش تمير بيك خيولا مستر يحة و ابتعد بسهولة عن المطاردة. و اقترب الشتاء و أصبح الوقت متأخرا للعودة إلى شبه جزيرة القرم من أجل معاقبة القرى الأصلية. فاضطر إلى العودة إلى أبوالخير خال الوفاض ...

ذكر تيمير بيك الحاقد كارا أوسبان بهذه الحملة فما كان من كارا أوسبان إلا أن رد بالتهديد فى الواقع إن وهق جانيبيك أطول من وهق أبوالخير. فخان جانيبيك يتمتع بمكانة مرموقة و كانوا يساعدونه عن طيب خاطر أكثر مما كانوا يساعدون أبوالخير. و لابد من أخذ ذلك فى الاعتبار.



احتدم الجدال الأبدى بين العشائر مما ينذر بخوض معركة مفتوحة . تكهن خان جانيبيك بشكل محموم و قال إن تيمير بيك هذا لا يريد بوضوح الوحدة تحت صولجانى. إن ألشين و جاباس تقعان فى منطقة نائية و يجبرهما موقعهما أن يكونا معزولين و لكن الأمراض كلها معدية باستثناء كسر العظام . فما العمل إذا جذبوا خلفهما الآخرين ؟ .. لا يمكن السماح بحدوث ذلك .

رفع رأسه و حدق فى وجه تيمير بيك :

إن جدك الفارس يد يجى كان يفكر بطريقة أعمق و أوسع و أنت لا تريد الخروج من حدودك النوجالية . و هل يتفق معك ألشين و جاباس فى كل شىء ؟ هذا ماسيظهره المستقبل .و لكن عدونا المشترك هو أبوالخير و لابد من القتال ضده . لقد ذبح جدك كازا بيك نجل الفارس يد يجى لذلك قل لى مباشرة هل ستمدنا بعشرين ألفا من المحاربين فى هذه الحرب ؟

قال تيمير بيك بحزم : نعم .

هذا يكفى الآن و هناك سنرى .

أخذ تيمير بيك سوطه ببطء من على السجادة . و أخذ يفكر : أنت تريد أن تكون خانا على السهوب كلها يا جانيبيك و لكن هذا لن يحدث . إذا كنت بحاجة إلى خانية كبيرة فإنه يكفينا خانية صغيرة مثل التى عندنا و فى المستقبل سيكون هنا كالكثير من الجدل و المعارك يا خان جانيبيك . و فجأة حول الجميع رؤوسهم ثم وقفوا على أرجلهم .

إنذار ... إنذار .

العدو .

***

هرع فارس على ظهر جواد مزبد من الشرق إلى يورت الخان المفتوح حيث يجرى الاجتماع . و التقط الفرسان فى الخارج صرخته اليائسة و أوصلوها للأمام .و بدا أن السهوب بأكملها تصرخ .

كبح جماح جواده السريع و انزلق من على ظهره .

سأل خان جانيبيك أين العدو ؟



من هو العدو .. من ؟

و صار البايات و الفرسان القساة يحدقون لا إراديا فى الأفق الصافى .

كان الرسول شاب طويل القامة ذو شوارب نابته بالكاد .

صاح قائلا يا سيدي الخان العدو بالقرب من هنا . إنهم قادمون من ناحية كوك جينغال و قد أرسلهم أبوالخير . و يقودهما شاه حيدر الابن الأكبر للخان و كاراتشين باجاتور . و خيولهم من سلالة أخالتيكى و تيكي جاوميت التى تفوق خيولنا . و يعتمر الفرسان قبعات أستراخانية و مسحلون بسيوف و حراب. و سيتغرق وصولهم إلى هنا مدة حلب فرس واحد . و سأل خان جانيبيك بشكل عرضى و كم عددهم ؟ و لم يتغير وجهه أو صوته .

حوالي ألف فارس .

و أين فرقتنا الدفاعية؟.. إن عشائر كيرى و نايمان يحرسون من ذلك الجانب . .

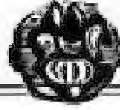
لقد ساروا بعيدا عنهم عبر الصحراء تاركين فرساننا فى أحد الجوانب و الآن تتبعهم عشائر كيرى و نايمان من الخلف ..

و هل تم إبلاغهم ؟ نعم لقد ذهب زميلى إليهم .

***

علم خان أبوالخير عن اجتماع الكازاخ العام فى منطقة « كاراتوز نور » منذ أسبوعين عن طريق جواسيسه ، و لكن تظاهر أنه لا يعرف شيئا . و مع ذلك فى إحدى الليالى خرج سرا من مقر الخان ألف من أشد قاطعى الرؤوس اللشكرين المختارين من التركمان السلاجقة و الماجنيت و البارلاس . و بقيادة ابنه شاه حيدر و كاراتشين باجاتور ، كانوا يسيرون فى الليل فقط أما فى أثناء النهار فكانوا يختفون في أحراش نبات الديس الذى ينمو على ضفاف الوديان السهبية . و قد كلفوا بمهمة بسيطة تتمثل فى هدم مقر جانيبيك عن طريق شن غارة مفاجئة و نثر رفاتهم فى الهواء .

كان خان جانيبيك الذي تعامل مع أبوالخير أكثر من مرة يفهم أنه عاجلا أم آجلا سيعلم أبو الخير عن هذا الاجتماع و سوف يتحين الفرصة السا نحة . لذلك فقد تم نشر وحدات دفاعية قوية فى الجوانب الأربعة . و بالتحديد من الشرق من ناحية البحر الأزرق قام بالحراسة محاربون من كيرى و نايمان على إبل من سلالة جيلامايا التى «تسابق الريح» . غير أن الجنود اللشكرين المحنكون استطاعوا بمجموعات صغيرة التسرب عبر كردونات



من الناحية التى لم يكونوا يتنتظرونهم فيها . وعلى كل حال فقد تم اكتشافهم ...

كان جنود الخان من التركمان السلاجقة قوة رهيبة بالفعل و قد بثوا الرعب أكثر من مرة فى الوحدات النظامية للإمبراطورية البيزنطية . و كالحمم الصلبة كانوا يكتسحون أعداءهم ممتطين ظهور خيول قوية ذات صدور ضخمة عالية ، و لم يأخذوا أسرى مطلقا . وكان خان أبوالخير يحتفظ بهم للمواقف الخاصة و يترك لهم كل الغنائم التى يحصلون عليها فى المعركة . و كانوا سنده حتى داخل قبيلته الخاصة .

و قد حضر الاجتماع أفضل الفرسان فى جميع القبائل الكازاخية . و ما إن سمعوا عن اقتراب جنود الخان اللشكريين البغيضين حتى ارتدوا الدروع الواقية للبدن و امتطوا ظهور الخيل . و من غير المرجح أن الجنود اللشكريين كانوا سيتقدمون للأمام إذا رأوا من سيحاربونهم .

كان قوبلاندى باتير وحده بالهراوة الضخمة فى يده يبث الخوف فى نفس أشجع الرجال. و كان الفارس كامبار أحد أبناء جانيبيك المشهور فى جميع المعارك لا يختلف عنه كثيرا . قالوا أنه خلال الحملة سحب من البئر جمل كبير كان قد سقط فيه .

و يمكن لشخصين أن يجلسا بسهولة على كتفيه ، لكنه كان نحيل الخصر ورقيق كأنه فتاة . و على عكس العديد من اخوته الآخرين لم يكن الفارس كامبار طموحا أو جشعا مما جعله يحصل قبل الآخرين على لقب الفارس . و قد صنع له خصيصا صانعو الأسلحة رمحا خاصا و سيفا يناسب ذراعه .

فى هذه المرة شغل الفارس كامبار مكانا وسطا بين العملاقين الفارس قوبلاندى والفارس كارا أوسبان . لقد شكلوا ما يشبه الوتد الذى ربط فيه الفرسان الآخرون .

و ظل خان جانيبيك جالسا على البساط مظهرا بكامل هيئته الإزدراء للعدو المقترب وبقى معه بعض المستشارين و الشعراء .

قال جانيبيك باسما إذا جاء العدو بنفسه إلينا فسيحصل على ما يستحقه . و قال أليس لدينا أبناء أكفاء كى يلقنوه درسا ؟ و أنت أيها الجد كوتان حالما يغسلون العدو من على أعتابنا غنى لنا أغنية عن الكيفية التى أخبروا بها عن وفاة جدى جوجى . لقد كنت أريد سماعها منذ فترة طويلة و قالوا لى إنك تتذكر جيدا هذه الملحمة .

صار جميع الشعراء و الضيوف يناشدون الشاعر كوتان كما لو أن المعركة الوشيكة لا تعنيهم . أخذ الرجل العجوز فى يديه رفيقه الأبدى آلة الكوبيز الموسيقية وبدأ يلمس الأوتار بهدوء ..



أحب جنكيز خان ولده الأكبر جوجى أكثر من جميع أبنائه و لكنه صار يخرج عن طاعته فأرسل إليه « قاهر العالم من يقتله فى أليتاو . و فى أثناء الصيد كسروا عموده الفقرى و وصل الخبر إلى القبيلة العظيمة» .

لكن الجميع كان يعلم أن جنكيز خان يحب جوجى جدا و أقسم أن يكسر العمود الفقرى لمن يخبره عن وفاة ابنه . و أراد أن يعيش حياته حتى توافيه المنية ولا يسمع بهذا الخبر المحزن. إن جميع الحكام الذين لا يريدون سماع أشياء غير سارة يتصرفون على هذا النحو .

أخذ المغنى العجوز جيرتشى على عاتقه مساعدة موظفى الخان الحائرين و إبلاغ جنكيز خان بوفاة جوجى . و أثناء الوليمة غنى العجوز جيرتشى :

تعكر البحر عند منابعه .

فمن يهدىء الموجات ياسيدى الخان ؟

و كسرت العاصفة شجرة الحور الرجراج من المنتصف .

فمن سيلصقها يا سيدى الخان ؟ و رد جنكيز خان أيضا ببضع أبيات :

إذا تعكر البحر عند ينابيعه فسيهدىء الأمواج ابنى العزيز جوجى

و إذا كسرت العاصفة شجرة الحور الرجراج من المنتصف فإن ابنى جوجى لا شك على قيد الحياة

حينئذ كرر جيرتشى نفس المقطع عن البحر العكر و شجرة الحور الرجراج المكسورة و تدفقت الدموع كالوابل من عينيه . و لكن جنكيز خان سأل :

لماذا تبكى يا جيرتشى ؟ لماذا أنت حزين هكذا ؟ هل حقا مات جوجى ؟

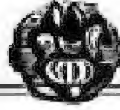
لقد أصبح قلبى باردا .

على هذا أجاب جيرتشى :

إن ذلك الذى لم يسمح به فمى قاله فمك يا سيدى الخان افعل معى ماتريد

لأنك أنت الذى خمنت ذلك يا سيدى الخان .

يقولون أن جنكيز خان بكى آنذاك للمرة الأولى فى حياته كطفل صغير . و لم يقصم ظهره موت ابنه الحبيب الذى أمر هو بقتله و إنما الإخبار بموته .



إننى حمار وحشى عجوز تعيس فقد مهره

إننى بجعة تغنى أغنية على فرخها الميت

هكذا غنى جنكيز خان و الشىء المخيف كانت الدموع الصادقة .

كم كان من الحزن الذى لا يتعزى عنه فى هذه الأغنية البكائية ، حتى أن جميع الشعراء و الفرسان كبار السن و المستشارين بدأوا فى التنهد . و لقد نسى الجميع مؤقتا الخطر المحدق بهم . و غنى الشاعر العجوز كوتان أغنية تلو أغنية و كان إحداها عن الفارس الأسطوري أوراك .

فقط الجمل الأكثر صبرا

سوف يمضى بالأمتعة على منحدر الجبل و فقط روح الإنسان غير الخاضع سوف تتحمل ما تحمله الفارس أوراك

كانت هذه الأغنية طويلة و حزينة مثل عواء الذئب الذى لا نهاية له و اخترقت الرجفة جميع المستمعين . تذكروا الشباب البعيد عندما كانواعلى استعداد لمواجهة المصاعب والموت في سبيل توكيد الذات و المجد .

يا أيها الفرسان يا أيها الفرسان المتحمسون

جيش الأعداء أمامكم و الموت لا يحدث مرتين

و تفادى الموتة الواحدة من المحال

قوى صوت الشاعر و أصبح يغنى الآن بسرعة و حرارة كما لو كان ينقض على العدو مع المحاربين . دوت الأغنية فى السهوب كلها و قام الفرسان المتطين صهوة الخيول بالضغط رغما عنهم على مقابض السيوف و السيوف المنحنية ...

جلس خان جانيبيك بوجه حجرى . و ربما لا أحد الآن أفضل منه يفهم أهمية المعركة الوشيكة . لم يكن الأمر فى أن جيش أبوالخير المختار بعناية قد توجه إليهم ، و أن القوات تقريبا متعادلة . كان الشيء الأهم هو أنه لأول مرة منذ قرنين من الزمان كان الناس على استعداد للإنقضاض على بعضهم البعض بعيدا عن الصراع العشائرى القديم . كان هذا اختبار للدولة التى قاموا بتأسيسها و الذى يتوقف عليه أشياء كثيرة .

و إذا صمدوا اليوم و هزموا العدو فإن هذا سيكون أول انتصار كازاخى مشترك .وفى



المعركة سيتدعم إخلاص المحاربين و سيتكلم الشعراء و يتغنون بهذه المعركة في السهوب كلها . و سيتحقق هذا النصر تحت صولجان الخان الواحد ..

و الذى يثبت الآن أنه خان كل الكازاخ و ليس مجرد فارس بسيط عدم مشاركته في المعركة. إنه يريد القفز على الحصان و يغرق في أتون المعركة و لكن حينها سيكون واحدا من كثيرين . و ليلصق به الأعداء فيما بعد صفة الجبن و إنه على استعداد حتى لذلك ..

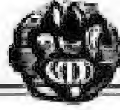
ليس كل إنسان يجد فى نفسه الشجاعة ليجلس على حافة أرض خالية و يستمع إلى الأغانى حين يقترب العدو اللدود . هذا مما لا بد منه لتعزيز الإيمان لدى الآخرين في النصر . فعندما يرى المحاربون زعيما هادئا لن يشعر الجنود أبدا بالذعر و لن يكون هناك مكان للشك و الارتباك ...

انتقل الشاعر كوتان بالفعل إلى أسطورة شهيرة عن يد يجى . و دوى صوته مثلما كان الحال فى شبابه و كانت كلماته الشجاعة نوبات مثل التعويذة .

***

و في الوقت نفسه انضم المزيد من المحاربين الجدد القادرين على حمل السلاح إلى الفرسان المصطفين للمعركة على التل . و بناء على دعوة من الشاعر كازتوجان توجه مئة من القبجاق لحماية الإمداد العسكرى . و ترأس كل من تيمير بيك و الشاعر شالكييز المائتين شخص المصاحبين لهما . و أصبح جميع أبناء جانيبيك و أبناء الراحل كيرى بقيادة بوروندوك على مقربة من ثلاثة فرسان من القادة . و تجمع حول مكان الاجتماع ما يقرب من خمسمائة جندى . و حدث أن قام الفارس كامبار بإصدار جميع التعليمات و لم يكن عند أحد بما فى ذلك المحاربين الأكبر سنا أى نوع من الاعتراض ... فى البداية ظهر فى الشمال الشرقى عمود من الغبار . و قد تزايد و اقترب بسرعة و فجأة خرج الفرسان من الغبار و كأنهم من نسله فى قبعات عالية مصنوعة من فرو الغنم بضفائر متدلية على العينين . و قد تحولت العباءات الحمراء و ظهور الخيول الناعمة بسبب الغبار إلى اللون البنى . وحدها كانت الرماح تلمع فى أشعة الشمس . و بتشكيل مغلق ركبوا مهرولين متباعدين عند السير و طوقوا مقر خان جانيبيك بنصف دائرة مخيفة .

كانت هذه هى الطريقة المفضلة لجنود أبوالخير اللشكاريين إذ يوقعون جيش العدو بأكمله فى أحبولة الوهق ليجبروه على التفرق فى اتجاهات مختلفة و التصادم مع بعضه



البعض و التخبط فى أسلحته الخاصة ، و من ثم يسهل تدميره دون السماح لأحد أن يفلت من هذه الحلقة القاتلة .

و لكن هذه المرة حدث الأمر بشكل مغاير عما توقعه قائد اللشكاريين شاه حيدر . لم تكد حواف حدوة الحصان تستدير حتى ظهر من الشمال و الشرق فى نفس الوقت إثنان من الحمم الخيلية التى انطلقت بأقصى سرعة داخل تشكيل اللشكاريين . و لم تدع الرماح المقذوفة و الهراوات الدائرة فوق الرؤوس و الصيحة الحربية لمختلف القبائل الكازاخية أى مجال للشك فى نيتهم . تلك كانت الفرق الاعتراضية التى وضعت على مداخل مكان اجتماع الخان . و تحركت عشائر كيرى و نايمان من الشرق و عشائر أرجين و قبجاق من الشمال و الذى جاء بهم قاسم ابن جانيبيك ...

غير أن العسكر اللشكاريين لم يعزمواعلى التراجع . فقد فردوا بسرعة أجنحة جيشهم و اقتربوا من المقر حيث كان يقف فرسان الكازاخ الرئيسيون و لكنهم توقفوا بسبب تطاير السهام و احتموا بالأسلحة من كلا الجانبين . و في الوقت نفسه قامت كل من الفرقتين القادمتين بتطويقهم من الجانبين حتى أن عسكر اللشكاريين أنفسهم أصبحوا في دائرة مميتة . و للحقيقة فقد كان بإمكانهم الخروج إذا اخترقوا الحلقة الرقيقة و لكن على ما يبدو أنهم لم يفكروا فى ذلك . و حتى الآن كانوا عادة ما يلتقون الفرق المتفرقة للفرسان الكازاخ و لم يعرفوا الهزائم مطلقا ... .

و فجأة تباعد تشكيل اللشكاريين ، و فى المساحة الخالية بين الأطراف المتحاربة انطلق فارس أسود ضخم على حصان أسود بحجم جمل كبير . كان كل شيء لدى الفارس أسود غطاء الرأس ، الدروع ، الخوذة ، و شوارب سوداء طويلة معلقة على جانبى الوجه . كان هذا الفارس الشهير باجاتور كاراتشين الصخرة السوداء . و الحق أنه كان رهيبا و صعبا كالصخرة ...

كان هناك نوعان من المعارك في تلك الأيام . و غالبا ما كانت المعركة تبدأ بأن يستدعى بعض الفرسان فرسانا آخرين من المعسكر المعادى للمبارزة . و يتعين على باقى الجيش عدم التحرك من مكانه فى انتظار النتيجة . و من يكسر هذه القاعدة يتلطخ بالعار الأبدى .

صاح كاراتشين باجاتور بكل مافى فى رئتيه من قوة فليخرج أحدكم لمبارزتى . من يلبس اللون الأبيض ؟ أنا .

دفع الفارس كامبار حصانه الأسود ذى النجمة البيضاءعلى جبهته إلى الأمام .



توقف .

قال ذلك بوروندوك ابن كيرى بلهجة آمرة فأوقف الفارس كامبار حصانه امتثالا للأمر . و ركب بوروندوك المربع جملا أبيضا محاربا و توهجت عيناه بشكل مخيف تحت حواجبه العابسة .

و قال هذا حقى إذ لا يوجد مثل هذا القانون الذى ينص على أن يذهب الأخ الأصغر إلى الموت قبل أخيه الأكبر ...

و بالفعل فقد كان يطلق على بوروندوك و كامبار إخوة وكان ابن كيرى هو الأكبر .

كان السلطان بوروندوك كجذع البلوط الطويل و يديه الضخمة بدت كالقضبان الحديدية . كان يلف شواربه السوداء الكثيفة التى يبلغ طول كل شارب منها طول ذراع خلف أذنيه مقلدا حضرة الإمام على الأسطورى . و كانت هيئته وحدها تبث رعبا لا يمكن التغلب عليه .

كان بوروندوك يركب جمله الأبيض الذي كان يفضله عن الخيول و قد قام بتدريبه على المبارازات و المعارك . و كان الجمل لدى رؤية الفارس يصاب بالجنون و يمسكه بأسنانه و ينزعه عن السرج . كان بوروندوك عادة ما يقتل عدوه بالهراوة فقط و التى يبلغ طولها عدد إثنين ساجين مائلين (حوالى 142 سم – المترجم) و لها طرف من الرصاص .

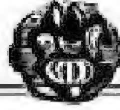
يا أيها الجلف الأسود الجالس على جنة الأبيض .

احذر أيتها الصخرة السوداء .

بهذه الصيحات كان الكازاخ يشعجون محاربهم . كانوا يعرفون مدى خطورة كاراتشين باجاتور و طريقته المشهورة . كان هذا الرجل يحتمى بيده اليمنى من هراوة عدوه ثم يقطع فجأة بيده اليسرى رأس حصانه. و من ثم يسهل التعامل مع الفارس المترجل . و ربما كان الفارس كامبار وحده القادر على التصدى له حيث أنه يستخدم هذه الطريقة أيضا ...

لكن بوروندوك لم يرد من قبيل العناد فقط أن يجرب قواه مع كاراتشين باجاتور . فبالإضافة إلى الكراهية المشروعة لتابع أبوالخير كان لبوروندوك مع قائد اللشكريين حسابات شخصية.

حقيقة الأمر أن لدى « كاراتشين باجاتور » أخت جميلة تدعى توختار بيغيم . كانت



تبدو للساذج بوروندوك عندما رآها بين الفتيات الأخريات كالزهرة بين الأقحوان . كان ذلك حين لم ينفصل بعد كيرى و جانيبيك عن قبيلة أبوالخير . لكن توختار بيغيم كانت متكبرة و فخورة بأخيها و لم تحظى باهتمام أى من الأبناء الكثيرين للسلاطين السهبين البسطاء .

عندما بلغت الفتاة أربعة عشرعاما أرسل إليها بوروندوك بموافقة أبيه أحد الأشخاص يعرض عليها الزواج فإذا رفضت كان كأن شيئا لم يحدث . لكنها قالت لرسول بوروندوك : « أنا لست بحاجة إلى هذه الكتلة الخرقاء ... إن هذ الأحمق لا يصلح إلا لبيتى فى تولينجوت» .

توجه حينئذ بسبب الكبرياء المهان كيرى و بوروندوك إلى «كاراتشين باجاتور» نفسه طالبين منه تزويج بوروندوك من أخته الصغرى . لكن «كاراتشين باجاتور» كان يدرك العلاقات السيئة القائمة بين سلاطين أرجين و خان أبوالخير فرفض متعللا بأن أخته مخطوبة لابن أحد الأمراء . و بعد أن انفصل جانيبيك و كيرى عن أبوالخير قام على الفور بتزويجها من أحد الفرسان الشباب فى جيش الخان . و هذه الإهانة لا يغفرونها فى السهوب من جيل إلى جيل . كان بوروندوك يحلم منذ عدة أعوام بمبارزة كاراتشين باجاتور . و ها هو القدر يرسل له الآن فرصة سعيدة . . .

هرع بوروندوك دون أن ينبس ببنت شفة إلى كاراتشين باجاتور . أحنى الجمل الشرس رقبته تقريبا حتى كادت أن تلامس الأرض و تطايرت جدائل الصوف الطويلة مع الريح وتساقطت الرغوة على شكل رقائق على الرمال . و كانت خطواته تبدو من بعيد عرجاء وغير متساوية لكنه كان يطير أسرع من أى حصان .

حينئذ مضى كاراتشين باجاتور قدما على حصانه . حبس الناس أنفاسهم لأنه بالفعل كان هذا التصادم يليق بمعركة الصخرة السوداء مع المارد الأبيض. و بعد أن كان كاراتشين باجاتور يحرك فوق رأسه هرواة كبيرة فتح فمه فجأة فى ذهول . فقد لاحظ الآن فقط أنه ليس لدى عدوه أى سلاح .

في أخر لحظة رفع كاراتشين باجاتور يده اليسرى التى يمسك بها سيف المبارزة قاصدا من الحركة قطع رأس الجمل . و لكنه ما إن اقترب بضع خطوات حتى مد بوروندوك يده اليمنى للأمام و شعر كاراتشين باجاتور فجأة بقشعريرة الموت على رقبته . و فى اللحظة الأخيرة حاول قطع حبل المشنقة الشعرى الرقيق و لكن بعد فوات الأوان . عاد الجمل أدراجه بنفس العدو الهائل ساحبا وراءه الصخرة السوداء و رافعا إلى السماء الغبار السهبى المر والمالح...



كل شيء حدث بسرعة حتى أنه لم يستطع أحد أن يستوعب ماحدث . شاهدوا فقط كيف أصبح حصان كاراتشين باجاتور كشمعة سوداء لأن الفارس كان مربوطا فى سرجه بحبل قوى . أما الآن فيجر الحصان في التراب مع صاحبه غير قادر على مقاومة قوة الجمل . و كان الحبل قويا جدا و كان مربوطا أيضا فى رمانة سرج الجمل .

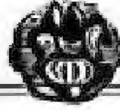
أرواح . أرواح ..

هكذا صاح بوروندوك داعيا أرواح أجداده ليشهدوا انتصاره . و لم تقطع رأس عدوه فقط بسبب أن الحبل وقع على الأكتاف الحديدية للخوذة. و أمام تشكيل الفرسان الكازاخ مباشرة انقطع الحبل و وقع كاراتشين باجاتو على الأرض و أمسكها بيده المشعرة العارية . ترجل أحد الفرسان عن فرسه وببقايا الحبل قيد أيدى الأسير . صهل الحصان الذى أطلق سراحه واندفع بعيدا إلى السهوب المفتوحة ...

بعد أن أصاب جنود خان أبوالخير اللشكريين الذهول لأسر كاراتشين باجاتور بدأوا فى تحويل خيولهم للعودة . و كان أول من فعل ذلك حيدر شاه . لم يلحق الفرسان الكازاخ أن يكرموا بوروندوك على نصره إلا و صعدت من جديد سحابة غبار الى السماء . و لكنها ابتعدت الآن مخفية وراءها العدو الهارب . و لم تستطع السلسلة الرقيقة من عشائر كيرى ونايمان أن تمنعه و قد حملت الخيول الضخمة من فصيلة تيكى جنود الخان اللشكريين إلى السهوب أسرع من الريح . و قام بعض الفرسان فقط ممتطين ظهور الخيول السهبية طويلة الذيل بمواصلة المطاردة منتزعين من السروج اللشكريين المتأخرين . و كان بين هؤلاء الفرسان الفارس قوبلاندى .

سبق الفارس قوبلاندى المحموم من جراء المطاردة جميع رفقائه . و قد لحق حصانه القوى خيول تيكى طويلة الساق ، و ألقت هراوته الضخمة اللشكريين على الأرض واحدا تلو الآخر. و عندما رأوا أن من يطاردهم قوبلاندى وحده قام خمسون من اللشكريين بتحويل خيولهم فجأة للخلف و عملوا حلقة حول الفارس القبجاقى . و ماذا يمكن أن يفعل أكثر الذئاب شراسة عندما يضرب خمسون من مثل هذه الذئاب حلقة حوله ؟ هذا و قد تخطى الفارس قوبلاندى الستين من عمره فى ذلك الوقت و على الرغم من أن القوة لم تخنه فلم يكن لديه الآن سعة الحيلة السابقة ...

و مع ذلك فقد حدثت معجزة تغنى بها الشعراء فيما بعد فقد انطلق الحصان الوفى بالفارس قوبلاندى و لم يلحق الأعداء أن يستوعبوا ما حدث حتى ابتعد داخل أحراش نباتا



لديس القريب عند البحيرة السهبية الجافة . و لكن لم يكن مقدرا للفارس قوبلاندى أن يفلت هذه المرة من تلك المطاردة . فى أحراش نبات الديس قبضت عليه من كلا الجانبين حبال جنود الخان اللشكريين الذين اعترضوا طريقه . و سقط جسد الفارس القوى من السرج مثل الريح و انطلق الحصان بدون الفارس في أحراش نبات الديس . و ما إن وقع الفارس قوبلاندى حتى سمع صيحة مدوية لأحد الأشخاص أكجول . أكجول . كان لديه الوقت للتفكير أن السماء سترسل له نهاية مخزية كعقاب على موت أكجول بيك ثم فقد ذاكرته ...

عندما فتح الفارس قوبلاندى عينيه وجد فارسا شابا طويلا و رشيقا مثل شجرة التنوب منحنيا عليه و امرأه لا يوجد مثيل لجمالها قد رأها من قبل فى مكان ما . كان الفارس يبدو معروفا لديه . وقف على قدميه بصعوبة و عرفهما معا . كان هذا الفارس هو الفارس سايان و معه جولبخرام ابنه خان أبوالخير التى أحبها الفارس قوبلاندى فى وقت من الأوقات ولكنها رفضته ...

***

بعد أن أنقذ الفارس سايان على شاطىء سيحون دارايا خان أبوالخير من النمر ثم من ابنته التى كانت ترغب فى إراقة دم أبيها ، واصل فى محيط الفرسان المستائين من مصائرهم الاشتغال بالسلب و النهب . كانوا مثل الذئاب يجوبون المنطقة الواقعة بين نهرى سيحون وجيحون و يسرقون قطعان بكوات ما وراء النهر و ينهبون القوافل الغنية . و كانت معهم دائما الجميلة حاملة فى يديها قوس البتولا و التى حكوا عنها الأساطير ...

لم يكن فرسان الفارس سايان وحدهم يشتغلون بالسلب تحت ضغط الظروف بل كان هناك فرسان آخرون كثيرون يفعلون ذلك فى تلك السنوات الصعبة . و بعد أن علم بقرب توحيد الكازاخ في دولة واحدة توجه الفارس سايان مع زوجته وابنه البالغ من العمر خمس سنوات و برفقة مئة من الموالين له لمقر الاجتماع على أمل أن جانيبيك لم ينساه بعد . و فى أحراش نبات الديس عند البحيرة الجافة كانوا يأخذون قسطا من الراحة عندما سمعوا ضوضاء المطاردة و شاهدوا الفارس الكازاخى المقيد بالحبل . لم يفكر الفارس سايان طويلا و قفز على فرسه و مع صيحة الحربية أكجول أكجول هرع لنجدته .

اعتقد اللشكريون أن القوات الرئيسية لجانيبيك قد وصلت فتركوا الفارس قوبلاندى و تابعوا سيرهم خلف فرقتهم ....



بدأ قلب الفارس قوبلاندى يتألم عندما تعرف على جولباخرام . و لكن العقل تغلب على المشاعر فقد أنقذه الآن الشخص الذى طالب و رغب بموته من موت محقق أو أسر مخزى و الذى هو أسوأ من الموت بالنسبة لفارس حقيقى . فكر الفارس قوبلاندى فى أن « الشعور بالكرامة يميز الإنسان عن الأرنب الذى يخفى رأسه في أحراش الديس » ثم نظر مباشرة في عيون عدوه السابق .

قال إن الفرسان يتصادقون عن حق فقط بعد قتال بعضهم البعض فهل يمكن أن تنسى كل ما كان بيننا من شر كما نسيته أنا ؟

قال سايان أنا لا أتذكر أي شىء .

تصافحا و ذهبا معا على رأس الفرقة إلى مقر الخان .

في هذا الوقت أمر خان جانيبيك بإقامة احتفال كبير بمناسبة الانتصار على جيش خان أبو الخير . و هكذا بدأت الحرب بهزيمة أبوالخير ، و لكن الأهم من ذلك أنه قد شارك بالفعل فى معركة النصر ممثلو جميع القبائل الكازاخية . و قد عزز عودة الفارس قوبلاندى جنبا إلى جنب مع عدوه السابق الفرحة العامة بالوحدة .

***

فى خضم الاحتفال حضر كاراتشين باجاتور مقيدا بالسلاسل مثل الدب إلى خيمة بوروندوك السوداء . إنه لم يعتاد الشكليات و أمسك الثور على الفور من قرنيه .

قال اسمع يا كاراتشين إذا كنت ترغب في البقاء على قيد الحياة و أن ترى سماء الوطن فوق رأسك فلب لى فقط رغبة واحدة .

وافق كاراتشين باجاتور بتجهم و قال تكلم يا بوروندوك .

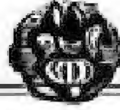
زوجنى توختار بيغيم شقيقتك المتغطرسة .

صاح الأسير باجاتور قائلا : إنها متزوجة منذ مدة طويلة و لديها ابن ...

قال بروندوك ببرود : طلقها من زوجها و يمكنك ترك الطفل لزوجها أو قم أنت على تربيته بنفسك . إننى أريد هذه المرأة .

إنك لا تتصرف وفق تعاليم محمد .

إننى فى نظرها غير مسلم .



صرخ التعيس كاراتشين بجاتور قائلا : كلا لا أستطيع ارتكاب مثل هذه الخطيئة إن ذلك ليس من ديننا . الأفضل أن تنزع رأسي من كتفى يا برondوك .

قال بروندوك و قد سحب السيف من غمده : لك ما تريد .

توسل كاراتشين بجاتور و قال : انتظر دعنى أفكر .

كان بوروندوك يذهب إليه كل ليلة بعد الاحتفال . و رفض أن يتزوج أى من بنات كاراتشين بجاتور الذين كانوا أصغر سنا و أكثر جمالا من توختار بيغيم .

قال بحزم :هذا الكائن سيكون فى سريرى و إلا سأشرب دمك يا كاراتشين . و لكن سأشرب ببطء بمقدار ملعقة فى اليوم.

بعد أن أدرك كاراتشين باجاتور أنه لن يفلت بطريقة أخرى من أيدى بوروندوك اضطر أن يبعث رسولا إلى إخوته يأمرهم بتطليق توختار بيغيم من زوجها و تزو يجها لبروندوك . وعرض كاراتشين على الفارس قدوس زوج توختار بيغيم أخته الصغرى تزو يجه من إحدى بناته.

***

فى الاجتماع تم إعلان الخانة الكازاخية الموحدة . و لا يمكن القول أن جميع قادة العشائر و الفرسان وافقوا على هذا بطيب خاطر . إن الضرورة فقط هى التى أجبرتهم على الوحدة و لم الشمل . و قد عارض هذا بصفة خاصة القادة المستبدون مثل تيمير بيك .

و اعتبروا مثل هذا الاتحاد مؤقت إلى أن يزول الخطر من جانب أبوالخير . بالإضافة إلى ذلك فقد أعجبهم إمكانية التقسيم إلى ثلاثة أجزاء و فى كل جزء يمكنهم أن يأخذوا زمام الأمورفي أيديهم .

و بدون التقسيم إلى أجزاء فمن المستحيل إدارة مثل هذه الدولة السهبية الضخمة والتي كان من المفترض أن تكون القبيلة المستقبلية . و فى الجزء القديم يجب أن تدخل أقدم العشائر مثل الوسون ، دولات ، جالاير و التي لا تزال توجد إلى الآن آثارهم و مقابرهم متناثرة فى جميع أنحاء الأنهار السبعة . و الجزء الأوسط وحد أقرب العشائر من حيث الأرض والخصائص الحياتية مثل أرجين و قبجاق و نايمان و كونراد و كيرى و أواك و تاراكتى. والجزء الأصغر يجب أن يتكون من عشائر ألشين و بايولى و أليمولى و جاجالبايولى الذين



يتجولون ما بين جايك و إديل . و من المفترض أن يندمج فى هذه الأجزاء عشائر سهبية صغيرة و عشائر ما زالت مع أبو الخير فى حدود تركستان .

و لفترة طويلة تواصل الجدال و الخلاف فى السهوب حول هذا التقسيم . و ارتحلت القرى من جزء إلى جزء آخر و حدثت جميع أنواع الانقسامات داخل العشائر . فقط بعد ثمانين سنة فى عهد خان حقنازار حفيد خان جانيبيك تشكلت معالم الأجزاء الكازاخية و شكل كل جزء من تلك الأجزاء من الآن فصاعدا قبيلة شبه مستقلة . و في هذا التجمع التاريخي أعطى العراف العظيم أسان كايجى كل عشيرة الشعار الخاص بها .

قال لقد سمانا جدنا المشرع العظيم مايهيى بيك من عشيرة الوسون القديمة الكازاخ حتى في عهد جنكيز خان عندما كان الجميع يسمون أنفسهم المغول و رفع رايتنا الكازاخية فوق السهوب . لذلك فلندع هذه الراية تبقى شعارا للوسون .

صاح الجميع صيحات استحسان مرحبين بشعار الوسون .

و فى وسط جميع عشائرنا يعيش أهل أرجين الذين حافظوا بشكل لم يمس على كلمتنا و أفكارنا . و العيون – رمز الحكمة الإنسانية – كانت شعارهم منذ أمد بعيد. فليبق هذا الشعار عند أهل أرجين .

و من جديد انحنت مئات الرؤوس مؤيدين ذلك .

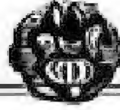
و قبجاق أول من تصدى لغزو العدو . لذلك فليكن الفأس الحربى المرفوع فوق الأعداء شعاره القبلى .

قال المجتمعون فى الاجتماع المجد لك يا أسان كايجى .

أعطيت أربعين قبيلة

كازاخية شعارات عشائرية . و قد قام الحرفيون التولينجوت بنقش هذه الشعارات على حجر ضخم من الجرانيت الأسود ، و بقى العمود الحجرى واقفا فى منطقة كاراتوز القديمة. و منذ ذلك الحين يسمى الناس هذا المكان شعارات نورا .

في اليوم التالى بارك أسان كايجى خانية جانيبيك و نيابة عن جميع القبائل الكازاخية بدون استثناء قام جانيبيك بالاغتسال فى حليب أربعين من الأفراس البيضاء ورفع على سجادة بيضاء .



غادر قادة العشائر إلى مناطق ترحالهم و اتفقوا على أن يخوضوا فى الربيع المقبل من السنة القادمة حربا مشتركة من أجل تحرير مدن شمال تركستان . لم يكن البعض منهم مسرورا للغاية و خاصة تمير بيك . و خلال أربعين سنة سيظل يعض شفتيه بعد أن رأى نجاح هذا الأمر الذى دشنت بدايته هنا فى منطقة كاراتوز نورا .

بعد ثلاثة أيام انتقل مقر الخان إلى شواطئ تشو و مرة أخرى وحدها الرياح رفعت أعمدة الغبار المالح على السهوب الفارغة ...

***

في يوم وصول السلطان بوروندوك إلى مقصورته الشتوية على نهر تالاس أحضر له إخوة كاراتشين باجاتور توختار بيغيم . في نفس اليوم أطلق سراح كاراتشين باجاتور و ذهب إلى دياره .

في المساء جاء بوروندوك المربع مفلطح الأنف إلى خيمة بيضاء أقيمت لزوجته الجديدة. جلست الرشيقة كشجرة الحور فى وطنها ما وراء النهر خلف وراء ستارة من الحرير وانتظرت. أخذ فى خلع حذائه الضخم و انتشرت في جميع أنحاء الخيمة راحة أغطية القدم النتنة . وذهب إليها حتى دون أن يغسل قدميه بعد الحملة ليزيد فى إذلالها ...

كان من السهل وفقا لوجه المرأة الباهت و الغاضب والنظرة المليئة بالكره تخمين أنها لن تغفر له أبدا فراق زوجها و ابنها الصغير الذى تركته في بلاد ما وراء النهر .

أمسك بوروندوك دون أن ينطق بكلمة واحدة قطته الصهباء غزيرة شعر الكفوف الجالسة بجوار الشماعة الفضية ودوى صراخ الحيوان المسكين الذى يدمى القلب. و فى لمح البصر نزع السلطان رأسها و أرجلها و ألقى بهم من خلال فتحة مدخنة الخيمة إلى الخارج. ثم نظر بهدوء إلى توختار بيغيم التى كانت منذ دقيقة مضت تبدو امراءة صعبة المراس لتتحول إلى امرأة سهلة الانقياد ترتجف من الخوف و رقدت حيث أشار باصبعة المغطى بالدم .

قال لها إذا أعجبتنى الآن فسوف تعيشين على أى وجه كان .

بعد عام أنجبت طفله أسمتها جوهر بيكى .



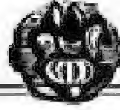
III

وصل خان جانيبيك فى الربيع إلى المراعي الصيفية في سارى عرقة و صار ينتظر هناك وصول القوات التى وعد بها فى الاجتماع . وهنا لأول مرة اكتشف ضعف الدولة الجديدة .

لم تكن هناك القوات المطلوبة لخوض حرب كبيرة . ويكفى القول أنه من اتحاد القبائل و العشائر المنضمة إلى الجزء الأصغر التى تتجول بين جايك و إديل ظهر أكثر من خمسمائة فارس. و للحقيقة كانوا من عشيرة أداى المحاربة التى تتميز بالشجاعة. كان المحاربون من العشائر الغربية يتوقون من كل أرواحهم إلى خانة جديدة لكنهم لا يستطيعون ترك قراهم ليوم واحد دون حماية ، لأن خانات كازان والقرم و أستراخان وبايات نوجاى الكثيرين يشحذون أسنانهم عليهم من ثلاث جهات . وتحديدا فى هذا الصيف أصبح التهديد حقيقيا ... والقبجاقيون الذين يرتحلون إلى تورجاى و أورى لم يسعدونا بجيش ذو شأن . فلقد مرض الفارس قوبلاندى و يبدوا أنه لم يكن هناك أحد لتنظيم إيفاد الفرسان .

يبدو أنه لم يكن لدى العشائر التى تتجول فى مكان ما عند إديل أو أورى أية مصالح فى تركستان تستوجب سفك دماء فرسانهم من أجلها . و لم يساعدهم الخان الجديد بعد بأى شىء بل و يطالبهم بالمشاركة في الحرب ضد أبوالخير الرهيب . إذا كنا سنحارب فلنحارب فى الغرب ضد كازان و قبيلة نوجاى و القرم حيث يمكن الاستيلاء على مراعى جديدة للماشية والكثير من الخيرات . هكذا قال بعض السلاطين و لكن القاعدة العريضة من البدو يسعون إلى الانضمام إلى الخانة الجديدة و الاتحاد معها لحماية السهوب. غير أنه قد وصل فى هذا الصيف الصعب حتى من أقرب عشيرة و هى عشيرة أرجين و جيرانهم نايمان فرسان أقل بكثير مما كان متوقعا . و قد حال دون ذلك إلى حد ما العداء بين شيوخ هذه العشائر و الذى ازداد بسبب الأحداث الأخيرة .

توفى منذ فترة قريبة «أرجين بيك» الشهير و المبجل من الجميع و الذى يعد رأس هذه العشيرة. وحضر جنازته أقوام من جميع أنحاء السهوب. وقد جاء حتى من خوارزم الأمير سلطان حسين المتحدر من أرجين . و قد أحضر معه الكثير من الهدايا للأقارب و معها عرض بالسلام و الصداقة لم يقدمه إلا بمشورة من سيده خان أبوالخير .



قال الأمير « لماذا يحارب أهل أرجين العظماء و يموتون من أجل رغبة محمومة لجانيبيك هذا ؟ إن عشيرة أرجين ليست فى حاجة إلى تركستان . وإذا كنتم بحاجة إلى مراعى شتوية جيدة فتعالوا إلى فى خوارزم و خراسان فهناك مساحات لا حدود لها و غنية بالعشب .

و الشتاء هناك قصير .. و ليس هناك صقيع شديد . وإلى جانب ذلك فكل ما تنتجونه سيتم بيعه لإيران و العراق و الهند بسهولة و بربح وفير»

و الآن بعد أن فقدت عشيرة أرجين زعيمها الحكيم لم تسطع أن تحزم أمرها . الغالبية العظمى منهم لم تغادر المسارات المعتادة للترحال و شواطىء يسيل و توبول . و لكن كم كانت عروض ابن بلدهم الحاكم مغرية جدا . و من هو الشعب الذى ينجذب للحرب ؟ و لم يوجد من بينهم فى هذا الصيف زعيم جديد يستطيع أن يجمع الناس و يقود جيش أرجين الموحد إلى جانيبيك .

و فى ذلك الوقت كان من الصعب مطالبة عشائر نايمان و كيرى إرسال جيش كبير .

فقد تصدوا للهجوم الدورى من محاربى أويروت . بالإضافة إلى ذلك كانت بعض قراهم تقع فى أراضى قبيلة أبوالخير و كان من الصعب عليهم تحدى حكام الخان .

لم يجمع خان جانيبيك فى هذا الصيف أكثر من ثلاثين ألف محارب و من ستخيف بمثل هذا الجيش ؟ فلدى أبوالخير فقط مائة من رجال الخيالة و يستطيع فى وقت قصير أن يصل بهذا العدد إلى الضعف باتحاده مع بلاد ما وراء النهر . و كم عدد القوات لدى حاكم الصين و فرسان الأويروت الخاضعين له الذين ينتظرون الفرصة السانحة لدخول السهوب الكازاخية. و فى الغرب ينتظر أقاربهم الأستراخانيون و بايات النوجاى و كراى القرم وإبراهيم خان كازان الفرصة المناسبة بفارغ الصبر. إن السهوب الكازاخية شاسعة ويريد الجميع أن ينتزعوا لأنفسم أكبر قطعة منها خاصة أنه لم يعد أحد يخشى أبوالخير بعد رحيل القبيلة البيضاء . لم يبق إلا أن يعول على قواه الذاتية .

مهما كان الأمر ينبغى انتزاع مدن شمال تركستان من أبوالخير. و بدون ذلك لا يمكن للخانة الجديدة أن تبقى طويلا على قيد الحياة . غير أنه عندما تريد أن تختبر قواك مع الأسد ينبغي أولا أن تحمى أضلاعك . و لتحقيق ذلك هناك طريق واحد و هو العثور على الحلفاء إن لم تكفى قوتك الذاتية .

***

فى آسيا الوسطى يوجد الآن المئات من الخانات و البكوات و الأمراء و السلاطين كل



واحد منهم على استعداد أن يطبق على رقبة زميله المحظوظ أو ينضم إلى شخص قوى للاستفادة حتى بالفتات على مائدة غيره .. وإذا قمت بتوحيد جميع من يكرهون أبوالخير فلن تقوم له قائمة بعد ذلك . ولكن هل من الممكن التعويل على هذه الذئاب و ابن آوى الذين أثناء مطاردتهم لغزال واحد يعضون بعضهم البعض من الجانب ؟ .. حتى الذئاب لا تفعل ذلك . فقط عندما تمتلك أنيابا حادة يمكنك إخضاعهم جميعا. إنهم يحترمون القوة .

لذلك إذا كنت ترغب فى إخلاصهم فامتلك أنيابا . إن سهوب دشت و قبجاق كلها لا يجب أن تخضع له بالقول فقط ، و لكن يجب عليها أن تدفع ضريبة موحدة للإنفاق على الجيش و يجب أن تقدم كذلك وفقا لأوامر الخان عدد معين من الفرسان . لقد أعلنت الخانة. و يمتلك وهو الخان الشرعى جانيبيك الحق في المطالبة و الإرغام بالقوة على احترام أوامره . السلطة يجب أن تكون قاسية و ليس هناك طريق آخر .

لم يحالفه النجاح على الفور. واستغرق الأمر عامين آخرين حتى بدأت العشائر الكازاخية التى اعتادت على الحرية السهبية القديمة إرسال الأموال اللازمة للإنفاق على المقر و الجيش . و فقط عندما ربطوا بأمر الخان بعض الشيوخ المتأخرين عن دفع الضريبة فى ذيول الخيول و جروهم على الأرض أخذ الآخرون يفكرون فى الأمر بجدية. و هناك حيث دعا الشيوخ و البايات المتهورين القرى على المقاومة المسلحة اضطر وفقا لطريقة جده المجربة إلى حرق القرى . و بقيت الجثث النتنة على الرماد و ظلت الغربان تحوم فترة طويلة حيث كان الناس يعيشون منذ أمد قريب . و كان هؤلاء الناس من الكازاخ ...

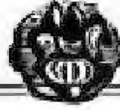
قبيل وفاته غنى الشاعر الحكيم كوتان :

كم هو نشيط و سعيد بين الناس جانيبيك

و لكنى أرى آثار دموع سرية على وجهه

بكى أم لم يبك خان جانيبيك ففى نهاية المطاف لم يكن لذلك أهمية كبيرة فقد أرغم كل العشائر والقبائل على الدخول فى طاعته . على أية حال عندما يكتب الشاعر الشعبى عن دموعه فهذا يعنى التفهم و التعاطف مع سياساته . إن العشب القصير والضعيف فى تشتير كوكبيك الذى ينمو فى ظل نبات السعادى يقتل الحيوانات .

و لحماية ماشيتك يجب حش هذه العشبة بلا رحمة فى كل مكان يجدونها فيه . ترعرع فى السهوب جانيبيك وتعلم هذه الحكمة السهبية . و من يدرى ما كان يمكن أن يكون لو ترعرع فى مناطق أخرى و في زمن آخر .



و أخيرا خضعت له فعليا سهوب دشت و قبجاق من يسيل و توبول إلى تشو و البحر الأزرق و من بوابات جونغر إلى جايك . الآن فقط يمكن أن يطلق على هذا الاتحاد دولة . و اقترب موعد الحرب من أجل مدن شمال تركستان و الحملة إلى جايك حيث لم تعترف بسلطته بعد قبائل الجزء الأصغر التى ترتحل فى المنطقة الواقعة بين نهرى جايك و إديل . و كما كان متبعا لدى خانات السهوب قرر خان جانيبيك مناقشة الحملة فى دائرة المقربين منه وخاصة الإخوة و الأبناء .

***

كان كيرى و جانيبيك أقارب من نسل أوروس خان. و كان لدى كيرى أربعة من الأبناء هم بوروندوك و شا يخين و سنجر جاخان و جاخان بختى ، و كان لدى جانيبيك تسعة من الأبناء و هم جيرينتشى ، محمود ، قاسم، بوسيد، أديك ، جانيم ، الفارس كامبار، تينيتش، أوسناك و جاديك. و كان جانيبيك يفضل ابنه الثالث قاسم على الآخرين عند الحاجة للتشاور حول القضايا الهامة. كان السلطان قاسم يبلغ فى ذلك الوقت ستة وعشرين عاما . كان طويل القامة و عريض المنكبين ذو عيون واسعة لوزية الشكل يشرق فيهما ذكاء لافت للنظر. و منذ الخامسة عشر من عمره كان يفوز فى جميع مسابقات المصارعين الشعبيين و فى العديد من مسابقات الفروسية و سباقات الخيل. وعادة ما يخرج من بين هؤلاء المحاربين فرسان بارزين فنادرا ما يجمع القدر في شخص واحد تلك المعطيات الجسدية مع صفات عقلية ممتازة . لكن هذه المرة لم تبخل عليه الطبيعة بأى شىء . حتى بالإضافة إلى خان جانيبيك كان جميع الإخوة والأقارب يعتقدون بشكل طبيعى أن قاسم هو وريث الخان على العرش . و لم يستطع أحد أن يقترح إسم شخص آخر ...

بالمناسبة كانت جاخان - بيكى أم قاسم أحب زوجة لجانبيك من بين زوجاته السبع. وكانت شقيقة أرملة ابن خان أبوالخير الجميلة أكوزى التي رفضت عشرة من أبناء الخان احتراما لذكرى أوراك الفارس البسيط . كانوا من عشيرة كيرى . و إذا كانت جاخان بيكى قد أنجبت قاسم ابن جانيبيك المحبوب فإن شقيقتها أكوزى قد أنجبت أحب أحفاد خان أبوالخير محمد شيبانى و سلطان محمود الذين سيصبحون فيما بعد أسياد آسيا الوسطى .

على الرغم من العداء الدموى بين أبوالخير و جانيبيك كانت الأختان على علاقة ودية كما فى السابق و يتبادلان الهدايا و التحيات. ولكن الشيء الأكثر ادهاشا خلافا للقواعد الراسخة بين الجنكيزيين كان السلطان قاسم ومحمد شيباني والسلطان محمود منصاعين لإرادة أمهاتهم .



لا بد من القول أن خان جانيبيك كان عادة ما يدعو «جاخان بيكى» عند التشاور مع ابنه . فى هذه المرة توجه إلى قصر الخيمة البيضاء حيث كانت تعيش . كان الربيع في طريقه إلى الزوال و ارتحل مقر الخان إلى الضاحية الجنوبية لسهوب أوليتاو و بدا العالم كله مزينا بالألوان . كانت السهوب تشبه معطف الراكون الذى سحب من صندوق خانق لتهويته...

كان جانيبيك كعادته يقف قليلا و يستمع كيف تزقزق عصافير السهوب و يتنفس ملء صدره الهواء المنقوع فى الأعشاب و يدخل إلى جاخان بيكى . كما هو الحال دائما تحسبا لوصوله تجلس زوجته في منتصف منزل اليورت و تصب من وعاء مسطح كبير فى وعاء صغير حليب الفرس ذى الرغوة العطرة . و عندما يدخل تقف و تحييه صامته و تحنى رأسها .

قال : الصحة لكم ياجاخان بيغيم.

تجيب بالسؤال المعتاد هل أنتم بصحة جيدة يا سيدى الخان ؟

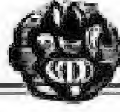
يخلع حذاءه الجلدى المطعم بالفضة و ينظر إلى زوجته بطرف عينه . كان الحب والحنان غير المألوفين له يشرقان في عينيه. وكانت هى تعرف و تشعر بذلك . كانت جاخان بيكى الرشيقة ذات الفم القرمزى الصغير والعيون السوداء الواسعة تبدو كفتاة على الرغم من أنها بلغت الحادية و الأربعين من عمرها . كانت رموشها مسدلة و عندما ترفع رأسها تنغرس سهامها السوداء فى قلب الخان كما كان يحدث منذ سنوات عديدة .

و يدق قلب الخان الحجرى و يرفرف مثل العصفور الذى وقع فى الفخ ...

كان جانيبيك يندهش من ذلك فى كل مرة و بدا له كأنه بالأمس فقط يرافق فى حاشية من أربعين فارسا إبن أبوالخير شاه بوداخ فى رحلة زفافه. و كان ذلك عندما تخطى جانيبيك العشرين عاما . و ذهبوا إلى الفارس الأعظم لعشائر كيرى و نايمان دومباليك .

كان جانيبيك يملك حق قيادة وحدة حفل الزفاف المكونة من أفضل شباب قبيلة أبوالخير . و وصلوا إلى ألتاى حيث كان الفارس دومباليك مرتحلا إلى هناك فى هذا الوقت .

كانت الخيام البيضاء مثل لون الثلج تحيط ببحيرة كيديركول الزرقاء فى لون السماء و رأى فى وجه فتاة برموش سوداء كالسهام منعكسا فى الماء . حينها رفرف قلبه لأول مرة . وعندما رفع بصره على استحياء رأى ضفائر سوداء تومض فى ظل الأشجار وتلامس العشب...



ثم كان هناك اللقاء الرائع للعريس و خاف جانيبيك عندما رأى أكوزى عروس شاه بوداخ و أعتقد أنها هى تلك التى رأى صورتها فى البحيرة . كانت لديها نفس العيون الواسعة و نفس حجم اليدين و نفس الضفائر السوداء الطويلة التى تصل إلى الأرض و مع ذلك لم تكن هى . لقد رأى شقيقة العروس جاخان بيكى فقط فى المساء حينما كانت عائدة بالخيول مع إخوتها من الرعى الليلي . كانت ابنة الفارس العظيم لا تستنكف من رعى الخيول . هكذا كان يربى الفارس دومباليك جميع بناته و من غير المرجح أنه كان يوجد فى السهوب من تلقى تربية أفضل منهن ...

و في الليلة التالية ذهب جانيبيك مع أصدقاءه مستفيدا من حرية العادات الكازاخية القديمة أيضا لرعى الخيول . و ذهب كثير من الفتيات للرعى الليلى مع الضيوف وكانت بينهن جاخان بيكى . و قد بقيت فى قلبه طوال حياته هذه الليلة المقمرة ... في مكان ما غير بعيد كانت الخيول ترعى فى الوادى و تصدر شخيرا بلطف . و كانت الفتيات والفرسان يقومون بالدور بجوله حول القطيع و لكن لسبب ما يفعلون ذلك معا فى أزواج. وتؤدى الأصوات الشابة المدوية فى العتمة الفضية أغانى الحب و الفرح بالحياة . و عند الكوخ يطهى لهم فى قدر كبير اللحم الطازج و الشهى لمهر ذبح فى العشية . و قد كانوا يطعمونه الحليب خصيصا لحفل الزفاف ...

الليلة الرائعة تعطى الإشارة . يأخذ الفارس الشاب هراوة خفيفة من شجرة البتولا و يختبىء فى وهدة من أجل العثور على أى مهر صغير ضال و الذى من الممكن أن تأكله الذئاب . و لكنه لم يكن يفكر فى المهر و ذهب إلى الأمام بضع خطوات ثم توقف و هو يحبس أنفاسه . لم يقل كلمة واحدة لتلك التى كان ينظر إليها طوال المساء و لم يعرف حتى اسمها . و لكنها نهضت و تظاهرت بأنها تتمشى و تذهب نحو شجرة البتولا القريبة . يخطو الفارس خطوة واحدة إلى الأمام ثم مشيا صامتين متشابكى الأيدى و مضوا مباشرة إلى ضوء القمر ...

نظر جانيبيك إلى جاخان بيكى فى ضوء النهار و لم يصدق أن هذه الجميلة اقتربت منه فى الليلة اللبنية القمرية و أنه قد أمسك يديها البيضاء الرقيقة . كان يحدث هذا كل ليلة و لم يكن على الأرض أناس أكثر سعادة منهما .

تواصلت احتفالات الزفاف و ألعاب الفروسية و صراع الخيول و سباقات الخيل و الألعاب الأخرى و جرى كل شيء على النحو المعتاد . و تحتل الرماية التى تشارك فيها الفتيات أيضا مكانا خاصا . كانوا يقطعون الشارة الجامبيوالفضية لدى العروس من حلى الصدر



القبلية و يعلقونها على مسافة مائتي قدم ثم يتناوبون رمى السهام على هذا الهدف المرئى بالكاد . لكن لسوء الحظ لم يتمكن أحد من إصابة الهدف . حتى جانيبيك المشهور في جميع أنحاء السهوب بدقته لم يصب الهدف عدة مرات . ربما كانت يده ترتجف لأنه منذ الصباح لم يرى جاخان بيكى . و فجأة عندما اقترب من القوس مرة أخرى سمع اسمها .

جاخان بيكى ...

جاخان قادمة .

ترك الوتر و دوى ضحك جماعى من جميع الجوانب . فلم يصل السهم حتى إلى شجرة البلوط . ثم وصلت على حصان أبيض من مكان غير معلوم الجميلة جاخان بيكى . لقد عرفها بالكاد و كانت جاخان بيكى تنظر بطريقة مختلفة تماما . في الليل كانت كأنها نسجت من ضوء القمر و بدت شفافة . هنا رأى فتاة صيادة طويلة القامة و قوية البنية مثل تلك التى رسمها أسلافه الساكا على جدران الكهوف .

أفسحوا الطريق لجاخان بيكى .

إرمى يا جاخان كما ترمين دائما .

أصابت طائر القبرة دون أن تنظر إليه .

و أخذت جاخان بيكى القوس من جانيبيك و لمست بيدها أصابعه برفق . و تقريبا بدون أن تنظر إلى الهدف أطلقت السهم من قوسه فضربت الشارة ذات الحلقة الفضية فإصطدمت بلحاء شجرة قاس و تدحرجت عاكسة أشعة الشمس ...

هرع الناس إليها من جميع الجهات رافعين أيديهم .

فلتعشين ألف سنة ياجاخان يا رامية السهام المجيدة .

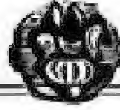
هذه أنثى النسر .

قد أنجبتك امرأة كازاخية رائعة .

لقد دافعت عن شرفنا أمام السهوب كلها .

أخذ الناس الفتاة من على ظهر الحصان و وضعوها كتمثال أحد الأجداد فى دائرة الضيوف . كانت ضفائر جاهان تجرر على الأرض و ارتخت الرموش مثلما كانت عند البحيرة الزرقاء مخترقة من جديد قلب السلطان الشاب جانيبيك . .

***



و في اليوم التالي رأى كيف تروض بنفسها حصانا بريا . كان الحصان يشبه الوحش الأشعث الضخم و كانت النار الدموية مشتعلة في عينيه . و لكن ما إن جذبته الفتاة بالحبل و قفزت فوق ظهره حتى هدأ الحصان و صار يحدق فقط في اتجاه أحد الخيالة المجهولين .

لم يقولا لبعضهم البعض كلمة واحدة . و لكن لدى عودته إلى أوليتاو أرسل جانيبيك إليها الخاطبين و سرعان ما أدخلها الخيمة البيضاء كزوجة ثالثة . كانت تبلغ من العمر آنذاك أربعة عشر عاما . قام كما اعتاد أن يفعل ذلك مع زوجاته الأخريات بلف ضفائرها على يديه و لمس جسدها بلطف .

كانت تجلس مثل الحجر .

قال لها لقد تزوجتك لأنني أحبك . و قد كان ذلك الكلام حقيقيا .

نظرت إليه و هزت كتفها و قالت :

و لماذا لم تتحدث معي مباشرة عن هذا الموضوع ؟ فلربما كان لدى مجنون كما كان لدى ليلى الرائعة ؟

ضربه الدم في رأسه و صاح بغضب :

سنتحقق من هذا الأمر الآن .

و فجأة هوى بيديه للأسفل و رأى في غسق الخيمة أنها تبتسم .

قالت له في سخرية لاذعة كلمات المثل الذي لا يستطيع هو نفسه أن يقوله لها :

و هل الطعام الذي يلعقه الكلب يكون صالحا للأكل ؟ و كان سائدا في السهوب ارجاع العروس المعيبة إلى والديها مكللة بالعار . و لكنه كان يعلم مسبقا أنه سواء كان ذلك الأمر صحيحا أم لا فإنه يحبها و لن يبدلها بمئة ألف من العذارى .

حسنا و ماذا إذا كنت نظيفة كحليب أمي ... إذا كان الأمر كذلك فنفذ رغبتي الوحيدة ؟ أفعل .

لم يقل ذلك و لكنه تنهد . و نظرت هي في عينيه و قالت .

عندما يولد ابني فاتخذ له الفارس حسن من قريتنا معلما ..

لكنه لم يستمع لها . كانت عيناها كبحيرتين سوداوين و خصرها أدق من عود القصب و يديها أكثر بياضا من البجع .

***



كان أول شخص شاهده خان جانيبيك يدخل الخيمة العملاقة المزدوجة لزوجته جاخان بيكى كان الفارس العجوز حسن معلم ابنه قاسم . تذكر الخان شكوكه حول هذا الرجل في الأيام الأولى من زواجه و ابتسم فى نفسه . لم يكن يعلم آنذاك حقيقة الأمر . كانت الفتاة الكازاخية التى ذهبت إلى عشيرة غريبة عليها تريد أن ترى بالقرب منها صديق طفولتها من قبيلتها و الذى على استعداد لفعل أي شيء من أجلها . لدى كل فتاة جميلة يوجد معجب مخلص يحبها بدرجة كبيرة من التفانى حتى أنه يربى أولادها من رجل أخر بمنتهى السعادة . إنه يضحي بحياته من أجلها و يسعد أنه يراها كل يوم .

و لا يوجد على وجه الأرض شخص أخلص منه و كل ما يتعلق بها فهو مقدس .

فقد كان هذا دائما يحدث فى السهوب و كانت الفتيات تتقبل هذه التضحية العظيمة كأمر مفروغ منه .

ذهب جانيبيك إلى مكانه و رقد على جنبه و ثني الوسائد الباردة المغطاة بالقطيفة. وأسند ظهره على الأغطية الحريرية المطوية كالتل أحضرت له جاخان بيكى حليب الفرس في وعاء مسطح و ملئت منه كأسا فضيا كبيرا و جلست أسفل من زوجها .

وبحركات بطيئة متساوية أنعشت الشراب الذى ينضح برائحة الشيح و السهوب والزهور .

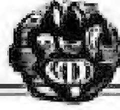
و كانت تجرى على جدران الخيمة الانعكاسات الشمسية بسبب المغرفة الفضية .

كيف نمت يا سيدي الخان ؟

و مرة أخرى انغرست السهام فى قلبه . و كانت السخرية بداية في صوت جاخان بيكى. لقد كانت تعرف يقينا أنه أمضى الليلة فى خيمة الجميلة جان بيكى من عائلة أكجول بيك . و من الشكل الكئيب للمعلم حسن أدرك جانيبيك ما إن دخل الخيمة أن كل شىء معلوم هنا . و تحول عنه المخلص حسن لأنه كان يغار سويا مع سيدته .

كان خان جانيبيك بالفعل مذنبا أمام جاخان بيكى . في العام الماضي اتخذ لنفسه زوجة سابعة و هى جان بيكى ذات الخمسة عشرربيعا و كما جرت العادة بدأ يفوت أيام الزيارات المقررة لزوجاته الأخريات فيما عدا جاخان بيكى . و بالأمس للمرة الأولى في اليوم المقرر لجاخان بيكى لم يأت إليها .

قالت جاخان بهدوء وهى تصب حليب الفرس : يقولون أن جان بيكى توكال لديها



فراش جيد . فرياش فراشها أكثر ليونة مما عندنا نحن الفقراء . و ليس فى أيدينا شيئا نفعله حيال ذلك . و تنهدت بتكلف . و تنهد فى إثرها جانيبيك . و اعتقد أن إنشاء خانة موحدة من ثمانية و عشرين عشيرة كازاخية أسهل من تكوين أسرة ودودة مؤلفة من سبع زوجات . و الفضيحة التى يمكن أن تفعلها واحدة منهن فى الوقت غير المناسب تساوي فضيحة جزء بأكمله (خانته مكونة من ثلاثة أجزاء - المترجم) . كانت جاخان هى الوحيدة فقط من بين زوجاته التى لم تشارك مطلقا في المشاحنات الأسرية . فهل أصابها ذلك المرض أيضا ؟ ..

تململ خان جانيبيك على الوسائد و حاول توجيه الحديث في اتجاه آخر .

قال فلتأمرى باستدعاء قاسم .

ابتسمت جاخان بمكر و نظرت في عينيه :

مع حسن الخاص بنا ؟

لقد نطقت كلمة « الخاص بنا » بطريقة جعلت الخان سيقفز تقريبا من على سريره اللين . و بدا له للحظة أن قطة خدشت قلبه العارى .

نعم ... نعم فلتأمرى أيضا بإستدعاءه .... ولكنه كان هنا بالفعل...

هل رأيته يا سيدي الخان؟

تعجب جانيبيك من هذه الوقاحة حتى أنه قد فغر فاهه .

رفع صوته و قال إنه كان هنا الآن .

قالت أنا لم ألحظ ذلك .

قالت جاخان بيكى ذلك لجانيبيك بلا مبالاة مختلقة و توجهت الى الباب فى مشيتها الخاصة . لم يرى جانيبيك مثل تلك المشية عند واحدة من النساء . و كانت عينيها سعيدة على نحو ما بشكل مؤلم . نادت على أحد الخدم من التولينجوت و قالت : أبين. أبين فليستدعوا السلطان قاسم .

الخان العظيم يريد أن يراه و لا تنسى يا أبين أن تستدعى حسن الخاص بى .

قال السلطان فى نفسه : مرة ثانية حسن الخاص بى و قطب جبينه أكثر من قبل .

و لكنها عندما عادت مشرقة و مشعة قدم إليها رغما عنه كأسه و قال لها :



حليب الفرس عند حلو يا جاخان ... صبى لى منه المزيد .

أخذت الكأس و لمست كف يده بأصابعها و سرت الرجفة فى كل جسد جانيبيك كما كان قبل ذلك فى الرعى الليلى . و ذهبت كل شكوكه أدراج الرياح .

دفعت جاخان جانيبيك برفق و هزت بمهارة الزق الجلدى المدخن الملىء بحليب الفرس الطازج .

قالت هذا الزق صنعه لى أهل عشيرتى من كيرى و أهدونى إياه خصيصا من أجلك . .

ابتسم جانيبيك بسعادة :

إنك فقط تعرفين ما أحتاج إليه .

جاء السلطان قاسم . حيا والده الخان كما ينبغى و جلس بتواضع على يمين جانيبيك . ألقى نظرة خاطفة على ابنه ثم نظر إلى زوجته . فكر الخان «إنه يشبه أمه تماما» و لكن الأنف و الذقن منا نحن عشيرة أرجين و شواربه تشبه شواربى تماما .

سألت جاخان بيكى بغضب : و أين هذا الشارد حسن ؟ لقد تلقى أمرا بالحضور معك ..

لم يتمالك جانيبيك نفسه و استغرق فى الضحك .

***

أخذ الثلاثة يشربون حليب الفرس بصمت، و بدأ قاسم ينظر بدهشه إلى والده . لقد كان يعرف أن الخان لن يدعوه بدون سبب .

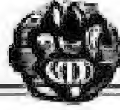
قال جانيبيك مجيبا على أفكار ابنه : نعم إننى لم أستدعك بدون سبب يا سلطان قاسم .

أجاب قاسم بتأهب : ما هى المهمة التى تكلفنى بها يا سيدى الخان ؟

صمت جانيبيك و قال فى نفسه لم يحن الوقت بعد للتكليف بالمهام . و على كل حال فالخيمة ينصبونها مبكرا و ليس فى أثناء العاصفة عندما تنزع الرياح السجادة من الأيدى . إننى بحاجة للتشاور معك يا سلطان .

الحق هو ما تراه يا سيدى الخان . فالسجادة الرطبة لا تصلح للخيمة .

قال جانيبيك إذن فاسمع و تذكر يا ولدى أنه ينبغى عليك أن تواصل ما بدأته أنا ....



على ما يبدو أنت تعلم أن المعركة الحاسمة توشك أن تقع . فإن أبوالخير لا ينام . و في كل يوم نقبض على جواسيسه في قرانا و هذا يعنى أنه يوجد بيننا أناس يأتون إليهم ... وبالفعل يوجد عندنا أناس غير راضين بحكمى . و لكن شاء هؤلاء الناس أم أبوا فلابد من خوض الحرب . و لسنا اليوم ضعفاء لدرجة أننا لا نستطيع أن نتصدى لأبوالخير . انه يخاف منا أكثر مما نخاف منه نحن .

قال قاسم منذ انفصالنا و نحن نستعد للحرب معه يا أبى . لذلك لن يكون هذا مفاجأة للناس . إن أفضل الفرسان جاهزون منذ مدة طويلة و ينتظرون فقط كلمتك .

نعم أن أمر أبوالخير معلوم لدينا... و لكن هل تأتينا التهديدات من هناك فقط ؟ لدى مثل هذه الدولة الكبيرة مثل دولتنا الأعداء على جميع الاطراف . أليست كازان وأستراخان والقرم و بايات نوجاى على استعداد فى كل يوم للتدخل فى سهوبنا ؟ و من الشرق ألا تصدر الهيدرا الصينية السوداء فحيحا ؟ و ما أهل عشيرة أيورت إلا لسانها فقط . وإنها تنتظر اللحظة المناسبة لتفتح فمها النتن ... إنهم مثل الموجات البعيدة التى تهدر فى البحر استعدادا لإغراق سهوبنا بالفيضانات . و نحن لن ننتظر و سنضرب أولا المكان الذى نتوقع منه الهجوم..

هل تريد يا أبى أن تسألني هل ينبغى أن نطلق السهم أولا على الذئب ؟ نعم هذا ما أردت أن أتشاور معك بشأنه .

أعتقد أنه ينبغى الحديث مع الذئب بلغة ذئبية . فمن غير المرجح أنه يفهم لغة أخرى. ونحن لسنا ظباء بائسة. لكنه سيكون من المفيد بالإضافة لى التحدث مع كامبار وبوروندوك . فكل واحد منهم يعرف بعض الأشياء أفضل من الآخر . و إذا بدأنا هذه الحرب فيجب أن نحسب حساب كل شىء . بالعقل يمكننا التغلب ليس فقط على الذئب ولكن على الأسد الشرس ..

سأتحدث مع بوروندوك و كامبار و غيرهم من الأقارب و البايات و الفرسان . و لكن ماذا يمكن أن تفعله الآن إذا كنت أنت خان القبيلة البيضاء ؟

إن العدو الأول لنا اليوم هو أبوالخير . و قد جاء إلينا أكثر من مرة مع فرسانه و هو الآن يجمع جيشا حول سيجناك .. إن الفأر الذى ولد فى الطاحونة لا يخاف الضجيج . و هو يعتقد أن سهوبنا بلا حماية ...

و لكن أبوالخير لا يخفى أن قواته تستعد للقيام بحملة على مغولستان ....



هو يريد مغولستان و دشت و قبجاق أيضا . و إذا ذهب إلى هناك فقط بهدف انتزاع المراعى الشتوية منا و فصل الأنهار السبعة و تركستان الشرقية عن الكازاخ فيجب علينا أن نتحرك و حالما يجمع جيشه ينبغى علينا الاستيلاء على حين غرة على سيجناك و سيرام وياسى و سوزاك و أورتار . و دعهم آنذاك يحاولون و نحن على رقابهم الذهاب إلى مغولستان أو حتى إلى دشت و قبجاق .

توهجت أعين السلطان قاسم و لكن بقي صوته و وجهه هادئين . نظر جانيبيك رغما عنه باعجاب لابنه .

فقال إذاً أفكارنا واحدة .

وضع قاسم يده بحزم على ركبته و قال : نحن سنأخذ ما هو ملك لنا شرعا . فمن يعيش أسوأ من إخواننا في هذه المدن و ما حولها ؟ إنهم يعيشون على أرضهم كالعبيد .

أليس من واجبنا أن نساعد مغولستان التى قدمت لنا المأوى فى الوقت الصعب فى معركتنا ضد أبوالخير الدموى ؟ إن انتقامه سيحل أولا بالكازاخ الذين يعيشون هناك ..

قضت جاخان بيكى الوقت فى النظر إلى الأب و الابن و اكتسى وجهها بالحزن .

سألت بهدوء ألا يمكن تجنب هذه الحرب ؟

لا

أجاب السلطان قاسم بالنيابة عن نفسه و أبيه .

و هل من الممكن قتال كل قبيلة أبوالخير ؟

إن هذه الحرب دائرة منذ ما يزيد على مائة سنة . و قد بدأها تيمورلنك الأعرج ضدنا من .

بلاد ما وراء النهر . الآن أخذ أبوالخير مكانه. و ليس لدينا خيار سوى القتال .

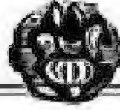
إذن فستسفك الدماء مرة أخرى ؟ لا توجد حروب بدون دماء يا أمى

و قد يحدث أن ابن شقيقتى الحبيبة أكوزى سيتقابل معك فى ساحة المعركة يا بنى ؟

نعم قد يحدث .

عبست جاخان بيكى و صنعت إيماءة غاضبة بيدها و قالت :

لا يجب أن يحدث ذلك .



تبادل الأب و الابن النظرات فى حيرة و لم يعرفا ماذا يقولان .

همس قاسم قائلا إنها الحرب يا أمى إذا لم أقتله فإنه سوف يقتلنى .

لكن جاخان بيكى لم تعد تستمع إليه .

مستحيل . و لوحت بيدها مرة أخرى ضاربة عرض الحائط بكل الاعتراضات . إننى وأكوزى أطفال أب واحد و أم واحدة . و من المستحيل أن يقتل بعضكم البعض . لا شيء يبرر لكما ذلك ..

قال قاسم بحماس أنا ذاهب إلى هذه الحرب . من أجل شعبنا و من أجل مستقبلنا سنرفع السلاح . إننى أرفض الحياة طواعية إذا كنت سأتعرض للعبودية . و أبوالخير سيجلب لنا العبودية . و سوف نمحى من على وجه الأرض إن لم ننتصر الآن على قبيلته . و كيف يمكننى أن أرحم أيا من كان من الأعداء .

و هل الحرب وحدها هى التى تحل النزاعات بين الشعوب ؟ فعندنا يقولون «بالكلمة الدافئة يمكنك أن تستدعى الثعبان من الحفرة». إننى لا أعتقد أنه لا يمكن إيجاد لغة مشتركة مع أطفال أختى العزيزة أكوزى ..

رفع الخان الذى كان يستمع إلى هذا الحديث بصمت رأسه بشكل حاد و قال :

مع الأطفال أنا لا أعرف ... و لكن إيجاد لغة مشتركة مع أبوالخير فهذا يعنى أننى أقدم له الفرصة ليشرب دمى كله حتى أخر قطرة .

قالت جاخان بيكى بحزم : و لكن محمد شيباني و السلطان محمود لن يشربا من دم ابننا قاسم جان فلقد أقسما لأمهما على ذلك عندما كانت على فراش الموت .

نظر خان جانيبيك إليها باندهاش فقد كان يسمع للمرة الأولى عن هذا القسم .

***

في العام الماضي في أوائل الخريف بعد الاحتفال الذى أقامه التاجر التارازى ذهبت أكوزى إلى ياسى كى ترتب صلاة خاصة فى المسجد و تحضر الصدقات المطلوبة من أجل انقاذ ولديها من الحسد و الأمراض. وزعت الخانوم على الملالي و المريدين و البؤساء عشرة بالات من الحرير و القطيفة و عربتان من المشمش والزبيب كصدقات ، وجلبت للذبح أربعون شاة وخمسة من الأفراس الجيدة و بعد ذلك عادت إلى خيمتها. و عندما دخلت إلى هناك وقعت مغشيا عليها ولم تستطع بعد ذلك أن تقف على قدميها ...



و قد أحضروا لها مختلف المعالجين و السحرة . و احتدم الجدال بينهم و لكن لم يتمكنوا من تحديد نوع المرض الذي أصاب الخانوم في المدينة المقدسة .

علمت جاهان بيكى من أبيها عن ذلك الأمر و توجهت إلى ياسى حيث كانت أكوزى تحتضر بالفعل . فى غضون أسبوع واحد تحولت واحدة من أجمل جميلات قبيلة أبوالخير إلى هيكل عظمى ذابل . عندما رأت جاخان بيكى شقيقتها في مثل هذه الحالة هرعت إليها و لم تستطع أن تمنع النحيب . همست أكوزى بشكل بصوت خفيض يسمع بالكاد :

- يا شقيقتى ... أنا لا أريد أن أكون فى العالم الآخر مثقلة بالذنوب .

سألت جاخان بيكى بهدوء ماذا تريدين ؟

أنا أعرف بعض الأسرار و أريد أن أقولها لك على انفراد . هل تستطيعين الحفاظ عليها كما تحافظين على روحك ؟

لماذ تقولين ذلك يا أكوزى ؟ أليس سرك هو سرى ؟ ألم أهرع إليك من أول نداء؟ ضغطت أكوزى على يدها و طلبت منها اخراج كل الغرباء .

قالت جاخان بيكى تكلمى نحن الآن وحدنا .

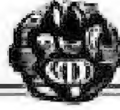
ليس هناك مذنب فى موتى غيرى أنا . و تكلمت بجهد جهيد . ربما وصلتك الإشاعات التى تداولت حولى . لعلك تعرفين القسم الذى حلفت به على القرآن و الخبز بعد نبأ وفاة الفارس أوراك. و اتضح أنه لا يزال على قيد الحياة و اتضح أن الحب أقوى من قبحه الحالى وأقوى من الشريعة . و لقد التقيت مرتين مع فارسى البائس . لم أستطع أن ألوث شرف أبنائى وشربت جرعة دواء أعدها طبيب ساحر ... و هذا كل شيء .

و بناء على رغبة المحتضرة تم استدعاء أبناءها محمد شيبانى و السلطان محمود . لقد كانوا يحبون أمهم بصدق و جلسوا هادئين و خائفين .

***

قالت يا أطفالى و أمسكت بأيديهم إننى سأترككم ... و قبل رحيلى أريد منكم تلبية رغبتى الوحيدة .

بكى فجأة محمد شيباني القاسى و الحازم و من بعده الصغير السلطان محمود بكى بصوت عال . أخذت الأم تربت على رأسيهما بيدها الضعيفة حتى سكنا تماما و قالت.



إستمعا إلى طلبى .. و فجأة تضاعفت القوة عند أكوزى و اتركزت على مرفقها . هذه أختى العزيزة جاخان . و قد أخذنا معا فى وقت من الأوقات من منطقة تارباجاتى البعيدة إلى أرض أجنبية . و ربما لأننا كنا هنا وحيدات تماما بين الغرباء كنا دائما قريبات من بعضنا البعض . و مهما كان أزواجنا و آبائنا على عداء فلم نشعر تجاه بعضنا البعض إلا بشعور القرابة العميقة . و الآن أطلب منكما ... هل تسمعانى ... لا ترفعا السيف أبدا على أبنائها و خاصة على السلطان قاسم الذي عاجلا أو آجلا سوف يصبح الخان الكازاخى .

جلس الأخوان فى ذهول

و لم يعرفا ماذا يقولان .

و إن قاسم سوف يقسم نفس القسم و سوف ستحل المصيبة بمن يحنث منكم بهذا القسم. أشارت أكوزى باصبعها إلى السماء و قالت إن لعنة الأم من هناك تعادل لعنة الله.. أه إننى أنا أعلم أن الدم الخانى يجرى فى عروقكم و القسوة على البشر معششة في قلوبكما. إننى هنا غير قادرة على تغيير أي شيء . هذه اللعنة جاءتكم من الأجداد. ولكن إياكما أن ترفعا أيديكما على أخيكما قاسم إلا إذا رغبتما فى ارتكاب خطيئة مميتة . احلفا هذا القسم على المصحف .

أخذت القرآن من وراء ستارة و رغيف خبز وأعطتهما لأبنيها . قاما بتقبيل الخبز والكتاب و أخذا يرددان وراء أمهما الدعاء .

و في اليوم نفسه انتقلت أكوزى إلى العالم الآخر . و أخذ جميع من حولها يبكون لأنهم أحبوها بإخلاص . حتى أبوالخير لم يستطع أن ينكر نبلها الرفيع .

قام كل من الفتيين محمد شيباني و السلطان محمود بمرافقة خالتهما جاخان بعيدا داخل السهوب و عند الوداع إنحنيا لها بصمت كما لو كانا يؤكدان لها قسمهما لأمهما. وبقى لدى جاخان بيكى نحوهما شعور دافئ و نقلت إليهما حبها لأختها .

***

الآن أخذت تحكى لزوجها و إبنها عن هذا القسم .

قال جانيبيك بقسوة حسنا إذا أعطى ذلك القسم فليكن فلسنا ممن ينقضون العهود . فليتصادق حتى آخر العمر محمد شيبانى و ابننا قاسم . و عاجلا أم آجلا فسيعتلى محمد شيباني بالذات عرش أبوالخير و قاسم هو وريثى. و لن يكون الأمر سيئا إذا حدث تحالف بينهما فى المستقبل و لكن هل سيكون الأمر كذلك ؟



إن الرجل على عرش الخانة يشعر و كأنه يركب هيدرا نارية . و حتى لا تبتلعه هو نفسه فلا بد له أحيانا إطعامها لحم أبيه أو إبنه الوحيد . و فى جميع العصور كان الناس يدفعون فقط بهذه الطريقة من أجل السلطة . و أخشى أن يضطر ابننا قاسم لمحاربة محمد شيبانى بغض النظر عن أية أيمان . إننى أعرف سلالة أبوالخير ..

قالت جاخان بيكى بإصرار : كلا إنه أقسم لأمه إنه لن يكون البادىء بحرب قاسم .

ابتسم خان جانيبيك بامتعاض وقال إن أبناء أختك الأعزاء عندما أقسما لأمهما لم يكونا يعرفان آنذاك ماذا تكون جميع الأيمان بصفة عامة لدى الخانات . إن اللسان عند الخان يوجد فقط لكى يخفى أفكاره بذكاء . و لنفرض أن محمد شيبانى و السلطان محمود لن يمسا بالفعل قاسم . و لكن ماذا لو أصاب أحدهما برمحه «أديك» أو «الفارس كامبار» و الذين ليسوا من أبنائك و لكنهما إخوة قاسم ؟

أصبحت جاخان بيكى فى حيرة . ماذا لو حدث ما يقوله جانيبيك فهل ستفقد بسبب ذلك القسم ابنها قاسم ؟ و من يعرف ماالذى سيفعله فى المستقبل أحفاد أبوالخير هؤلاء التى ولدتهم شقيقتها ؟ أو ليس لقاسم الحق فى أن ينتقم لإخوته ؟..

رفعت رأسها بشكل حاد :

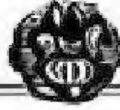
و ماذا سيحدث في هذه الحالة ... و ظهر الحزم في صوتها . في هذه الحالة الدم بالدم. إن السلطان قاسم ملزم بالانتقام لمقتل إخوته و يارب لا تجعلنا نعيش حتى ذلك اليوم. إنه سوف يقتل أبوالخير نفسه و سيقطع رؤوس أبنائه الكثيرين . لكنني أكرر لا تدع سيوف ابنى وأبناء أختى أكوزى تلمس بعضها البعض . هذا يمكن أن يحدث إذا قاموا بمهاجمته أولا. وأطالب بأن يقسم لى على ذلك . و إذا لم يفى بالقسم فإننى سوف أبلل السماء بحليب الأم كعلامة على اللعنة .

كما لو أن خنجرا حادا نفذ إلى قلب السلطان قاسم من هذه الكلمات . قفز و جثى أمام أمه على ركبة واحدة و نزع سيفه من غمده و قرب جبهته منه و قبل النصل .

صاح أقسم لك يا أمى وأقسم لك يا سيفى أننى لن أكون البادىء بنزعك من غمدك ضد إخوتى محمد شيباني والسلطان محمود. وإذا حنثت بهذا القسم فليصيبنى العمى من حليب أمى .

أخذت جاخان بيكى السيف من يده و قبلت النصل أيضا مؤكدة قسم إبنها .

قالت بهدوء يا سيف ابنى إذا سيطر عليك العطش لدم الشقيق فانفذ فى قلبى و دع



محمد شيبانى و السلطان محمود و لكن إذا حنثا بالقسم فلا تشفق على لأنه ليس هناك شىء أكثر بهجة للأم من أن تموت بدلا من ابنها ..

إستمع خان جانيبيك في صمت و أخذ يفكر. كان يعرف مسبقا أن قاسم يحب أمه بشغف و لكن الآن فقط تكشف له عمق هذا الحب و الاحترام لأمه .

و تسطيع جاخان بيكى مع ضعفها الأنثوى أن تصمد أمام أى اختبار إذا ما مس الأمر الشرف و الكرامة. و تمنى الآن أن يتجرأ و يختبر مشاعرها و يسمح حتى لنفسه أن يضحك عليهما.

***

فى اليوم التالي استدعى خان جانيبيك المجلس الخانى . و استمر لمدة يومين و جاء جميع الفرسان و البايات و زعماء العشائر الموجودين فى مقره. ثم اتخذ القرار النهائى .

تم تحديد الهجوم على شمال تركستان . و تم تقسيم الجيش إلى جزئين. الجزء الأول تحت قيادة خان جانيبيك وأبنائه سيذهب إلى سوزاك. و القسم الآخر سيقوده الفرسان وسيرأسهم السلطان بوروندوك . و هذا الجزء من القوات يجب أن تذهب الى سيجناك .

كان ينبغى على الجيش كله قبل التقسيم التجمع في الروافد الدنيا لنهر سيحون داريا. في هذه الأثناء أرسلت خطابات سرية إلى حكام و بكوات مدن شمال تركستان. تم كتابتها بطرق مختلفة اعتمادا على التوجه الذى يلتزم بها هذا الحاكم أو ذاك. ولكن المعنى كان واحدا : نحن الآن أقوى من أبوالخير و أقرب لكم منه . إننا لا نريد الحرب لكننا عازمون على استعادة مدننا. لا شىء يتهددكم من قدومنا بإستثناء الحماقة من جانبكم.

تعامل بكوات و حكام أبوالخير مع هذه الرسائل بطرق مختلفة . على سبيل المثال أعطى حكام سوزاك و سيجناك ردودا ساخرة واثقين فى قوتهم و قوة أبوالخير و قالوا : « إذا كان من أرسل إلينا هذه الرسائل لا يخشى الخان العظيم أبوالخير الخان على كل خانات الأرض فليحاربه . و إذا انتصر فإننا سنحضر له بكل سعادة مفاتيح مدننا» ...

مثل هذا الرد الوقح سرع من إيقاع الأحداث و لم ينتظر جانيبيك و بوروندوك المدة المقررة و غادرا قراهما و جاءوا إلى كارا – أوزك .

سرعان ما تجمع هنا حوالى مائة ألف فارس و أعطى جانيبيك إشارة الهجوم . و قد اجتاحا الوديان الخضراء في شمال تركستان مثل موجتين رهيبتين . في البداية كانا يتحركان



جنبا إلى جنب تقريبا و لكن فى منطقة شييلى افترقا كما يتفرق قطيع الذئاب للقنص. توجه بوروندوك إلى سيجناك أما أبناء جانيبيك جيرنتشى و محمود فقد توجها إلى سوزاك. و بقى خان جانيبيك مع أبنائه قاسم و الفارس كامبار في منطقة شييلى على شاطىء سيحون داريا. و كان القادة الحربيين السهبيين يأتون هنا عبر القرون عند الهجوم على المدن المتناثرة فى الواحات .

ومثل ثعابين الكوبرا التى تقف على ذيولها صار حكام سوزاك و سيجناك يصدرون فحيحا عندما رأوا الجيش الكازاخى القادم . و على الفور تم إغلاق جميع البوابات و دعى السكان كلهم دون إستثناء لحماية أسوار المدينة . و هنا ظهر الضعف الواضح لقبيلة أبوالخير. ناهيك عن أولئك الذين يتعاطفون فى أنفسهم مع جانيبيك (كان هؤلاء أغلبية و خاصة المزارعين و صغار الحرفيين الذين يتعرضون لاضطهاد البكوات والحكام) حتى شيوخ التجار الذين يميلون إلى ما وراء النهر بدأوا على الفور فى الحديث عن الاستسلام . لقد صاروا يهمسون لبعضهم البعض فى المقاهى والرواقات «ماذا يفترض أن نعمل ؟ . فليأت جانيبيك ثم ينتصر عليه أبوالخير و سنبقى نحن على الحياد لكن إذا دخل السهبيون فلن يرى الخير أحد».

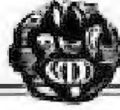
كان جميع هؤلاء الشيوخ و البايات والتجار و أصحاب النزل تقريبا من العشائر السهبية. وكان لدى الجميع تقريبا فى جيش خان جانيبيك القادم أقارب فى هذه المدن و هذه القرابة الآسيوية القديمة دائما ما تنقذهم من الدمار الشامل .

قرر حاكم سيجناك بعد أن فهم توجهات رعاياه الفرار ما دام سليما . و قد فر إلى سمرقند مع جميع أطفاله و أهل منزله و الذى كان الحريم يشكل الجزء الأكبر منهم . وتسرب فى إثره الموظفون العديدون و جباة الضرائب و جميع من يتهدده مشاكل خطيرة وفى المقام الأول من السكان و دخل السلطان بوروندوك سيجناك دون أن يطلق سهم واحد ..

تصرف حاكم سوزاك بختيار سلطان بطريقة مختلفة . كان قائدا عسكريا نشيطا

مسيطرا على مدينته سيطرة محكمة . و عندما قدم التجار القادمون إلى المدينة اقتراحا بالاستسلام طواعية أعطى أوامره باعتقالهم وسجنهم فى زنزانة .

كانت مدينة سوزاك تقع في السهوب الجرداء و لم تملك أى تحصينات طبيعية ويمكن للشخص الجالس على ظهر جمل أن يصل إلى الجزء العلوي من جدار القلعة . جمع بختيار سلطان ثلاثين ألف من الجنود اللشكرين و قرر محاربة الجيش الكازاخى القادم في السهوب المفتوحة .



كان ذلك سببا فى هلاكه لأنه اعتقد وفقا للذاكرة القديمة أنه جاء إلى المدينة حشود بدوية معتادة مألوفة لا تعرف كثيرا عن الشأن الحربى . لم يكن يعلم أنه بناء على تعليمات جانيبيك تم إرسال أناس اشتغلوا مدة سنتين بالإعداد الحربى لفرسان مختلف العشائر . و لم يكن من العسير تحويل المحاربين بالفطرة و الفرسان لجيش من الطراز الأول...

لم يمكن ألالاف الفرسان الكازاخ جيش اللشكريين المرهق و المدار بشكل سيء حتى من الالتفاف و اندفعوا كالحمم على الخط الأمامى لبختيار سلطان .

كان أكثر شيء أفزع المحنك بختيارسلطان ذلك الإصرار الذين يخوض به الكازاخ الحرب . لم يكن هؤلاء أولئك الرعاة المسالمين الذين كانوا من قبل يخضعون للقوة بصمت و ذل . الآن هم أنفسهم يشكلون قوة هائلة قادرة على فعل كل شيء . فى تلك الحالة يحصل الناس على كل شيء و لا يرحمون أحدا فى طريقهم حتى أطفالهم .

طلب بختيار سلطان السلام بشكل عاجل .

***

بعد الاستيلاء على هذه المدن أرسل جانيبيك رسله مباشرة إلى حكام أوترار و ياسى و سوران و أوزكينتا و ياسى و عرض عليهم جميعا الاستسلام دون قتال و الاعتراف بحكمه الأعلى .

***

حدث هذا عام 874 و هو عام الفأر بالتقويم الكازاخى أى فى 1468 بالتقويم الميلادى. وسبق خان جانيبيك خان أبوالخير الذي تحرك فى نفس العام على رأس مئة ألف جندى لتحقيق حلمه الأبدى بالاستيلاء على مغولستان و أفسد جميع خططه لأن فرسان جانيبيك يحكمون الآن قبضتهم حول عنقه ...

كان جيش أبوالخير النظامى المؤلف من مئة ألف فارس أقوى بكثير من الميليشيات الكازاخية المسلحة بالسيوف العتيقة والرماح والهروات. وكان جنود أبوالخير اللشكريين متسلحين بالسيوف الخراسانية التي تقطع شفراتها الأصفهانية بسهولة دروع العدو المصنوعة يدويا من الحديد الخفيف أما قادته العسكريين فكانوا يتقنون جميع دقائق فن الحرب فى ذلك الوقت.



دق قلب جانيبيك بعنف عندما سمع عن تحرك قبيلة أبوالخير . فقد كان يسمع القعقعة المنتظمة لمئة ألف فارس . كان يعرف جيدا هذه القعقعة لأنه كان فى يوم من الأيام أحد قادة أبوالخير العسكريين . و كان يعلم أيضا دهاء و عقلية القادة و مكر خصمه . و من غير المرجح أن تستطيع مغولستان المتفرقة و التي تمزقها التناقضات مقاومة القبيلة الزرقاء مدة طويلة . كان الأمل فى الاعتماد على نفسه فقط .

ما إن استولى خان جانيبيك على مدن شمال تركستان حتى جمع جميع الحدادين المعروفين و تجار السلاح فى سيجناك و سوزاك و فى الضواحى . و أمر أن توقد جميع أفران صهر المعادن و يصنع السلاح ليلا و نهارا من الصلب الدمشقى الذى تم الاستيلاء عليه فى المستودعات . و توهجت الليالى فى تركستان الشمالية . ثم جاءت رسالة جديدة كان من الصعب تصديقها فى البداية . لقد تغير كل شىء ...

جاء رسول يتشح بالسواد إلى مقر الخان صائحا من بعيد بالحزن و الموت . كان خان أبو الخير العدو اللدود و لكن خبر وفاته يجب أن يبلغ بصورة لائقة . و نزل الرسول من على ظهر الحصان و جثى على ركبتيه و قرب من خان جانيبيك رقبته المعلق عليها حزام علامة على الحزن ..

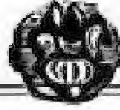
نظر خان جانيبيك إلى الرسول مدة طويلة فى صمت . كان خان أبوالخير يقف أمامه كما لو كان حيا و ليس له وجه واحد بل ألف وجه. و لكن خان جانيبيك لم ينس أبدا عندما التفت ذات مرة أثناء الصيد ورأى أبوالخير رافعا هراوته بتردد فوق قفاه و لماذا لم يضربه أنذاك أبوالخير على الرغم من أنها كانت أفضل فرصة سا نحة لفعل ذلك .

***

لمدة أربعين عاما جعل هذا الرجل سهوب دشت و قبجاق كلها و بلاد ما وراء النهر والعراق و إيران ترتجف من الخوف . و كم من المصائب جلبها للأرض التي أرضعته و أطعمته .

و فجأة لم يعد له وجود . لم يستطع العرش الذهبى أو المجد أو الثروة أن يطيل حياته ليوم واحد على الأقل. حتى الجرعة السحرية المعدة بمرافقة التعويذات الخفية من أشواك عشب السهوب «إيبيليك» لم تنقذه من الموت ...

توفى خان أبوالخير فى منتصف الطريق الصحراوية المقفرة بين سيحون و جيحون . و قام قادته العسكريين بختيار باجاتور و كاراتشين باجاتور بوضع جسده فى حوض خشبي مستطيل ضخم ملىء بالعسل حتى لا تصدر من جسده رائحة غير طيبة



فى مثل هذا الجو الحار و أحضروه إلى سوزاك التى تقع الآن تحت سيطرة الكازاخ . أمام الموت يتراجع كل شىء الكراهية و الغيرة و العواطف الأخرى لهذا العالم الفانى . و عند أسوار سوزاك دفن خان أبوالخير فى تابوت مرمرى تصاحبه جميع مظاهر التكريم .

كما يقولون « توفى ماماى و ذهبت عظمتك السابقة» ... كان جانيبيك يرقد فى خيمته على مقربة من الهدف المتمثل فى عودة حزام المدن إلى خانته و رأى أن كل شيء في العالم عابر كالانتصارات و الهزائم . و السلطة و المجد مثل الخاتم الذهبى . أثناء الحياة نلبس هذه الخواتم ساعين إلى ادهاش و ابهار الآخرين . و لكن من يقوم بعد وفاة الوالد أو الجد بحفظ هذه الخواتم ؟ و هل حقا تم صنعها من الذهب الخالص و رصعت بالأحجار النادرة. فى هذه الحالة فقط لن يتم إعادة صهرها فى النار . مجد الرجل يشبه فى كل شىء هذا الخاتم . و الأجيال القادمة سوف تقدره فقط فى حالة كونه قادرا على خدمة مصالحهم .

هل يتذكرالكثيرون ؟

أين دفن أوروس خان مؤسس الدولة ؟ و بأى شىء يبدأ الشعب إذا لم تكن له القدرة على فهم ماضيه و احترامه ؟

و لكن لماذا التفكير فى المستقبل و فى الذكرى التى تتركها عبر القرون ؟ ينبغى القيام بواجبك كما ينبغى و إذا كان عملك جيدا بالفعل فلن يتهدده النسيان . إنه هو خان جانيبيك سيضع خيمته الخانة الكازاخية على الرماد المتبقى من سلفه أوروس خان وعلى الأجيال القادمة أن تستحسن صنيعه أو تنساه . الشىء الوحيد الذي يعلمه علم اليقين أنه لن يسير فى طريق أبوالخير و لن يبتعد عن السهوب التى أطعمته ..

بعد أن توصل خان جانيبيك إلى هذا الاستنتاج وقف ثم خرج من الخيمة . مضت الحياة على النحو المعتاد و كان من الضرورى مواصلة مهمته ...

وصل الرد من حاكم ساوران . فقد كتب الحاكم الفخور « انتصر أولا و آنذاك تحدث معى على هذا النحو» فأعطى جانيبيك الإشارة بالهجوم فورا . و من جديد انقسم الجيش الضخم المتمركز على الضفة اليمنى لنهر سيحون داريا إلى عدة فرق . و فى غضون أسبوعين وردت الردود من مدن مختلفة و فى كل مرة تتحرك فرقة إلى تلك المدينة التى لا تريد أن تنصاع إلى القبيلة البيضاء . و كان واضحا أن البكوات و الحكام قرروا المساومة و بيع أنفسهم بسعر غال ...

***



في هذا الوقت نشر المبلغ السهبى العجوز « أوزون كولاك» فى كل أنحاء العالم رسالة مفادها أن حيدر شاه ابن أبوالخير خلف أباه على عرش القبيلة الزرقاء . أخذ جانيبيك يفكر «لن يقوم حيدر شاه بتسريح الجيش المكون من مائة ألف جندى الذى جمعه أبوالخير». ولكن هل سيطول حكمه ؟ من الواضح أنه يجب أن يفكر الآن في تعزيز موقفه بمساعدة الجيش أكثر من أن يفكر فى حرب خطيرة . لذلك من غير المرجح أنه سيواصل حملته على مغولستان . و لكن لكى يحظى بالشهرة يمكن أن يتجه نحو سهوب دشت و قبجاق خاصة و إن الدافع معقول جدا . غير أن فقدان مدن شمال تركستان بداية سيئة لشاه حيدر .

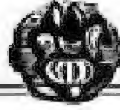
ماذا نفعل إذا إنقض علينا فقط بكامل قوة الجيش النظامي الذى أنشأه و تعهده أبوالخير ؟ .. كلا لن تتحمل ميليشيا بسيطة هذه الضربة مهما أظهرت من بطولة و إيثار . إن جيش شاه حيدر يشبه الثور القوى . و لكن أسهل من يتغلب على ثور واحد هم ذبابات الخيل . إنهم يهجمون عليه من جميع الجوانب و يلدغونه حتى يصبح الثور غير قادر على تحمل ذلك فيرفع ذيله و يهيم على وجهه .

و لا بد من قتال شاه حيدر على هذا النحو . و يجب توحيد جميع فرسان آسيا الوسطى الساخطين على أبوالخير و الذين رفعوا رؤوسهم بعد موته ضد ابنه . و ينبغى إنشاء عشرات

بل مئات من الفرق السريعة بحيث لا تجعل جيش اللشكرين ينعمون بالهدوء ليلا أو نهار .

و أيضا القيام بنصب كمائن و يستطيع الفرسان القيام بهجوم مباغت على جيشه. وحالما يأتى إلينا معذب من جميع الجوانب فسيخمد حماسه . و فى الوقت نفسه نستعد كما ينبغى لقدومه .

بعد أن توصل خان جانيبيك إلى هذا الاستنتاج أرسل العديد من الرسائل مقترحا التوحد ضد قبيلة أبوالخير المكروهة من الجميع. أرسلت هذه الرسائل أولا لمحترفى الغارات والسرقات. ومن جوانب مختلفة بدأوا فى تطويق قوات حيدر شاه العالقة فى الطريق. بالإضافة إلى ذلك فقد توافد إلى شمال تركستان جميع فرق البكوات و الأمراء والسلاطين الساخطين. وقد اعترفوا اسميا فقط بحكم خان جانيبيك و لكنه كان جيدا أن هؤلاء الحكام قد استجابوا لدعوته. و سرعان ما تجاوز جيش خان جانيبيك جيش حيدر شاه من حيث العدد ولكنه كان متباينا جدا . و من الصعب التنبؤ مسبقا كيف سيتصرف فى



المعركة. وسيضطر إلى الاعتماد فقط و بشكل على الفرسان و المحاربين الكازاخ القادمين من السهوب .

حان وقت البرد الخريفي و لم تنشب الحرب الحقيقية بعد . و لقد قامت فرق خان جانيبيك السريعة عدة مرات بمضايقة جيش حيدر شاه الذى قدم إلى نهر سيحون داريا و لكن الأمر لم يصل إلى معركة كبيرة . و تمكن الجنود اللشكرين الذين يرتدون الحديد من صد هجوم السهبيين و المحاربين الأحرار . و هم من قاموا أنفسهم بشن غارات على شمال تركستان و كان هذا كان فيما سبق ظاهرة معتادة .

خلال هذه المداهمات أظهر الفرسان الفرديين من كلا الجانبين مهاراتهم و شجاعتهم .

و قد أبلى كاراتشين بجاتور الذي كان يضمر الضغينة ضد المحاربين الكازاخ منذ أسره الشائن من جانب السلطان بوروندوك بلاء حسنا . كان يبحث عنه بإصرار أثناء المعارك وكان حبل الوهق الخانق معه دائما على أهبة الاستعداد غير أن المحاربين لم يمكنوه من سلطانهم ...

و قد هاجم جنود كاراتشين باجاتور السلجوقيين اللشكريين خان جانيبيك نفسه ولكنه كان لديه حرس شخصى مكون من مائتين من أشجع الفرسان و المحاربين بقيادة الفارس سايان . و قد تصدوا كل مرة لهجوم اللشكريين . و لم يبتعد الفارس سايان عن خان جانيبيك أبدا و أنقذ حياته مرتين ...

كان فصل الشتاء فى هذا العام قاسيا و سرعان ما انتقل خان جانيبيك مع جيشه خلف جدران سيجناك و ضواحيها . و تراجع حيدر شاه أيضا . و كما كان متبعا فى ذلك الوقت من السنة تم السماح لمعظم القوات من كلا الجانبين الذهاب إلى الديار .

و كان أعداء الراحل أبوالخير ينتظرون هذا الأمر على أحر من الجمر . و ما إن قام حيدر شاه بتسريح جيشه و قرر الذهاب لزيارة سمرقند بمرافقة خمسة آلاف فارس ظهر فجأة كما لو كان من باطن الأرض أيبك خان مع فرقة مكونة من عشرين ألف محارب . أرسل حيدر شاه رسلا لعودة الفرق المسرحة لكنه لم يستطع حشد جيش كبير . .

لم يكن شاه حيدر من القادة البارزين و لم يتصف بالشجاعة و لكنه فى هذه المرة تفوق على نفسه . و حارب جنبا إلى جنب مع كاراتشين باجاتور ضد جنود أيبك خان حتى آخر رمق .



غير أن بعض السهام التى أطلقت من مسافة قريبة اخترقت درعه و زرده . و سقط على الأرض بعد أن بدأ الدم يقطر من جسده . و هرع الفرسان الأكثر بأسا من كلا الجانبين إلى الأمام في محاولة للحصول على جثة حيدر شاه . و لكنه قبل موته تمكن من الصياح على كاراتشين باجاتور كى يتركه و ينقذ أبناء أخيه . و قد قام الأعداء بتقطيع جسد حيدر شاه ابن أبوالخير . و بعد أن تأكد كاراتشين باجاتور أن المعركة خاسرة أخذ معه محمد شيبانى البالغ من العمر سبعة عشر عاما و السلطان محمود ذى الخامسة عشرعاما و الذين حصلوا على معموديتهم الحربية الأولى و غادر خلال الأدغال و لم يتمكن الأعداء من اللحاق به .

***

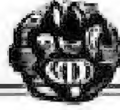
بعد وفاة شاه حيدر شاه بدأ الكثير من أتباع أبوالخير يبتعدون عن قبيلته . كانوا مثل الكلاب التى تنبح فقط على عتبة مالكها . و عندما دعت الحاجة إلى التصرف من تلقاء أنفسهم كانوا كما لو كانوا كلابا سلوقية تهاجم ذئبا و لكن سرعان ما يخفضون ذيولهم . و بعد أن يفروا إلى جحورهم يبدأون فى رفع أصواتهم فقط عندما يقترب منهم شخص ما عن كثب أو يحاول أن يأخذ منهم عظمة . . . .

***

وبطبيعة الحال استغل خان جانيبيك و حلفائه غير الدائمين من خانات و سلاطين المغول و جغطاى هذا الظرف على الفور . و انضم إليهم العديد من التيموريين و قرروا تمزيق و سلب خانة أبوالخير الضخمة و غير المستقرة . و فى أقل من عام لم يبق منها إلا الذكرى .

تحولت الخانة العظمى التي كونها خان أبوالخير فى سنوات عديدة إلى ولايات مفككة لا علاقة تقريبا لواحدة منها بالأخرى . و تكررت قصة تيمورلنك الأعرج ...

و لقد تدعم موقف خان جانيبيك أكثر و أكثر فى شمال تركستان . و بوفاة شاه حيدر كان من الممكن الحصول على بعض الراحة . إلى جانب ذلك فقد أرسل فصل الشتاء كما يحدث عادة فى سنوات الحرب صقيعا لم يعهده فى جايك الكازاخ الذين كانوا يعتادون على كل شىء . و لم تكن المخزونات لدى خان جانيبيك أيضا كبيرة . و قد سرح خان جانيبيك الجزء الأكبر من الميليشيا و سمح لهم بالعودة إلى الديار و أبقى معه



خمسة آلاف من الفرسان . و تقع العاصمة الآن فى سيجناك القديمة و تم تسكين كل جيش الخان في منازل المدينة .

قال خان جانيبيك لرؤساء الفرق المسرحة بلهجة آمره : « كونوا على استعداد واحضروا من النداء الأول». فى ذلك الوقت كانت كلمته قانون و كان الجيش يستطيع أن يتجمع فى أقصر وقت . و لكن بحلول فصل الربيع عندما كانت الحاجة تستدعى وجود الأيدي العاملة فى اقتصاد الرحل لم يكن يجمع جيشا كبيرا . و بدون دعم من جانب قبيلة أبوالخير لم تكن المدن الباقية التركستانية غير المذعنة تتطلب قوات كبيرة للاستيلاء عليها. لم يستطيعوا أن يوحدوا قواتهم و يدافع الآن كل على حدة . إلى جانب ذلك فقد أصبح بكوات و أمراء هذه المدن أكثر تجاوبا ... طوال فصل الشتاء كانت هناك مراسلات معهم. و فى هذه المرة لم يشك جانيبيك فى النجاح. و لكن ماذا سيحدث إذا لم يغيروا موقفهم؟ في نهاية المطاف فإنه سيستولى على هذه المدن و لكن كم من الوقت والمال سينفق على ذلك. ياسى و سيرام و و ساوران و أوترارو أوزكنت و عشرين من القرى الصغيرة . يمكن أن يمضى نصف حياته فى اقتحام هذه المدن الواحدة تلو الآخرى . و تعد ياسى وساوران بصفة خاصة مكسرات قوية. على كلحال ينبغى معرفة من من الجيران سيعيق خلال هذه الحرب و من سيساعد .

منذ العصور القديمة تصادقت القبائل الكازاخية مع خانات المغول و جغطاى الذين كان يرون أن وجود الخانة الكازاخية التى تمت لهم بصلة القرابة على الحدود الشمالية الغربية أفيد لهم كثيرا من وجود قبيلة أبوالخير أو التيموريين . و قال جانيبيك: فيقطعوا شاربى بالفأس إذا لم أحصل على مساعدة حقيقية من جونوس خان . فقد ورث جونوس أخيه عيسى بوجا فى كل شيء بما في ذلك صداقته مع جانيبيك . و لكن القضية ليستفى جونوس خان بل فى أصدقائه و أقاربه التيموريين . فإذا اتفق جانيبيك فى كل شيء مع جونوس خان فسيبقى التيموريون إلى حد ما غير محايدين إذ أنهم يعدون الآن القوة الرئيسية التى تطالب من وراء الكواليس بتركستان الشمالية ...

في هذه الأثناء كان من الضرورى الاشتغال بأعمال لا حصر لها تخص الخانة . . و كانت المهام كثيرة جدا و لا تقل أهمية عن التحضير لعمليات قتالية ضد مدن تركستان. ويستغرق وضع مجموعة قوانين جديدة و فرض الضرائب و إنشاء مخازن المال و الغذاء وعلف الماشية و إعادة تنظيم الجيش و اختيار الموظفين الكثير من الوقت . و دعت الحاجة



خصيصا الاشتغال بالمسائل التجارية . و قام التجار الكازاخ بالمتاجرة بنجاح مع مغولستان و أولوسات ألتاى و أستراخان و القرم و كازان و موسكو البعيدة . و لكن ذلك لم يكن كافيا. فقد خربت تماما الطرق القديمة التى شقها تجار دول و شعوب كثيرة عبر السهوب . و قد جعلت سنوات التعسف و التفتت و الفوضى هذه المسارات خطرة ، و خوفا من الهجمات كانت القوافل التجارية تضطر إلى الالتفاف و تحرم خزينة الخان من دخل كبير و السكان من السلع الضرورية. و خاض خان جانيبيك صراع وحشي مع عصابات الفرسان المتنقلة التى تعتبر القوابل المارة كغنائم مشروعة.

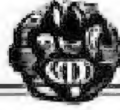
انقضى الربيع سريعا فى مزوالة تلك الأعمال. و بعد أن تذكر جانيبيك أنه ابن الشعب المترحل أعاد الارتحال فى الربيع مع مقره إلى سيحون داريا بالقرب من سيجناك. وكان هناك بعيدا عن المدينة الصاخبة والمتربة الهدوء البكر وروائح العشب والزهور. وإننى أرغب فى البقاء في هذه الجنة الدنيوية إلى الأبد.

كان معظم حكام مدن تركستان يرسلون إجابات غامضة. وكان من الواضح أنهم يتخابثون سعيا لكسب الوقت. وأصبح الانتظار أكثر من ذلك يمثل خطورة. ورد جونوس خان مغولستان على مقترحاته أيضا بطريقة غامضة للغاية.

وكما جرت العادة قبل اتخاذ القرارات الهامة استدعى خان جانيبيك مجلسه. ولم يكن ذلك بدعة فى السهوب الكازاخية. ومن زمن سحيق كان لدى قادة السهوب مثل هذا المجلس الدائم والذى يضم أفراد عائلاتهم وكذلك رؤساء العشائر والقبائل الخاضعين لهم. وعلى الرغم من أن القرار النهائى يرجع عادة إلى الخان ولكنه كان يأخذ فى الاعتبار عند التنظيم الحربى الترحالى رأى الناس الأكثر نفوذا...

فى الواقع لقد قضى خان أبوالخير فى السهوب فى هذا الشكل على حرية التعبير الواسعة لتلك الأوقات. و غير مجلسه بشكل تعسفي وأبقى فيه على غير المرغوب فيهم حتى أنه أصبح يضم فقط مجموعة من البكم. وبحلول نهاية فترة حكمه نادرا ما كانت توجه الدعوة لأشخاص محترمين.

لم يستعد خان جانيبيك هذا النوع من الديمقراطية الحربية الاقطاعية فقط بل أدخل عليها بعض التعديلات تماشيا مع الظروف الجديدة. و كان لديه نوعين من المجالس. يسمى الأول «المجلس الكبير»، والثاني « المجلس الصغير» . و كان يدعى للمجلس الأول جميع رؤساء العشائر بلا استثناء و كبار البايات و الفرسان . و فيه تتخذ القرارات حول



أكثر الأمور الهامة التى تخص الدولة مثل إعلان الحرب أو حتى إختيار خان جديد . و فى المجلس الصغير كان تبحث القضايا الصغيرة مثل توزيع المراعى و الأراضى الأخرى بين العشائر وتعيين الموظفين و تقارير جباة الجباية و الضرائب . و عادة ما يحضر هذا المجلس عدد اقل من الناس و معظمهم من أولئك الذين لديهم صلة بالقضية قيد البحث .

لكن ما يريد خان جانيبيك أن يناقشه فى المجلس الكبير كان يعهد به أولا إلى جاخان بيكى و ابنه قاسم و الذي أصبح فى ذلك الوقت في الواقع مشاركا لأبيه فى الحكم . و عادة ماكان يحدث هذا في خيمة جاخان بيكى .

غربت الشمس للتو و حان فى قرية الخان الصخب المسائى المعتاد . كان الصخب بسبب الماشية العائدة من المراعى و أصوات النساء العالية التى تعد طعام العشاء و صراخ الأطفال . كان النهار حارا و فى المساء فقط يهب نسيم بارد . فتح خان جانيبيك بنفسه باب الخيمة على مصراعية و أمر الحرس بالذهاب بعيدا و عدم السماح لأى شخص بالدخول .

قال لإبنه الداخل إلى الخيمة « إخلع معطفك ليرطب الهواء جسدك » و أشار إلى مكان ليجلس بجانبه .

جلسا صامتين و شاهدا كيف تصب جاخان بيكى حليب الفرس . و أصبحت الخيمة مظلمة تماما .

قال : ألن تشعلوا لنا المصباح ؟

ما إن سمعت جاخان بيكى كلام زوجها حتى تركت حليب الفرس وذهبت إلى الحائط و بدأت فى إشعال المصباح الصينى المعلق على مشربية خشبية. تابع جانيبيك زوجته بعينيه متأملا. لقد أصبحت على مدى السنوات الثلاث الماضية أثقل بعض الشيء ، و لكنها صارت تمشى أقرب ما يكون إلى البجعة الفخورة التى تسبح على سطح البحيرة الأملس .

أخذ جانيبيك يرتشف ببطء من السلطانية الفضية الثقيلة جرعة من حليب الفرس وتحدث كما لو كان يواصل حديث قد انقطع للتو فقال :

جاء اليوم من عند خان جونوس من المماليك أحد الأشخاص .

و التفت إلى قاسم و قال لعلك سمعت الخبر الذى ورد من حاكم ساوران ثم توقف فجأة عن الحديث .



فى نفس هذه اللحظة صرخت جاخان بيكى التى كانت ذاهبة إلى السرج لتأخذ من هناك أحجار من الصوان و الصلب و هرعت إلى ابنها و صنعت من نفسها ساترا . أومض في الهواء خنجر ألقاه شخص ما و سقطت جاخان بيكى مسطحة على السجادة . و أومض ظل شخص ما عند المدخل ...

قفز جانيبيك إلى الباب و لكن لم يكن هناك أحد خلفه . فى الظلام الأزرق أومض ظل فقط كما لو كان بفعل الفئران العملاقة .

امسكوه .

لكن الحراس لم تتمكن من اللحاق بالرجل الذى نفذ إلى خيمة الخان بطريقة غير معلومة .

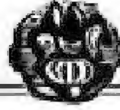
مثل ظل إبليس .

لقد اختفى الملعون ..

ما إن سمع قاسم الذى كان يجلس و ظهره إلى الباب و لم يفهم شيئا في البداية أصواتهم حتى قفز و ركض إلى أمه . كانت ل اتزال يديها دافئتين . و كان مقبض الخنجر الثقيل بارزا مباشرة قبالة القلب. انتزع قاسم الخنجر بالقوة فتناثر دم الأم على وجهه و غطى عينيه. نظر إليه الناس القادمين جريا برعب و لكن قاسم التزم الصمت . كان هذا الصمت أخلص من أعظم قسم .

لم تنم القرى طوال الليل فقد كانوا يبحثون عن القاتل . لكن البحث كان بلا جدوى. فقط عند الفجر جلبوا من شاطئ سيحون داريا معطفا أسودا من الصوف و معطفا خفيفا من كفوف ثعلب الماء و أحذية من جلد الإبل الخام . و على ما يبدو فقد سبح القاتل إلى الشاطئ الآخر . و لم يتوقف الناس عن التعجب من ذلك الأمر . كان النهر هنا عاصفا و قد انتفخ مؤخرا لامتلائه بالمياه لذوبان الأنهار الجليدية بسرعة . و قال الناس « ربما ليس هذا برجل و إنما مارد شرير أرسل عمدا إلى قبيلتنا» . و مع ذلك فإن العديد من الناس قد خمنوا بشكل صحيح من خلال الملابس أن الجاني من بنى جلدتهم بسهوب دشت و قبجاق .

دفنت جاهان بيكى فى وقار عظيم و بكى الآلاف من الناس بصدق متذكرين ذكاءها و جمالها وطيبتها. لم تؤذى أحدا طوال حياتها و لم تحتجب عن الناس كونها زوجة الخان و عاشت حياة عادية كامرأه كازاخية . وما إن انقضت الولائم الجنائزية الأسبوعية



المخصصة لها حتى استدعى خان جانيبيك الذى أصابة الكبر فجأة ابنه قاسم في نفس الخيمة التى حدث بها القتل الخسيس . و وضع على السجادة أمامه الخنجر الذى قتلت به جاخان بيكى ثم سحب خنجرا من خلف حزام ابنه و وضعها جنبا إلى جنب . صرخ قاسم فقد كان الخنجرين متماثلين تماما .

قال نعم يا بنى إنك لم تلق بالا إلى هذا . و لكن ما رأيك الآن ؟ لقد صنعهما صانع واحد .

ليس صانع واحد فحسب ... ماذا تتذكر أيضا عندما تنظر إلى خنجرك ؟

إن أمك قد أخذته بطريقة ما و قالت : « لينغرس فى قلبى بدلا من قلبك يابنى» كان ذلك عندما قبلت نصله و حلفت أننى لن أكون البادىء بالمساس بمحمد شيباني و السلطان محمود أبناء خالتى . و فعلت الأم ما تمنت .

أكد جانيبيك على كلامه فى حزن و قال : نعم كانت أمك امرأة عظيمة فلتتحول الأرض لها إلى سرير من زغب أبيض لأنها ماتت سعيدة حامية ابنها من الموت . و هل هناك أم غيرها حظيت بمثل هذه السعادة فى زماننا ؟

صاح قاسم و لكن على من كان يصوب ابن أوى هذا ؟

كان يصوب إما عليك أو على فلم يكن هناك أحد آخر فى الخيمة . و الآن اسمع . من غير المرجح أنه يوجد فى سهوبنا خنجر ثالث من هذا النوع . حقيقة الأمر أن نوجلايسكى بيك أحضر هذين الخنجرين من دمشق عندما كان ذاهبا إلى مكة . و قد أهدانى أحدهما و قمت ربطته فى حزامك عندما بلغت السابعة من عمرك و بقى الخنجر الآخر فى سهوب نوجلاى

و هكذا من هناك على ضفاف إديل لن نتوقع الراحة ؟

صحيح ما تقول ... إن سهوب دشت و قبجاق فسيحة مثل جلد الإبل . و الجميع يريد أن يقتطع منها قطعة على الأقل لكعب حذائه . وخاصة الآن عندما كنا عالقين في تركستان و من غير المعلوم متى سنخرج من هنا ... كلا لم يجلس كل هذا الوقت تيمير بيك فى إديل و سيده الأستراخانى قاسم سلطان مكتوفى الأيدى . و عندنا كازان فى الشمال و القرم فى الغرب . كل هؤلاء الأقارب لا يحبوننا بسبب أن السهوب لدينا واسعة ورائعة . و عندما تترعرع فى مثل هذه السهوب الواسعة خانة جديدة شابة فإنهم يبدأون فى الخوف على جلودهم . و دائما ما يحركهم الطمع و الخوف . و هذا الخنجر المقذوف من هناك يفصح عن الكثير .



من المؤكد أنهم يستعدون للهجوم علينا ؟

و ماذا كنت ستفعل لو كنت فى مكانهم ؟ أليس الآن هو الوقت الأكثر ملاءمة لهذا؟.. إن لم يكن اليوم فغدا فإننا نتوقع غاراتهم . فهيا فكر ما ينبغى علينا أن نفعل فى هذا الموقف .

قال قاسم إذا كان العدو من كلا الجانبين فيجب أن يكون المقر في الوسط . و قد قرأت كيف تصرف الناس العظماء فى مثل هذه الحالات . هكذا فعل الإسكندر ذو القرنين وكذلك فعل الرومان و نقلوا عاصمتهم إلى القسطنطينية . و ألم يفعل ذلك باتى و نقل مقر قيادته فى أوليتاو ؟

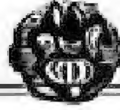
كلا إن أوليتاو بعيدة عن تلك الأماكن التي طار منها الخنجر الذي أودى بحياة أمك. و إننا هنا قد رسخنا أقدامنا بالفعل و إذا استولينا على ساوران فإننا لن نخشى شيئا لبعض الوقت على الحدود . و لكن لو أننا سحبنا مقرنا من تلك الأماكن فلن يعود لنا سيطرة على قبيلة أبو الخير و التيموريين. و سيكون من المفيد لهم التمسك بالسلام معنا و سيشتغلون بأمر بعضهم البعض. و سترى مدن تركستان أنه لن يتهددهم الاستعباد الكامل من جانبنا . و نستطيع أن نسحقهم و نمحوهم من على وجه الأرض لكننا لن نفعل ذلك . . .

نعم هذا صحيح يا أبى .

نحن سنترك سيجناك و كل الولاية تحت حكم بوروندوك و سنظهر فجأة على الحدود الغربية حيث ينتظرنا هناك أقل القليل . فهم يتوقعون أنهم سيلاقوا فى السهوب بعض القرى المتناثرة التى لا حول لها و لا قوة . و هل هذه غنيمة سيئة ؟ و إلى أين ينبغى علينا إذن نقل المقر فى هذا الوقت يا أبى ؟

أعتقد إلى مدينة ساريتشيك على نهر جايك. و لكى نعزز من قوة قبيلتنا يجب توحيد جميع الكازاخ المرتحلين إلى إديل و جايك و تورجاى و جيم . نحن دائما بعيدون وهم قد انسلخوا عنا تقريبا . و بدونهم لن يكون هناك وجود للخانة على الأقل بسبب أنه تقع خلفهم مباشرة الخانات المعادية لنا... وإذا نجحنا فى ترسيخ أقدامنا فى ساريتشيك يمكننا التفكير آنذاك فى التحالف مع روسيا ... وسنكون قريبين من الأراضي الروسية. هل تعرف ما هى الخانة الكازاخية التى سننشئها؟ سننشأ خانة عظيمة ...

و سأتكلم عن ذلك أمام البايات و الشيوخ .



في المجلس الكبير المنعقد تم تأييد قرار الخان من قبل الجميع وفى المقام الأول من جانب ممثلي تلك العشائر التى كانت تمتلك مراعى فى الجزء الغربي من دشت و قبجاق. كانوا يعلمون من تجربتهم المريرة ما هى غارات أقاربهم بالدم من بايات و خانات نوجاى و أستراخان.

مع حلول فصل الشتاء استولى خان جانيبيك على سوران . و بحلول ربيع العام التالى ترك سيجناك تحت السلطان بوروندوك و عهد بحكم سوزاك إلى ابنه محمود وساوران لابنه البكر جيرنشي. و ارتحل هو و مقره إلى إلى شاطىء جايك و استقر فى العاصمة السهبية القديمة سارايتشيك .

كان خان جانيبيك و ابنه قاسم يتوقعون الأحداث. وقد شعروا بذلك بعد انتقالهم إلى نهر جايك. و ما هى إلا بضع سنوات و ربما يقع غرب السهوب الكازاخية كله تحت نير حكام القرم و كازان و باشكيريا. ومن غير المرجح أن القبائل الرحل الكازاخية تستطيع التصدى فترة طويلة للأعداء الأقوياء الماكرين . بالإضافة إلى ذلك فإن بعض هذه العشائر نفسها تميل نحوهم بما لها من صلات قرابة و صلات أخرى مع الخانات المجاورة و علاقات تجارية مع الأمراء الروس .

شرع خان جانيبيك بنشاط و حزم تعزيز سلطة قبيلته هنا . ذهبت مفرزة جانيبيك المكونة من عشرة آلاف محارب بالنار و السيف إلى تلك القرى التى ترغب في الاعتراف بسلطة خان أستراخان أو الحكام الآخرين . و هرب بعض المتمردين مع قراهم خلف إديل إلى دول أخرى .

و لم يمض وقت طويل حتى ظهرت غيوم جديدة في الجزء الشرقى من الخانة الكازاخية الفتية .

بعد وفاة شاه حيدر أصبح محمد شيبانى نجل الراحل شاه بوداخ و بكر أكوزى الوريث المباشر لعرش قبيلة أبوالخير. كان هو وشقيقه الأصغر السلطان محمود فتيان طويلا القامة ، و رشيقى الجسم ، و يتقنان جميع أنواع القتال ، و يستطيعان أيضا قيادة المعارك الحربية. و لم تذهب مدرسة أفضل المحاربين في مقر أبوالخير بالنسبة إليهم سدى. وقد حصل الشجعان كما الأسود بالإضافة إلى ذلك على تعليم جيد حسب ذلك العصر فى أفضل مدارس أسيا الوسطى الشهيرة بعلمائها و شعرائها .

و قد علق أنصار أبوالخير السابقين آمالا كبيرة أن يواصل محمد شيبانى الذى يتصف بالذكاء الحاد مسيرة جده و سيصبح فى هذا العالم جنكيز خان جديد .



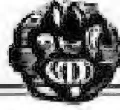
بعد أن أخرجهما كاراتشين باجاتور من أرض المعركة حيث قتل شاه حيدر لم يرسلهما إلى سمرقند . فى ذلك الوقت كان من الممكن أن يقتلا فى كل خطوة على يد الأعداء أو المنافسين وقد أخذ كاراتشين باجاتور الفتية عن طريق مسارات سرية أولا إلى أستراخان ثم عاد بهم إلى بلاد ما وراء النهر .

***

فى طريق العودة انضم اليهم عدد من السلاطين و الفرسان الواليين لقبيلة أبوالخير والذين كانوا يرون مستقبلهم فى إحيائها ثم بعد ذلك حكام مدن تركستان من ياسى و أوترار و بخارى التى لم يستولى عليها جانيبيك بعد . قرر الجميع أن يكتبوا على راياتهم أسماء أحفاد أبوالخير لإعادة بناء قبة القبيلة الزرقاء المدمرة .

و بهذه الطريقة توحد التيموريون من جهة و بعض الحكام المغول من جهة أخرى بدعم و مساعدة أنصار أبوالخير السابقين فى الصراع ضد القبيلة البيضاء التى تمثل لهم خطرا حقيقيا . وأعلنوا محمد شيباني خانا للقبيلة الزرقاء أو الأوزبكية و بدأوا بشكل محموم الاستعداد للحرب . وأثناء ذهاب السلطان بوروندوك لزيارة خان جانيبيك على شواطىء جايك قام الخان الشاب محمد شيباني بانتزاع سيجناك بعد غارة جريئة و بدأ في التهديد السافر للسلطان جيرينشى الذى كان يوجد فى ضواحى ياسى. وسرعان ما سقطت مدينة ساوران و التى انحاز بكواتها و شيوخها بسرعة إلى محمد شيباني . و قد أدى ذلك إلى تدمير النجاحات الأخيرة تقريبا التى أحرزها جانيبيك فى شمال تركستان . و لكن لم يتجرأ محمد شيبانى على الذهاب إلى سهوب دشت و قبجاق و لكن انتظار ذلك لن يدوم طويلا . ليس من الصعب أن نتصور كيف تلقى خان جانيبيك و أبناؤه كل هذه الأخبار التى وردت من تركستان واحدة تلو الأخرى . فبمجرد أن بدأت القبيلة البيضاء فى الصعود يسعون الآن لتدميرها . و ليس من قبيل الصدفة أن الهجوم بدأ عليها تحديدا من تركستان حيث تصادمت على الفور مصالح عدة خانات .

لقد ظل شمال تركستان محل خلاف بين اتحادات الدول الأربعة . و قد كان خانات الكازاخ يهدفون إلى البقاء في مدنه لحماية سهوبهم و الوصول إلى مراكز التجارة العالمية . و بعبارة أخرى لقد قاتلوا من أجل الحفاظ على خانتهم الفتية . و في نفس الوقت من هناك من شمال تركستان يمكنهم أن يبقوا السيف مسلطا فوق العديد من الأعداء فى وقت واحد.



وكان خانات المغول يرغبون في امتلاك تركستان الشمالية للسيطرة و طرد الكازاخ عندما تحين الفرصة من الأنهار السبعة و كذلك من حدودهم الشمالية الغربية. و مع وفاة أبوالخير و اعتلاء جونوس خان الذى تربطه علاقات وثيقة مع التيموريين العرش فى المماليك لم يعودوا فى حاجة إلى الدرع الكازاخى على حدودهم خاصة و أن جانيبيكي طالب بحكم جميع الكازاخ بما فى ذلك كازاخ مغولستان .

يريد التيموريون أن يسيطروا كما فى السابق على شمال تركستان للسيطرة على التجارة فى آسيا الوسطى مع السهوب و يستعيدون دولة تيمور الأعرج الكبرى .

و لم تكن ذرية أبوالخير تريد أن تخسر ببساطة ما كان ملكا لها منذ وقت قريب . لقد كان شمال تركستان مفتاحا إلى سهوب دشت و قبجاق و التى خرج منها أبوالخير نفسه . .

***

وماذا يستطيع خان جانيبيك أن يفعله فى ظل تلك الظروف الراهنة ؟ هل يستمر فى البقاء على ضفاف نهر جايك حيث المكان هادئ و فسيح ؟ إن فقدان شمال تركستان ستحول القبيلة البيضاء إلى خانة من الدرجة الثانية دون مستقبل . و هذا لا يمكن أن يقبله أحد من أولئك الذين ينظرون حتى قليلا إلى المستقبل . .

قرر خان جانيبيك خلافا لرأى العديد من خاصته العودة إلى تركستان و مواصلة القتال. ولم يأخذ الجيش معه فقط بل أخذ العديد من القرى إلى هناك. كان يدرك أن شمال تركستان سيصبح كازاخيا تماما عندما تستقر على أرضه تجمعات قبلية كاملة . . .

حتى الحكيم أسان كا يجى قد وجه اللوم لخان جانيبيك لتركه مثل هذه الأماكن الغنية :

هناك في السهوب تجرى الغزلان البرية و السمكة الفضية تلعب فى المياه الضحلة بالأنهار الكبرى و من الطيور البرية تصدر الغابات الساحلية حفيفا و الناس لا تعرف ما هو الجوع ، لكنك لم تعقد اجتماعا عند نهر جيم و انسحب الناس من هناك تلقاء أنفسهم إن نهر أويل رائع و مياهه عذبة و لا يدانيها فى شفافيتها إلا دموع الفرح .

و لكن هناك في أويل لم تعقد اجتماعا و انسحب الناس من هناك من تلقاء أنفسهم .

هكذا غنى أسان كا يجى و لكن خلافا لرأيه تصرف خان جانيبيك هذه المرة على



طريقته . و قرر عودة القرى الكازاخية المغادرة إلى شواطئ تشو و ساريسو من جديد .

و حول تشو ألف أسان كايجى مقاطع كوميدية :

على ضفاف نهر تشو من كلا الجانبين مستنقعات مالحة و ستمرض معدتك عندما تبتلع الهواء فقط

و من الغمد هناك لا يخرج سكين و الرجال مثل الخيول المخصية عاجزة و بالطبع فإن النساء المحليات

منافقات و شريرات و متوحشات

و انتقد الشاعر الشعبى أيضا كاراتاو حيث أسكن خان جانيبيك بعض القرى :

لا يسمع هناك صوت الطيور ما عدا الوقواق الشرير

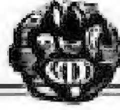
و العشب الأخضر لا تراه العين

و الأرض فى نظرنا مثل الفاكهة الفاسدة و النساء بحجم ثلاثة أطواق و الرجال يرعدون فى المشى بعظامهم و الناس ملقون على الأرض

حتى الحصان الجيد فى غضون خمس سنوات يتحول إلى عربة نقل الموتى و لدى الفوارس ذى الخامسة و العشرين عاما عيونا تدمع مثل العجائز أه تلك أرض عاقبها الله كلا لقد كان جانيبيك مصرا. و سحب وراءه ذيل القوافل المتناثرة فى كل السهوب و ذهب إلى الشرق . ذهب الناس فى حزن و كبت . و لكن الشخص الذى يبنى دولة لا يجب أن يفكر فى اليوم الحالى فقط . .

لدى وصوله بدأ خان جانيبيك فورا الاستعدا لقتال قبيلة أبوالخير التى بعثت من جديد . و تحرك الجيش من جديد إلى مدينة سيجناك . و سافر خان القبيلة البيضاء محاطا بفرسان الفارس سايان غير مدرك أن عينيه لن ترى الشمس مرة أخرى .

على سهل واسع بين ساوران و ياسى التقت قوات جانيبيك و محمد شيباني . فى هذه المرة لم تكن هناك أية مبارزات. أطلق خان جانيبيك خيالته للأمام مباشرة من السير. وتجاوزت كآلة الكبش الرهيبة ثلاثة خطوط من الجنود اللشكريين . هنا لم يستطع جانيبيك الصبر. و نسى أنه بلغ من العمر ستين عاما ، و هرع على صهوة حصانه و ألقى بنفسه فى المعركة. لم يكن فى السهوب حصان أفضل من حصان الخان و بالكاد لحق



به فرسان الفارس سايان و لكن على بعد مائتى خطوة سرعان ما اندفع حصان جانيبيك للأمام . في هذه اللحظة اعترضه من الجانبين الحراس الشخصيين لمحمد شيباني من الجنود اللشكريين السلاجقة على خيول تيكى و الذى كان يقودهم أسكوفى خوجه الجبار. و اقتربوا من خان جانيبيك المستمر فى الاندفاع للأمام ثلاث مرات . و فى الثلاث مرات وقعت بجانبه أجساد قطعت تقريبا من المنتصف و طارت رؤوس فى قبعات من الفراء الأشعث. ولكن فى المرة الرابعة اقترب منه الفارس أسكوفى خوجة . و حين اندفع إلى اليسار ضربه من جهة اليمين بهراوته ضربة قاسية فسقط خان القبيلة البيضاء مع حصانه على الأرض القاسية و المتصدعة .

فى هذه اللحظة كما لو أن إعصارا قد ظهر فجأة و أحاط بكل ما حوله . و انقض فرسان الفارس سايان الذين لحقوا بخانهم على الجنود اللشكريين الذين تحلقوا حول جسد خان جانيبيك . و فى برهة من الزمن تم تقطيع الجنود اللشكريين إلى قطع صغيرة و نجا محمد شيبانى الذى جاء لرؤية عدوه الميت من الأسر . لقد أنقذه أسكوفى خوجة الذى مر بجواره و جر وراءه حصان الخان . . .

و لم يتعقب الفرسان الكازاخ الذى غرق فى حزن عميق الأعداء المتراجعين . لقد رفعوا عن الأرض جسد خانهم و ذهبوا به بعيدا في السهوب . . .

توقفت هذه المعركة من تلقاء نفسها . و قاد محمد شيباني جيشه المنهك إلى داخل جدران قلعة ياسى و بقى الكازاخ فى السهوب . و بعد أن لفوا جسد خانهم فى سجادة بيضاء حملوه على جمل أبيض و تحركوا به إلى مدينة سوزاك التى حكمها محمود بن جانيبيك الثاني . و بجانب ضريح أبوالخير ذى القبة الزرقاء أنشىء ضريح مماثل يرقد فيه جانيبيك .. إن الذئبين الذين كانت لا تتسع لهما معا سهوب دشت و قبجاق الشاسعة خلال حياتهما يتحملان الآن بصبر جوار بعضهما البعض . و يسبغ الناس الذين يأتون للصلاة هنا عليهما مظاهر التكريم بدرجة متساوية .

***

عندما انقضتالأربعين يوما المخصصة للحداد رفع بايات و قادة القبيلة البيضاء على البساط الأبيض الفارس الشجاع و القاسى بوروندوك كعلامة على تنصيبه خانا . و جاء دوره ليعتلى عرش الخانة إذ أنه الأكبر سنا . . . .



لم يكادوا يحتفلون بهذا الحدث حتى تحرك السلطان محمود الشقيق الأصغر لمحمد شيبانى على رأس جيش كبير تم تجميعه من مناطق مختلفة مما وراء النهر و بدعم خانات المغول و التيموريين . و انضمت إليه فرق كبيرة من طشقند و ياسي و أوترار . و من جديد تدفقت الدماء أنهارا و لكن حفيد أبوالخير المحارب اضطر إلى الانسحاب من سوزاك .

و كانت نتيجة هذه المعارك تقسيم الشعوب ذات القرابة إلى قبيلتين بنحو متزايد .

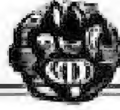
فى هذه الشهور حزن و نضج السلطان قاسم الذي سيصبح عاجلا أم آجلا خان القبيلة البيضاء . إن موت الأم التى حمته بجسدها ثم وفاة الأب في المعركة قد أصابه بالذهول .

سافر السلطان قاسم بعيدا فى السهوب عندما تزاحمت الأفكار فى رأسه . و قد هدأت المساحات الشاسعة رأسه الساخنة و ذهب النسيم بالكراهية و الغضب . كلا إنه لن يحنث أبدا بالقسم الذى أداه لأمه لأنه لا يوجد شىء أسوأ لروح الإنسان من هذا .

و فكر : « ليس من الصعب القيام بهذا طالما ما زلت منفذا بسيطا لأوامر بوروندوك . وفى يوم رائع سوف يرفعونني على السجادة البيضاء و حينذاك من من الناس سيعبأ بأيمانى ؟ سيطلبون منى القيام بإجراءات و أفعال و من هو الآن العدو الرئيسى لقبيلتنا غير ابن خالتى محمد شيباني ؟ »

هذا العام كان صعبا على السلطان قاسم . و اضطر مرتين إلى التراجع عن خوض المعركة ضد قادة محمد شيبانى. لكن بوروندوك الذكي جدا أجبره في وقت غير ملائم على الانضمام إلى المعركة . كان خان بوروندوك واحد من هؤلاء القادة السهبيين المتهورين الذين يشاركون فى المعركة ما إن يروا العدو . و هم لا يهتمون بالعواقب و يفرون من العدو بنفس السهولة التى يهجمون بها عليه . و هذا التهور الترحالى هو الذى يقودهم فى النهاية إلى الهزيمة . كلا لا يجب أن يتصرف الخانات الحقيقيون على هذا النحو .

كان هناك شىء آخر يزعج السلطان قاسم . صار الفقراء و المحاربون الفارين من سهوب دشت و قبجاق يتدفقون أكثر و أكثرعلى مفرزة أوراك الأعور و صار يسرق على نحو متزايد قطعان الأغنياء و الوجهاء دون تمييز إلى أى قبيلة تنتمى . و عبرت أفعاله هذه عن إستياء الشعب ضد الأغنياء . رأى السلطان قاسم فى غارات أوراك أفعال من شأنها تفكيك وحدة الخانة الجديدة و عزم على مهاجمة مفرزته و تدميرها مرة واحدة و إلى الأبد . بحث



قاسم عن فرصة للقاء أوراك و لكن لم تتأتى مثل هذه الفرصة. كان أوراك لا يثق كثيرا بالخانات و السلاطين و كان قادرا على الاختباء منهم.

و علاوة على ذلك أصبح الفارس الأعور بعيد المنال الذى أعلن الحرب على كل الخانات يتصرف بوحشية خاصة بعد وفاة عروسه أكوزى. فى هذا الشتاء سرق قطيعين مهمين من قطعان قاسم و أخذهم للرعى على ضفاف كاراتال. و يقولون أن الفارس أوراك وزع هذه الخيول على سكان القرى الفقيرة عند بحر آرال. و اقترحوا الذهاب إلى هناك مع مفرزة كبيرة و إعادتهم لكن السلطان قاسم رفض ذلك. كان يعلم أنه سيصبح خانا و لا ينبغى له أن يبدأ عمله بغارة عقابية على قرى تابعة له...

عمت الفرحة هذا الشتاء خيمة السلطان قاسم. لم يكن السلاطين السهبيون يتذمرون أبدا من عدم وجود الأطفال و لكن قاسم لسبب ما فرح جدا بولادة ابنه حقنازار.

ربما قد خمن أنه سيعهد لهذا الابن تحديدا فيما بعد بكل شئون حياته.

و على الرغم من الخسائر التى تكبدها السلطان قاسم فقد أقام بمناسبة مولد ابنه وليمة لنصف السهوب ترافقها المصارعة و ألعاب الخيل و توزيع هدايا ثمينة.

قال السلطان قاسم ضاحكا أثناء الوليمة: لقد عرف الفارس أوراك أنه سيولد لى هذا الابن الرائع فلتكن الخيول التى وزعها هدية منى للناس لمجد حقنازار...



IV

كانوا و مازالوا يكررون فى القبيلة البيضاء المثل الكازاخى القديم : « كى لا تنقر العيون بعضها البعض أقام الله الأنف بينهما .» و مع اعتلاء بوروندوك عرش الخانة تم تعيين السلطان قاسم من قبل الاجتماع العام قائدا عاما . و منذ اليوم الأول بدأت النزاعات .

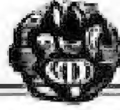
و كانا بالفعل متباينين .

و لم يكن بينهما الأنف الذى خلقه صانع الكون و تطورت الخلافات بينهما بشكل طبيعى إلى عدواة . و الشيء الرئيسى الذى لم يتفق عليه السطانان هو النظرة المستقبلية للخانة . كان بوروندوك يرى مستقبل شعبه فى الحروب المستمرة. إنه مقاتل قصير النظر فهو يحدد قوة الدولة بقدرتها على غزو أراضى الخانات المجاورة. وطوال حياته لم ينزل بوروندوك عن حصانه و طالب الجميع بنفس الشىء ناسيا أن الناس في حاجة لرعى الماشية و مراعاة أسرهم و الاسترخاء و التمتع ...

***

قرر السلطان قاسم بحزم مواصلة ما بدأه جانيبيك . و فى رأيه أن الدولة لا يجب أن يكون لديها ميليشيا مؤقتة على طريقة الأجداد الساكيين و لكن جيش نظامى مجهز تجهيزا جيدا ليكون قادرا على الدفاع عن عمل الرعاة الكازاخ . و لا يجب أن تكون الحرب العمل الرئيسي للكازاخ لأنها تؤدى إلى الانحطاط . و مثال المحاربيين الجنكيزين أفضل من أوضح ذلك . إن لدى الكازاخ ما يكفيهم من الأراضي و إن شاء الله سنتمكن من الدفاع عما نملك .

قال قاسم : « أود أن أصل إلى أن تعشش القبرات فى بلادنا على ظهور الأغنام » و لكن بوروندوك رفض جميع نصائحه مؤكدا أن الحرب المستمرة تصلب عود الناس و تحولهم إلى ذئاب غير خائفة تطوف ليلا و نهارا فى السهوب بحثا عن غنيمة مناسبة . مثل هؤلاء الناس لا يخشون الحرارة أو الجوع أو البرد . و سيجلبون إلى منازلهم كل ثروات الأرض . و لن



يكون هناك على الأرض من هو أكثر ثراء من الكازاخ و كل من حولهم سوف يرتجفون لمجرد سماع اسمهم .

كان السلطان قاسم يقف في طريق مسدود . إنه نفسه يؤيد تفرد الخان بالسلطة لذلك لم يقدر إلا أن ينصاع لبوروندوك . و قام بتنفيذ جميع أوامره بدون تردد مدركا ضررها . و لأكثر من مرة منيت القوات الكازاخية بالهزائم بسبب أن خان بوروندوك لا يفهم أى شىء عن الاستراتيجية الحقيقية . لا يعترف إلا بالهجوم و قليلا ما يهتم بإعداد وتجهيز الجيش .

أما في السياسة فقد كان خان بوروندوك يفهم بدرجة أقل . فقد كان يعد « نمور أبوالخير » كما كانوا يطلقون على محمد شيباني و السلطان محمود هم أعداء الخانة الرئيسيين فقط .

و بدا له أنه إن تخلص منهما فستصبح جميع الطرق مفتوحة . و كان السلطان قاسم يدرك في ذلك الوقت أنه ليس بسبب قرابة أمه فقط مع أكوزى أخذت منه هذا القسم. فقد أدركت بحدسها الأنثوى العميق أنه في المستقبل القريب سيصبح السلام ضروريا بين الخانات العظيمة التى تمت لبعضها بصلة القرابة و بهذه الطريقة فقط سوف تقوى وتتعاظم. و لم يشك قاسم في أن أمه هى التى أوحت لأختها أكوزى بفكرة القسم . و مثل هؤلاء النساء تجدهم كثيرا في التاريخ الطويل للسهوب . و بالفعل فسياسة السلام لأمد طويل هى المفيدة الآن لكلا الخانتين . و يجب إظهار الرغبة في السلام مع محمد شيبانى دون المساس بالمصالح الخاصة مطلقا بما في ذلك الخلاف على مدن شمال تركستان . ويجب ألا تكون يديه غير مقيدة لقتال التيموريين الذين يعدون أيضا أعداء القبيلة البيضاء . و ليتوجه محمد شيبانى الشاب ذو الدماء الحارة صوب الجنوب الشرقى حيث تتوجه إلى هناك دائما القبائل الحربية في آسيا الوسطى و لينتقل مركز ثقل قبيلة أبوالخير إلى هناك في الهند و إيران و أفغانستان . ألن تستفيد من هذا الخانة الكازاخية ؟ إنها ستصبح في غضون تلك السنين القوة الرئيسية هنا في مهدها القديم .

***

و ما الذى سيعود علينا من قتل « النمرين » باستثناء التقوية السريعة للتيموريين وخانات المغول و جغطاى ؟ و أسنانهم ليست حادة فقط بل سامة أيضا . كلا فمن الأفضل التعامل مع نمر على التعامل مع ثعبان ..



توسعت الفجوة التي ظهرت بين خان بوروندوك و قائده العسكرى قاسم و اتسعت لتتحول إلى صدع . و تحدث خان بوروندوك علانية أنه لا يفهم سر تعاطف قاسم مع الأعداء اللدودين و هذا التعاطف بالتحديد هو ما أدى إلى الهزائم التى لحقت بهم .

***

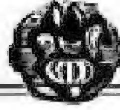
و في الوقت نفسه شارك « نمور أبوالخير» دون قصد منهم فى حل النزاع .

بعد أن استولى محمد شيبانى على مواقع رئيسية فى تركستان كمدن سيجناكو أوترار و أخروج و أوزكنت قرر الاستيلاء على ساوران . ما إن علم حاكم المدينة بذلك حتى جمع أفراد أسرته الكثيرين و أقاربه و هرب إلى ياسى ، و قرر الشيوخ و البكوات و التجار و وجهاء المدينة الآخرين تسليم المدينة لشقيق محمد شيباني الأصغر «الفارس المغوار» السلطان محمود . و قد جاء على الفور ملبيا نداءهم و دخل المدينة . و ذهب محمد شيباني إلى هناك كضيف على شقيقه . لكن عند مغادرته المدينة قال للسلطان محمود « لم يسلموك المدينة بنوايا طيبة ... قم بنفى أو قتل من سلموك المدينة» و لكن السلطان محمود لم يستمع للنصيحة الأخوية و سرعان ما دفع ثمن ذلك ...

مع كل يوم تتزايد سلطة و مجد محمد شيبانى . و تجمع الأمراء و البكوات و الميرزات و السلاطين الذين اختفوا بعد انهيار القبيلة الزرقاء من كل مكان تحت لوائه . و لم يجد محمد مازيت طرخان لنفسه مكانا من الخوف .

بعد أن قرر محمد مازيت طرخان أن يحتمى من الجار الخطير وراء أسوار سمرقند أرسل كبداية قافلة محملة بالمجوهرات . و مع نفس القافلة قام بتجهيز ابنته الحبيبة عبادات البالغة من العمر أربعة عشر عاما بكل ما يلزمها . و لكن حدث أن عرف أحد أتباع محمد شيباني بشأن هذه القافلة و قام مع مفرزة من الفرسان بمهاجمة القافلة و استولى على ما فيها و جاء بها إلى محمد شيبانى . و من بين تلك المجوهرات اختار الخان الشاب عبادات الجميلة فقط و اتخذها لنفسه زوجه خامسة .

حينذاك توجه محمد مازيت طرخان إلى بوروندك بطلب للاتحاد معه . و من خلال رسوله اقترح القيام بهجوم مشترك على محمد شيبانى و طرده من تركستان . و بطريقة أو بأخرى أعطت السياسة المتأنية التى اتبعها بوروندوك مؤخرا تحت التأثير المباشر للسلطان قاسم ثمارها الأولى .



قام الجيش المشترك للقبيلة البيضاء و لحاكم شمال تركستان بمحاصرة ساوران وصار السلطان محمود يستعد بهمة للدفاع . و بناء على نصيحة من السلطان قاسم كتب محمد مازيت طرخان رسالة إلى بايات و شيوخ ساوران يذكرهم فيها بقوميتهم و مقترحا تسليم المدينة دون قتال تجنبا لإراقة الدماء . فأطاعوه وقرروا بناء على النصيحة السرية الاستسلام طواعية لخان بوروندوك . و قد قبض الأشخاص الذين أرسلوهم على السلطان محمود « نمر أبوالخير» غير المرتاب فى شىء و سلموه لفاتح المدينة السلطان قاسم .

كانت هذه هى القطرة التى ملئت كأس النزاع بين بوروندوك و قاسم . أقام السلطان قاسم و حليفه محمد مازيت طرخان وليمة بمناسبة الاستيلاء على ساوران و عودتها تحت حماية القبيلة البيضاء ، الأمر الذى وافق عليه أخيرا الحاكم الرئيسى العنيد . ما إن وصل خان بوروندوك المدينة حتى ارتمى على وسائد و فرش السلطان محمود الحريرية و شرب كأسا وراء كأس من شراب سميك . و أمر دون أن يتحدث حتى مع قائده العسكرى قائلا :

احضروا لى هذا السلطان محمود .

و بدلا من حفيد أبوالخير دخل السلطان قاسم . و قد انحنى الإنحناءة الواجبة أمام خان القبيلة البيضاء وفقا للقوانين القديمة و جلس فى المكان المحدد له .

قال بهدوء لقد أبلغونى أنكم أمرتم يا سيدى الخان بإحضار الفارس الأسير السلطان محمود . لماذا تحتاجون لرؤيته الآن ؟

قال خان بوروندوك و قد قطب جبينه كسحابة خريفية : لقد قالوا لى إنه بطل عظيم .

و أريد أن تأمر فى حضورى بقطع رقبته . و سوف نرى كيف سيصرخ كفارس أم كامرأة .

قال السلطان قاسم دون أن يرفع صوته :

لم يجىء إلينا السلطان محمود كعبد تم شراؤه بالمال أو كمحارب في معركة مفتوحة . لذلك ليس لدينا القدرة على تقرير مصيره بدون قرار جماعى . و على كل حال فهو حفيد خان و شقيق وحيد لخان . و كى تقطع رقبته يتوجب عليك الحصول على إذن إن لم يكن من المجلس الكبير فمن المجلس الصغير على الأقل .

امتلأت رقبة و وجه و يدين خان بوروندوك بالدم . و صار يشبه كيسا ضخما من الروث بين الوسائد الحريرية . وفجأة جلس القرفصاء . و تلاقى



حاجبيه معا فى خط واحد وكادت عيناه أن تخرج من مكانها بسبب الغضب.

أخذ يزأر و قال سأكون لحفيد أبوالخير المجلس الكبير و الصغير .

لم يرفع السلطان قاسم صوته و قال بهدوء كعادته دائما : فى هذه الحالة أرجو منكم يا سيدى الخان ألا تنسون القانون الآخر القديم ... إن السلطان محمود أسيرى . و بالإضافة إلى ذلك فهو ابن خالتى . و بالتالى فإننى هنا أقرب أقاربه و أمثل مصالحه .

حتى بوروندوك لم يجرؤ أن يعارض هذا القانون السهبى القديم . لقد ذبل و صار يتمتم بغموض مع ثقل اللسان المعتاد فيه :

ماذا تطلب منى ؟ .. كم من الفرسان الكازاخ قتل هذا السلطان محمود .. ماذا تريد ؟ ..

أتريد أن أسمح باطلاق سراحه ؟ تكلم .

هز السلطان قاسم رأسه عمدا و قال :

كلا أنا لا أطلب إطلاق سراحه . و لكن كى نقرر مصيره فمن الضرورى أن ندعو المجلس للانعقاد . فنحن لسنا لصوصا و لكننا دولة و لا يليق بنا أن نكون مثالا للخروج على القانون

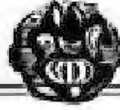
وافق بوروندوك و قال نعم ... نعم ...

قال قاسم و لكن ليس هذا هو الوقت المناسب لعقد هذا المجلس . لقد أبلغنى جواسيسى أن محمد شيبانى اقترب من ضواحى ياسى . لكنه لن ينجح فى الاستيلاء على هذا الحصن. و ينبغى علينا ألا نضيع الوقت و نستولى على أوترار على حين غرة . و قد حاز هذا الاقتراح على إعجاب بوروندوك .

وافق بوروندوك و قال حسنا نفذ . أما هذا السلطان محمود قريبك فلن يهرب قيد أنملة .

قال قاسم : سنرى ما سوف يتمخض عن هذا الأمر .

ظل بوروندوك الشرير يغلى لفترة طويلة و يفكر فيما حدث .. و كان مثل القط الذى سحبوا من تحت أنفه قطعة من لحم الخنزير المقدد. كان خان بوروندوك الذى لا يستمع تقريبا إلى نصيحة من أحد لا يتحمل بوجه خاص نصائح السلطان قاسم . و هو الآن راغب فى ألا يستمع إليه و يعدم الأسير و لكنه فى حراسة فرسان قاسم و لا يستطيع بوروندوك الوصول إليه .



لدى وصوله الى خيمته استدعى السلطان قاسم الفارس سايان . صار الفارس الصادق والمخلص أقرب شخص إليه. وكان دائما ما ينفذ المهام الأكثر خطورة مظهرا خلالها ذكاء ملحوظا و شجاعة .

قال له السلطان قاسم فى إشارة إلى أن سايان أكبر منه سنا : جيين أغا أريد أن أكلفكم بمهمة خطيرة. ابتسم الفارس سايان و قال : منذ ولادتى لم يكن لدي يوم واحد آمن . إننى فى انتظار أمرك . صمت السلطان قاسم فى تردد .

سأبين لك الأمر ... إن بقاء أسيرنا السلطان محمود هنا غير آمن تماما و إننى أريد أن أرسله سرا إلى سوزاك . و يتعين عليك أن ترافقه و تبقى معه حتى عودتنا من أوترار .

وافق الفارس و قال إنك تكلفنى بمهمة صعبة . و لكن ألا تعتقد يا سلطانى أنك بارسالك السلطان محمود إلى سوزاك فإنك ترسله للعالم الآخر . فهذه المدينة يحكمها أخوك و الذى يحمل نفس الاسم و هو محمود بأنف مقطوع و شفه مشقوقة . و قد فعل به هذا أسيرنا .

لن ينتقم أخى من شخص أعزل لأن ما حدث قد حدث فى مبارزة .

هز الفارس سايان رأسه و قال :

إن الجرح الجسدى سرعان ما يلتئم و يكف عن الإزعاج و لكن الجرح النفسى ...

يجب مهما حدث حماية السلطان محمود . لقد أقسمت أمام والدتى أننى لن أسبب ضررا لأبناء أكوزى إذا لم يرفعوا يدهم على .

حسنا سأفعل كل شىء حتى تبر بهذا القسم . و لكن ألا يعلم الناس أننى شقيق ربيعة سلطان بيغيم زوجة الراحل أبوالخير من جهة الأب ؟ لا لم أكن أعرف ذلك . و لكن ما الذى تغير فى الأمر ؟

ألم تلد ربيعة سلطان بيغيم سيونشيك ؟ و ألا يوجد الآن ابن أختى الشقيقة فى جيش محمد شيبانى ؟

هذا هو مكانه المناسب ...

هذا صحيح و لكن ماذا لو هرب منى فجأة السلطان محمود ألا أصبح عدوك بالضرورة؟ إننى أثق فيك كما أثق فى نفسى .



جربنى أفضل في مهمة أخرى و أصر الفارس الصادق على رأيه . إننى أطلب منك مرة أخرى أن تعهد بهذا الأمر لشخص آخر .

قال السلطان قاسم بحزم لا يوجد شخص آخر مثلك بالإضافة إلى ذلك فالسلطان محمود يعرف قرابتك له و لن يحجم عن التحرك معك . ينبغى علينا إنقاذ حياته و اعادته سالما معافى .

و لماذا فى هذه الحالة لا تعهد لى بالإفراج عنه ؟

حينئذ سيلقى خان بوروندوك اللوم على . كلا فليقرر المجلس الخانى مصيره .

و هناك ستتبعنى الأغلبية .

لا يجب أن نزج بالأسير فى كل هذا . فماذا يستطيع أن يقرره المجلس إذا أصر بوروندك على رأيه على حين غرة ؟

قال السلطان قاسم بطريقة موزونة ناظرا فى عينى الفارس : واجبك يتلخص فى حماية السلطان محمود حتى عودتنا من أوترار .

ابتسم الفارس سايان بتأكيد و قال أفهم و سأفعل كل ما فى وسعى يا سلطانى .

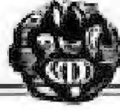
اذهب اليوم حتى لا يحدث شىء غير متوقع و ضع القيود الخشبية فى أرجل الأسير .

سمعا و طاعة يا سلطانى .

***

في نفس اليوم تحرك بوروندوك و قاسم على رأس جيش القبيلة البيضاء إلى أوترار . ولكن ما إن أبلغ الجواسيس محمد شيباني عن ذلك حتى رفع حصاره على الفور عن مدينة ياسى لكى لا يفقد أفضل حصن له في تركستان . إنه يتذكر جيدا المثل السهبى عن الماعز غير القرناء التي طلبت من الله أن يعطيها قرونا و لكنها خسرت أذنيها . و عندما اقترب الجيش الكازاخى من مدينة أوترار كان محمد شيبانى بالفعل مع قوات كبيرة داخل المدينة و يحتمون وراء جدرانها السميكة .

كانت الجدران هنا أكثر سمكا و أعلى مما هى عليه فى ياسى و علاوة على ذلك كانت مجهزة بأبراج ذات مزاغل من أجل الرماة . كان ارتفاعها يبلغ أربعين مترا أما الطين



الرمادى المكلس الذى استخدم فى بنائها كان لا يقل قوة عن الجرانيت . و كان الطعام في المدينة يكفى لسنة من الحصار و الماء و الوقود أيضا متوفران بدرجة كبيرة . و لكن المحاصرين يقفون فى السهوب الجرداء التى تحرقها الشمس أما الغذاء و العلف فيضطرون إلى جلبها من مكان بعيد ، و كان الماء في الآبار قذرا مما أصاب الجنود بالمرض .

و بعد شهر من الحصار تحدث العقلاء عن عدم جدوى الوقوف تحت جدران أوترار .

و لكن بوروندوك العنيد كما هو الحال دائما لم يتراجع . و أمر بالحفر تحت الأسوار و انتظر بفارغ الصبر أن يرتوى من الدماء الطازجة "للنمرين" . و لكن فى يوم رائع هبت عاصفة ترابية من ناحية طشقند . و أبلغ الجواسيس أن جيشا كبيرا قادم لإنقاذ محمد شيبانى فأصبح الحصار بلا معنى و فى اليوم نفسه أمر بوروندوك أخيرا بفك الحصار .

انطلق بوروندوك إلى الأمام مع مفرزة مكونة من خمسة آلاف جندى ، و بعد أسبوع وصلت بقية القوات التي يقودها قاسم إلى سوزاك . و عندما ظهرت من بعيد أسوار سوزاك غير المتساوية رأوا فارسا يجرى من هناك . و كان واضحا أنه كان فى عجلة من أمره ليعلن شيئا مهما . فزع السلطان و رفاقه : فقد كان كل شىء متوقع فى هذا الوقت . فوراء كل تل يمكن أن يكون هناك كمين ...

لقد كان هذ الفارس هو جاديك أحد إخوة السلطان قاسم الأصغر سنا . و كان حصانه يزبد كما لو أنه كان يجرى لمدة ثلاثة أيام و انه هو نفسه كاد أن يقع من السرج .

السلام عليكم .

قال قاسم و عليكم السلام . هل كل شىء على ما يرام فى قرانا يا جاديك ؟ كل شىء على ما يرام فى القرى ... و لكن هناك خبر واحد غير سار .

تكلم .

لقد هرب السلطان محمود من الزنزانة الحجرية و معه أحد الحراس ...

و أين كان الفارس سايان ؟ قتلوه ..

وفقا لرواية جاديك فقد حدث الأمر على هذا النحو . بالإضافة إلى الحراس فى الأعلى كان الفارس سايان ينام بجوار السلطان محمود خوفا من أن يقتله أناس من قبل بوروندوك.

لكن على ما يبدو في ظل غياب الفارس تفاهم الأسير مع أحد الحراس من المانجيت



ووعده بجبال من الذهب . حدث هذا أم لم يحدث و لكن في الوقت الذي كان فيه الفارس سايان نائما قطع الحارس حلقه . و قد تم فى وقت سابق حفر ممر تحت الجدار و لاذ كلاهما بالفرار .

علموا بذلك فقط فى الصباح و اختفى أثرهم فى السهوب ..

ما إن علم السلطان قاسم بوفاة أقرب شخص إليه حتى صار يتأرجح فى السرج من الألم النفسى. كان يستمع إلى القصة و كأنه فى حلم . حتى عندما أسرع الجيش كله ليصلى صلاة الجنازة على الفارس سايان الذى أحبه الجميع بشدة لم يتمكن قاسم من فعل ذلك . فقد كان يعتبر نفسه مذنبا فى وفاة صديقه ...

***

ذهب الجيش إلى المدينة و طلب منهم بإشارة أن يتركوه هناك حيث سمع الخبر الرهيب. و بقى السلطان قاسم وحيدا فى السهوب .

قال بصوت عال أيها الفارس سايان أقسم أننى سأنتقم لك من مائة شخص ..

ثم ركع السلطان و همس بهدوء و حزن :

يا أمي العزيزة .. عندما حاولت أن أكون وفيا للقسم الذى نذرته لك فقدت صديقى .

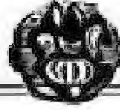
و شلت يد أخى محمود و الآن قتلت أفضل صديق لى فى هذا العالم ... فما العمل يا أمى ؟

همهمت الرياح من العشب الجاف حيث اكتظت سماء تركستان البيضاء بطيور القبرة البعيدة عن الرؤية . و لم يجب أحد السلطان على سؤاله و تبدت الحيرة الحزينة في عينيه .

إننى أسحب قسمى يا أمى ... و سوف أنتقم لمقتل والدى و صديقى ... و لموتك لأنهما كانا هناك فى المكان الذى طار إليك منه الخنجر .. من المستحيل التضحية بالأحياء من أجل قسم إنسان لم يعد على قيد الحياة .

لقد تعهد السلطان قاسم للسلطان محمود الأسير أنه سيعيده لدياره آمنا سالما . و طلب منه عدم اليأس و عدم القيام بأي شىء . ... لا يجب أن تأخذه رأفة بهذا الشخص ..

***



لحق السلطان قاسم جيشه عند بوابات سوزاك . و جاء خلفه شقيقه جاديك .

قال له جاديك : لقد نسيت أن أخبرك أن تيمير بيك من إديل قد حل علينا ضيفا فى سوزاك .

أجاب السطان قاسم إنهم يقولون إنه مريض جدا .

- نعم مريض ... و يقولون إنه بسبب الحزن ... لكنه يجلس على فرسه بدون مساعدة من أحد و يقفز بنفسه من فوق الحصان هذا يعنى أنه سوف يعيش .

و لم أخبرك أيضا أن بوروندك سيدنا الخان يعتبر الفارس سايان المذنب فى هروب السلطان محمود ...

كيف و قد قتلوه .

لا يهم ... و كانتقام من الراحل سوف يعطى زوجته السابقة جولباخرام لتيمير بيك ويبعدها عن أطفالها .

كيف هذا ؟.. إن تيمير بيك مريض و عمره يقارب عمر النبى . فماذا سيفعل مع جولباخرام ؟

قال جاديك : نعم عندما جاء إلينا كان رجلا ضعيفا و عاجزا بسب تقدمه فى السن. يكاد يزحف وهو ينزل عن ظهر الحصان. و لكن عندما حدثوه عن جولباخرام ابتهج وأصبح يمشى متهاديا كأوزة صغيرة. و يقول الناس إنه قد قد أصابته الشيخوخة قبل أوانها لأنه لم يستطيع أن يكون السيد المطلق على إديل و جايك . و لكنه عندما سمع بوفاة الفارس سايان حزن فى البداية ثم بدأ يقول أن أرملته يجب أن تكون من نصيبه هو فقط. و ما إن عاد الخان من أوترار حتى أعلن تيمير بيك عن مطالبه. و قد أعجب العم بهذا أيضا. و لكن عندما سمع أيان الولد البكر للفارس سايان الذى يبلغ من العمر خمسة عشر عاما عن هذا الموضوع هرع إلى الرجل العجوز تيمير بيك و فى يده خنجر . الآن أيان يقبع فى السجن و يعدون له حبل المشنقة. لذلك فقد جئت إليك لكى تسرع .

نظر جاديك إلى وجه أخيه و لكنه كان وجها جامدا محكم الإغلاق . و ما أن لمس السلطان قاسم حصانه حتى اندفع إلى الأمام متقدما على الجيش كله .

انتشر خبر ما حدث فى سوزاك بين المحاربين و انضموا فى صمت واحدا تلو الأخر إلى قاسم . و طحن العشب الجاف تحت سنابك الخيل و استقر على الأرض غبار كثيف.



قبل أن يصل قاسم إلى المقر اختار بعضا من الفرسان من عشائر شتى من أولئك الذين يركضون خلفه و فارسين من حرسه الخاص اللذين كان يقودهما من قبل الفارس سايان و اقترب من مقر بوروندوك .

احتشد الناس في الساحة و من شدة ازدحام الناس لم تكن التفاحة لتسقط على الأرض .

تنحوا عن الطريق ... تنحوا عن الطريق ..

هكذا كان الناس يصيحون مزيحين الجميع من أمام السلطان قاسم . توقف عند عتبة قصر الخان دون الترجل عن الحصان . و الآن فقط تطلع حواليه و رأى بوروندوك فجأة أمامه . خرج إلى عتبة الباب كصخرة ضخمة مربعة و وقفت إلى جانبه مفرزة على استعداد للهجوم. و كان يتقدمها تيمير بيك ممتطيا ظهر حصان ضخم عجوز و مرتديا درعا معدنيا و غطاء حديدا على كتفيه . لقد انحنى ظهره من التقدم فى السن و بدا مثيرا للسخرية في زيه العسكرى .

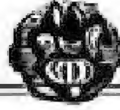
و خلف المفرزة أجلسوا جولباخرام أرملة الفارس سايان الصغيرة على ظهر حصان و وجها إلى ذيله كعلامة على العار . و قد أعطيت ابنة أبوالخير الرهيب جارية لتيمير بيك .

ربطت يديها من الأمام بإحكام و لكى لا يسمع نحيبها وضعوا كمامة على فمها وربطوها من الأعلى بمنديل من الحرير . كانت ضفائرها السوداء الفاحمة ملقاة بين أرجل الفارس ذو الوجه المبثور الجالس أمامها و قد تم ربطهما بإحكام فى حزام صدر الحصان .

عادة ما كان يفعل ذلك الجونغاريون عندما كأن يأسرون الفتيات الكازاخيات ...

نظر السلطان قاسم فى الجانب الآخر و ارتجف رغما عنه . فقد كان يقف تحت المشنقة البيضاء المسجوحة الفارس أيان و الذى يشبه والده الفارس سايان كقطرتى الماء و أنشوطة الشعر الرقيقة ملتفة حول عنقه . و كان جلاد الخان الضخم الذى يشبه بوروندوك بشكل كبير يمسك فى يديه بطرف الحبل النازل من العارضة . كان يمكنهم أن يشنقوا أيان و لكن بوروندك أراد أن يحدث هذا أمام والدته و لقد قاومت جولبخرام لفترة طويلة و لم تمكنهم من تقييدها . حتى تيمير بيك طلب من خان بوروندوك عدم شنق الفارس أيان و لكن بوروندوك كان قاسى القلب عديم الرحمة .

***



لم يكن بورونداوك غبيا فقد أدرك أن الفارس أيان سيكبر و سينتقم لوالدته . و لم يعد تيمير بيك الذي عاش حياته بين الآلاف من القتلى و الظالم القاسي يصر على طلبه .

لقد انحنى فقط أمام بورونداوك و شكره على جولبخرام

التي سعى إليها سنوات عديدة .

كأن الجلاد كان يتوقع نظرة السلطان قاسم فقط فقام بجذب الحبل ناحيته .

اتركه..

قال ذلك السلطان قاسم بهدوء و لكن بصرامة فارتبك الجلاد . خفف من جذب الحبل، و لكنه لايزال يمسك به و نظر بخوف إلى القائد العسكرى الذى يتردد اسمه في سهوب دشت و قبجاق و جميع دول الجوار . ثم التفت الجلاد تجاه بورونداوك و صرخ بصوت رقيق :

بناء على أمر الخان ..

اتركه . أمره السلطان قاسم مرة أخرى بصوت أكثر هدوء فما كان من الجلاد إلا أن دفع نهاية الحبل بعيدا عنه مثل الأفعى .

ساد فى الساحة صمت مطبق حتى أنه كان يسمع طنين نحلة ضخمة مخططة كانت تطير حول رأس الفارس أيان. احمر وجه بورونداوك ببطء و سحب سيفه الثقيل من غمده. و خطى خطوة صوب فرسه الذى كان يمسكه من عنانه إثنين من الأتباع . ولكنه لم يخطو الخطوة الثانية فقد كان يقف خلف السلطان قاسم حائط من الفرسان وكان هناك فارس الذى على الطرف يهز هراواته المغلفة بالحديد. أدرك بورونداوك أنه لو خطى الخطوة التالية فإن هذه الهراوة ستجعل رأسه في معدته. وأحاط الفرسان بنظرة واحدة من عينيه فرأى النار القاتمة تشتعل فى عيون المحاربين .

قال قاسم بلهجة آمرة انزلوا المرأة من على ظهر الحصان و احضروها إلى قام أصغر المحاربين أوناى بالترجل عن فرسه و ركض نحو جولبخرام و فك ضفائرها المقيدة . ثم مزق المنديل من على فمها و سحب الكمامة . و اجتاحت الساحة صرخة مدوية . قطع أحد الأشخاص الحبل الذي كانت يدى الفارس أيان مقيدة به وراء ظهره و ما إن تحرر من أنشوطة الشعر حتى ركض إلى أمه .

قال السلطان قاسم إننى أعهد إليك أيها الفارس أوناى بالحفاظ على حياتهما .



سمعا و طاعة يا سلطان

كان الناس ينفذون أوامر السلطان قاسم حتى دون أن ينظروا إلى بوروندوك . و فجأة ضرب تيميربيك عقبى حصانة الأرقط بغضب و وصل إلى السلطان .

و صاح بصوت عجوز متصدع ما هذا الصقر الأحمر القدمين الذى اكتمل ريشه ينهش ريش النسر العجوز . لو عاد بى الزمن خمسة و عشرين سنة إلى الوراء لكنت جررتك حيا فى ذيل حصانى أيها السلطان .

قال سلطان قاسم بهدوء حافظ على شرفك يا تيمير بيك .

***

لكن تيميربيك لم يهدأ و قال :

إن والدك جانيبيك لم يستطع أن ينتقم منى لأنني لم أمكنه من توحيد العشائر الكازاخية فى إديل و جايك تحت سلطته و لكنك فعلت الآن عندما دفنتنى حيا. قال ذلك متوجها إلى الناس من أجل التعاطف و فجأة حول حصانه بطريقة حادة . قال الوداع يا خان بوروندوك ... الحذر كل الحذر ليس من محمد شيبانى و لكن من السلطان قاسم تذكر كلماتي هذه دائما ...

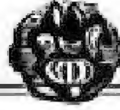
و ذهب بعيدا مع مفرزته .

يعيش الفارس قاسم ..

خرجت هذه الصيحة من الناس كما لو كانت من صدر واحد و رفع بوروندوك رأسه .

لم يستطع بوروندوك أو قاسم النوم في تلك الليلة .

كانت مزايا بوروندوك تنحصر فقط فى الشجاعة و البسالة الحربية . كان خان بوروندوك يملك عقلا قاصرا و لكنه لم يدرك حتى معنى ما حدث . سوف تقوم العشائر الكازاخية ممثلة فى محاربيها بدعم قاسم مما سيضر به شخصيا . لكنه لم يفكر في كيف يعيد الناس إلى توقيره و احترامه . كان فقط يشعر بالضغينة تجاه الفرسان الذين أعرضوا عنه و عزى ذلك إلى مؤامرات قاسم . « احذر السلطان قاسم و لا تحذر محمد شيبانى..» كان بوروندوك يسمع مرارا و تكرارا هذه الكلمات التى قالها له تيمير بيك و يجز على أسنانه من الغضب .



« إذا كنت ترغب في التغلب على عدو جديد فصاحب العدو القديم» . مثل الشعلة فى الليل أضاءت هذه الكلمات في ذهن بوروندوك ، و أخذ يسترجع فى ذاكرته جميع أعداء القبيلة البيضاء . و جاء فى مقدمتهم « نمرى» أبوالخير .

فكر السلطان قاسم فى شىء آخر تماما فى تلك الليلة . أدرك أن الأمر ليس فى نزاعه مع بوروندوك و لكن فى عدم وجود الوحدة و الوئام في القبيلة البيضاء و التى سادتا فى عهد كيرى و جانيبيك . و سبب ذلك يرجع إلى سياسة بوروندوك قصيرة النظر . إنه يريد توحيد الناس فى دولة واحدة عن طريق الخوف فقط . و الخوف البشرى غراء قصير الأجل. إن القسوة تؤتى ثمارها فقط حينما تواكب العدالة. و أدنى درجة من الخداع أو التراجع عن الحقيقة يبرز الاستبداد القاسي للخارج ليدفن سريعا كل شىء تحته . ألم يقل سلفنا جنكيز خان أنه الطريق المباشر إلى التفسخ الوطنى ؟

اليوم فى الساحة ألقى خان بوروندوك فى المقام الأول هيبته فى التراب . كانت تلك هيبة القبيلة البيضاء كلها و سوف يتحدثون عن ذلك غدا فى أسواق المماليك و طشقند وسمرقند . و ربما لم يكن هناك داع لمواجهة بوروندك بهذا الشكل أمام الجميع . و لكن السماح بحدوث هذا الظلم يعنى تلويث الخانة إلى الأبد . حينذاك كيف يضمن الفارس بأن هذا لن يحدث مع زوجته و أولاده بعد وفاته بنفس الطريقة ؟ و حينذاك هل تستحق هذه الدولة التى يسودها التعسف و غياب القانون القتال من أجلها ..

الآن ليس الوقت المناسب للخلافات . فطوعا أو كرها عندما يحل الشتاء سيتم السماح للجزء الأكبر من الجيش بالعودة إلى دياره . وسوف يستغل محمد شيبانى المشاحنات بين حاكم طشقند وحاكم أوترار معتمدا على طشقند ويستولى على ياسى. ثم سيبتلع طشقند ثم سيستعيد سلطة قبيلة أبوالخير السابقة على كامل آسيا الوسطى. والتيموريون كالعادة يتشاجرون فيما بينهم و لن يكونوا قادرين على مقاومة لفترة طويلة ...

و إلى أين سيرسل خيله بعد ذلك في الجنوب الغربى إلى خراسان و إيران أم إلى سهوب دشت و قبجاق ؟ بطبيعة الحال هذا لا يمكن تخيمنه . و لكن من المؤكد أنها ستكون تلك الأراضى التى ليس بها وحدة أو تضامن لصد غزو العدو . هذا ما يحدث منذ العصور القديمة و مشاجرة الأمس يمكن أن يكون مكلفة للقبيلة البيضاء .



و ماذا سيتخذ محمد شيبانى من إجراءات إذا رأى أن الوقت قد حان لاستعادة دشت وقبجاق من أيدى الكازاخ ؟ و إذا قارنت السهوب الكازاخية بصندوق ملىء بالثروات فإن قفلها بطبيعة الحال مدينتى سوزاك و أليتاو أما مفتاح الصندوق فهو خلاف بوروندوك مع جيشه .

في المقابل يريد بوروندوك مهاجمة محمد شيبانى مباشرة فى جبهته و انتزاع مدن شمال تركستان الأخرى . و قد أخفق قليلا بحصاره لأوترار . بمثل هذه الأعمال المتهورة ربما يبعد أفكار محمد شيبانى الجشعة تجاه خراسان و إيران و يوجهها إليه هو شخصيا . و آنذاك لا مفر من خوض حرب كبيرة . و حتى في حالة الدفاع الناجح فهل ستربح من وراءه الخانة الكازاخية ؟

حتى اليوم بوروندوك على استعداد لإعطاء إشارة بالهجوم . و يشبه بوروندوك سمكة نهر شيباتشكا الصغيرة الغبية التي تدخل بنفسها بين فكى سمك الفرخ الجائع . يجب أولا أن تنمو الأشواك مثل ما لدى سمكة الراف و من ثم يمكنك التحدث مع سمكة الفرخ. و عندما سيكون لدى القبيلة البيضاء جيش نظامى مدرب تدريبا جيدا فحينها يمكن التحدث مع محمد شيباني بشكل مختلف. و حتى الآن على الرغم من الشجار ينبغي أن تبسط يدك لخان بوروندوك . لا يجب أن تعطى العدو سببا لاعتبار القبيلة البيضاء تفاحة فاسدة .

فى الصباح جاء إلى السلطان قاسم رسول الخان .

قال بعد أن قام بالانحناء إن سيدى الخان يدعوك لزيارته .

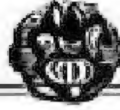
وضع السلطان قاسم خنجره الدمشقى تحت المعطف بعد أن كان يعلقه دائما فوق الحزام . و بعد أن تأكد أن الخنجر لن يظهر من تحت ملابسه ذهب إلى الخان .

مد بوروندوك يده و قال :

إن الفرسان الحقيقيين يتصادقون بشكل وثيق فقط بعد مصادمات ... بماذا تنصح يا سلطان هل نحارب محمد شيبانى أم نعقد معه صلحا ؟ ابتسم قاسم و قال :

و أحيانا يبدأ الفرسان فى التصادق دون مصادمات ... كمحمد مازيت طرخان مع محمد شيباني على سبيل المثال .

***



الأفضل أن تسأل حاكم أوترار هل حصل على فائدة كبيرة من هذه الصداقة ... إن محمد مازيت هو محمد مازيت أما خان بوروندوك فهو خان بوروندك .

والآن ضحك قاسم علنا ناظرا مباشرة في عيون خان بوروندوك ... و كان مضحكا حقا فى غروره الدائم . و لا يمكن فعل شىء حيال ذلك . « فكل مالك يثمن جديه أعلى من الجدى الغريب» . و من منا لا يعتبر نفسه أذكى من الجميع .. و فكر السلطان قاسم « أى صنف من الناس هذا البوروندك ؟ » . إنه يريد منى الآن أن أدعو للمصالحة مع محمد شيبانى و حينئذ سوف يكون قادرا على توجيه الاتهام لى بالتواطؤ مع الأعداء . و الشهود حاضرون حوالى عشرين شخصا تقريبا موجودون هنا ..

لم يتحمل بوروندوك و قال بما إنك قد قمت بحماية « النمر » السلطان محمود فإننى قررت أنك لن تمانع في عقد صداقة مع محمد شيباني .

قال السلطان قاسم يا سيدي الخان لا يستوى عرض السلام عند الهزيمة و عند النصر . يتعين أولا إحراز النصر و إننى على استعداد للهجوم حتى و لو كان اليوم . إننى فى انتظار أوامرك . على أى مدينة سوف نقوم بالهجوم .

تمتم بروندوك المذهول و قال يجب التفكير فى ذلك .

يجب التفكير بسرعة .

لماذا ؟

بينما نحن هنا ربما يكون محمد شيبانى يحاصر ياسى . و إذا هاجمنا مدينة ما فإنه سيتراجع عن ياسى كما حدث مع أوترار . و فى غضون ذلك سوف يعقد محمد مازيت طرخان مع الحكام الآخرين إتفاقا حول أعمال مشتركة ضد محمد شيباني ...

نعم هذا أمر يستحق التفكير .

منذ البداية شك السلطان قاسم أن هناك أمرا سيئا يحاك و الآن أفشى بوروندك سره دون قصد. عندما يبدأ هؤلاء الناس بالمراوغة فإنه ليس من الصعب تخمين نواياهم. بالفعل لقد عقد صلح مع محمد شيبانى و لكن بمبادرة من خان بوروندوك و انحاز قاسم فقط إلى رأيه. و للحقيقة لم تجرى الأمور هذه المرة بسلاسة . وعد بوروندوك محمد شيبانى فى الخفاء تسليمه حليفه محمد مازيت طرخان. لكن السلطان قاسم حذر هذا الحاكم المنحوس و تمكن هذا الشخص من الفرار فى الوقت المناسب ...



و لكن ماذا يعنى السلام الذى عقد فى ذلك الوقت بين الخانات ؟ فى أقل من شهر أثارت الخيول الغبار من جديد فى طرقات تركستان و حرقوا القرى الآمنة و تدفق الدم كالنهر الجارى . و كل شيء حدث كما توقع السلطان قاسم . و تحرك محمد شيبانى من جديد إلى ياسى . و لكن فى الطريق تلقى خبرا عن وجود شقيقه السلطان محمود الهارب من الأسر فى خان۔ تاج . أدار جيشه كله نحو خان۔ تاج و سرعان ما تقابل الأخوين « النمرين» .

و بعد ذلك استولى محمد شيباني بغارة خاطفة على ساوران و أعدم بوحشية أولئك الذين فتحوا البوابات للسلطان قاسم و سلموه السلطان محمود . و انتزعت الماشية و الأملاك من الكثير من الناس و بيعت زوجاتهم و أطفالهم فى سوق النخاسة . و بعد ذلك فقط حاصر الأخوان ياسى من جديد . و قد سقطت المدينة فى هذه المرة و وصل محمد شيبانى في النهاية إلى والد زوجته محمد مازيت طرخان . لكن القرابة لعبت دورها و بدلا من عقوبة الإعدام أرسل الحاكم المنحوس مكبلا بالأصفاد إلى أورترار .

مثل الذئاب من أسراب مختلفة قدمت من جميع الجهات لتصبح قطيعا واحدا ، كان الخانات و الأمراء و الحكام يهدرون و ينظرون حولهم و يتبعون بعضهم البعض. أدرك الحاكم الطشقندى فى رعب أن دوره قد حان . فمحمد شيبانى ينظر فعليا صوب طشقند. بدأ الحاكم البحث بشكل محموم عن حلفاء بين أقاربه من أمراء المغول . و بعد أن تشاورا فيما بينهم قرر أمراء المغول طلب المساعدة من الخان الكازاخى . . فرح بوروندوك برسالتهم. و بعد أن بصق من المرح فى كفيه هتف قائلا :

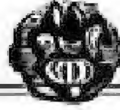
حسنا الآن سنحارب .

بعد أن رفعوا القرآن فوق رؤوسهم و تلامسوا بصدورهم أقسموا على الصداقة الأبدية والولاء لبعضهم البعض . كان السلطان قاسم حزينا . فلن يجنى الكازاخ شيئا طيبا من وراء هذه الحرب .

اضطررنا للتحرك مع خانات المغول من أجل الاستيلاء على الولاية التركستانية التى يملكها تقريبا بالكامل محمد شيبانى . لقد أرادوا الاستيلاء أولا على ياسى ولكن كان هناك فى ذلك الوقت محمد شيباني مع جيش كبير و من ثم فقد تحولوا إلى أوترار .

كانت هذه الحرب بلا معنى و جرت بطريقة عشوائية .

لم تنجح أيضا محاولة السيطرة على أوترار . فقد كان يحكمها ابن أبوالخير الأصغر.



و إن الذى نشأ فى أحضان الذئب يتحصل بدون أى مجهود على تفاصيل العمل الذئبى . و قد تعامل بقسوة مع أولئك الذين تحدثوا فقط عن تسليم المدينة و دافع عنها بصلابة .

اضطر هذا الجيش الموحد المتباين إلى التحرك صوب مدينة سيرام لكى يبرر على الأقل بطريقة ما جدوى هذه الحرب. و فى الطريق بدأوا فى النهب والعنف و سرقة الماشية من السكان المدنيين . و بدوره أرسل محمد شيباني قوات سريعة إلى سهوب دشت و قبجاق والتى بدأت فى النهب و قتل القرى الكازاخية . و لم يستطع الجيش الذى يحاصر سيرام أن يدافع عن البلاد بأكملها ...

و قد سال الدم من الجانبين أنهارا و اختلط بالدموع . و أحرقت مئات المدن و المستوطنات و القرى و سيق عشرات الآلاف من الفتيان و النساء للبيع فى أسواق النخاسة. وكان من الممكن رؤية الرؤوس الكازاخية الحليقة فى أسواق الرقيق بالشرق كله. وحدث أنه كان يباع بجوارهم عبيد أسرهم بوروندوك فى تركستان ...

و تحولت السهوب الكازاخية إلى جحيم دموى ثم دوى النداء من أقصاها الى أقصاها وركب الصغير و الكبير ظهور الخيل. و تناسوا النعرات القبلية و العشائرية . و قاد الناس عدد كبير من الفرسان غير المعروفين. و كان أحدهم هو الفارس الأعور الشهير والذي ألفوا عنه الأغانى . وأصبحت قوات الميليشيا الوطنية هى التى تبث الرعب فى نفوس اللصوص والغزاة . و قد ناضل الشعب من أجل وجوده مثل نمر جريح . الآن فقط أدرك الناس ما أدركه من قبل فقط بعض القادة من ذوى البصيرة و الشعراء العرافين الشعبيين . بدون دولة موحدة قوية لن يبقى الكازاخ على الأرض .

***

و فجأة ذاع فى السهوب خبر سىء مفاده أن خان بوروندك قد تصالح مع محمد شيبانى. كانوا ينتظرون السلام و لكن ليس الآن عندما هب الشعب للنضال من أجل وجوده . لم يكن هناك رجل فى السهوب لا يفهم أن محمد شيباني يريد فقط الحصول على قسط من الراحة و يعيد تنظيم صفوفه و بعد ذلك ينقض على سهوب دشت و قبجاق . و الآن تحديدا بالاعتماد على الشعب الغاضب يمكن مرة واحدة و إلى الأبد إغلاق الطريق إلى السهوب أمام « نمور أبوالخير». و لكن بوروندوك لم يكن يهتم كثير بالشعب . إنه هو الذى دعى إلى هذه الحرب و فجأة يريد عقد صلح مع العدو الغادر ..



صار الأبله بوروندوك يعتبر نفسه أعظم خان فى التاريخ. وحارت أقوى العقول فى ذلك . لم تكن هناك فرصة لمقاومة هذا السلطان السهبى الغبى الذى جعله القدر فجأة خانا لدولة سهبية كبرى . و قد اعتبر محمد شيبانى ندا له . و فى رأيه إن حاكمين مثلهما أقرب إلى بعضها البعض من شعوبهما . و عامة الشعب لا يعنون شيئا بالمقارنة مع الخان ..

بدأ محمد شيبانى يستعيد بقوة جديدة قبيلة أبوالخير . كان الجميع يعلم أنه بمجرد أن يتكلل حلمه بالنجاح فلن يكون ذلك فى صالح الكازاخ . و أن القبيلة البيضاء التى يقودها بوروندوك المغرور لن تصمد أمام محمد شيبانى القوى .

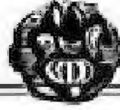
و لم يكن العمى من جراء السلطة سبب مثل هذا السلوك من جانب خان بوروندوك .

لقد كان يدرك فى أعماق نفسه أن جميع القادة الكازاخ و الفرسان ناهيك عن البدو الرحل البسطاء يميلون أكثر إلى السلطان قاسم . و استمرت كلمات تيمير بيك التنبوئية تطن في أذنيه .

أخذ بوروندوك يفكر : " إن صداقتى مع محمد شيبانى سوف تغلق بسرعة الحناجر الصاخبة لكل هؤلاء الساخطين . و الآن سيخافون أن ينحازوا إلى قاسم و سوف ينفذون أوامرى من غير تردد و إذا حدث شىء فستأتى خيالة محمد شيباني إلى السهوب لمساعدتى و سوف تساعده خيالتى دائما فى التعامل مع الغوغاء . و لكى نقوى صداقتنا سوف أضع صدرى على صدر « نمر» أبوالخير و سوف أقوم بدور الخاطب له" .

و هذا هو ما فعله بوروندوك . لقد زوج جولبارشين أجمل بناته « بالنمر » السلطان محمود الذى أسره منذ وقت غير طويل و أراد إعدامه و الذى نجا من الأسر على حساب حياة الفارس سايان . و زوج ابنته الأخرى جوهر لابن أبوالخير الصغير حاكم ساوران . استمر الفرح و المرح فى مقر الخان أربعون يوما ثم أرسل بوروندوك بنتيه واحدة إلى أوترار و الأخرى إلى ساوران. الآن يتتبع جواسيس بوروندوك كل خطوات السلطان قاسم . و بعد أن فتح بوروندوك ذراعيه بتهور للأعداء اللدودين واصل اتهام قاسم سرا بالخيانة . و بطرق مختلفة تحدثوا عن قصة هروب السلطان محمود و حديث قاسم عن ضرورة الصلح مع الجيران . وألقوا على عاتقه كل الهزائم التى منوا بها و الحصار الفاشل لمدن تركستان . و هذا لم يكن جديدا فى سياسة الخان فى ذلك الوقت و الأوقات اللاحقة .

لقد نضج السلطان قاسم و تعلم أن يضبط نفسه بطريقة أفضل عن ذى قبل . و ظهر



الشيب على مفرقيه و أصبح يشبه أبيه جانيبيك مثل قطرتى الماء. و هذا ما استقطب إليه قلوب الناس الذين فهموا من التجربة المرة من كان جانيبيك للكازاخ .

ذات مرة أتى إلى خيمة السلطان قاسم الفارس كبتاجاى و الفارس الشاب أونار. و لم يأتيا من تلقاء نفسها و لكن نيابة عن جميع المحاربين البارزين في القبيلة البيضاء. و قد يستدعى الاجتماع العام للفرسان عند السلطان قاسم ريبة أنصار الخان على الرغم من أن السلطان قاسم لا يزال القائد العام للقبيلة البيضاء .

قال الفارس كبتاجاى إن أفعال خان بوروندك قد ملأت كأس صبر العشائر الكازاخية. و قد وصل الأمر الآن إلى أنه قد تقارب مع الأعداء اللدودين الذين لم يغسلوا الدم الكازاخى من أيديهم بعد . لقد جئنا إليك يا سلطانى لنقول لك إما أن يرجع الخان بناته لداره و أما أن يفارقنا .

سألهم السلطان قاسم أنتم ضد عرس بنات الخان أم ضد السلام مع محمد شيبانى ؟

نحن لا نريد هذا أو ذاك . فالخان هو عين الشعب . و لذلك فبناته لسن ملكه وحده . وإذا كان يريد السلام مع محمد شيبانى فليعد محمد شيبانى أبناءنا و بناتنا اللذين بيعوا في سوق النخاسة و ليقم بإحياء الآباء و الأمهات الموتى .. و إذا كان خان بوروندوك غير قادر على اجبار صديقه الحالى القيام بذلك فليطلق أيدينا ..

هل تريدون القتال مرة أخرى؟ نعم .

أما زلتم تذكرون كيف تمسكون بالرماح ؟

ألم نقاتل منذ مولدنا؟ و لكن اتضح أن كل تضحياتنا كانت من أجل أن يتمتع خلفاء أبوالخير ببنات الخان الكازاخى .. إن بيننا و بين قبيلة أبوالخير دم . و إننا نتذكر جيدا و لا نريد أن نخدم ذريته . و يريد بوروندوك أن يتكىء على أنياب « نمور» أبوالخير كى يكسر ظهر شعبه .

إن الخان لن يأخذ برأيكم .

فى هذه الحالة لسنا فى حاجة إليه . فليذهب حيث تقوده قدماه .

و إلى أين يذهب ؟

فليذهب إلى أقربائه .



فلتسمعونى أيها الفرسان كنت أتوقع قدومكم و سأجيبكم بنفس الصراحة. لا داعى لأن ندنس اسم القبيلة البيضاء فى الوحل. فليخطىء الخان و لكن الخانة لا تخطىء. وإذا طرد نا الآن بوروندوك من أجل أنه زوج بناته للأعداء فإنهم سوف يضحكون علينا. وسوف يتهموننا مرة أخرى بإشعال الحرب المقبلة. و نحن لسنا أقوياء بما فيه الكفاية لإهمال رأى أى شخص آخر عنا. نحن بحاجة لجعل «النمور» نفسها تعطينا مبررا للحرب. ولن ننتظر هذا طويلا. يرى محمد شيبانى أننا ضعفاء و غير موحدين . و تبدو له سهوب دشت و قبجاق تفاحة ناضجة. بقى فقط أن يهز شجرة التفاح و أنه سوف يحاول أن يفعل ذلك فى المستقبل القريب .

نحن جميعا نعتقد ذلك ... إن فجوة كبيرة جدا أصبحت تحول بيننا و بين قبيلة أبوالخير و قد أصبحت أوسع بكثير مما كانت عليه فى عهد أبوالخير نفسه . و لكن لماذا لا يفهم الخان هذا ؟ و ربما لا يريد أن يفهم ؟

أكد السلطان قاسم بهدوء هذا الكلام و قال : ربما إنه ليس بسيطا كما يبدو للوهلة الأولى . و هو يعرف جيدا ميولكم . و كل آمال الخان تتمثل فى أنه إذا لم تخافوه هو وحده فإنه سوف يقوم مع أقربائه الجدد بتصفية حساباته معكم .

و ماذا نفعل ؟ ..

الانتظار و الاستعداد للحرب القادمة. وكلما استعددنا لها جيدا فإننا حتما سوف نتجنبها .

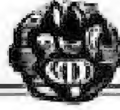
و ماذا سيكون من أمر بوروندوك ؟

عاجلا أم آجلا فانه سوف يخرج من اللعبة التى بدأها . و سوف تجبره الأحداث نفسها على القيام بذلك .. و سيكون من الأفضل لو أنه لم ينتظر هذه الأحداث و ذهب إلى مكان ما .

وإذا لم يرد أن يرحل ؟

ابتسم السلطان قاسم فقط و لم يعد الفرسان يسألونه بعد ذلك عن أى شىء .

بعد يومين فقط وصلت مجموعة من أهم الفرسان الكازاخ بقيادة السلطان قاسم قرية الخان حيث ذهب بوروندك ليستريح من الاحتفالات المستمرة . لم يرد الفرسان الانتظار لفترة أطول و اقترحوا بقوة على السلطان قاسم الذهاب معهم .



غضب بوروندوك عندما سمع مطالب الفرسان و أراد فى الدقيقة الأولى أن يصيح على الأتباع و يجمع جيشا و يدمر قرية قاسم و المتمردين الآخرين و لكن كان جميع الفرسان الكازاخ تقريبا يقفون أمامه فاضطر إلى الامتثال للأمر و لم يجرؤ أحد فى السهوب أن يناهضهم ...

تواجدت قوات السلطان قاسم بشكل دائم فى قرية الخان حتى شرع بوروندوك فى الرحيل. و بعد أسبوعين تحركت قافلة الخان الضخمة التى كانت تضم زوجاته السبع ورافقته قراه السبع و خمسمائة من الأتباع إلى الشمال الغربى قاصدة سرايتشك على نهر جايك .

و فى وسط القافلة سافر بوروندوك بوجه أسود من جراء الغضب . وكان من حين لآخر يلقي نظرات من طرف خفى على جوال ضخم كانوا يحملونه وحده على جمل وكانت عينيه تومض بنيران مظفرة فعلى الأقل قد أحرز نجاحا فى شىء واحد ...

والحقيقة أنه في العام الماضى قد ركز الفارس الأعور كل كراهيته للحكام فى شخص خان بوروندوك . و عندما سرت الشائعات فى السهوب عن أنشطة الخان المتقلبة قام محاربو الفارس أوراك خلال عدة ليال بسرقة الجزء الأكبر من قطعان الخان. وقد تم سرقة حوالى خمسة آلاف رأس من الخيول الأصيلة الرمادية المنقطة التي تشتهر بها السهوب من قديم الأزل. وقد تم توزيع الخيول على سكان القرى الأكثر تضررا من هجمات ذوى القربى محمد شيباني . و قد دعا كل فقراء السهوب بالصحة للفارس النبيل و قابلوا القادمين من التولينجوت المطالبين بقطعان الخان بالضحكات .

حينئذ اقترح وزراء بوروندوك عليه طريقة مجربة و قديمة . فى الليل أحضر إثنين من الخونة من فرقة الفارس أوراك القائد السهبى مخطوفا و مقيدا أثناء النوم لخان بوروندوك .

والآن أخذه بوروندوك معه ليتعامل معه كما ينبغى بعيدا عن أعين الناس. جاب الفرسان من عامة الناس جميع النواحى المجاورة و بحثوا عن زعيمهم و أمر الخان بوضع الفارس أوراك المقيد فى الأغلال فى جوال جلدي .

***

منذ فترة طويلة بدأ أبناء جانيبيك ينفصلون عن بوروندوك . و لتحقيق هذه الغاية قبل ثلاث سنوات استقروا على ضفاف نهر تشو ، و في الخريف كانوا يرتحلون إلى مرعى الأب



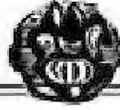
القديم فى كاراتال. و قد ذهب السلطان قاسم إلى هناك تحديدا و هناك انعقد لقاء جميع قادة و فرسان الكازاخ .

تحققت توقعات السلطان قاسم. في وقت قصير أعاد محمد شيبانى التيموريين المسيطرين على ما وراء النهر إلى الطاعة السابقة و استولى على أند يجان و خوارزم و أخضع طشقند. وكانت ساعة القبيلة البيضاء . و وفقا للمعلومات المتاحة لقاسم فقد جمع «النمر» جيشا من خمسين ألفا و استعد للزحف على سوزاك و أوليتاو ساعيا فى البداية إلى حرمان القبيلة البيضاء من الروابط مع العالم الخارجي على الأقل من هذا الجانب . وكان بوروندوك القاطن فى سرايتشك يعد خانا شكليا أما الآن فالسلطان قاسم هو الذى يقرر كل شىء . وكان من الواضح أن محمد شيبانى يحاول أن يلعب على هذه الخلافات بين الخان و القائد العسكرى.

و بعد أن عاد السلطان قاسم فى الربيع إلى شواطئ تشو أعطى الإشارة بجمع الميليشيات. وبعث إلى جميع أنحاء سهوب دشت و قبجاق رسلا تدعو إلى القدوم تحت لواء القبيلة البيضاء . قالت الرسل جملة واحدة فقط فى كل قرية : « إذا لم ندافع عن سوزاك وأوليتاو فسوف يمحى الكازاخ من على وجه الأرض» و وصل المزيد والمزيد من قوات جديدة إلى السلطان قاسم و قاد الفرسان هذه الفرق . و نسيت الخلافات و الإساءات المتبادلة والفوضى. لقد كانت مسألة حياة أو موت ...

كان محمد شيبانى واثق جدا أن القبيلة البيضاء انهارت تماما الأمر الذى جعله يقرر أن يقاتل في نفس الوقت في الجنوب و الشمال. و سار بجيشه المكون من خمسين ألف جندى إلى خراسان و إيران و أرسل جيشين منفصلين. انتقل سوينشك ابن أبوالخير الحاكم الجديد لطشقند مع عشرين ألفا من اللشكريين فى عمق السهوب قاصدا أوليتاو أما شقيقه كوشكينشك الذى ترأس ولاية تركستان فقد حاصر سوزاك بجيش قوامه ثلاثين ألف جندى.

كان ظهور جيش ضخم غير مسبوق من القبيلة البيضاء بقيادة السلطان قاسم وشقيقه الفارس كامبار مفاجأة غير متوقعة لابنى أبوالخير . و على الرغم من أن الجيش لم يكن مدربا بما فيه الكفاية إلا أنه من الهجمة الأولى هربت القوات النظامية التى تتكون من ذوى الخبرة و المحنكين فى المعارك من الجنود اللشكرين . و فى نفس اليوم هزم قائدا محمد شيبانى و قتل أكثر من نصف قواتهما على مشارف سهوب دشت و قبجاق.



و هرب الناجون و تلاقت فرق الهاربين المتناثرة فى نفس المكان الذين خرجوا منه للحملة . واصلت خيالة القبيلة البيضاء المطاردة خلال الرمال الجافة عديمة الماء و المستنقعات المالحة . و تحت شمس تركستان تعفنت آلاف الجثث و تحللت . ومن الجيش المهاجم وصل عدد قليل إلى طشقند. و اضطر السلطان قاسم إلى احتجاز المحاربين الذين أرادوا اقتحام ما وراء النهر وطشقند. كانوا يعتقدون بسذاجة أن هذا الانتصار قد حسم كل شيء .

و أراد السلطان قاسم أن يبقى محمد شيباني أكبر وقت ممكن فى خراسان و إيران .

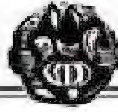
كان يدرك أن القبيلة البيضاء غير مستعدة فى الوقت الراهن لمعركة حاسمة .

بعد فترة وجيزة من هذه الأحداث رحل خان بوروندوك عن جايك مع جميع أطفاله و أهل بيته بإذن سرى من اجتماع الكازاخ العمومى. و حلت معه الكوراث . لقد حدثت و فيات جماعية بين الماشية في السهوب و خاصة فى الترحالات الكازاخية و القيرغيزية. كان فصل الشتاء بارد بشكل غير عادى و أصبحت العديد من القرى في محنة .

لم تستطع بعض القرى من عشيرة دولات كما فى بعض السنوات المضى قدما إلى تشو وجوان أريكا. و قد استنفدت الماشية بالإضافة إلى ذلك وقف جميع الرجال البالغين القادرين على الجلوس في السرج و حمل السلاح تحت راية القبيلة البيضاء على حدود تركستان . و لم يتضح بعد ما إذا كان محمد شيباني سيواصل غزواته فى الاتجاه الجنوبى الغربى أم سيعود و يبقض بكل ما أوتى من قوة على سهوب دشت و قبجاق ...

و قد شغل الدولات المتبقيين الأراضي الشاغرة على طول نهر تالاس . لكن فى يوم غير سعيد استيقظت القرى المسالمة الضعيفة على نداء مدوى « كيرى .. بوروندوك .. بوروندوك ..» و قام فرسان لا يعرف من أين أتوا بالضرب بالسياط يمنة و يسرة و طرحوا الناس أرضا و داسوهم بالخيول . و أحرقت الخيام و تحولت الصيحات الوحشية و الصرخات والأهات والبكاء إلى سيمفونية رهيبة تعرفها السهوب جيدا ...

لقد عاد بوروندوك و ما إن علم أن قرى غريبة استقرت فى مراعيه حتى فرح أنه يقدر على الأقل أن يغضب بشيء ما العشائر الكازاخية التى لا ترغب بحكمه . و منذ زمن سحيق عدت المراعى حكرا على عشائر و قرى و أسر معينة . ولم يجرؤ أحد على كسر هذا النظام حتى الخان نفسه . لذلك لن تكون هناك أى فرصة للسلطان قاسم أن يدافع عن الدولات . . و قد هاجم بوروندوك المليء بالشماتة القرى العزل مع خمسمائة من التولينجوت و فى أيديهم الهراوات و السياط .



صاح و هو يعلو على حصانه الضخم فوق النساء و الأطفال الباكين أيها الكلاب القذرة من سمح لكم بأن تشغلوا مراعينا ؟ إنكم لصوص .. و رعاع وقحون .

توسل إليه كبار السن من الرجال شياب اللحى قائلين : إننا كازاخ و إننا رعايكم . انتظروا على الأقل حتى الصباح و لا تسحقوا خيامنا. ما إن يبزغ الفجرحتى سنغادر من هنا .

صاح بوروندوك قائلا ارحلوا من هنا فورا و إلا سأربطكم جميعا فى ذيول الخيل و شرع يضرب بسوطه كبار السن .

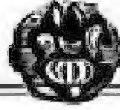
كان التولينجوت لا يفارقونه و لا يتخلفون عنه. و ضرب العديد من الشيوخ حتى شارفوا على الموت. و قد حصل بوروندوك الذى لم يشم رائحة الدم فى ساحة المعركة منذ مدة طويلة على متعة حقيقية . و قضى الليلة كلها فى الانقضاض على القرى البائسة مثل الساحر مصاص الدماء الذى فقد عفاريته . تم طرد السكان إلى السهوب المفتوحة حتى قبل الفجر و كسرت خيامهم ثم أحرقت .

***

ذهب الناس بعد الهجوم العدوانى حاملين على أكتافهم أقاربهم الذين لم يسمح حتى بدفنهم ...

بعد أن سمع المحاربون الدولات عن هذا الاعتداء السافر قرروا فى نوبة من الغضب أن يبيدوا قرى الخان . و قد تطوع لمساعدتهم فرسان من عشائر أخرى و الذين حاربوا معهم جنبا الى جنب جيش قبيلة أبوالخير . غير أن رئيس عشيرة دولات أثناهم عن القيام بذلك و قال : إننا نعيش فى الخانة على الرغم من أن لدينا خان غير مناسب . دعونا لا نكرر الظلم لأنه لن يكون له حد أو نهاية . سنقوم باخطار السلطان قاسم بكل شىء .

لكن السلطان قاسم ذهب بنفسه إلى مقر إقامة الخان ليعلم ما الذى حدث هناك . و قد رافقه إلى هناك بعض الفرسان فقط . وكأن بوروندوك قد علم مقدما بوصوله فقابله على مشارف القرية . جلس الخان مثل صخرة جرانيتية على حصان أسود عملاق . وخلفه جلس على الخيول أبناء الخان الأربعة الذين يشبهون التماثيل حول معبود من الحجر. وكانوا جميعا يرتدون دروعا من الرأس إلى القدم و غطت الدروع المسبوكة الصدر أما اليدين والقدمين فلفت فى قميص معدنى . و كانت الهراوات المغلفة بالحديد معلقة من الجانبين و برزت الرماح ذات النصلين فوق الرؤوس ...



قابلوا الفرسان المقتربين في تشكيل صامت مخيف . كان بوروندوك يمتلك حتى فى الأيام العادية منظرا مخيفا إلا إنه الآن لديه منظر رهيب بالفعل . إسود وجهه بسبب عدم حلق لحيته لفترة طويلة و برز شعره الخشن مثل خنزير عجوز و احمرت عينيه . .

وقف الفرسان على مسافة .

السلام عليكم يا خان بوروندوك و حيوا بعضهم البعض دون الترجل عن خيولهم .

حرك أبناؤه شفاههم بالكاد أما بوروندوك فحتى لم يرد التحية .

أخذ يزأر ملوحا بهراوته و قال : اقترب منى يا سلطان قاسم فلدى شىء أود التحدث معك عنه .

و من غير المرجح أن يبقى على قيد الحياة من يتعرف على هراوة بوروندوك . ومن الممكن توقع أى شىء من هذا الشخص. ولتنفيذ ما يفكر فيه فإنه يرتكب أبشع الجرائم. و يشبه الآن الرتيلاء التى تموت من عضها لنفسها . و تحرك الفرسان الكازاخ لا إراديا إلى الأمام مغطين السلطان قاسم بأجسادهم .

صاح بوروندوك ملوحا بهراوته : تنحوا عن الطريق أيها الرعاع فلا يمكنكم أن تكونوا وسطاء بين الخانات . تعال إلى بنفسك يا قاسم .

اندهش الفرسان رغما عنهم من هذه الإهانة .

قال السلطان قاسم بهدوء : تراجعوا للخلف فأتحدث معه بنفسى ، و فرق الفرسان واقترب من بوروندوك .

و فجأة أنزل قاسم يديه و هو فى حالة من الارتباك . فقد ذرفت عيون بوروندوك الدموع بحجم البندق . و جرت على وجهه المسود و سقطت على التراب . مرة واحدة فقط رأى قاسم حينما كان طفلا جملا أسودا باكيا من الغضب و تذكر رغما عنه الصورة الرهيبة .

و سرت القشعريرة فى ظهره و ارتعد من رغما عنه.

و لكن بوروندوك لم يلق بالا لذلك . و اقترب من قاسم غير متحرج من دموعه حتى أنه لم يمسحها .

قال بصوت مغاير لصوته مشقوق و أجش : من الواضح أن لقب الخان يحرق و يعذب الشخص إذا ابتعد الناس عنه . لماذا لم تخبرني عن ذلك من قبل ؟ قال السلطان قاسم بهدوء هذه الأشياء لا تفسر بالكلمات .



واصل بوروندك حديثه فقال أردت أن أصب غضبي على أي شخص فهاجمت قرى مسالمة. و لا تعتقد مطلقا أنني سأجثو عند أقدام هؤلاء الرعاع معترفا بالذنب . و أنت تعلم هذا أفضل من الجميع يا قاسم . ليس هناك علاج لمرضى و إذا أصبحت شخصا غير مرغوب فيه فباطن الأرض أولى بي .. إن فعلى مع هؤلاء الناس يستحق الموت و لكن ماذا يعنى لى الموت ؟ .. لم أخف منه أبدا و لا أخشاه الآن . لقد اخترت لنفسى أسوأ عقاب و لم يبق لى طريق آخر . غدا سأترك السهوب موطنى إلى الأبد ...

صمت و صمت الجميع مدركين أى عقاب رهيب لحق بهذا الشخص الذى كان خانا لهم لفترة طويلة .

تنهد بوروندك بمرارة و قال سأفعل ذلك . إنك لم تنتصر و أنا لم أهزم . سأذهب إلى زوج ابنتى محمد تيمير سلطان . و بدلا من أن أرغم زوج ابنتى على أن يجيء إلى بصفته «الجرو زوج الابنة» أذهب أنا بنفسى إليه ليستقبلنى من باب الرحمة ككلب بلا مأوى ... و هذا هو خان بوروندوك .. هكذا يذهب إلى قبيلة عدوه أبوالخير . فهل من الممكن ابتكار عذاب لشخص أكثر من ذلك .

دعنا ننهى حديثنا عند ذلك الحد يا قاسم . عد أدراجك مع فرسانك و لا تحاول الآن أن تشاركنى عقلك و إلا فإنك سوف تخسره جنبا إلى جنب مع رأسك الذكي ... أذكرنى بخير يا أخى قاسم .

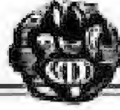
حول بوروندوك الحصان بشكل حاد و ذهب إلى قريته . نظر قاسم بحزن فى أثره . فهو نفسه من نفس الدم و يعرف حالة بوروندوك ...

لم يكن هناك حديث فى السهوب سوى رحيل بوروندوك المزمع إلى سمرقند . و هز الناس

رؤوسهم . هناك من أثنى عليه لاتخاذه مثل هذا القرار و منهم من وجه اللوم له و لكن لم يحزن أحد لرحيله . و كان الجميع يدرك أن الخان تخلص من نفسه بنفسه .

و مع ذلك قبل أن يغادر بوروندوك قام أيضا بعمل خسيس . فى ليلة مظلمة أحرق التولينجوت التابعين له المدينة التى بنيت بناء على أوامره و أطلق عليها بوروندوك . و قال «فلتمحى ذكراى من على وجه الأرض».

***



ثم بعد ذلك بدأ بوروندوك أخيرا المسير . و لكن حشود الناس القادمة من الجهات المختلفة لم تسمح للتولينجوت التابعين له التحرك خطوة واحدة للأمام . و قد امتلأت السهوب بالناس حتى الأفق ، و دوى الزئير الرهيب لهذه الحشود المتحمسة من أقصاها إلى أقصاها .

وجدناه ... وجدنا الفارس الأعور .

إنه في بيت بوروندوك ... إن بوروندوك يقيده في سلسلة و يطعمه في وعاء واحد مع كلبه الذئبي صائد الثعالب ..

أيها الخان أطلق سراح فارسنا أوراك و إلا لن يبقى منك هنا شيء سوى عظامك ..

لأول مرة رأى السلطان قاسم الكازاخ في هذه الحالة و لم يصدق عينيه . لم يكن يقود الناس كما هي العادة البكوات و الشيوخ و إنما بعض القادة غير المعروفين من الغوغاء . غضبت العظمة السوداء و تطالب بشدة بعقاب الخان نفسه . إن ذلك لم يحدث في السهوب من قبل ...

هرع السلطان قاسم على حصان رغوي إلى قرية بوروندوك .

قال إن قريتك محاصرة بالناس يا بوروندوك فلا تعاند .

قال بوروندوك : إنني أرى قطيع من الكلاب القذرة الشعثاء ترغب في تذوق لحم الذئب.

إذا لم تشأ أن تطقطق تحت أسنانهم فأطلق سراح الفارس أوراك الآن .

و إذا لم أطلق سراحه ؟

ستكون رفاتك و رفات أقربائك في مهب الريح . صدقني أنني عاجز هذه المرة عن مساعدتك .

أحدث بوروندوك صريرا بأسنانه و صنع علامة بيده . ألقى التولينجوت ستائر الخيمة السوداء السخامية الواقعة في الضواحي . و ارتجف السلطان قاسم رغما عنه . فبجانب كلب الخان الذئبي الضخم صائد الثعالب و الذى عادة ما يطارد النمور كان يرقد متكورا على نفسه رجل ضخم مقيد بسلسلة ذى وجه مشوه تشويها رهيبا . وكان هناك وعاء واحد لإثنين و بجواره عظام مقضومة. كان هذا هو الفارس الأعور المدافع عن الشعب المعروف في جميع أنحاء سهوب دشت و قبجاق و خارج حدودها . وهو من كبد جنود محمد شيباني اللشكرين الغزاة أفدح الخسائر . وحرر آلاف الناس من الأسر و أنقذ العديد من القرى من الموت جوعا ...



قال السلطان قاسم لبوروندوك بصوت خفيض ارحل و هذه المرة لم يقل بوروندك أى شىء.

***

في غضون شهر رفع زعماء و شيوخ القبائل الكازاخية السلطان قاسم على السجادة البيضاء. و قاموا كما هو العرف بغسله في حليب أربعين من الأفراس البيضاء و نصبوه خانا .

بحلول ربيع العام المقبل عندما كان خان قاسم يعد قراه إلى الترحال لمراعيه فى أوليتاو أتى إليه جماعة من سكان مدينة سايرام برئاسة مبعوث الحاكم . و طلبوا أن يصبحوا من رعاياه لأنهم لم يتمكنوا من الدفاع عن المدينة بمفردهم ضد الراغبين فى نهبها في هذه الأوقات المضطربة حيث أن المدينة كانت ملكا منذ فترة طويلة للقبيلة البيضاء والغالبية العظمى من سكانها يمتون بصلة دم مع السهوب و قرر سكان المدينة العودة للانضواء تحت صولجان خان قاسم . و قالوا إنهم لم يفعلوا ذلك من قبل بسبب الخوف من بوروندوك .

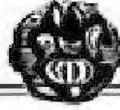
سرعان ما دخل خان قاسم مدينة سيرام مع جيش ضخم و أصبحت المدينة خاضعة له .

واصل قاسم التقدم في شمال تركستان قاصدا طشقند. و تذكر وصية والده جانيبيك: لا يمكن أن تكون هناك دولة كازاخية دون مدنها الجنوبية . سيكون الصراع طويلا و وحشيا لكن ليس هناك بديل آخر ...

قام الخان الجديد أولا و قبل كل شىء بتحسين العلاقات مع مغولستان المجاورة . و حتى فى عهد جانيبيك تصاهرت عائلته مع جونوس خان مغولستان . تزوج أحد أبناء جانيبيك من ابنة جونوس تلك الفتاة اليائسة سلطان التى أنقذت ثلاثة آلاف من خيول والدها الأصيلة مقابل ليلة قضتها فى خيمة السلطان قاسم . و عندما توفي زوج سلطان ذهبت وفقا للقانون الكازاخى القديم إلى بيت أخيه السلطان قاسم. وأخيرا تحقق حلمها و أصبحت زوجة قاسم. شىء واحد لم تعلمه الجميلة سلطان أنه بعد خمسة عشرة عاما لن يكون هناك وجود لخان قاسم و أنها ستذهب إلى أقاربها فى مغولستان و سرعان ما ستتزوج للمرة الرابعة من حاكم كاشغر التى تكرهه منذ طفولتها و التى سخرت منه بقسوة ذات مره بسبب قبحه.

***

اعترفت العشائر المترحلة على امتداد نهر طول تشو و تالاس بخان قاسم . وعلى مثال



والده شرع فى استعادة القبيلة البيضاء الموحدة . و من جديد ذهب الرسل إلى جميع العشائر الكازاخية بدعوة إلى الوحدة .

و في الوقت نفسه كانت الأمور تتطور على النحو المعتاد. حدث كل ما توقعه جانيبيك.. بعد أن أخضع محمد شيبانى كل آسيا الوسطى و لما لم ير أن هناك أعمال عدوانية من جانب القبيلة البيضاء قام بتأجيل الغزو على سهوب دشت و قبجاق و ركز كل تفكيره على إيران و الدول المحيطة بها. و قال «عندما يكون الشخص محظوظا فإن الحجر الذى يرميه يصعد إلى الجبل». حدث نفس الشيء محمد شيبانى . كان ينتصر فى المعارك الواحدة تلو الأخرى حتى انتزع من إيران بصفة نهائية خراسان و هراة . و لكن كل ذلك كان قليلا بالنسبة إليه و واصل اختبار حظه . حول محمد شيبانى جيشه إلى البامير معتقدا سهولة التعامل مع سكان الجبال من القبائل غير المسلحة تسليحا كافيا .

و لكن سكان الجبال الذين يعرفون كل المسارات كما يعرفون أصابعهم الخمس ثبت أنهم بعيدى المنال للجيش النظامي . أصبح اللشكريون غير المعتادين على الارتفاع الذى يسبب الدوار و المسارات الصعبة يسقطون للأسفل و يلاقون حتفهم على صخور هائلة.

و كانت كل الهاويات مليئة بالعظام .

مع حلول الخريف فقط خرج الجيش من آلاف الوديان. و بقي أكثر من نصف الجيش في الجبال و لم يكن هناك حصان واحد مع اللشكريين. و لسوء الحظ هطلت الأمطار و غرق الغالبية العظمى من الناس فى الأنهار التى غمرتها الفيضانات . و قد وصل محمد شيبانى الذى بقى على قيد الحياة بعد إصابته بحمى الأدغال مع فلول جيشه بالكاد إلى خراسان...

لم يعد الجيش الذى ارتعشت أمامه مؤخرا آسيا الوسطى قويا و قادرا. أصبح أفراده هياكل عظمية يرثى لها تتمايل مع الريح و أخيرا تمكنوا من الوصول إلى مرو . و تحول الجنود اللشكريون و الذى عند ذكر اسمهم يتوقف الأطفال عن البكاء إلى حفنة عاجزة من الصعاليك ، حتى أنهم ألقوا الأسلحة على الطريق و الآن يستطيع عدد قليل من النساء بشماريخ الكرنب تفريق هذا الجيش . و بعد أن أدرك محمد شيبانى أن الفائدة من ذلك الجيش قليلة سرحهم جميعا إلى ديارهم ليتمكنوا من الحصول على الغذاء . تقسم الجنود اللشكريون إلى عصابات صغيرة و تفرقوا في أنحاء آسيا الوسطى و قاموا بالنهب و القتل و بث الفوضى ..

فى هذه اللحظة و بدون تلميح من جانب خان قاسم ظهر تحت جدران مرو شاه إسماعيل



حاكم إيران . لم يتبق لمحمد شيبانى شىء إلا أن يخوض المعركة . و قد تحدث المؤرخون عن هذا فقالوا « من يرغم الناس على شرب كأس الموت فإنه سيثمل حتما من هذا السم .... و امتلأ كأس موته حتى الحافة و طار عصفور السعادة بعيدا عن رأسه و صدأ خنجره الحاد و فقد حدته السابقة . و بقدر ما أجبر الآخرين على الشرب من كأس الموت بقدر ما يتجرع منه»

في هذه المعركة قتل خان محمد شيبانى فى مبارزة مع الشاب الشاه إسماعيل و لم يبلغ بعد عمر جده أبوالخير. و لم يكن يمرعام حتى يغزو إيران و يجلب لشعبها معاناة لا توصف. و الآن أمر الشاه إسماعيل عمل كأس من جمجمة الغازى من أجل الولائم و كما يقولون النبيذ من هذا الكأس يصبح أحلى ...

و في الوقت نفسه واصل خان قاسم دمج القبائل الكازاخية في دولة واحدة و إنشاء جيش نظامى . و على الرغم من أنه قد خاض الكثير من الحروب فإن تعزيز خانته و نفوذها في آسيا الوسطى لم يحصل عليه خان قاسم عن طريق الحروب بل عن طريق سياسته الماهرة و المتحفظة و المتأنية . و مواصلا عمل والده قام ببطء و بثبات بضم شمال تركستان. و قبل مصرعه بقليل أمر محمد شيباني منع البدوالرحل من سهوب دشت و قبجاق الدخول إلى أسواق تركستان . و من يبيع لهم أى شىء فسيناله العقاب الذى يصل إلى الموت لذلك لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر .

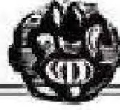
و الآن حان الوقت ....

***

كان يوم صاف و مشمس . و أصدر نسيم الخريف الرقيق حفيفا على العشب الأصفر. وقف خان قاسم محاطا بأبرز الفرسان الكازاخ من كل العشائر و الأجزاء فى رواق قصره فى سوزاك .

اليوم كان سلاح الفرسان المكون من ثلاثمائة ألف شخص و ثلثهم جيش نظامى فى انتظار إشارة الخان للتحرك إلى الأعداء الذين ظهروا على حدود الخانة الكازاخية فى الشرق و الجنوب متمثلين فى قوات الإمبراطور الصينى و الإيوروتيين و التيموريين وفى الغرب متمثلين فى قوات سلاطين القرم و نوجايلى و السلاطين الآخرين ...

استعرض خان قاسم ببصره بطريقة بطيئة القوات المصفوفة. و بدا أنه من أقصى السهوب



إلى أقصاها تجمدت وحدات لسلاح الفرسان الحديدية الجاهزة للتحرك أمام الخان و لمعت فى الشمس الصفوف المتساوية للرماح الفولاذية أما الدروع فكانت ملقاة وراء الظهور.

و فجأة كسرت فرقة صغيرة جميع القواعد و قد جاءت من مكان ما فى السهوب الزرقاء. كان على رأسها فارس ضخم يرتدى درعا معدنيا أسودا . و غطى غطاء الرأس وجهه إلا من فتحة صغيرة عند العين . عرف الخان الفارس على الفور و أضاءت الابتسامة وجهه .

الفارس أوراك ..

الفارس الأعور ...

و سرى الاسم المعروف بين القوات من اقصاها الى اقصاها . و قال خان قاسم « إذا أراد الفارس أوراك المشاركة فى الحملة فإن هذا فأل خير و سيلقى الأمر قبولا من الناس»

و افتتح الفارس أوراك العرض العسكري ، و على الرغم من أن فرقته لم تسر بجانبه فى تشكيل متناسق إلا إن خان قاسم و جميع الفرسان الواقفين معه و القادة العسكريين رفعوا أيديهم بتحية عسكرية .

و هرع خلفهم وحدات سلاح الفرسان النظامى. و حدق خان قاسم فى الفارس الصغير الذى يرتدى درعا فضيا كالمرأة و يمتطى صهوة جواد أبيض حليبي و يرأس وحدة مكونة من ألف شخص .

سأل الخان الفارس الذى يقف بجواره من هذا؟ ابتسم الفارس و قال :

- ألم ترى ابنكم حقناذار منذ مدة طويلة يا سيدى الخان ؟

لم ينطق خان قاسم بكلمة واحدة غير أنه قد لمع فى عينيه ضوء ضعيف لا يكاد يرى . و بدا أنه يتوقع المستقبل .

***

فى غضون ثمانين عاما خاض الخانات الكازاخ الحروب من أجل مدن شمال تركستان. لا و قد تمكن الفتى الذى كان يركب الفرس بالجوار و هو الخان القادم حقنازار من تحرير ولاية شمال تركستان بأكملها و نقل مقره إلى ياسى . و فى عهده سيحدث التقسيم النهائي للسهوب الكازاخية إلى ثلاثة أجزاء و توحيدها فى خانة واحدة مع القيرقيزين ...



همس خان قاسم و قال فليحفظك الله يا بنى و نظر هل سمع أحد تلك الكلمات التى خرجت رغما عنه .

و سار بجانبه فى هرولة آلاف الفرسان على الخيول الهائلة و ينتزعون بالأمر السيوف من غمدها لإلقاء التحية المناسبة أما السلطان قاسم فكان يفكر فى مصير السهوب الكازاخية. فكم رأت تلك السهوب وكم عانت من الصدمات خلال تاريخها الطويل .

و يبدو أنه لم يكن هناك غزاة على الأرض لم يمروا من خلالها إلا بالنار و السيف. ولكن الشعب كما العشب الذى يداس بالأقدام يتغلب على الصعوبات و تدب فيه الحياة من جديد. و طالما أن جذوره ممتدة في أرض وطنه و لم تنزع منه ، و لم تداس فإنه سيحيا مرارا و تكرارا .

حول قاسم خان رأسه إلى ميسرته الفارس أوناى .

سأله و هو يشير إلى الفرسان التى تطير بخيولها بجانبه ما هو الشىء الذى يشبهه هؤلاء الناس ؟ كانوا يخفضون الرماح و ينطلقون مثل العاصفة و اهتزت الأرض تحت أقدامهم من وقع مئات الآلاف من حوافر الخيل . إنهم يشبهون السيف المسحور ... أتذكر هذا السيف الذى هو أمتن من الماس ؟

قال الفارس أوناى كلمات من الأساطير القديمة و لمعت عينيه الذكية : من يقع السيف فى يديه فإنه ينتصر . و يتمثل السر فى القدرة على الاحتفاظ به و كذلك ضد من يستل هذا السيف الماسى من غمده ...

أومأ قاسم خان برأسه و قال :

- هذا صحيح ... إنه من الصعب بل من الصعب جدا القتال بسيف كهذا فى اليد... وسوف تضرب فى الحجر باستمرار حتى لو أصبح غير حاد . و لا تخرجه المرة تلو الأخرى من دم العدو لأنه سيقطع بصورة عمياء الأبرياء و المذنبين ... نعم ليس فى قدرة الجميع أن يستخدموا هذا السيف ... و لكن من يملكه بإخلاص يتصدى لأى عدو .

رقم الإيداع

2015 /21356